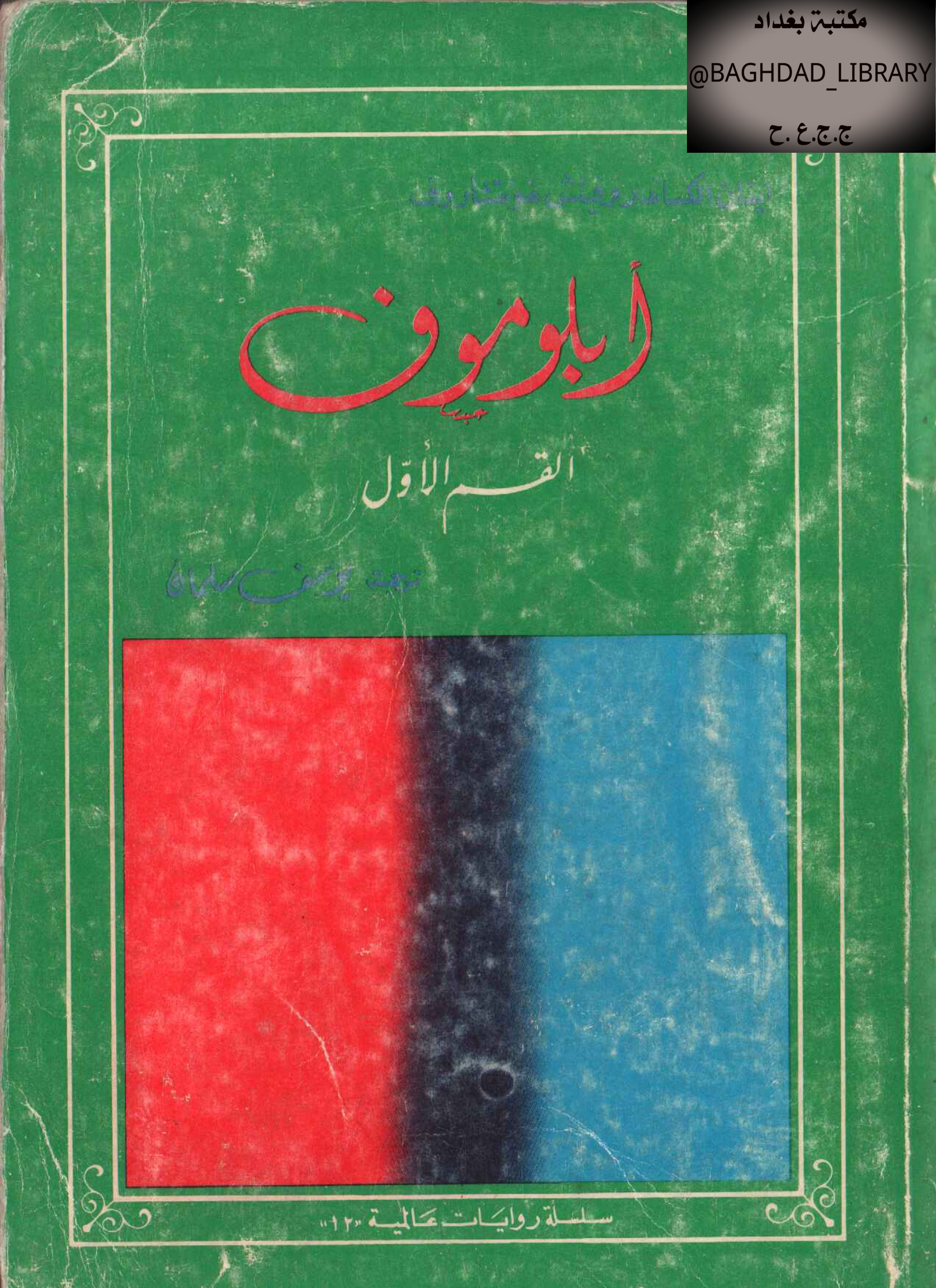
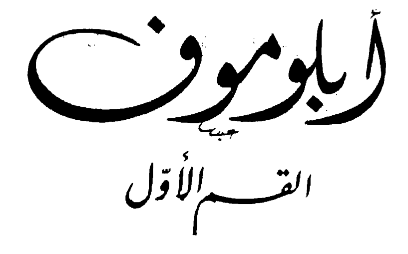
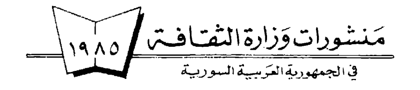


ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف
أبلوموف
القسم الأوّل
ترجمة يوسف سلمان
سلسلة روايات عالمية «١٢»

ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف



ترجمة يوسف سلمان



العنوان الأصلي للكتاب :

И. А. ГОНЧАРОВ

ОБЛОМОВ

РОМАН

В ЧЕТЫРЕХ ЧАСТЯХ

الجزء الأول

— ١ —

ذات صباح ، كان إيليا إيليتش أبلوموف راقداً على السرير في شقته الكائنة في شارع غوروخف ، في أحد المنازل الكبيرة ، الذي يمكن أن يشكل ساكنوه بلدة بمستوى قضاء .

كان رجلاً في الثلاثين أو الثانية والثلاثين من العمر ، متوسط القامة ، ذا مظهر لطيف ، العينان شهلاوان ، تغيب أية فكرة محددة فيهما ، وينتفي أي تركيز في ملامح الوجه . كانت الفكرة تهيم في وجهه كما يهيم طائر طليق ، فتلتمع في عينيه وتحط على شفتيه نصف المفتوحتين ، وتختفي في ثنايا جبينه ، حيث كانت تضيع بعد ذلك تماماً ، وعندها كان يضيء بخفوت نور رتيب من عدم الاهتمام والتواكل ، ثم ما يلبث التواكل أن ينتقل من وجهه إلى أوضاع جسده ، وحتى إلى طيات ردائه .

كانت نظرته تتعكر ، أحياناً ، بتعبير من التعب أو الضجر ، بيد أن

التعب والضجر لم يقدرا لحظة واحدة على أن يطردا من وجهه الوداعة ، التي كانت التعبير الأساسي والمسيطر ، ليس على وجهه فحسب ، بل وعلى روحه كلها ؛ أما روحه فكانت تتلألأ بشكل سافر وواضح ، في عينيه ، وابتسامته ، وفي كل حركة من رأسه ويديه . إن أية نظرة عابرة يلقيها شخص ، بارد قوي الملاحظة ، ولو بشكل سطحي ، على أبلوموف تدفعه إلى القول : « لا بد أنه إنسان طيب النفس ، بسيط ! » . وإذا ما نظر المرء إلى وجهه طويلاً ، بشكل أعمق وأكثر تعاطفاً ، لابتعد عنه مبتسماً ، وهو في غمرة تفكير عذب .

لم يكن لون وجه إيليا إيليتش وردياً ولا أسمر ولا شاحباً بشدة ، بل كان يبدو عليه عدم الاكتراث ، أو لربما بدا كذلك ، ليس لأن أبلوموف قد ترهل بسبب السنين : بل بسبب من قلة الحركة أو الهواء ، ولربما بسبب عدم كفاية الاثنين معاً . بوجه عام فإن جسده بمقتضى لون رقبته الباهت ، شديد البياض ، ويديه الصغيرتين المنتفختين وكتفيه اللينين ، كان يبدو مخنثاً جداً ، بالنسبة لرجل .

أما حركاته ، التي لا تخلو من الكياسة ، فإنها تكبح أيضاً من خلال الليونة والكسل ، حتى عندما يكون قلقاً . وإذا ما انبعثت من روحه سحابة من الغم وانتشرت على وجهه ، فإن نظرته تكفهر ، وتظهر التجاعيد على جبينه وتبتدىء لعبة الشكوك ، والأسى ، والخوف ، لكن القلق هذا نادراً ما ينعقد في فكرة محددة ، والأكثر ندرة أيضاً هو أن يتحول إلى عزيمة . فقلقه كله يعالج بآهة ، وينقطع بخمول ونعاس .

كم كان ثوب أبلوموف يلائم وجهه الساكن ، وجسده المخنث ! فرداؤه من قماش فارسي ، حيث كان رداء شرقياً حقيقياً ، لا وجود لأية علامة فيه تدل على أوروبا ، بدون أزرار ومخمل وخصر ، وكان واسعاً جداً لدرجة أن أبلوموف كان يستطيع أن يلتف به مرتين . أما أكمامه فكانت حسب الطراز الآسيوي الثابت ، فهي تزداد اتساعاً كلما ابتعدت عن الأصابع باتجاه الكتف . ومع أن هذا الرداء قد فقد بريقه الأولي ، وتغير لمعانه الأصلي الطبيعي في بعض الأماكن ، بلمعان آخر مكتسب ، فإنه ما يزال يحتفظ بزهو اللون الشرقي ومتانة نسيجه .

يملك هذا الرداء في عيني أبلوموف عدداً لا يحصى من المزايا ، التي لا تقدر بثمن : فهو ناعم ، مرن ، لا يشعر به الجسم ، ويمتثل لأبسط حركة له ، فهو كالعبد المطيع . وفي البيت كان أبلوموف دائماً ، بدون ربطة عنق ، وبدون صدرية ، لأنه كان يحب الرحابة والبحبوحة . فخفه كان كبيراً ، طرياً وواسعاً ، لدرجة أنه عندما ينزل ساقيه من السرير إلى الأرض ، كانتا تدخلان فيه بالضرورة فوراً ، دون أن يكلف نفسه مشقة النظر .

لم يكن الاستلقاء بالنسبة لإيليا إيليتش ضرورة ، كما هو الحال بالنسبة لمريض ، أو لإنسان يريد النوم ، ولا حالة طارئة ، كما هو الحال بالنسبة لمن أنهكه التعب ، ولا تلذذاً كما هو عليه الأمر بالنسبة لكسول : لقد كان هذا وضعه الطبيعي . وعندما يكون في البيت ، وهو تقريباً بشكل دائم فيه ، فإنه يستلقي طوال الوقت في غرفة واحدة

باستمرار ، في الغرفة التي وجدناه فيها ، فهي بالنسبة له غرفة نوم ، ومكتب وغرفة استقبال . كان يمتلك ثلاث غرف أخرى أيضاً ، لكنه نادراً ما كان يتردد إليها ، ولربما كان يفعل ذلك عندما كانت غرفته تُنظّف ، الأمر الذي لم يكن يحدث يومياً بالطبع . ففي تلك الغرف كان الأثاث مستوراً بأغطية ، والستائر مسدلة .

أما الغرفة ، التي كان إيليا إيليتيش مستلقياً فيها ، فكانت تبدو للوهلة الأولى ، بأنها مرتّبة بشكل رائع . ففيها مكتب من الخشب الأحمر ، وأريكتان منجدتان بقماش من الحرير موشى بطيور وثمار لا مثيل لها في الطبيعة . كما توجد فيها أيضاً ، ستائر حريرية وبضع لوحات ، وسجاجيد ، وأدوات برونزية ، وخزف صيني ووفرة من الأشياء الصغيرة الجميلة .

لكن عيناً مجربة لرجل ذي ذوق سليم ، كان يمكنها أن تقرأ من خلال نظرة سريعة على كل ما هو موجود هنا ، مجرد الرغبة فقط في مراعاة المظهر الخارجي للّياقة الضرورية ، كيفما اتفق ، والتخلص من هذا العبء ليس إلا . فقد كان أبلوموف يهتم بذلك فقط ، عندما يتم ترتيب غرفته . إن ذوقاً مرهفاً لا يمكن أن يرتاح لهذه الكراسي الثقيلة ، غير الظريفة ، المصنوعة من الخشب الأحمر ، ولا لتلك الطاولات القابلة للسقوط . فقد سقط ظهر إحدى الأرائك إلى الأسفل ، بينما انسلخ الخشب الملصوق ، في بعض الأماكن .

أما اللوحات والآنية والأشياء الصغيرة ، فتملك نفس الطابع تماماً .

ومع ذلك ، كان المالك نفسه ينظر إلى ترتيب غرفته بكثير من البرود والشرود وكأن عينيه تقولان : « من جلب هذا كله ووضعه هنا ؟ » . ومن خلال نظرة أبلوموف الباردة هذه لكل ما يملكه ، ولربما من خلال نظرة خادمه زاخار ، المتسمة ببرود أكثر ، فإن منظر الحجرة ، إذا ما تفحصه المرء باهتمام أكبر ، كان يبعث على الدهشة ، لشدة الاهمال وقلة الاكتراث السائد فيها .

وعلى الجدران ، بالقرب من اللوحات كان يلتصق نسيج العنكبوت على شكل حبل تزييني من الأزهار والأشرطة ، مشبع بالغبار ، أما المرايا فبدلاً من أن تعكس الأشياء ، أصبحت تصلح أكثر ما يكون لاستخدامها بمثابة ألواح ، يكتب على الغبار الذي يكسوها ، أية ملاحظات على سبيل الذكرى . أما السجاجيد فكانت مكسوة بالبقع . وعلى الأريكة منشفة منسية ، بينما يوجد على الطاولة ، بشكل دائم ، صحن لم يرفع منذ عشاء البارحة ، مع مملحة وعظم مجرّد من اللحم وفتات خبز مبعثر .

فلولا الصحن ، والسيجارة الملتصقة بشكل دائم بالفراش الذي ينام عليه صاحب البيت نفسه ، لاعتقد المرء ، أن ما من أحد يعيش هنا ، — لأن كل شيء قد علاه الغبار وبهت لونه ، أي أنه قد انعدم ، بوجه عام أي أثر حي للوجود البشري .

وعلى الرفوف ، كان يوجد في الحقيقة كتابان أو ثلاثة كتب مفتوحة ، وجريدة مرمية وعلى المكتب محبرة وريش ، أما الصفحات التي كانت الكتب مفتوحة عليها ، فقد كساها الغبار واصفرت ،

لأن الكتب ، على ما يبدو ، قد رميت منذ زمن بعيد ، فعدد الجريدة كان يعود إلى السنة الماضية ، أما المحبرة ، فإذا ما غمس المرء الريشة فيها ، فإنّ ذبابة خائفة ، ستنطلق منها بالتأكيد ، وهي تطلق طنيناً قوياً .

استيقظ إيليا إيليتيش ، على غير العادة ، باكراً جداً ، في الثامنة صباحاً . كان مشغولاً جداً بأمرٍ ما . وكانت علامات الخوف والضجر والأسى تبرز بالتناوب على وجهه . كان واضحاً ، أن ثمة صراعاً داخلياً يستحوذ عليه ، وأن ذهنه لم يسعفه بشيء بعد .

حقيقة الأمر ، هي أن أبلوموف كان قد تلقّى في الليلة السابقة من وكيله في القرية رسالة ذات مضمون مزعج . أما المكروهات ، التي يمكن أن يكتب عنها وكيل القرية فمعروفة : سوء المحصول ، الضرائب المتأخرة المستحقة ، نقصان الدخل . . . الخ

ومع أن وكيله في القرية قد كتب إليه في السنة الفائتة والتي قبلها ، نفس هذا النوع من الرسائل تماماً ، فإن الاثر الذي تركته الرسالة الأخيرة ، كان قوياً جداً ، لدرجة أنها بدت كما لو أنها مفاجأة كريهة .

هل من السهل مواجهة أمور كهذه ؟ إذ أن ضرورةً برزت بالتفكير في الطرق الكفيلة باتخاذ إجراءات ما . بالمناسبة ، يجب أن نقول الحق فيما يتعلق باهتمام إيليا إيليتيش بشؤونه الخاصة . فمنذ رسالة وكيل القرية الأولى المزعجة ، التي استلمها منذ بضع سنوات مضت ،

بدأت تتبلور في ذهنه خطة لتغييرات وتحسينات مختلفة ، تتعلق بطريقة إدارة أملاكه .

بمقتضى هذه الخطة ، كان يتعين إدخال إجراءات إقتصادية وبوليسية جديدة متنوعه . إضافة لإجراءات أخرى . بيد أن الخطة لم تكن قد تبلورت تماماً بعد ، لكن رسائل وكيل القرية المقيتة كانت تتكرر سنوياً ، وتحثه على النشاط وبالتالي فقد كانت تعكر هدوءه وصفوه ؛ أما أبلوموف فقد كان مقتنعاً بضرورة اتخاذ أمرٍ ما حاسم قبل إتمام خطته .

ومنذ أن استيقظ ، اعتزم أبلوموف على أنْ ينهض حالاً ، ويغسل وجهه ، ويفكر جيداً بعد تناول الشاي ، ليتدبر أمراً ما ، ويدوّن ، ويقبل على العمل كما ينبغي .

انقضت نصف ساعة وأبلوموف ما يزال مستلقياً ، تعذّبه هذه النية ، لكنه ارتأى فيما بعد ، أنه سيفلح في إنجاز ذلك كله ، بعد الشاي ، الذي يتناوله كالعادة في الفراش ، لا سيما انه ما من شيء يمنع الإنسان من التفكير ، وهو في وضعية الإستلقاء .

ذلك ما فعله . فقد رفع نفسه قليلاً في الفراش بعد أن تناول الشاي ، وكاد أن ينهض ، وأخذ يتطلع إلى حذائه ، حتى أنه بدأ يُنزِل إحدى ساقيه من الفراش ، لكنه رفعها على الفور .

دقت الساعة التاسعة والنصف ، عندها اختلج إيليا إيليتيش .

ــ ماذا جرى لي ــ قال أبلوموف بصوت مسموع مشوب بالأسى ،

ـ يجب أن يستيقظ ضميري : لقد آن وقت العمل ، فلتتملكني الإرادة ، و . . . .

ـ زاخار ـ صرخ أبلوموف .

انطلق في البداية من الغرفة ، التي يفصلها عن حجرة إيليا إيليتيش ممشى صغير فقط ، صوت يشبه هرير كلب حراسة ، تلاه وقع أقدام واثبة من مكان ما . كان ذلك زاخار ، الذي قفز من مضجعه ، حيث يمضي فيه عادة وقته وهو جالس يغط في نومه .

دخل الغرفة رجل كهل يرتدي سترة رمادية ، ذات شق تحت الإبط ، يتدلى منه جزء من القميص ، وتحت السترة صدرية رمادية أيضاً ذات أزرار نحاسية ، له جمجمة جرداء كالكعب ، يملك فودين ضخمين كبيرين كثيفين أصهبين ، يكوّن كل منهما ثلاث لحى .

لم يحاول زاخار أن يغير الهيئة ، التي منحها الله له ، ولا الثوب الذي كان يرتديه أثناء وجوده في القرية . فثوبه خيط وفق طراز جلبه من القرية . كانت سترته وصدريته الرماديتان تعجبانه ، لأنه كان يرى في هذا الزي شبه الرسمي ، ذكرى بعيدة للزي الخاص بالخدم ، الذي كان يرتديه في وقت ما أثناء تردده إلى الكنيسه ، بصحبة أسياده الذين قضوا ؛ أما زي الخدم هذا ، فقد كان الصورة الوحيدة ، التي بقيت في ذاكرته عن فضائل آل أبلوموف .

لم يكن هنالك شيء آخر غير هذا ، يذكّر العجوز بنمط الحياة الأرستقراطية في الريف النائي . فأسياده السابقون ماتوا ، بينما بقيت

صورهم في البيت ، فهي على الأرجح ، مرمية في مكانٍ ما في العلية ، أما الحكايات عن نمط الحياة القديم وأهمية الأسرة ، فقد اختفت تماماً ، أو أنها ما تزال تعيش في ذاكرة القليل من الناس الشيوخ فقط ، الذين بقوا في القرية . بسبب ذلك كله ، كانت السترة الرمادية غالية على قلب زاخار : زد على ذلك ، أنه كان يجد فيها وفي بعض الأمارات الباقية في وجه وتصرفات سيده ، ما يذكره بأسياده القدامى ، كما كان يجد أيضاً في نزوات أبلوموف ، رغم تذمره منها في السر والعلن ، ما يدفعه لأنه يحترمها في قرارة نفسه ، ذلك أنه وجد فيها تعبيراً عن الإرادة الأرستقراطية وحق السيد ، كما رأى فيها تلميحات شاحبة إلى العظمة ، التي فات زمانها .

فلولا هذه النزوات لما استطاع أن يشعر مطلقاً بسلطة السيد عليه ، ولظل كل شيء عاجزاً عن أن يعيد اليه ذكريات شبابه ، وذكريات القرية ، التي غادرها منذ زمن بعيد بصحبة سيده ، ولما استطاع أن يستعيد الحكايات عن ذلك البيت العريق القديم ، عن ذلك السفر الوحيد ، الحكايات التي كان ينسجها الخدم والجدات والأمهات ، والتي كانت تنتقل من جيل إلى جيل .

كان بيت آل أبلوموف ، في وقت من الأوقات ، غنياً ، ذائع الصيت في منطقته ، لكنه أصبح بعد ذلك ، والله وحده يعرف السبب ، فقيراً ، عديم القيمة ، ثم ضاع أخيراً وتلاشت أهميته وسط بيوت النبلاء غير القديمة . كان خدم البيت فقط ، الذين كساهم الشيب ،

يحفظون ذكرى طيبة صادقة عما مضى ، ينقلها كل منهم للآخر ، ويحرصون عليها حرصهم على المقدسات .

ذلكم هو السبب ، الذي أحب زاخار من أجله سترته الرمادية لهذه الدرجة . ولربما حرص على فوديه أيضاً ، لأنه شاهد في طفولته كثيراً من الخدم الشيوخ ، الذين كانوا يحرصون على هذه الزينة الأرستقراطية القديمة .

لم يلاحظ ايليا إيليتيش ، المستغرق في التفكير ، زاخار ، رغم مضيّ كثير من الوقت . كان زاخار يقف أمامه صامتاً ، ثم سعل أخيراً .

— ما بك ؟ — سأل إيليا إيليتيش

— ألم تنادوني ؟

— ناديتك ؟ لا أذكر لماذا ناديتك ! أجاب أبلوموف وهو يتمطى . اذهب إلى مضجعك ريثما أتذكر .

انصرف زاخار ، بينما استمر إيليا إيليتيش في استلقائه وهو يفكر بالرسالة اللعينة .

انقضى ربع ساعة من الزمن .

كفى استلقاءً ! — قال أبلوموف ، — يجب أن أنهض . . . على أية حال ، سأقرأ رسالة وكيل القرية باهتمام مرة أخرى ، ثم أنهض بعدها . — زاخار !

تكررت الوثبة ذاتها ، من جديد ، أما الزمجرة فكانت أكثر شدّة . دخل زاخار ، أما أبلوموف فقد استغرق في التفكير من جديد . وقف

زاخار دقيقتين وهو ينظر خلسة وبغير عطف إلى سيده ، ثم مضى أخيراً باتجاه الباب .

— إلى أين ذاهب أنت ؟ — سأل أبلوموف فجأة .

— انك لا تقول شيئاً ياسيدي ، فلماذا الوقوف هنا عبثاً ؟ — قال زاخار بصوت مبحوح ، لأنه فقد صوته الطبيعي كما يقول ، عندما كان يذهب مع سيده العجوز في رحلات الصيد ، حيث كان الهواء القوي ينفخ في حنجرته وهو يرافق كلاب الصيد .

كان يقف وسط الغرفة في نصف التفاتة ، وهو ينظر طوال الوقت خلسة إلى أبلوموف .

— هل تيبست ساقاك بحيث لا تستطيع الوقوف ؟ إنني مشغول كما ترى ، فعليك أن تنتظر ! أمّا اكتفيت من النوم هناك ؟ ابحثْ عن الرسالة ، التي أرسلها البارحة وكيل القرية . أين وضعتها ؟

— أية رسالة ؟ فأنا لم أر أيّ رسالة . — قال زاخار .

— أنت الذي استلمتها من ساعي البريد : يا لك من قذر !

— أنت الذي وضعتها يا سيدي ، فمن أين لي أن أعرف مكانها ؟ ، — قال زاخار وهو يدسّ يديه في الأوراق والأشياء المختلفة الأخرى الموجودة على الطاولة .

— إنك لا تعرف شيئاً أبداً . انظر هناك في السلة ! أو ربما تكون قد سقطت وراء الأريكة . هاهو ظهر الأريكة لم يُصلّح حتى الآن ،

لماذا لم تستدع النجار لإصلاحه ؟ فأنت الذي كسرته . إنك لا تفكر بشيء !

— أنا لم أكسره ، — أجاب زاخار ، — فقد انكسر من تلقاء ذاته ، فالأريكة عندنا منذ قرن : فلا بد أن تنكسر في وقت ما .

لم ير إيليا إيليتيش ضرورياً أن يبرهن العكس .

— هل وجدتها ؟

— ها قد وجدت رسائل هنا .

— ليست تلك .

— لا يوجد هناك غيرها . — قال زاخار .

— حسن ! ، اذهب ! — قال إيليا إيليتيش بنفاد صبر ، — سأنهض وسأبحث عنها بنفسي .

انصرف زاخار إلى مضجعه . لكنه ما ان استند بكلتا يديه على حافة مضجعه ، كي يقفز إليه ، حتى سمع صراخاً مستعجلاً : « زاخار ! زاخار ! »

— آه يا إلهي — همهم زاخار ، وهو يتجه من جديد إلى حجرة أبلوموف . — ما هذا العذاب ؟ ليت الموت يأتي سريعاً لينقذني !

— ماذا تريد يا سيدي ؟ — قال زاخار وهو يمسك بإحدى يديه باب الحجرة ، ملقياً على أبلوموف نظرة جانبية ، كعلامة عدم استحسان ورضى ، فقد كان يرى سيده بعين نصف مغمضة ، بينما كان أبلوموف يرى فقط ، أحد فوديه ، الذي يخيل للمرء أنه سينطلق منه طائران أو ثلاثة طيور .

– اعطني منديلاً ، هيا بسرعة ! كان عليك أن تتصرف من تلقاء نفسك : ألا ترى ! – قال إيليا إيليتيش منبهاً بصرامة .

لم يبد زاخار أي نوع من الإمتعاض أو الإستغراب أثناء تلقيه أمر وتأنيب سيده ، إذ أنه كان يجد ، على الأرجح ، في هذا وذاك أمراً طبيعياً .

– من يعرف أين المنديل ؟ – دمدم زاخار وهو يطوف الغرفة متلمساً كل كرسي ، مع انه كان يمكن المرء أن يرى بسهولة عدم وجود أي شيء على الكراسي .

– إنك تضيّع كل شيء يا سيدي ! – لاحظ زاخار وهو يفتح الباب المفضي إلى صالة الاستقبال ليرى إنْ كان المنديل هناك .

– إلى أين ؟ ابحث هنا ! فلم أكن هناك منذ ثلاثة أيام . ابحث بسرعة ! – قال إيليا إيليتيش

– أين المنديل ؟ لا يوجد منديل ! – قال زاخار وهو يطلق يديه في الهواء متطلعاً إلى كل الزوايا . – ها هو ذا المنديل – قال زاخار بصوت غاضب مبحوح – انه تحتك يا سيدي ! ها هو طرفه يتدلى . إنك تسأل عنه ، بينما أنت مستلق عليه : ثم ابتعد زاخار دون أن ينتظر جواباً .

ارتبك أبلوموف قليلاً بسبب من عدم حسن تصرفه . لكنه سرعان ما اكتشف مبرراً يجعل زاخار مذنباً .

— يا إلهي ، ألا ترى الغبار والوسخ في كل مكان ! اذهب ، اذهب وانظر في زوايا الغرفة —

— إنك لا تفعل شيئاً !

— إذا كنت لا أفعل شيئاً . . . — قال زاخار بصوت مهان مجروح ، — فسأحاول ، ألا أكون متأسفاً على حياتي ! إنني أمسح الغبار ، وأنظف كل يوم تقريباً . . .

أشار زاخار إلى وسط أرض الغرفة ، وإلى الطاولة ، التي كان أبلوموف يتناول عليها طعام الغداء .

— ها هو ذا كل شيء منظف ومرتب كما في يوم العرس — قال زاخار — . . . ماذا تريد أكثر ؟

— ما هذا ؟ — قال إيليا إيليتيش مقاطعاً وهو يشير إلى الجدران والسقف — وهذا ؟ وهذا ؟ —مشيراً إلى منشفة مرمية منذ الليل الفائت ، وإلى صحن منسي على الطاولة منذ البارحة مع كسرات من الخبز .

. . أما هذا سأرفعه — قال زاخار بتسامح وهو يأخذ الصحن .

— لكن التقصير ليس في هذا فقط ! ألا ترى الغبار الذي يكسو الجدران ، وخيوط العنكبوت ؟ . .

قال أبلوموف وهو يشير إلى الجدران .

— سأنظف ذلك كله في الاسبوع المقدس : سأنظف الايقونة وأزيل خيوط العنكبوت . . .

— والكتب واللوحات لماذا لا تنظفها ؟ . .

— سأنظفها قبيل الميلاد ، وسأرتب عندئذ مع أنيسيا الخزانات كلها . كيف لي أن أرتبها الآن ؟ فأنت يا سيدي لا تبرح المنزل .

— انني أذهب ، أحياناً ، إلى المسرح ، وأقوم ببعض الزيارات : فلو أنك . . .

— الترتيب في الليل يا سيدي أمر مستحيل !

نظر أبلوموف إليه نظرة عتاب ثم هز رأسه وتنهد ، أما زاخار فقد نظر إلى النافذة بلا اكتراث ثم تنهد أيضاً . لقد بدا وكأن السيد النبيل أبلوموف يقول في قرارة نفسه : « انك أكثر أبلوموفية مني بالذات » ، بينما كان زاخار على وشك أن يسرّ لنفسه قائلاً : « إنك تكذب يا سيدي ! فأنت بارع فقط بالتفوه بكلمات مبهمة يرثى لها ، أما الغبار والعنكبوت فلا تقيم لهما وزناً » .

— ألا تدري ، بأن العثة تنتج من الغبار ؟ — قال إيليا إيليتيش ،— حتى انني أرى البق أحياناً ، على الجدار !

— يوجد عندي براغيث أيضاً ! — أجاب زاخار بلا اكتراث .

— وهل هذا أمر حسن ؟ هذا شيء شنيع !

انتشرت على وجه زاخار كله ضحكة ساخرة ، حتى أن الضحك استولى على حاجبيه وفوديه ، اللذين كانا يتحركان في كل الاتجاهات ، كما غطت بقعة حمراء وجهه كله ، وصلت حتى جبينه .

— ماذنبي إذا كان البق موجوداً في هذا العالم ؟ هل أنا المسؤول عن وجوده ؟ — قال زاخار بدهشة ساذجة — هل أنا الذي خلقته ؟

ـ كل هذا سببه عدم النظافة ، ـ قال أبلوموف مقاطعاً ـ إنك تكذب باستمرار ! .

ـ وعدم النظافة لم أبتكره أيضاً !

ـ الفئران تلعب عندك هناك في الليل ـ اني أسمعها وهي تركض.

ـ والفئران لم أخلقها . فهذه المخلوقات كالفئران والقطط والبق موجودة بكثرة في كل مكان .

ـ لماذا لايوجد العث والبق عند الآخرين ؟

ـ ارتسم على وجه زاخار تعبير من عدم الثقة ، او الأصح أن نقول ، يقين راسخ بأن هذا لايمكن أن يحدث .

ـ هذه المخلوقات متوفرة عندي بكثرة . ـ قال زاخار بعناد ، ـ إذا رأيت بقة لاتقترب منها .

ـ لكنه بدا وكأنه يقول في قرارة نفسه : « كيف يمكن للمرء أن ينام بدون بق ؟ » .

ـ كنّس ، أزل الاوساخ من زوايا الغرفة ـ فلن يبقى شيء عندها ـ قال أبلوموف واعظاً .

ـ إذا نظفت اليوم ، فسيتجمع غداً من جديد ـ قال زاخار .

ـ لن يتجمع ـ قال السيد مقاطعاً ـ لاينبغي أن يحدث ذلك .

ـ سيتجمع ـ إنني اعرف ذلك ـ قال الخادم مؤكداً .

ـ عندما يتجمع ، أزله ثانية .

ـ كيف ذلك ؟ كيف يمكن تنظيف زوايا الغرفة كل يوم ؟

ـ سأل زاخار . هل يمكن احتمال حياة كهذه ؟ أفضّل الموت على هذا !

ـ لماذا كل شيء نظيف عند الآخرين ؟ ـ قال أبلوموف معترضاً ـ انظر إلى الجهة المقابلة لمنزلنا ، إلى مدوزن الآلات الموسيقية ، يحلو للمرء النظر من شدة النظافة ، علماً أنه لايوجد هناك إلا فتاة واحدة .

ـ من أين للنفايات أن تتجمع عند الألمان ؟ ـ اعترض زاخار فجأة ـ الق نظرة على أسلوب حياتهم ياسيدي ! فالأسرة بكاملها تأكل عظماً واحداً طوال الأسبوع . السترة تنتقل من كتف الأب إلى كتف الإبن ، ثم تعود ثانية إلى الأب . الزوجة والبنات يرتدين ثياباً قصيرة : تضغط على الساقين كما على أنثى الأوز . . . فكيف يمكن للنفايات أن تتجمع ؟ إن مايحدث عندنا ، لاوجود له على الاطلاق بالنسبة اليهم ، فلا تبقى الثياب البالية عندهم سنوات في الخزانات ، ولايتجمع ركن بكامله من كسرات الخبز طيلة فصل الشتاء . . . فكسرات الخبز لاتُرْمَى عندهم ، ولاتذهب هدراً : يجففونها ويحمّصونها ، ثم يأكلونها مع البيرة !

حتى أن زاخار بصق وهو يحاكم حياة شحيحة كهذه .

ـ لاداعي إلى الكلام ! ـ اعترض إيليا إيليتيش ـ من الأفضل أن تنظف .

ـ أنت الذي تمنعني ياسيدي عن التنظيف ، فلا تفسح لي في المجال بوجودك الدائم هنا .

ـ انصرف ! هكذا اذن ، أنت ترى بأنني أعوقك عن العمل .

— طبعاً ، فأنت ياسيدي تجلس دائماً في البيت : كيف يمكنني أن أنظف وأنت موجود ؟ اترك البيت ليوم كامل ، وسترى كيف سأنظف .

— وجدت ماتبتكره — أن أخرج من البيت ! من الأفضل أن تنصرف إلى مضجعك .

— صحيح ماأقوله ياسيدي ! أصرّ زاخار — ليتك تغادر البيت ليوم واحد فقط ، كي أنظف مع أنيسيا كل شيء . لكننا لن نستطيع انجاز عمل كل شيء بمفردنا : يجب أن نأتي ببعض النسوة أيضاً لمساعدتنا ، كي نتمكن من غسل كل شيء .

— هه ! يالها من تدابير — نساء ! انصرف — ، قال إيليا إيليتيش.

لم يكن سعيداً ، لأنه نادى زاخار لإجراء مثل هذا الحوار . فقد نسي أبلوموف ، أنه كلما تناول هذا الموضوع الحساس ، برزت لديه الهموم والمشاغل .

انتابت أبلوموف رغبة قوية بأن يكون كل شيء نظيفاً ، لكنه كان يتمنى أن يحصل ذلك ، بطريقة غير ملحوظة ، سهلة ، دونما عناء ؛ بيد أن زاخار كان يدخل في مشاجرة بمجرد أن يُطلب منه إزالة الغبار وغسل أرض المنزل . . . الخ . فما ان يفتح الموضوع حتى يبدأ زاخار بالتأكيد على أن الأمر يتطلب جلبة كبيرة في البيت ، وهو

يدرك جيداً ، أن مجرد التفكير بذلك يجعل سيده في حالة من الرعب الشديد .

انصرف زاخار ، بينما استغرق أبلوموف في تأمله . وما هي إلا بضع دقائق ، حتّى دقت الساعة معلنة انقضاء نصف ساعة .

— ما هذا ؟ قالها أبلوموف برعب تقريباً — قريباً ستصبح الساعة الحادية عشرة ، وأنا لم أنهض بعد ، ولم أغسل وجهي حتّى الآن ! زاخار ، زاخار !

— آه يا إلهي ! — انطلقت هذه العبارة من غرفة الانتظار ، ثم تلتها الوثبة المعتادة .

— هل أعددت كل شيء لغسل وجهي ؟ — سأل أبلوموف .

— كل شيء جاهز منذ مدة طويلة ! — أجاب زاخار ، — لماذا لا تنهض يا سيدي ؟

— لماذا لم تقل بأن كل شيء جاهز ؟ لو قلت ؟ لكنت قد نهضت منذ مدة . اذهب ، فسأتبعك الآن . عليّ أن أعمل ، سأجلس للكتابة .

انصرف زاخار ، ثم عاد بعد دقيقة وهو يحمل دفتراً مكتوباً ملطخاً ، وإضمامة من الورق .

— ما دمت قد عزمت على الكتابة يا سيدي ، فلتتفضل بالمناسبة بتدقيق الحسابات : فعلينا نقود مستحقة .

— أية حسابات ؟ أية نقود ؟ — سأل إيليا إيليتيش بعدم ارتياح .

للحام ، لبائع الخضار ، للغسالة : فجميعهم يطلبون نقوداً .

— عندما تُذكَر النقود ، يأتي الهم ! همهم إيليا إيليتيش — لماذا لا تسدّد الحسابات على دفعات بدلاً من دفعة واحدة ؟

— كنت تطردني دائماً يا سيدي وأنت تقول : إلى الغد ، إلى الغد . . .

— والآن ، هل أصبح التأجيل إلى الغد ممنوعاً ؟

— كلا ! لكنهم أصبحوا يلحّون بالطلب كثيراً : لن يقبلوا أن يسلّفونا أكثر . الآن أول الشهر .

— آه — قالها أبلوموف بأسى — همٌ جديد ! لماذا تقف ؟ ضعها على الطاولة . سأنهض الآن ، فأغسل وجهي ثم أفكر بالأمر — هل أعددت كل شيء لغسل وجهي ؟

— كل شيء جاهز ! —

— الآن . . .

بدأ ابلوموف يرفع نفسه من الفراش وهو يتأوه .

— لقد نسيت أن أقول لك يا سيدي ، بأن صاحب الشقة أرسل يقول ، عندما كنت لا تزال نائماً ، بأننا يجب أن ننتقل إلى شقة أخرى من كل بد . . . فهو بحاجة إليها .

— ماذا ؟ إذا كان بحاجة ، فإننا سنرحل بالطبع ، لماذا تلح عليّ ؟ فأنت تقول هذا للمرة الثالثة لي .

— إنه يلحّ عليّ أيضاً .

— قل له بأننا سنرحل .

– يقول أنك وعدته بالرحيل منذ شهر ، وهو عازم على إخبار البوليس .

– فليخبر البوليس قال أبلوموف بحسم – سننتقل حالما يحل الدفء ، بعد ثلاثة أسابيع .

– بعد ثلاثة أسابيع ! وكيل أعماله يقول بأن العمال سيأتون بعد أسبوعين وسيهدمون كل شيء . . . « فهو يقول : ارحلوا غداً ، أو بعد غد . . . » .

– ايه ، ايه ، ايه ! إنه في غاية الاستعجال ! هكذا إذن ! إياك أن تتجرأ على فتح هذا الموضوع ثانية . لقد حذرتك مرة ، وها أنت تكرر الأمر من جديد . حذار !

– ماذا أفعل ؟ – أجاب زاخار .

– ماذا تفعل ؟ تصرّف ! ها هو ذا يتحاشى فتح الموضوع معي ! أجاب إيليا إيليتيش . – انه يسألني وأنا أتجاهل الأمر . لا تزعجني بعد الآن ، تصرف معه كما تريد ، شريطة ألا ننتقل .

– لكن كيف سأتدبر الأمر يا سيدي ؟ – بدأ زاخار حديثه ببحّة لينة – فالبيت ليس بيتي : لماذا لا ننتقل من بيت الغير اذا كانوا يطردوننا ؟ لو كان بيتي ، لفعلت ذلك بسرور كبير . . .

– لا بد أن هناك طريقة لاقناعهم . « فنحن نعيش هنا ، منذ زمن طويل ، وندفع إيجاراً جيداً » .

– نطق أخيراً .

– ماذا يريدون ؟

– ماذا ! لقد حزموا أمرهم : « يقولون : انتقلوا » . فهم يريدون أن يجعلوا من العيادة ومن شقتنا هذه ، شقة كبيرة . استعداداً لحفلة زفاف ابن صاحب المنزل .

– آه يا إلهي ! ما زال ثمة حمير يتزوجون !

ثم انقلب على ظهره .

– لو تكتب يا سيدي إلى صاحب البيت ، فلربما يوافق على إبقائك ؛ قد يأمر بهدم العيادة أولاً .

كان زاخار يشير بيده ، وهو يتكلم ، إلى مكانٍ ما باتجاه اليمين .

– حسن ، سأكتب حالما أنهض . . . اذهب إلى مضجعك ، أما أنا فسأفكر بالأمر . انك لا تحسن فعل شيء ؛ – أضاف أبلوموف – فها أنت تحوجني لأن أهتم بنفسي بهذه التفاهات .

انصرف زاخار ، بينما بدأ أبلوموف يفكر .

كان وضع أبلوموف صعباً ، فهو لا يعرف بماذا سيفكر : أيفكر برسالة وكيل القرية ، أم بالإنتقال إلى شقة جديدة ، أو بإجراء الحسابات؟ لقد ضاع في لجة المشاغل الحياتية تماماً ، وهو مستلق يتقلب من جنب لآخر . وبين الآونة والأخرى ، كانت تسمع صيحات متقطعة : « آه ، يا إلهي ، الحياة ، تهدّ الإنسان ، فهي تصيب في كل مكان » .

لا نعرف ، إنْ كان قد بقي طويلاً في حيرته هذه ، لكن صوت جرس رنّ في غرفة الإستقبال .

– ها هو زائر قد أتى ! قال أبلوموف ، وهو يتدثر بردائه – وأنا لم أنهض بعد . إنه لأمر مخزٍ حقاً ! من ذا الذي جاء باكراً هكذا ؟

ثم أخذ يتطلع إلى الباب بفضول ، وهو ما يزال مستلقياً .

– ٢ –

دخل شاب في الخامسة والعشرين من العمر ، يتألق عافيةً ، وجنتاه وعيناه وشفتاه تضحك كلها . حتى ان الحسد كان ينظر إليه .

كان مصفوف الشعر ، مهندماً بطريقة لا عيب فيها ، كان يبهر بنضارة وجهه وبياض ملابسه وبقفازاته وبزّته . على صدريته سلسلة أنيقة ، يتدلى منها العديد من الدوائر المعدنية الصغيرة . أخرج من جيبه منديلاً من قماش الباتيستا ، مضمّخاً بروائح الشرق العطرية ، ثم مسح به بلا اكتراث ، وجهه وقبعته اللماعة ، وحذاءه اللماع .

– مرحباً يا فولكوف – قال إيليا إيليتيش .

– مرحباً يا أبلوموف – قال السيد المتألق ، وهو يقترب منه .

– لا تقترب ، لا تقترب : فأنت قادم من البرد !

– يا لك من شخص منعّم مدلّل ! – قال فولكوف ، وهو ينظر إلى مكانٍ ما يضع عليه قبعته . لكنه ما ان رأى الغبار يكسو كل مكان حتى صرف النظر عن ذلك ، ثم فتح طرفي بزّته ليجلس ، لكنه ما ان نظر إلى الأريكة بإمعان ، حتى ظل واقفاً .

ـــ لم تستيقظ بعد ! ما هذا الذي ترتديه ؟ لقد أقلع الناس منذ زمن بعيد عن ارتداء مثل هذه الأشياء ، ـــ قال ذلك كله بطريقة أخجلت أبلوموف .

ـــ هذا رداء ـــ قال أبلوموف ، وهو يتدثر ، بتنعّم ، بطرفي ردائه الواسعين .

ـــ كيف صحتك ؟

ـــ (متثائباً) تسأل عن الصحة ! سيئة ! الإحتقان يعذّبني . وأنت كيف أحوالك ؟

ـــ أنا ؟ لا بأس : معافى ومسرور ـــ مسرور جداً ! ـــ أضاف الشاب بحرارة .

ـــ من أين قادم أنت في هذا الوقت المبكر ؟

ـــ من عند الخياط . أنظر ، أليست البزّة جميلة ؟ قال وهو يدور أمام أبلوموف .

ـــ ممتازة ! خيطت بذوق رائع ـــ قال إيليا إيليتيش ، لكن لماذا هي واسعة إلى هذا الحد من الخلف ؟

ـــ لأنها خصّيصاً لركوب الخيل .

هكذا ! وهل تركب الخيل ؟

ـــ طبعاً ! طلبت تفصيل البدلة خصيصاً لهذا اليوم . فاليوم هو الأول من أيار : وأنا مسافر مع غوريونوف إلى كاترينغوف . آه !

ألا تعرف ؟ لقد رقّي ميشاغوريونوف في الرتبة ــ فنحن سنتسابق اليوم ــ أضاف فولكوف بابتهاج .

ــ هكذا ! .

ــ عنده حصان أشقر ــ تابع فولكوف ، فالجياد عندهم في الفوج من اللون الأشقر ، أما حصاني فغرابي اللون . كيف ستذهب إلى هناك : سيراً على الأقدام ، أم في العربة ؟

ــ لن أذهب .

ــ لن تذهب إلى كاترينغوف في الأول من أيار ! ماذا جرى لك يا إيليا إيليتيش ! ــ كان فولكوف يتحدث بدهشة ــ كلهم سيكونون هناك !

ــ (بتكاسل) كلهم ، كيف ! لا ، ليس كلهم !

ــ إيليا إيليتيش ، يا روحي ! اذهب ! ستكون صوفيا نيكولايفنا وليديا وحيدتين في العربة وقبالتهما في الداخل ، مقعد طويل . ليتك تكون بصحبتهنّ . . .

ــ لا ، لن أجلس على المقعد . ثم ماذا سأفعل هناك ؟

ــ حسن ، سيعطيك ميشا حصاناً آخر ، ألا تريد ؟

ــ الله يعلم ماذا يبتكر ! قال أبلوموف وكأنه يخاطب نفسه . هل أنت معجب بآل غوريونوف ؟

ــ آه ! قال فولكوف بحرقة ــ أأقول ؟

ــ قل !

ـ شريطة ألا تقول لأحد ـ كلمة شرف ؟ ـ تابع فولكوف وهو يجلس بالقرب منه على الأريكة .

ـ تفضل .

ـ انني . . . مغرم بليديا ـ قال فولكوف هامساً .

ـ برافو ! منذ زمن طويل ؟ إنها تبدو لطيفة جداً .

ـ (متنهداً بعمق) منذ ثلاثة أسابيع ! ـ أما ميشا فمغرم بداشنكا .

ـ من هي داشنكا ؟

ـ ما بك يا بلوموف ؟ من لا يعرف داشنكا ! المدينة كلها في غاية الإعجاب بها ، عندما ترقص ! سأكون بصحبته في الباليه اليوم . سيقدم لها باقة من الورد ، فهو يحتاج إلى التشجيع : إنه خجول ، حديث العهد بهذه الأمور . . . آه ! يجب أن نحصل على الكاميليا . . .

ـ كفى ، فلنتناول طعام الغداء معاً : أريد أن نتحدث . لقد حلت بي مصيبتان . . .

ـ لا أستطيع ، سأتناول الغداء عند الأمير يتومينيف ، وسيكون كل آل غوريونوف هناك وستكون هي أيضاً ، أقصد . . . ليدينكا ، ـ أضاف هامساً . ـ هل هجرت الأمير ؟ كم يحس المرء بالبهجة في منزله ! حقاً إنه لمنزل بهيج ! كم هو رائع تصميمه ! والعزبة ! أصبحت غارقة في الأزهار ! لقد ألحقت بها صالة مصممة على الطراز القوطي . يقال أن حفلات رقص ومعارض حية ستقام صيفاً هناك . ألن تتواجد ؟

.. لا ، على ما أعتقد لن أكون .

آه ، يا له من بيت رائع ! في الشتاء الحالي ، لم يكن يتواجد فيه أيام الأربعاء أقل من خمسين شخصاً ، وكان العدد يصل ، أحياناً ، حتى المائة . . .

.- يا إلهي ! يجب أن يكون الملل جهنّمياً هناك !

كيف يمكن ذلك ؟ عن أيّ ملل تتحدث ! فكلما ازداد العدد ، كلما ازدادت البهجة . كانت ليديا تتواجد هناك ، لكنني لم أكن ألحظها . وفجأة . . .

عبثاً أحاول أن أنساها

عبثاً أريد أن أتغلب على الشوق بالعقل

بدأ فولكوف يغنّي ، وبدون أن يتمالك نفسه ، جلس على الأريكة ، لكنه انتفض فجأة ، وأخذ ينفض الغبار عن ثيابه .

-- ما هذا الغبار الذي يكسو كل مكان في حجرتك !

-- كل هذا بسبب زاخار ! قال أبلوموف متشكّياً .

-- حان وقت ذهابي ! فالكاميليا في انتظارنا ، إذ ينبغي أن نعدّ باقة لميشا .إلى اللقاء .

-- تفضّل مساءً ، بعد الباليه ، لنتناول الشاي : أريدك أن تروي على مسامعي ، كيف كانت السهرة .

-- لا أستطيع ، فأنا على موعد مع آل موسينسكي : فهذا يوم هام . هيّا لنذهب سويّة .

سأقدمك لهم ، ألا تريد ؟

— لا ، ماذا أفعل هناك ؟

— عند آل موسينسكي ؟ عفوك يا صديقي ، نصف المدينة يتواجد هناك . ثم تقول : ماذا أفعل ؟ إنه بيت من الطراز ، الذي يجري الحديث فيه عن كل شيء . . .

— عن كل شيء ؛ هنا يكمن الإزعاج — قال أبلوموف .

— (مقاطعاً) حسن ، قم بزيارة آل ميزدروفي إذن فالحديث هناك يدور حول شيء واحد ، عن الفنون . فأنت تسمع هناك فقط : المدرسة الفينيسية ، بتهوفن ، باخ وليوناردو دافينتشي . . .

— (متثائباً) شيء واحد يتكرر باستمرار — يا له من أمر مضجر ! لا بد أنهم مُدّعون !

— إن إرضاؤك صعب للغاية ، فلا يعرف المرء ماذا تريد بيد أن البيوت ، التي أزورها كثيرة ! ففيها جميعاً أيام حافلة الآن : فآل سافينوف يقيمون حفلة الغداء أيام الخميس ، وآل ماكلاشين أيام الجمعة ، وآل فزيا نيكوف أيام الآحاد ، والأمير يتومينيف أيام الأربعاء . فالأيام كلها مشغولة عندي كما ترى ! ختم فولكوف حديثه وعيناه تبرقان .

— ألا يمنعك الكسل من التنقل يومياً ؟

— الكسل ، ماعلاقتي بالكسل ؟ قال فولكوف باستخفاف أقرأ في الصباح ، فالمرء يجب أن يكون على معرفة بكل شيء ، وأن

بطلع على كل جديد . فخدمتي الوظيفية والحمد لله ، لا تقتضي بأن أتواجد في مكان العمل . أتناول طعام الغداء مرتين ، فقط ، عند الجنرال أسبوعياً ، وأقوم بزيارة الأماكن ، التي لم أتواجد فيها منذ زمن طويل ؛ وهناك . . . في المسرح الروسي أو الفرنسي فنانة جديدة . ستبدأ عروض الأوبرا قريباً ، وسأشارك في حضور الحفلات . إنني مغرم الآن . . . الصيف يبتدىء ؛ ميشا ينتظر إجازة ؛ سنسافر إلى قريته لتغيير الجو ، حيث سنمضي هناك شهراً ؛ هناك حفلات الصيد . لديهم جيران رائعون يقيمون حفلات الرقص في كنف الطبيعة . سأتنزه مع ليديا في الغابة وفي الزورق ، وسنقطف الأزهار . . . آه ! — ثم أخذ يدور من شدة الفرح . — لقد آن وقت ذهابي . . . وداعاً ، قال فولكوف وهو يحاول عبثاً أن يشاهد نفسه من الأمام والخلف في المرآة المغبّرة .

— مهلاً — استوقفه أبلوموف — كنت أريد أن أتحدث معك عن بعض الأمور .

— عذراً ، ليس لديّ وقت ، — قال فولكوف مستعجلاً ، — في مرة أخرى ! — ألا ترغب في أكل المحار معي ؟ عندها سنتحدث . هيا ، ميشا يدعونا .

— لا ، الله معك ! —

— وداعاً .

انصرف ثم ما لبث أن عاد .

— هل شاهدت هذا ؟ سأل فولكوف ، وهو يعرض أمامه يده المسبوكة في قفّاز .

— ما هذا ؟ . سأل أبلوموف بارتباك .

— أشرطة تزيينية جديدة ! انظر كيف تشدّ اليد بشكل ممتاز : فهي توفر عناء الأزرار ومشقتها ، تشدّ الخيط — كل شيء جاهز . لقد وصلتني للتوّ من باريس . أترغب بأن أجلب لك ، على سبيل التجربة ، زوجاً منها ؟

— حسن . أجلب !

— انظر إلى هذا : أليس جميلاً ؟ — قال فولكوف وهو يبحث في كومة الأقراط عن أحدها ، — عن بطاقة زيارة ذات نهاية معقوفة .

— لا أفهم ما كتب عليها .

— الأمير م . ميشيل — قال فولكوف — أما الكنية تيومينيف فلم تكتب ؛ لقد قدّمها لي هدية ، عوضاً عن بيضة ، في عيد الفصح . وداعاً . عليّ أن أذهب إلى عشرة أماكن . — يا إلهي ما أكثر البهجة في هذا العالم !

ثم توارى .

« عشرة أماكن في يوم واحد — كم هو تعيس ! — تفكّر أبلوموف . — أية حياة هذه ! — ثم هزّ كتفيه بقوة — أين الإنسان هنا ؟ لماذا يتشتت ويتمزق ؟ ليس أمراً سيئاً ، بالطبع أن يزور المرء المسرح ، ويغرم بأية ليديا . . . فهي لطيفة ! كما أنه لأمر حسن أن يتنزه معها في القرية ويقطف الأزهار ؛ أما أن يذهب في يوم واحد إلى عشرة أماكن ، فتلك التعاسة ! » — اختتم أبلوموف كلامه وهو ينقلب على ظهره

مسروراً من انتفاء أية رغبات وأفكار فارغة من هذا النوع لديه ، ومغتبطاً لأنه لا يسافر إلى أي مكان ، بل يستلقي هنا محافظاً على كرامته الإنسانية وهدوئه .

صوت جرس جديد قطع عليه شريط تأملاته وأفكاره .

دخل المنزل زائر جديد .

كان سيداً في بزة خضراء داكنة ، ذات أزرار . عليها شعار رسمي ، حليق الذقن بنعومة . فوداه أسودان يحيطان بوجهه بانتظام ، في عينيه تعبير عن التعب ، لكنه في الوقت نفسه تعبير هادىء ينم عن الوعي ، عرك وجهه الزمن بشدة ، مع ابتسامة متأملة .

— مرحباً يا سودبينسكي — حيّاه أبلوموف ببشاشة .— ثم ألقى بكثير من العناء نظرة على زميله القديم في الخدمة ! لا تقترب ، لا تقترب ! فأنت قادم من البرد .

— مرحباً يا إيليا إيليتيش . عزمت على المجيء لعندك منذ زمن طويل — قال الزائر — لكنك تعرف كم هي جهنمية الخدمة عندنا ! إنني أحمل حقيبة بكاملها ، مليئة بمذكرات التبليغ ؛ وقد طلبت من ساعي البريد أن يعدو إلى هنا ، إذا ما سأل أحد عنّي هناك .

لا توجد دقيقة فراغ واحدة .

— ما تزال حتى الآن في الدوام ؟ لِمَ كل هذا التأخير ؟ كنت فيما مضى منذ الساعة العاشرة . . .

— كنت — نعم ! أما الآن فالأمر مختلف : في الساعة الثانية عشرة

أذهب إلى العمل – قالها مشدّداً على الكلمة الأخيرة .

ـــ آ ! لقد حزرت ! أصبحت رئيس قسم ! منذ زمن بعيد ؟

هزّ سودبينسكي رأسه بطريقة معبّرة .

– لكن ما أكثر المشاغل عندي – يا للفظاعة ! قال سودبينسكي . أعمل في البيت من الثامنة حتّى الثانية عشرة ، وفي المكتب من الثانية عشرة حتّى الخامسة ، حتّى أنني أعمل ليلاً . لقد هجرت الناس تماماً !

– رئيس قسم – هكذا إذن ! أهنئك ! لقد عملنا سويّة مع موظفي القسم . أعتقد أنك سترَقّى إلى مرتبة أعلى في السنة القادمة .

– إلى أين ! رعاك الله ! يجب أن أحصل هذه السنة على وسام ؛ لقد شغلت الآن مركزاً جديداً : سنتان ترقية بالتتالي ، أمر مستحيل . . .

– فلنتناول طعام الغداء ، ولنشرب نخب ترقيتك !

– لا ، سأتناول الغداء اليوم عند نائب المدير . عليّ أن أعدّ تقريراً ليوم الخميس – ياله من عمل جهنمي ! لا يجوز الإعتماد على الإرساليات من المقاطعة . يجب تدقيق الجداول بنفسي . إنّ فوما فاميتش شخص شكوك كثيراً : يريد تدقيق كل شيء بنفسه . سنجتمع اليوم معاً بعد الغداء .

– بعد الغداء ؟ سأل أبلوموف بارتياب .

– ماذا تظن ؟ سيكون أمراً جيداً ، إذا ما تيسر لي إنجاز العمل باكراً ، كي أتمكن من الذهاب إلى كاترينغوف . . . أتيت أسألك : ألا تذهب للنزهة ؟ إذا وافقت سأذهب . . .

ـ (متجهماً) صحتي ليست كما يجب . لا أستطيع ! هناك مشاغل كثيرة تنتظرني . . .لا ، لا أستطيع !

ـ آسف ! قال سود بينسكي . ـ انه يوم جميل . في مثل هذا اليوم فقط أستطيع أن أتنشق الهواء .

ـ أما من جديد عندكم ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ أجل يوجد شيء من هذا القبيل : في الرسائل ، ألغيت عبارة « خادمكم المطيع » ، يكتبون الآن « تقبلوا ثقتنا » ؛ لا يسمح بتوجيه الرسائل الرسمية على نسختين . ازداد عدد الطاولات عندنا ثلاث ، تمّ تعيين موظفين جدد لمهام خاصة . أوقف عمل لجنتنا . . . والكثير الكثير من الأمور الأخرى !

ـ كيف حال زملائنا السابقين ؟

ـ حتى الآن ، لا شيء جديد ، سافينكين فقد عمله !

ـ صحيح ؟ والمدير ؟ سأل أبلوموف بصوت مرتعش ـ ماذا فعل ؟ لا بدّ أنّ وضع سافنكين قد أصبح مزرياً بسبب ذاكرته السيئة .

ـ أصدر المدير أمراً بإيقاف مكافأته حتى ينجلي الأمر . فالمسألة هامة : انها تتعلق « بالحسابات » . (بصوت هامس) المدير يعتقد أنه ضيّعها عمداً . . . .

ـ هذا مستحيل !

ـ كلا ، كلا ! لم يضيّعها عمداً ـ أكدّ سود بينسكي برصانة ورعاية . ـ كل ما في الأمر ، هو أن سافينكين رجل طائش . يستخلص

أرقاماً في بعض الأحيان ، لا يعرف إلا الشيطان كيف توصّل إليها ، يخلط الوثائق كلها ويجعلها في حالة من الفوضى . لقد تعذبت معه ؛ لكنه لا يُلاحَظُ عليه شيء كهذا مطلقاً . . . انه لا يفعل هذا ، لا ، لا ! المسألة هي مسألة إهمال ، يمكن أن تكون قد ضاعت في مكان ما ؛ سيتمّ العثور عليها فيما بعد .

ــ هكذا إذن : أنت غارق في الأعمال ! ــ قال أبلوموف ،ــ أنت تعمل إذن .

ــ يا للفظاعة ، يا للفظاعة ! الخدمة مريحة طبعاً مع إنسان كفوما فاميتش : فهو لا يترك المرء بدون مكافآت ؛ حتى أولئك الذين لا يعملون شيئاً ، لا ينسى مكافآتهم . وبمجرد أن تنقضي المدة . يقوم بترفيع الموظف ؛ أما من لم تنته مدته ، اللازمة للترقية ،ــ فيمنحه نقوداً . . .

ــ كم تتقاضى ؟

ــ ألفاً ومئتي روبلاً كمرتب ، سبعمائة وخمسين روبلاً بدل طعام ، ستمائة روبلاً تعويض سكن ، تسعمائة روبلاً تعويضات مالية ، خمسمائة روبلاً تنقلات ، وألفاً مكافآت .

ــ (منتفضاً من فراشه) أف ! يا للشيطان ! هل صوتك جميل إلى هذا الحد ؟ إنك تتقاضى كما لو كنت مغنياً إيطالياً !

ــ انك لم تسمع شيئاً بعد ! ها هو ذا بيرسفيتف يتقاضى علاوات إضافية أكثر مني ، بينما حجم عمله أقل مني بكثير ، وهو لا يفقه

شيئاً . إنه لا يملك السمعة التي أتمتع بها طبعاً . فالناس يقدّرونني جداً — أضاف سود بتنسكي بتواضع ، وهو يغضّ بصره ، — لقد قال الوزير عنّي منذ عهد قريب ، بأنني « زينة الوزارة » .

— يا لك من بطل ! تعمل من الساعة الثامنة حتى الثانية عشرة ومن الثانية عشرة حتى الخامسة ، ثم تعمل في البيت أيضاً — آي ، آي !

ثم هزّ رسه .

— ماذا كنت سأفعل لو لم أكن في الخدمة الوظيفية ! — سأل سود بينسكي .

— ما أكثر الأعمال ! تقرأ ، تكتب — . — قال أبلوموف .

— لا أعمل الآن إلاّ القراءة والكتابة فقط .

— ليس هذا ما أعنيه . أعني أن تنشر . . .

— لا يمكن للجميع أن يصبحوا كتّاباً . فها أنت لا تكتب — قال سود بينسكي معترضاً .

— لديّ أملاك تغنيني عن ذلك . — قال أبلوموف متأوّهاً . — إنني أبتكر خطة جديدة لأملاكي ، وأدخل تحسينات جديدة : إني أتعذّب ... أما أنت فتقوم بعمل للغير ، بعمل ليس لك .

— ما العمل ! يجب أن أشتغل لأحصل على النقود . سأستريح في الصيف : وعد فومافاميتش أن يستحدث مأمورية من أجلي . . سأتقاضى تعويض سفر عن خمسة أحصنة ، ومئات الروبلات بمعدل ثلاث روبلات يومياً ، ومكافأة . . .

– انلك تحقق ما تريد ! قالها بحسد . ثم تنهّد واستغرق في التفكير .

– إنني بحاجة للنقود : فسأتزوج في الخريف ، – أضاف سود بينسكي .

– صحيح ؟ ممّن ؟ سأل أبلوموف باهتمام .

– أتكلم جدّياً ، سأتزوج موراشينا . ألا تذكر الفتاة ، التي كانت تعيش بالقرب مني في المنزل الريفي ؟ أعتقد أنك رأيتها ، إذ كنت تتردد لعندي في تلك الأثناء .

– كلا ، لا أذكرها ! هل هي ظريفة ؟

– أجل ، لطيفة . أترغب بأن نذهب ونتناول طعام الغذاء عندهم . . .

ارتبك أبلوموف .

– أجل . . . حسناً ، فقط . . .

– في الأسبوع القادم – قال سودبينسكي .

– أجل ، أجل ، في الأسبوع المقبل – ابتهج أبلوموف ، – فبدلتي ليست جاهزة بعد – هل سيكون زواجاً موّفقاً ؟

– أجل ، فوالدها موظف من الدرجة الرابعة ؛ دخله عشرة آلاف روبل ، الشقة على نفقة الدولة . خصص لنا نصف الشقة بالكامل ، أي دزينة من الغرف ، الأثاث على نفقة الدولة ، التدفئة والإنارة معقولة : بوجه عام ، الحياة معقولة . . .

ــ أجل ! بالتأكيد ! آه يا سودبينسكي ! ــ أضاف أبلوموف بشيء من الحسد بالطبع .

ــ أدعوك يا إيليا لعرسي بصفتك عرّاباً : ماذا تقول . . .

ــ طبعاً ، من كل بد ! وكوزنيتسوف ، وفاسيلييف وماخوف ، ماهي أخبارهم ؟

ــ كوزنيتسوف تزوج منذ زمن بعيد ، ماخوف شغل مكان عملي السابق ، وفاسيلييف نُقِل إلى بولونيا . أما أليبشكين فقد مُنِح لقب سعادة .

ــ يا له من فتى طيب ! ــ قال أبلوموف .

ــ إنه طيب ، طيب ؛ يستحق الاحترام .

ــ طيب جداً ، ذو طبيعة جيدة لينة ، متزن .

ــ رجل مفضال ــ أضاف سودبينسكي ــ فهو يداري الأمور ، يفعل كل شيء كما ينبغي ، يمشي على أرض صلبة ، فيثبّت أقدامه ثم يبادر . . . إنه يفعل كل ما يستطيع .

ــ يا له من شخص رائع ! فإذا ما أخطأ المرء بعمل من الأعمال ، وهذا ما يحدث بالطبع ، كأن يرتكب خطأ يتعارض مع القانون ، أو يغفل عن مراقبة ما يفعل بدقة ، فإنه يقابل ذلك كله ببساطة ، فيأمر شخصاً آخر بتصحيح الخطأ . يا له من شخص ممتاز ! ختم أبلوموف كلامه .

ــ أما سيميون سيميونيتش فهو شخص عنيد لا يرجى صلاحه ، ــ

قال سودبينسكي — : انه بارع فقط في ذرّ الرماد في العيون . إليك ما فعله منذ عهد قريب : جاءنا من المقاطعة إشعار بتشييد مبنى إضافي ، مخصّص للكلاب ، تابع لإدارتنا ، من أجل حماية ممتلكات الدولة من السرقات ؛ كان مهندسنا المعماري الماهر ، الواعي والشريف ، قد وضع كشفاً تقديرياً متهاوداً جداً ؛ وفجأة ، بدا ذلك لسيميون سيميو نيتش ، على أنه أمر مبالغ فيه : فطلب التدقيق بالمسألة ليعرف كلفة المبنى المخصّص للكلاب . فوجد أن الكلفة في جانبٍ ما من العملية ، أقل بثلاثين كوبيكاً — فرفع مذكرة بالأمر . . .

رنّ صوت الجرس .

— وداعاً . — قال الموظف — . لقد ثرثرت كثيراً ؛ قد تكون في حاجة إلى شيءٍ ما هناك . . .

— (يستوقفه أبلوموف) اجلس . بالمناسبة ، أريد أن أتبادل المشورة معك : فعندي أمران مشؤومان . . .

— لا ، لا ، الأفضل أن أعرّج عليك ثانية خلال بضعة أيام — قال سودبينسكي وهو ينصرف .

« اغرق في حبك يا صديقي العزيز ، — قال أبلوموف في قرارة نفسه ، وهو يودّعه بعينيه . — انك أعمى ، أصم وأبكم إزاء كل شيء آخر في هذا العالم . سيشق طريقه في الحياة ، وسيتحكّم بالأمور ، مع الزمن ، وسينال المراتب . . . هذا ما يسمى عندنا ، أيضاً الترقي في المنصب ! كم يحتاج الإنسان من العناء في سبيل هذا : عقله ، إرادته ،

شعوره وأحاسيسه – لِمَ ذلك كله ! بذخ ! سيعيش عمره ، دون أنْ يتحرك في أعماقه كثيراً . . . فهو يعمل من الثانية عشرة حتّى الخامسة في المكتب . ومن الثامنة حتّى الثانية عشرة في البيت – يا له من تعس ! » .

شعر أبلوموف بنوع من الارتياح الهادىء والسرور العميق ، لأنه يستطيع ملازمة سريره من التاسعة وحتّى الثالثة . ومن الثامنة وحتّى التاسعة . كما أحسَّ بالزهوّ ، لأنه ليس مضطراً لأن يعدّ تقريراً أو يكتب أوراقاً ، فهنالك متسع من الوقت لمشاعره وتخيلاته .

كان أبلوموف يتفلسف ، دون أن يلاحظ ، أن سيداً نحيفاً جداً . ذا شعر أسود ، وفودين نابتين ولحية صغيرة ، كان يقف بالقرب من سريره . كان ملبسه ينم عن عدم اكتراث متعمد .

– مرحباً إيليا إيليتيش .

– مرحباً يا بينكين ، لا تقترب ، لا تقترب : فأنت آت من البرد ؟

– آه منك ، كم أنت غريب الأطوار ! لا تزال كما كنت كسولاً ، مهملاً ، لا أمل في صلاحك !

– مهمل ! – قال أبلوموف – سأريك ، الآن ، رسالة من وكيل القرية : إنني مستغرق في التفكير منذ أن استلمتها ، وأنت تقول بأنني مهمل ! من أين أنت آت ؟

— من مخزن الكتب : ذهبت لأرى إن كانت المجلات قد صدرت .
هل قرأت مقالتي ؟

— كلا .

— سأرسلها لك ! اقرأها .

— (متثائباً بشدة) . عن أي شيء تتحدث ؟

— عن التجارة وتحرير النساء ، عن أيام نيسان الرائعة ، عن القانون الجديد ضد الحرائق . ألا تقرأ هذاكله ؟ انها تتعلق بحياتنا اليومية . إن أكثر ما أدافع عنه ، هو الإتجاه الواقعي في الأدب .

— هل لديك كثير من الأعمال ؟

— أجل ، لديّ مافيه الكفاية . مقالتان أسبوعياً في الجريدة ، ومن ثم تحليلات لانتاج الكتاب والروائيّين ، كما كتبت قصة صغيرة . . .

— عن أي شيء ؟

— عن حاكم مدينة يضرب سكان المدينة الحرفيين بقسوة .

— أجل ، إنه اتجاه واقعي في الحقيقة — قال أبلوموف .

أليس هذا صحيحاً ؟ أكد الأديب بسرور .— انني أورد فكرة ، أعرف أنها جريئة وجديدة .

كان أحد المسافرين شاهداً على أعمال الضرب هذه ، فتقدم بشكوى إلى حاكم المقاطعة أثناء اجتماعه به . وبالمناسبة ، فقد أمر حاكم المقاطعة ، الموظف الذاهب إلى هناك لمتابعة الموضوع ، بأن يتحقق من الأمر ويجمع المعلومات والأدلة عن سلوك وشخصية حاكم

المدينة . استدعى الموظف التجار الصغار والحرفيين ، بحجة أن يستوضح عن التجارة ، ثم أخذ يقوم بتحرياته حول الموضوع . ماذا كان حال الحرفيين والتجار ؟ راحوا يكيلون المديح لحاكم المدينة . عندها بدأ الموظف يستوضح حقيقة الأمر بطريقة جانبية ، فقيل له ، بأن الحرفيين والتجار أناس محتالون ، رهيبون ، يتاجرون بالمواد المتعفنة ، ويغشّون ويتلاعبون حتى بأموال الدولة ، فكلهم فاسدون ، وأن ضربهم عقاب عادل . . .

— ألا يعتبر ضرب حاكم المدينة لهم قدراً . كقدر التراجيديين القدامى ؟

— بالضبط — تلقفها بينكين — لديك الكثير من الحصافة يا إيليا إيليتيش ، كان عليك أن تكتب ! لقد تسنّى لي في غضون ذاك ، أن أبرز استبداد حاكم المدينة وفساد أخلاق عامة الشعب ، وسوء تنظيم تصرفات الموظفين والمرؤوسين ، وضرورة اتخاذ إجراءات صارمة لكن قانونية . . . أليست هذه الفكرة . . . جديدة إلى حدّ ما ؟

— أجل ، بالنسبة لي خاصّة ، إنني أقرأ قليلاً جداً . . .

— في الواقع ، لا أرى كتباً عندك — قال بينكين — لكنني أتوسل إليك أن تقرأ شيئاً واحداً ، ستنشر قصيدة ، يمكن وصفها بأنها رائعة : « حب مرتش لامرأة ساقطة » . لا أستطيع أن أقول لك اسم الشاعر : فالامر لا يزال سرّاً .

— ما مضمونها ؟

– يجري فيها تعرية آلية حركتنا الاجتماعية برمتها ، حيث يتم ذلك كله بأسلوب شاعري رائع . كما تعالج فيها العوامل الخفية المحرّكة ؛ فهي تتناول درجات السلم الاجتماعي كلها . وهنا ، كما في المحكمة ، يتناول المؤلف صاحب المقام الرفيع الضعيف والفاسد ، وحشداً كاملاً من المرتشين الذين يخدعونه ، وكل نماذج النساء الساقطات . . . من فرنسيات وألمانيات وفنلنديات . . . يتناولهم جميعاً من خلال تحليل انتقادي حيوي صادق مدهش . . . لقد سمعت بعض المقاطع منها – ياله من مؤلف عظيم ! ترى في قصيدته شيئاً من دانتي وشيئاً من شكسبير . . .

هنا نهض أبلوموف قليلاً وقال بشيء من الدهشة :

– لقد ذهبت بعيداً !

صمت بينكين ، فجأة ، بعد أن أدرك أنه ذهب بعيداً حقاً :

– ستقرأ وستحكم بنفسك – أضاف بدون حماس . . .

– كلا ، لن أقرأها يا بينكين .

– لماذا ؟ فهي ستحدث ضجّة ، انهم يتحدثون عن ذلك . . .

– دعهم وشأنهم ! ليس لدى البعض ما يفعله إلاّ الكلام فقط . فمثل هذه الموهبة موجودة .

– اقرأها ولو من باب الفضول .

– ما هي الأهمية في ذلك ؟ – قال أبلوموف – من أجل أي شيء يُكتبْ هذا : انهم يسلّون أنفسهم ، ليس إلاّ . . .

ــ يسلّون أنفسهم ! والصدق في التصوير ! اللوحات فيها حيّة تماماً . فالتاجر والموظف والضابط والحارس ، وكل الشخصيات الأخرى ، التي يتناولها المؤلف ، تبدو كما لو أنها تعيش معنا الآن .

ــ ما الدافع لهذا كله ، ألا يكتبون بدافع اللهو والتسلية ؟ أين الصدق فيما يكتبون ؟ ان ما يكتبونه لا يعبّر عن الحياة تعبيراً حقيقياً : فلا أجد فيه فهماً لها ، ولا إشفاقاً على الناس ، فلا أثر لما تسمّونه إنسانيّة فيما يكتبون . إنه حب الذات فقط . فهم يصورون النساء الساقطات واللصوص ، يصورون كيف يُلْقَى القبض عليهم في الشارع ويقادون إلى السجن . لا نعثر على أثر « للدموع الخفيّة » في قصصهم ، بل نجد السخرية الفظّة والشرّ الجلي .

ــ وهل هناك ضرورة لكتابة شيء آخر أيضاً ؟ لقد عبّرت بنفسك ، بشكل رائع ، بأنّ ما يكتبون ، يجسّد الحقد الشديد والقسوة المريرة على كل عيب ، إنه ضحك الازدراء والسخرية على الانسان الساقط . . فهذا كل ما هو ضروري !

ــ كلا ، كلا ، ليس هذا كل ما هو ضروري ! قال أبلوموف ، فجأة ، بحماس : ــ عندما يُصوَّر اللص ، والمرأة الساقطة والمتكبر الأحمق ، فإنه لمن الضروري ألاّ يُنسَى الإنسان هنا . أين هي النزعة الإنسانية ؟ تريد أن تكتب بعقلك فقط ! قال أبلوموف بطريقة تكاد تشبه الهمس ــ أتعتقد أن القلب غير ضروري للتعبير عن الفكرة ؟ انه يغني الفكرة بالحب . عليك أن تمدّ يدك إلى الإنسان الساقط لتنقذه ،

ابك عليه بحرارة إذا كان يهلك ، بدلاً من أن تسخر منه . عليك أن تمنحه الحب ، تتذكّر فيه نفسك ، وتتوجّه إليه كما لو انك تتوجه إلى نفسك . عندها سأقرأ لكم وسأحني رأسي أمامكم . . قال أبلوموف ، وهو يستلقي بهدوء ، من جديد ، على السرير . انهم يصوّرون اللص والمرأة الساقطة ، أما الإنسان فينسونه تماماً ، إنهم لا يعرفون أن يصوروه . أين الفن ، وأين هي الصور الشاعرية التي وجدتها ؟ افضحوا الفساد والرذيلة ، لكن لا تسمّوا ذلك شعراً .

— ماذا ، أتريد بأنْ نصوّر الورود والبلابل ، والصباح الجليدي ، في الوقت الذي يغلي فيه ويتحرك كل شيء من حولنا ؟ إنّ ما نحن بحاجة إليه هو فيزيولوجيا المجتمع عارية لوحدها ؛ مالنا والأغاني الآن . . .

— الإنسان ، قدّموا لنا الإنسان ! — قال أبلوموف — أحبّوه . . .

— أنحبّ المرابي والمنافق والسارق والموظف الأبله ؟ مابك ؟ واضح انك لا تعمل في حقل الأدب ! — قال بينكين مهتاجاً — كلا ، يجب أن نعاقبهم ونلفظهم من الوسط المدني ومن المجتمع . . .

— تلفظهم من الوسط المدني ! بدأ أبلوموف حديثه بإلهام ، وهو يقف أمام بينكين . — هذا يعني أن ننسى وجود بداية خيّرة في هذا العرق الطالح ؛ نلفظهم ! كيف تلفظونهم من الوسط الإنساني ، من محيط الطبيعة ، من الرحمة الإلهية ؟ — قال أبلوموف وهو يصرخ تقريباً ، وعيناه متقدتان .

— لقد ذهبت بعيداً ! قال بينكين بدوره ، بدهشة .

لاحظ أبلوموف ، أنه ذهب بعيداً . فصمت فجأة ، ووقف هنيهة ، ثم تثاءب ، وأخذ بعدها يتمدد ببطء على السرير .

استغرق الإثنان في الصمت .

— ماذا تقرأ ؟ — سأل بينكين .

— أنا . . . أكثر ما أقرأ عن الاسفار والرحلات .

ران الصمت من جديد

— هل ستقرأ القصيدة عندما تنشر ؟ سأل بينكين . . . يمكن أن أجلبها لك . أعطى أبلوموف علامة نفي برأسه .

— أ أرسل لك روايتي ؟

هزّ أبلوموف رأسه مبدياً علامة الموافقة .

— آن وقت ذهابي إلى المطبعة ! — قال بينكين — أتعرف لماذا أتيت لعندك ، ؟ كنت أريد أن أقترح عليك الذهاب إلى كاترينغوف ، فلديّ عربة . عليّ أن أكتب غداً مقالة عن النزهة : ليتنا نراقب معاً ما سيحدث هناك ، فستساعدني كثيراً ، اذ أنك ستقول لي ما لم ألاحظه ؛ سيكون الأمر أكثر بهجة . هيا فلنذهب . . .

— كلا ، صحتي لا تسمح لي — قال أبلوموف متجهماً ، ثم تدثّر بالبطانية — انني أخشى الرطوبة فالجو ما زال رطباً . ليتك تأتي اليوم لنتناول طعام الغداء معاً : أريد أن نتحدث . . فقد حلّت بي مصيبتان . . .

— كلا ، فهيئة التحرير كلها اليوم في سان جورج ، وسننطلق من هناك في نزهة . وفي المساء سأجلس للكتابة ، إذ أنني سأوافي المطبعة بما سأكون قد كتبته ، بأسرع ما يمكن .

— إلى اللقاء يا بينكين .

« يكتب في المساء — تفكّر أبلوموف — ، متى ينام إذن ؟ ما أسوأ هذه الحياة ! انها في غاية السوء ، حتى ولو كان دخله خمسة آلاف روبل في السنة ! كيف يمكن للمرء أن يكتب طوال الوقت ، فيهدر فكره وروحه على أشياء تافهة ، ويغيّر قناعاته ، ويتاجر بعقله ومخيلته ، ويقسر طبيعته ، ويضطرب ويتحرّق ، ولا يعرف طعم الهدوء ، ثم يذهب بعد ذلك كله إلى هنا وهناك . . . أن يكتب المرء بشكل دائم ، معناه أن يصبح كالدولاب ، كالآلة : فهو يكتب غداً وبعد غد ؛ العيد آت ، والصيف قادم ، ومع ذلك يكتب ، كيف يمكن ذلك ؟ متى سيتوقف عن الكتابة ويستريح ؟ ياله من تعس ! » .

أدار رأسه نحو الطاولة كان كل شيء على حاله ، فالحبر قد جف ، والريشة غير موجودة ، فشعر أبلوموف بالارتياح والسرور ، لأنه يستلقي كالطفل الرضيع ، لا يشغله شاغل فهو لا يتوزع بين أعمال كثيرة ، ولا يبيع شيئاً . . .

« ورسالة وكيل القرية ، والشقة ؟ » تذكّر أبلوموف ، فجأة ، واستغرق في تأمله .

لكن الجرس رنّ من جديد .

ــ أي حفل استقبال عندي اليوم ؟ ــ قال أبلوموف وهو ينتظر الزائر الجديد .

دخل رجل يصعب تحديد عمره . سحنته غير محدودة الملامح ، في مرحلة من العمر يصعب فيها تحديد السنوات التي عاشها ؛ ليس وسيماً ولا قبيحاً ، قامته ليست طويلة ولا قصيرة ، لا أشقر ولا اسمر . لم تمنحه الطبيعة اية سمة بارزة ملحوظة ، لا سيئة ولا جيدة . كثيرون كانوا يسمّونه إيفان إيفانيتش ، والبعض ــ إيفان فاسيلييتش ، وآخرون ــ إيفان ميخايليتش .

كنيته أيضاً ، كانت تسمى بأشكال مختلفة : البعض يقول إيفانوف ، والبعض الآخر فاسيلييف أو أندرييف ، بينما كان يعتقد فريق ثالث ، بأنها ألكسييف . فأي شخص يراه للمرّة الأولى ، لا بد ان ينسى اسمه على الفور ، وكذلك وجهه ، كما لا يمكن لأيّ امرىء أن يلاحظ في حديثه شيئاً يسترعي الانتباه . وجوده لا يعطي المجتمع أيّ شيء بتاتاً ، وكذلك غيابه لا يسلب منه شيئاً . لا يعثر المرء على أية مواهب أو ظرافة أو سمات خاصة أخرى ، لا في جسمه ولا في ذهنه .

ربما كان أقصى ما يستطيع عمله ، هو أن يروي ما شاهده وسمعه ، ويشغل الآخرين بهذه الموهبة ، لكنه لم يسافر إلى أيّ مكان : فقد ولد في بطرسبورغ ولم يغادرها مطلقاً ؛ وبالتالي ، فإن ما شاهده وسمعه ، يعرفه الآخرون أيضاً .

هل نعطف على إنسان كهذا ؟ هل يحبّ ويكره ويتألّم ؟ يبدو ،

انه يحب ويكره ويتألم ، لأنّ ما من شخص يمكن أنْ يتجرّد من ذلك كله . لكنه يتحايل بطريقةٍ ما ، كي يحب الجميع . فهنالك نموذج من الناس ، لا يستطيع المرء بحال من الأحوال ، أن يثير في نفوسهم روح الكراهية والإنتقام . . .الخ . فمهما تفعل معهم ، تراهم يبادلونك اللطف . بيد انه يجب أنْ ننصفهم ونقول ، بأننا لو وزعنّا حبهم على درجات حرارية ، لما وصل أبداً إلى درجة السخونة . ومع أنّ هؤلاء الناس يوصفون ، بأنهم لطفاء يحبون الجميع ، فإنهم في حقيقة الأمر ، لا يحبّون أحداً ، فهم لطفاء ، لمجردّ كونهم ليسوا أشراراً فقط .

وإذا ما أعطى الآخرون ، بحضور مثل هذا النوع من الناس ، صدقة لمتسوّل ـــ فإنه يرميه بقرش أيضاً ، وإذا ما وبّخه الآخرون وطردوه وسخروا منه فإنه يوبخه ويسخر منه أيضاً . مثل هذا النوع من الناس ، لا يمكن أن نسميه غنياً ، لأنه ليس غنياً ، فهو أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى ، لكننا لا يمكن أن نسميه فقيراً أيضاً لسبب واحد فقط ، هو أن كثيراً من الناس أكثر فقراً منه .

إنه يملك دخلاً زهيداً ، حوالي ثلاثمائة روبل سنوياً ؛ زد على ذلك ، أنه يمارس وظيفة غير ذات أهمية ، ويتلقى راتباً بسيطاً : فهو لا يعاني الشقاء ، ولا يستدين من أحد ، كما لا يخطر في بال أحد ، أن يستدين منه بالطبع .

ليس لديه عمل خاص دائم في الخدمة الوظيفية ، لأنّ زملاءه ورؤساءه لم يستطيعوا أن يلاحظوا ، مطلقاً ، أو يحدّدوا طبيعة العمل ،

الذي يقوم به على نحو أسوأ أو أفضل ، كي يتمكنوا من تعيين العمل ، الذي يلائم مواهبه بوجه خاص . فإذا ما طُلِبَ منه القيام بهذا العمل أو ذاك ، فإنه ينفّذ ما يطلب منه ، بطريقةٍ يصعب فيها على رئيسه دائماً ، تقويم عمله ؛ فتراه يمعن ويمعن ، ثم يقرأ ويقرأ ، ويقول بعدها فقط : « سأترك الأمر الآن ، سأرى فيما بعد . . . . لكن العمل قد نُفِذّ كما ينبغي تقريباً » .

لن ترى على وجهه ، أبداً ، أيّ أثر للقلق ولا للأحلام ، ولا أية أمارة تنمّ عن أنه كان يتحدث إلى ذاته في هذه اللحظة ، ولن تراه أيضاً قط ، يوجّه نظرة ثاقبة إلى أيّ شيء خارجي يمكن أن يلفت نظره .

يصادفه أحد معارفه في الشارع فيسأله : « إلى أين ؟ » فيجيب « انني ذاهب إلى العمل ، أو المخزن ، أو لزيارة أحد ما » . — فيقول ذاك « اذهب معي إلى البريد أو الخياط ، أو للنزهة » — فيذهب معه إلى الخياط والبريد والنزهة ، أي في عكس الاتجاه الذي كان يسير فيه بالأصل .

باستثناء أمّه ، من المشكوك فيه أن يكون أيّ إنسان قد لاحظ ظهوره في هذا العالم ، فقليلون جداً هم الناس ، الذين لا حظوا وجوده على هامش الحياة ، لكن أحداً لن يلحظ غيابه ، بالتأكيد ، عن هذا العالم ؛ فلن يسأل أحد عنه ، أو يأسف عليه ، أو يُسَرّ لموته . ليس لديه أعداء ولا أصدقاء ، لكنْ لديه الكثير من المعارف . لعل تشييع جنازته فقط ، هو الذي سيلفت نظر عابر الطريق إليه ، فيلقي عليه

التحية ، ويكرم لأول مرة . هذا الوجه الذي ينتفي وجود أيّ ملمح فيه ، ولربما سيهرع فضوليّ آخر إلى مقدمة الجنازة ، ليعرف اسم المتوفى ، الذي سينساه ، على الفور .

ليس ألكسييف وفاسيلييف وأندرييف هذا ، سَمّه ما شئت ، إلاّ إشارة غامضة ، غير كاملة لحشد كبير من الناس ، وانعكاساً غير واضح عنهم .

حتى زاخار ، الذي كان يضمّن أحاديثه الصريحة ، وصفاً لجميع الضيوف ، الذين يزورون سيده ، كان يجد دائماً صعوبة في تحديد وصف معين ، عندما يصل الدور إلى . . . لنقل إلى ألكسييف هذا . كان يفكر طويلاً ، وهو يحاول أن يتبين ملمحاً ملحوظاً ، يمكن التوقف عنده ، سواء في مظهره أو سلوكه ، أو طبيعة وجهه ، لكنه كان ينفض يديه في النهاية ، معبّراً على النحو التالي : « لا جلد له ، ولا سحنة ، ولا تصرّف » .

ــ آ ، هذا أنت يا ألكسييف ؟ ــ قال أبلوموف مستقبلاً . مرحباً . من أين قادم أنت ؟ لا تقترب ، لا تقترب ، لن أمدّ لك يدي : فأنت آت من البرد !

ــ عن أي برد تتحدث ! ــ قال ألكسييف ــ لم أكن أفكر بالمجيء لعندك اليوم . فقد التقيت أفتيشينين صدفة . فأخذني لبيته . انني أتيت لدعوتك يا إيليا إيليتيش .

ــ إلى أين ؟

ـ لعند أفتشينين . عنده هناك ما تفيي أندريتيش أليانوف ، وكازيمير ألبير تيش بخايلو ، وفاسيلي سيبا ستيا نيتش كولميا غين .

ـ لماذا اجتمعوا هناك ، وماذا يريدون مني ؟

ـ أفتشينين يدعوك لتناول طعام الغداء .

ـ غم ! للغداء . . . كرّر أبلوموف برتابة .

ـ بعد ذلك . سيذهبون جميعاً إلى كاترينغوف : طلبوا مني أن أقول لك بأن تستأجر عربة .

ـ ماذا سنفعل هناك ؟

ـ كيف ! فهناك احتفال الآن . ألا تعرف أن اليوم هو الأول من أيار ؟

ـ اجلس ، سنفكر بالأمر . . . . ـ قال أبلوموف .

ـ انهض ! آن أن ترتدي ملابسك :

ـ انتظر قليلاً : فما زال الوقت مبكراً .

ـ مبكّر ! يرجونك أن تكون عندهم في الساعة الثانية عشرة ؛ فموعد الغداء حوالي الساعة الثانية ، وبعدها سنذهب إلى الاحتفال . هيا لنذهب بسرعة ! أما ينبغي أن تأمر بإحضار ملابسك ؟

ـ كيف أرتدي ملابسي ؟ إنني لم أغسل وجهي بعد .

ـ اغسل وجهك إذن .

أخذ ألكسييف يسير في الغرفة جيئة وذهاباً ، ثم توقّف أمام لوحة سبق أن رآها من قبل ، ألف مرة ، وألقى بعدها نظرة خاطفة عبر

النافذة ، ثم التقط شيئاً ما من فوق الطاولة ، فدوّره بين يديه ، ونظر إليه من جميع الجهات ، ووضعه من جديد ، ثم أخذ يروح ويغدو ، وهو يصفّر — كل هذا ، من أجل ألا يعيق نهوض أبلوموف واغتساله . انقضى عشر دقائق على هذا النحو .

— ما بلك ؟ سأل ألكسييف إيليا إيليتيش فجأة .

ماذا ؟

— أراك ما تزال مستلقياً ؟

— وهل يجب أن أنهض ؟

— كيف ! إنهم ينتظروننا بفارغ الصبر . فقد كنت تريد الذهاب...

— إلى أين ؟ لم أكن أريد الذهاب إلى أيّ مكان . . .

— قلت لتوك ، يا إيليا إيليتيش ، بأننا سنذهب إلى أفتشينين لتناول طعام الغداء ، على أن نذهب بعدها إلى كاترينغوف . . .

— أذهب في مثل هذه الرطوبة ! ما هو الشيء ، الذي لم أره هناك ؟ فالجو غائم في الخارج والمطر سيهطل قريباً — قال أبلوموف بتكاسل .

— لا توجد غيمة في السماء ، بينما تختلق المطر . كيف لا يكون الجو غائماً بالنسبة لك ، ما دامت النوافذ لم تغسل منذ زمن بعيد ؟ ما أكثر الأوساخ عليها ! الظلام دامس هنا ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن إحدى الستائر مسدولة تماماً تقريباً .

— ما ان أقول ذلك لزخار ، حتى يقترح ، على الفور ، نسوة لمساعدته ،حتى أنه يطلب بأن أخرج من المنزل ليوم كامل ؛ تصور !

استغرق أبلوموف في التفكير ، بينما أخذ ألكسييف ينقر بأصابعه على الطاولة ، التي كان يجلس إليها ، وهو يطوف بعينيه بشرود ، على الجدران والسقف .

— ماذا قررت هل سترتدي ملابسك ، أم ستبقى هكذا ؟ — سأل ألكسييف بعد بضع دقائق .

— ماذا ؟

— ألن تذهب إلى كاترينغوف ؟ . .

— أراك قد استسلمت للذهاب إلى كاترينغوف حقاً ! لاحظ أبلوموف بأسى . — ألا يعجبك البقاء هنا ؟ هل تشعر بالبرد في الغرفة هنا ، أم أن الرائحة غير حسنة ، لماذا تنظر هكذا ؟

— كلا ، انني أشعر ، دائماً ، بالراحة عندك . فأنا مسرور لوجودي هنا ،— قال ألكسييف .

— إذا كنت مرتاحاً هنا ، فلماذا تريد الذهاب إلى مكان آخر ؟ من الأفضل أن تبقى عندي طوال هذا اليوم ، فنتناول الغداء معاً ، وفي المساء — بحفظ الله ! لقد نسيت : فأنا لا أستطيع الذهاب ! سيأتي تارانتييف لتناول الغداء عندي : فاليوم هو السبت .

— حسن ، ما دام الأمر هكذا . . . فسأبقى عندك . . . — قال ألكسييف .

— إنني لم أحدّثك عن مشاغلي بعد ، أليس كذلك ؟ — سأل أبلوموف بحيوية .

— عن أية مشاغل ؟ — قال ألكسييف وهو ينظر إليه بملء عينيه .

— لماذا لم أنهض ، فقد مضى كثير من الوقت ، وأنا ما أزال مستلقياً ؟ كنت أفكر طوال هذا الوقت ، كيف سأتخلص من المصيبة ، التي حلّت بي .

— ماذا حدث ؟ سأل ألكسييف وهو يحاول أن يتّخذ هيئة الخائف .

— حلّت بي مصيبتان ! لا أعرف ماذا أفعل .

— ما الأمر ؟

— تصور ، انهم يطالبونني بالانتقال من الشقة ، يطالبونني بأن أنتقل إلى شقة أخرى : وهذا ما سيسبب لي جلبة ومشاغل وهموماً . . . إنّ مجرد التفكير في هذا ، يبعث في ، الرعب ! إنني أعيش في هذه الشقّة منذ ثمان سنوات . وها هو مالكها يحتال عليّ ويقول : « انتقل بسرعة ! » .

— بسرعة ! إنه يستعجلك الرحيل إذن . هذا أمر لا يطاق — فالسفر والانتقال يسبّبان دائماً ، كثيراً من العناء — قال ألكسييف — فأشياء كثيرة تضيع ، وأخرى تتكسر — إنه لأمر مزعج حقاً ! الديك شقة رائعة . . . كم تدفع ؟

— أين سأجد شقة مثلها ، في مثل هذه السرعة خاصة ؟ فهي جافة ، لا رطوبة فيها ، دافئة ، يلفّها الهدوء والأمان : فلم أسرَق فيها إلا مرّة واحدة فقط ! انظر إلى السقف ، يبدو أنه غير متين : فقد انسلخ الجص تماماً — لكنه ، على الرغم من ذلك ، لم يسقط بعد .

– يا للعجب ؟ – قال ألكسييف وهو يهزّ رأسه .

– كيف يمكن أن أتدبر الأمر . . . بدون أن أنتقل ؟ كان أبلوموف يحدّث نفسه ، وهو مستغرق في التفكير .

– هل لديك عقد إيجار ؟ سأل ألكسييف ، وهو يتفحص الغرفة من السقف إلى الأرض .

– أجل ، لكن مدة العقد انتهت ، كنت أدفع بدل الإيجار شهرياً طوال ذلك الوقت ، لكنني لا أذكر فقط ، منذ متى .

– ماذا تعتقد ؟ – سأل ألكسييف بعد برهة من الصمت – أسترحل أم ستبقى ؟

– إنني لاأعرف شيئاً ، حتى إنني لا أريد التفكير في ذلك . لعل زاخار يجد مخرجاً ما لهذه المشكلة .

– لكن بعض الناس يحبون كثيراً الانتقال من شقة إلى أخرى – قال ألكسييف – فهم يجدون متعة في تغيير شققهم . . .

– فليغيّر هذا « البعض » من الناس شققهم . أما أنا فلا أطيق أية تغييرات ! وخاصة إذا ما تعلق الأمر بشقّة ! – بدأ أبلوموف حديثه – انظر ما يكتبه وكيل القرية لي . سأطلعك الآن على رسالته . . . أين الرسالة ؟ زاخار ، زاخار !

– يا مريم العذراء ! سُمع صوت زاخار الأجش وهو يقفز من مضجعه ، – متى يريحني الله من هذه الدنيا ؟

دخل زاخار ثم نظر إلى سيده بكدر .

— لماذا لم تبحث عن الرسالة ؟

— أين أبحث عنها ؟ كيف لي أن أعرف الرسالة ، التي تريدها يا سيدي ؟ فأنا لا أعرف القراءة .

— لا يهمّ ، ابحث .

— رأيتك مساء البارحة تقرأ إحدى الرسائل — قال زاخار — لكنني لم أرها بعد ذلك .

— أين هي ؟ قال إيليا إيليتيش معترضاً بأسى — إنني لم أبلعها . اذْكُرْ جيداً أنك أخذتها مني ووضعتها في مكانٍ ما . أين هي ، أنظر !

نفض البطانية ، فسقطت من ثناياها رسالة على الأرض .

— إنك تتحامل عليّ دائماً ! . . . أخذ زاخار وأبلوموف يصيح كل منهما على الآخر في اللحظة نفسها . انصرف زاخار ، بينما بدأ أبلوموف بقراءة الرسالة ، التي بدت وكأنها قد كتبت بشراب الكفاس(١) على ورقة رمادية ، مختومة بشمع داكن .

كانت الأحرف الكبيرة الباهتة تنداح في موكب مهيب ، من الزاوية العليا إلى السفلى دون أن يلامس أحدها الآخر . لكن الموكب كان يتعكر ، أحياناً ببقعة كبيرة من الحبر الباهت .

« سيدي الكريم — بدأ أبلوموف بقراءة الرسالة — سيدنا ومعيلنا إيليا إيليتيش . . . تجاوز أبلوموف بعض التحيات والتمنيات بالصحة ، وتابع من منتصف الرسالة .

---

(١) الكفاس (شراب حامض روسي — المترجم) .

« أبلغ حظوتكم الأرستقراطية يا معيلنا ، بأن كل شيء في قريتكم بسلام . لم يهطل المطر منذ خمسة أسابيع : يبدو أن سيدنا الباري قد أغضب ، فقضى بألا يهطل . الشيوخ لا يتذكرون مثل هذا الجفاف : فتَكَ الدود بالمزروعات في بعض الأماكن ، بينما أتلفها الصقيع المبكر في أماكن أخرى ؛ الأرض حُرِثَت في الربيع ، ولا نعرف : هل ستنتج شيئاً أم لا ؟

عسى الله أن يلطف بحظوتك الكريمة ، فنفوسنا لا تهمّنا : نحن فداك ، ما يهمّنا هو حظوتكم . هرب اليوم أيضاً ثلاثة فلاحين : من بينهم لا بتيف وبالتشوف ، كما هرب فاسكا وكوزنيتسوف الابن . تَعَقّبْتُ الزوجات قبل الأزواج : لكنهن لم يعدن ، بل يعشن ، كما سمعت في تشيلكي ، التي سافر إليها إشبيني من فير خليف . فقد أرسله المشرف إلى هناك : لقد جلبوا محراثاً أجنبياً ، فأرسله المشرف إلى تشيلكي من أجل محراث آخر . عاقبت إشبيني بسبب الفلاحين الهاربين ؛ لقد توسّل إلى رئيس شرطة القضاء ، حيث قال الأخير له : « اعطني وثيقة بهؤلاء الفلاحين ، وعندها سأعيدهم إلى محل إقامتهم » . لكنه لم يقل شيئاً آخر ، أما أنا فوقعت على قدميه ، وتضرّعت إليه بالدموع . فما كان منه إلا أن صرخ بأعلى صوته : « انصرف ، انصرف ! ، أعطني وثيقة وسأعيدهم ! » . لكنني لم أعطه أية وثيقة . ليس عندنا من نستخدمه لقاء أجر : فقد ذهب الجميع إلى الفولغا للعمل في السفن — كم أصبح شعبنا غبيّاً يا معيلنا إيليا إيليتيش !

لن يكون خيشنا في المعرض هذا العام : فقد وضعت الجير وآلة التجفيف تحت القفل ، وكلفت ميتشوغا بالمراقبة ليلاً ونهاراً : إنه فلاح حاضر الذهن ، ومع ذلك فإنني أقوم بمراقبته ليلاً ونهاراً كي لا يسرق شيئاً من أملاك سيدنا . الآخرون مدمنون على الشراب ويطالبون بأجورهم . هنالك عجز في تسديد الضرائب المتأخرة المستحقة : سنرسل تقديراً لدخلنا هذا العام يا محسننا ، سيكون أقل بألفي روبل من السنة الفائتة ، نأمل ألا يجتاح القحط موسمنا تماماً ؛ هذا ما نقترحه على حظوتكم »

يتبع ذلك ، الإعراب عن الإخلاص ، ثم يأتي التوقيع : « وكيلك ، وعبدك المطيع براكوفي فيتيا غوشكين يوقع هذه الرسالة بيده » . وبسبب من عدم معرفته القراءة والكتابة ، فقد وضعت إشارة الصليب . « أما الرسالة فقد كتبت نيابة عن وكيل القرية بخط يد شقيق زوجته ديمكا كريفوي »

نظر أبلوموف إلى خاتمة الرسالة .

— سنة وشهر ! — قال أبلوموف — لا بد أن تكون الرسالة قد بقيت مهملة عند وكيلنا منذ السنة الفائتة ، فهنا يوجد حديث عن القحط ! ياله من مهمل !

ثم استغرق في التفكير .

— آ ؟ — تابع أبلوموف — كيف ترى الأمر : إنه يقترح مبلغاً أقل من السنة الفائتة بألفي روبل كم سيبقى ؟ ألا تذكر كم استلمت

السنة الفائتة ؟ — سأل أبلوموف وهو ينظر إلى ألكسييف — ألم أقل لك في حينه ؟

أخذ ألكسييف يطوف السقف ببصره ، ثم استغرق في التفكير .

— يجب أن أسأل شتولتس بمجرد أن يأتي ، — تابع أبلوموف ،— لقد استلمت على ما أعتقد سبعة أو ثمانية آلاف روبل . . . لا أعتقد أننا سجلنا أقل من ذلك ! وهكذا فإنه يحتم عليّ ستة آلاف ! سأموت من الجوع ! كيف سأعيش هنا بمبلغ كهذا ؟

— لماذا أنت قلق إلى هذا الحد يا إيليا إيليتيش ؟ لا يجوز أن نستسلم لليأس مطلقاً : فهذا يسبّب الألم .

— ألا تسمع ما يكتب ؟ فهو يواسيني بطريقة ما ، بدلاً من أن يرسل لي نقوداً ، انه لا يسبب لي إلا الإزعاج فقط ! ذلك يتكرر كل عام ! انني في غاية الاضطراب الآن ! « أقل بألفي روبل » !

— أجل ، انها لخسارة كبيرة — قال ألكسييف . ألفا روبل — ليست مزحة ! يقال ، بأن ألكسي لو غينيتش سيستلم هذه السنة اثني عشر ألفاً بدلاً من سبعة عشر .

— اثني عشر ألفاً ، لا ستة آلاف ،— قال أبلوموف مقاطعاً — لقد أزعجني وكيلي تماماً ! إذا كان الأمر هكذا حقاً : قحط ، جفاف ، فلماذا يزعجني سلفاً ؟

— أجل . . . في الواقع . . . بدأ ألكسييف .— ما كان ينبغي

أن يفعل ذلك ، لكن أيمكنك بالمقابل ، أنْ تنتظر أية رقة أو لطافة من فلاح ؟ فهؤلاء الناس لا يفهمون شيئاً .

— ماذا كنت ستفعل ، لو انك مكاني ؟ سأل أبلوموف وهو يتطلّع إلى ألكسييف بأمل حلو واعد ، علّه يبتكر شيئاً ، يبعث فيه الطمأنينة .

— يجب أن نفكر يا إيليا إيليتيش ، فمن المستحيل أن نقرر فجأة .

— أأكتب إلى حاكم المقاطعة ! — قال إيليا إيليتيش وقد استغرق في التفكير .

— من هو حاكم المقاطعة عندكم ؟

لم يجب إيليا إيليتيش ، فقد ظل يفكر . أما ألكسييف فقد التزم الصمت ، وأخذ يفكر بأمرٍ ما أيضاً .

سند أبلوموف رأسه بيديه بعد أن دعلك الرسالة وأبقاها بيديه أيضاً . ثم وضع مرفقيه على ركبتيه وجلس في هذه الوضعية مدة من الزمن ، تعذبه موجة من الأفكار المضنية .

— ليت شتو لتس يأتي سريعاً ! — قال أبلوموف — فقد كتب يخبرني بأنه سيأتي قريباً . لكن الشيطان وحده يعلم ، أين يتسكع الآن ! لو كان هنا ، لتدارك الأمر .

— اكتأب أبلوموف من جديد . صمت الإثنان طويلاً . لكن أبلوموف كان أول من صحا أخيراً .

— إليك ما يجب عمله ! قال أبلوموف بطريقة حاسمة ، لدرجة

أنه كاد أن ينهض من الفراش . – يجب إنجاز ذلك بأسرع ما يمكن ، إذ لا مجال للتباطؤ . . . أوّلاً . . .

في هذه الآونة ، رنّ صوت الجرس في غرفة الاستقبال بطريقة تبعث على الخوف ، لدرجة أن أبلوموف وألكسييف ارتعشا ، أمّا زاخار فقد قفز من مضجعه فوراً .

– ٣

– هل هو في البيت ؟ – سأل أحدهم في غرفة الاستقبال ، بصوت عال وفظ .

– إلى أين أنت ذاهب في مثل هذا الوقت ؟ أجاب زاخار بشكل أكثر فظاظة .

دخل رجل في الأربعين من العمر ، ينتمي إلى جنس ضخم من البشر ، طويل القامة ، كبير الحجم في كتفيه وجذعه ، ملامح وجهه قاسية ، ذو رأس كبير ، رقبته قصيرة وقوية ، عيناه جاحظتان ، شفتاه سميكتان . ان نظرة خاطفة على هذا الرجل ، لا بد أن يتبعها على الفور ، فكرة وانطباع عن شيء فظ وكريه . كان واضحاً ، أنه من النوع الذي لا يهتم بأناقة ملبسه . قلّما يراه المرء حليق الذقن . وعلى ما يبدو ، فإن هذا الأمر سيّان عنده ؛ لم يكن ملبسه يسبب له أي إحراج ، حتى انه كان يرتديه بشيء من الاعتداد المستهتر .

ذلكم هو ميخا أندر ييفيتش تارانتييف ، مواطن أبلوموف . كان تارانتييف هذا ، ينظر بتجهم واستخفاف وعدم حسن نيّة إلى كل

ما يحيط به ، فهو على استعداد لأن يشتم كل ما في هذا العالم من بشر وأشياء ، كما لو أنه مستاء من ظلم ، أو غير معترف له في إحسان .

– حركاته جريئة وواسعة ، يتكلم بصوت عال وبنشاط وغضب بشكل دائم تقريباً ، فإذا ما سمعه المرء عن بعد ، لا بد أن يعتقد ، أن ثلاث عربات فارغة تعبر جسراً . لا يعرف الخجل مطلقاً بحضور أيّ كان ، حاضر البديهة ،فظ مع الجميع في تخاطبه ، لا يستثني من ذلك حتى أصدقاءه ، كأنه يريد أن يعطي الآخرين انطباعاً ، بأنه عندما يتحدث إلى شخص ، حتى ولو كان يتناول عنده طعام الغداء أو العشاء ، فإنه يمنحه شرفاً كبيراً .

كان تارانتييف ذا عقل جريء يتسم بالدهاء ، ما من أحد يستطيع أن يعالج أفضل منه مسألة حياتية عامة ، أو قضية قانونية معقدة : فسرعان ما يبتكر نظرية للتعامل مع هذه الحالة أو تلك ، يقدم البراهين بدقة متناهية ، لكنه يشتم تقريباً ، كل إنسان يطلب منه المشورة والنصح في أمرٍ ما .

يعمل كاتباً في أحد الدواوين منذ خمسة وعشرين عاماً ، فقد مارس عمله الوظيفي هذا حتى شاب شعره . لم يخطر بباله قط ، كما لم يخطر ببال غيره أيضاً بأنه سيترقّى في عمله .

حقيقة الأمر ، هي أن تارانتييف كان بارعاً في الكلام فقط . فبالكلام كان يحلّ الأمور بوضوح وبساطة ، خاصة تلك التي تتعلق بالآخرين ، لكن ما ان يتطلب الأمر حركة من اصبع ، أو انتقالاً من

مكان لآخر – بكلمة أخرى ، ما ان يتطلّب الأمر ، وضع النظرية على أرض الواقع ومعالجتها على الصعيد التطبيقي ، وابداء حسن الإدارة والسرعة في التنفيذ حتى يصبح شخصاً آخر تماماً : فتحل به المصيبة ويصبح وضعه صعباً على الفور ، فتسوء صحته ، ويتذرّع بشتى الأعذار ، مبدياً تخوفه من حدوث أمر ، لن يباشر في مواجهته أيضاً . وإذا ما قرر البدء في العمل ، فإنه لن يحصل على نتيجة . إنه كالطفل تماماً : لا يستطيع متابعة العمل هناك ، ولا يأبه بالأمور الزهيدة هنا ، يتأخر هناك فينتهي به الأمر لأن يترك القضية في منتصفها ، أو أن يشرع بها من آخرها ، وبالتالي فإنه يفسد كل شيء ، بطريقة يستحيل اصلاح الأمور بعدها ، ثمّ يأخذ بعد ذلك كله ، يكيل الشتائم والسباب .

كان أبوه موظفاً في أحد الدواوين التابع لإحدى المقاطعات ، وكان يهيّىء ابنه كي يرث فن وخبرة حلّ أمور الآخرين . وليرث أيضاً المجال ، الذي اجتازه هو بنجاح في الخدمة الوظيفية ، التي أمضاها في أحد المكاتب ، لكن القدر قضى خلافاً لذلك . فلم يكن الأب ، الذي لم يتلقّ تعليماً كافياً بسبب الفقر ، يريد لابنه أن يتخلف عن الزمن ، فكان يريد أن يعلّمه أمراً ما آخر ، غير علم الحكمة والتبصر في حل أمور الآخرين . فأرسله إلى قسٍّ لتعلّم اللغة اللاتينية على يديه مدة ثلاث سنوات .

اجتاز الصبي الموهوب بالفطرة ، قواعد اللغة اللاتينية وعلم النحو فيها خلال ثلاث سنوات ، وبدأ يفهم كورنيل نيبوت ، لكن والده

قرّر الإكتفاء بما تعلّمه ابنه ، لأن المعارف التي اكتسبها تعطيه امتيازاً كبيراً على الجيل القديم ، لكنّ أية معارف جديدة لاحقة ، يمكن أن تضرّ في نهاية المطاف ، بعمله الوظيفي في الدواوين .

لم يكن ميخا وهو في السادسة عشرة من عمره ، يعرف ما سيفعله باللغة اللاتينية ، التي تعلمّها ، فأصبح ينساها في بيت والديه ، لكنه أخذ يحضر ولائم والده كلها ، حيث نما ذهن ميخا الشاب حتى الرهافة في هذه المدرسة ، وهو يستمع إلى الأحاديث الصريحة ، على أمل أن تساعده فيما بعد ، أثناء عمله في محكمة على مستوى قضاء أو ناحية .

كان يصغي بحساسية الشباب وقابلية تأثّرهم ، إلى أحاديث والده مع أصدقائه عن القضايا المدنيّة والجنائية المختلفة ، وعن الأمور المثيرة ، التي كانت تحدث في مجرى عمل زملاء أبيه ، من موظفي الدواوين في ذلك الزمن .

لكنّ ذلك كله لم يفضِ إلى أيّة نتيجة . فلم يصبح ميخا خبيراً ولا متمرساً بهذه القضايا ، على الرغم من مساعي والده وجهوده ، التي كانت تبغي ذلك ، وكان يمكن لهذه المساعي ، بالطبع ، أن تتكلّل بالنجاح لو أن القدر لم يقوّض نوايا العجوز . فلقد أتقن ميخا ، في حقيقة الأمر ، نظرية أحاديث والده برمّتها ، ولم يتبقّ منها إلاّ أن توضع على الصعيد التطبيقي . لكنه بعد وفاة والده ، لم يفلح بالالتحاق بالمحكمة ، حيث نُقِل إلى بطرسبورغ من قبل أحد الخيّرين ، فقد وجد له عملاً قلمياً في إحدى الإدارات ، ثم نُسِي الموضوع بعدها .

هكذا أصبح تارانتييف منظّراً فقط طيلة حياته -- فخلال خدمته في بطرسبورغ ، لم يستفد شيئاً من لاتينيته ، ولا من نظريّته الحاذقة بالإمساك بناصية الأمور القانونية وغير القانونية كما يحلو له ، لكنه كان يملك قوة كامنة موصدة في ذاته وإلى الأبد ، بسبب ظروف عدائية ، دون أن يأمل في تجلّيها ، فهي قد فقدت قدرتها على إلحاق الضرر ، شأنها شأن الأرواح الشريرة في الأساطير ، الموصدة في جدران ضيقة مسحورة . ولربما كان تارانتييف ، من خلال إدراكه لهذه القوة الكامنة في ذاته بلا جدوى ، فظّاً في تخاطبه مع الآخرين ، عدائيّاً ، غاضباً ومشاكساً بشكل دائم .

كان ينظر بمرارة وازدراء إلى عمله الحالي : إلى إعادة نسخ المذكرات ، وتصنيفها في الملفّات . . . . الخ . وفي الأفق البعيد ، كان هنالك أمل وحيد يبتسم له فقط ، كان يأمل بأن ينتقل ليخدم في الالتزامات الضريبية الحكومية . فعلى هذا الطريق ، كان يجد التغيير الوحيد المفيد لمجال عمله ، الذي لم ينله ، والموصَى به من قِبَل والده . وبانتظار ذلك ، فقد أصبحت نظرية النشاط والحياة ، نظرية الرشوة والإحتيال ، التي ابتكرها والده من أجله ، والتي كان مجالها الهام المناسب ، في الريف . أصبحت تطبّق ، الآن ، في حياته ؛ فهي تتخلل علاقاته مع أصدقائه ومعارفه ، بسبب انتفاء إمكانية تطبيقها في العلاقات الرسمية الحكومية .

كان مرتشياً بروحه ، بنظريّته ، يتحايل للحصول على الرشاوى

من زملائه في الخدمة ومن أصدقائه ، لا يعلم إلاّ الله كيف ، ولقاء أي شيء . كان يجبر أيّ إنسان يستطيع إرغامه ، على تقديم الرشاوى له ، مرةً بالمكر ، وأخرى بالتطفل ، فهو يوجّب نفسه على الآخرين ، ويطالب الجميع باحترام لا يستحقّه ، كما كان متعنّتاً . لم يخجل أبداً بسبب ثيابه المبتذلة ، لكنه كان يقلق كثيراً ، إذا لم يتأمّن له يومياً ، غداء ضخم مع كمية كبيرة من النبيذ والفودكا .

بسبب ذلك كله ، كان تارانتييف يقوم بدور كلب الحراسة وسط معارفه ، ينبح على الجميع ولا يسمح لأحد بأية حركة ، لكنه سيخطف من الجو حتماً ، أية قطعة من اللحم ، من أيّ مكان تُرمَى ، وإلى أيّ مكان تُوَجه.

ذلكم هو حال زائرَيْن من زوار أبلوموف ، الأكثر تردداً عليه ومواظبة . لماذا كانا يترددان عليه ؟ إنهما يعرفان السبب جيّداً جيّداً : ليشربا ويأكلا ويدخّنا السيجارة الممتازة . كانا يجدان عنده مأوى دافئاً هادئاً ، ويَلْقَيان دائماً ، قبولاً ، إنْ لم يكن بترحاب فبلا مبالاة ، والأمر سيّان عندهما في كلتا الحالتين .

لكن ، ما لم يُحْسَب حسابٌ له بعد . هو السبب الذي كان يجعل أبلوموف يسمح لهما بالدخول إليه . فالسبب ، على ما يبدو ، هو الوضع الذي ما زال قائماً حتى الآن ، في الأصقاع الأبلوموفية النائية ، حيث يجتمع في كل بيت موسر ، حشد مماثل من الناس من كلا الجنسين ، ممّن ليس لهم عمل أو حرفة أو أيد للإنتاج ، فهؤلاء الناس لا يملكون

إلاّ بطوناً للاستهلاك فقط ، والأنكى من ذلك ، هو انهم يحملون لقباً ورتبة بشكل دائم تقريباً .

ما زال يوجد نمط من الناس المترفين ، الذين يعتبرون أنّ مثل هذه الأمور في الحياة لا تزال ضرورية : فهم يشعرون بالملل في هذا العالم بدونها . من سيناولهم علبة النشوق ، ومن ذا الذي سيلتقط المنديل من الأرض ؟ لمن سيشكون ألم رأسهم ، ولمن سيروون حلماً سيّئاً يتطلّب تفسيراً ؟ من ذا الذي سيقرأ شيئاً لهم يساعد على الاستغراق في النوم ؟ وفي بعض الأحيان ، يُرسَل هذا النوع من الناس إلى أقرب بلدة لشراء حاجة ، كما يُستخدَم في الأعمال المنزلية .

أحدث تارانتييف كثيراً من الضجة ، مما أخرج أبلوموف من سكونه وضجره . كان يصرخ ويجادل ويقوم بأداء مشهد ، أعفى السيد الأرستوقراطي الكسول ذاته ، من ضرورة الكلام والجهد . فقد جلب إلى الغرفة ، التي كان يسود فيها النعاس والهدوء ، الحياة والحركة ، كما كان يجلب ، أحياناً ، الأخبار أيضاً . كان باستطاعة أبلوموف ان يسمع ويرى شيئاً ما متحركاً ، نشطاً يتحدث أمامه ، دون أن يأتي بأقلّ حركة . زد على ذلك ، انه كان من السّذاجة لدرجة تدفعه على الاعتقاد ، بأن تارانتييف هذا مؤهل لأن يقدم له نصيحة سديدة .

أما زيارات ألكسييف ، فقد كان أبلوموف يتحملها لسبب لا يقل أهمية عن ذلك . فإذا ما أراد التصرّف كما يحلو له ، كأنْ يستلقي بصمت ، أو ينام ، أو يتمشى في الغرفة ، فإنه ينسى ألكسييف تماماً ،

ويتصرّف كما لو أنه غير موجود : فيصمت وينام ويلقي نظرة على الكتاب ، ويتطلع إلى اللوحات والأشياء ، وهو يتثاءب بكسل حتى الدموع . كان يستطيع أن يمضي ثلاثة أيام من الوقت على هذا النحو . وإذا ما ضجر من بقائه وحيداً ، وشعر بالحاجة لتعبير عن أمرٍ ما ، كأنْ يتحدث ويقرأ ويناقش ويبدي قلقاً ، — فإن ألكسييف هذا كان على الدوام مستمعاً ومشاركاً مطيعاً جاهزاً ، يوافقه ويشاركه تماماً صمته وحديثه ، قلقه ونمط تفكيره ، أيّاً كان هذا النمط .

لم يكن الزوار الآخرون يترددون عليه غالباً ، وإذا ما ترددوا فإنهم يمضون لحظة فقط ، كما كان حال الزوار الثلاثة الأوائل ، فالعلاقات والصلات معهم ومع الجميع كانت تنقطع أكثر فأكثر . في بعض الأحيان ، كان أبلوموف يبدي اهتماماً بخبرٍ ما ، أو بحديث ، لكنّ هذا لم يكن يستمر أكثر من خمس دقائق ، فيصمت بعدها ، بعد أن يكون قد اكتفى بذلك ، إذ كان عليه أن يبادلهم بالمثل ، ويشاركهم فيما يهتمون به . كانوا يغوصون في الأحاديث عن الناس ، وكل منهم يفهم الحياة بطريقة لا تروق لأبلوموف ، فكانوا يشوّشون أفكاره ويثيرون نفوره وعدم ارتياحه .

كان هنالك شخص وحيد عزيز على قلب أبلوموف : لكنه لم يكن يمنحه السكينة أيضاً ، كان يحب الأخبار والعالم والعلم والحياة كلها ، لكن بطريقة أكثر عمقاً وصدقاً ، ومع أن أبلوموف كان لطيفاً مع

الجميع ، إلا أنه كان يحبه بصدق أكثر من سواه ويثق به دون غيره ، ربما لأنه ترعرع وتعلم وعاش معه : إنه اندريي ايفانونيتش شتولتس .

كان غائباً مسافراً ، لكن أبلوموف كان ينتظره ساعة بساعة .

— ٤ —

— مرحباً يا مواطني ، — قال تارانتييف بشكل متقطع ، وهو يمدّ يده المكسوّة بالشعر إلى أبلوموف — ما بالك مستلق في مثل هذا الوقت كجذع من خشب ؟

— لا تقترب ، لا تقترب ، فأنت قادم من البرد ! — قال أبلوموف وهو يتدثر بالبطانية .

— تبتكر أيضاً ! من البرد ! : أخذ تارانتييف يصرخ — هيا ، هيا ، سلِّمْ عندما يمدّون الأيدي ! إنها الساعة الثانية عشرة تقريباً ، وأنت ما تزال تتقلّب !

أراد أن يرفع أبلوموف من فراشه ، لكن الأخير حذّره . أنزل أبلوموف ساقيه بسرعة ، ونزلت على الفور في خفّه .

— كنت عازماً على النهوض حالاً ، — قال أبلوموف متثائباً .

— أعرف كيف تنهض : كنت ستبقى في الفراش حتى موعد الغداء . زاخار ! أين أنت ، أيها العجوز المغفّل ؟ أحضر ملابس سيدك بسرعة .

— أقصر كلامك عن زاخار أولاً ، بعدها اصرخ ما شئت ! —

بدأ زاخار حديثهُ وهو يدخل الغرفة وينظر إلى تارانتييف بغضب . — انظر كيف وسّخت الأرض بقدميك كما لو أنك بائع متجول تماماً !— أضاف زاخار .

— هه ، تتكلم أيضاً ، أيها الوجه القبيح ! — قال تارانتييف ثم رفع ساقهُ كي يركل زاخار ، الذي كان يمرّ بالقرب منه ، من الخلف ، لكن زاخار توقّف واستدار نحوه ، ثم احتدم غيظاً .

— جرِّبْ أن تلمسني فقط ! — زمجر زاخار بانفعال شديد . — ما هذا الذي تفعله ؟ إنني ذاهب قال زاخار ، وهو يرجع إلى . . . الخلف باتجاه الباب .

— ميخا أندرييتش ، كفى ، يا لك من شخص ضجوج ! لماذا تعتدي عليه ؟ — قال أبلوموف — .

زاخار ، أعطني ما يلزم !

رجع زاخار ، ثم انسلّ بسرعة أمام تارانتييف وهو ينظر إليه شزراً .

استند أبلوموف عليه . ونهض بتثاقل من السرير ، نصف نهوض ، كما ينهض رجل متعب جداً ، ثم انتقل على مضض إلى أريكة كبيرة ، فهبط عليها وبقي بدون حراك بمجرّد أن جلس .

تناول زاخار من على الطاولة دهان الشعر ومشطاً وفرشاة ، ثم دهن له شعره ومشّطه بالفرشاة .

— ألن تغسل وجهك الآن يا سيدي ؟ — سأل زاخار .

— سأنتظر قليلاً أيضاً — أجاب أبلوموف —اذهب إلى مضجعك الآن.

ـ آه ، أنت هنا ؟ قال تارانتييف فجأة ، وهو يتوجه إلى ألكسييف ، في نفس الوقت الذي كان فيه زاخار يسرّح شَعرَ سيده . ـ إنني لم أرك . لماذا أنت هنا ؟ إن قريبك خنزير كبير ! كنت أريد أن أقول لك كل شيء . . .

ـ عن أيّ قريب تتحدث ؟ ليس لديّ أقرباء ! أجاب ألكسييف المرتبك بخجل ، وهو يحملق بتارانتييف .

ـ كيف ، عن ذاك الذي يعمل موظفاً هنا ، ماذا يسمى ؟ ... يسمى أفاناسييف . كيف تقول أنه ليس قريبك ؟ ـ إنه قريبك .

ـ أنا لست أفاناسييف ، بل ألكسييف . ليس لديّ قريب .

ـ عجباً ، ما زلت تقول ، بأنه ليس لديك قريب ! إنه مثلك تماماً ، خالٍ من الظرافة ، يسمى أيضاً فاسيلي نيكولاييتش .

ـ أقسم ، أنه ليس قريبي ، فاسمي إيفان ألكسييفيتش .

ـ هذا لا يهمّ ، إنه يشبهك . إنه لخنزير حقاً ، أَبْلِغْه هذا بمجرّد أنْ تراه .

ـ انني لا أعرفه . ولَم أره قط . ـ قال ألكسييف وهو يفتح علبة النشوق .

ـ أعطِني نشوقاً ! ـ قال تارانتييف ـ انه تبغ عادي ، غير فرنسي ، أليس كذلك ، انها الحقيقة ـ قال تارانتييف وهو يأخذ نشقة ، ـ لماذا لا تحمل تبغاً فرنسياً ؟ ـ أضاف تارانتييف بصرامة .

ـ إنني لم أر خنزيراً مثل قريبك ـ تابع تارانتييف ـ . استدنت

منه في وقت من الأوقات ، منذ سنتين تقريباً ، خمسين روبلاً . هل هذا مبلغ كبير ؟ ماذا تظن ، هل نسي المبلغ ؟ كلا ، فما زال يذكره . كلّما صادفني يقول : « الدين ؟ » يا له من إزعاج ! جاء البارحة إلى مصلحتنا يقول : « ها قد استلمت راتبك ، فتستطيع أن تعيد لي المبلغ الآن » . فأوضحت له حاجتي ووضعي . أخذ يعيبني أمام الجميع قائلاً : « يا له من إنسان فقير ، إنه محتاج ! » إنني محتاج طبعاً ! لست غنيّاً لأعطيه بسخاء خمسين روبلاً ! أعطني سيجارة يا مواطني .

— السجاير هناك في العلبة — أجاب أبلوموف مشيراً إلى الطاولة .

كان أبلوموف في كرسيّه شارداً متأملاً بوضعيته الكسولة الجميلة ، دون أن يلاحظ ما يجري حوله ، أو يسمع ما يدور من حديث . كان يتفحّص ويتلمّس بسرور يديه البيضاوين الناعمتين .

— أليست نفس السجائر ؟ — سأل تارانتييف بصرامة وهو يأخذ سيجارة وينظر إلى أبلوموف .

— أجل نفس السجائر . — أجاب أبلوموف غريزيّاً .

— أما قلت لك بأن تشتري سجاير أخرى أجنبية ؟ إنك لا تتذكر ما يقال لك ! انتبه ، عليك أن تشتريها السبت المقبل من كل بدّ ، وإلاّ فلن أجيء لعندك قبل وقت طويل ! أنْظرْ كَمْ هي رديئة هذه السجاير ! — تابع تارانتييف . وهو يشعل سيجارة ويطلق سحابة دخان في الجو ، بينما يشهق أخرى . — هذه السجاير لا تساوي شيئاً .

— (متثائباً) أتيت اليوم باكراً يا ميخا أندرييتش .

ـ ماذا ، هل أزعجتك ؟

ـ كلا ؛ مجرّد ملاحظة فقط ، ليس إلاّ ، فأنت تأتي عادة في موعد الغداء ، أما الآن ، فالساعة لا تزال الواحدة .

ـ أتيت قبل الموعد قصداً ، لأعرف ما سيكون غداؤك . فأنت تقدّم لي طعاماً رديئاً طوال الوقت ؛ وهكذا يتسنّى لي معرفة نوع الطعام ، الذي أمرت بتحضيره اليوم .

ـ تعرّف هناك في المطبخ ـ قال أبلوموف .

خرج تارانتييف .

ـ المعذّرة ! ـ قال تارانتييف وهو يعود ـ لحم بقر وعجل ! آه يا أخ أبلوموف ، إنك لا تعرف أن تعيش ، فهذه ليست حياة إقطاعي ! أيّ سيّد نبيل أنت ؟ إنك تعيش كما يعيش العامّة ؛ لا تعرف إكرام الصديق ! هل اشتريت نبيذ الماديرا ؟

ـ لا أعرف ، سل زاخار ـ قال أبلوموف ، وهو لا يكاد يسمعه ،ـ يوجد هناك نبيذ بالتأكيد .

ـ إنه نفس النبيذ السابق الذي اشتريته من المخزن الألماني ، أليس كذلك ؟ فلتتكرّمْ بإرسال من يشتري لنا نبيذاً من المخزن الانكليزي .

ـ هذا النبيذ يكفي ـ قال أبلوموف ـ فلا داعي لأن أرسل أحداً !

ـ اسمع ، أعطني نقوداً ، فسأعرّج وأشتري في الطريق ، إذ عليّ أن أذهب إلى أحد الأمكنة .

فتّش أبلوموف في الدرج ، فأخرج قطعة ورقية حمراء من فئة العشر روبلات .

ــ زجاجة المادیرا بسبع روبلات ــ قال أبلوموف ــ وهذه عشر روبلات .

ــ هاتها : سيرجعون الباقي هناك ، لا تخف !

خطف القطعة الورقية من يد أبلوموف ودسّها في جيبه بسرعة .

ــ إنني ذاهب ــ قال تارانتييف وهو يضع قبعته على رأسه ــ سأعود حوالي الساعة الخامسة ؛ عليّ أن أذهب إلى أحد الأمكنة : فموعدي في مكان يبيع المشروبات الكحولية . . . آه ، لقد تذكرت . إيليا إيليتيش ، ألا تستأجر عربة ، اليوم لنذهب إلى كاترينغوف ؟ حبّذا لو تأخذني إلى هناك .

هزّ أبلوموف رأسه مبدياً علامة الرفض .

ــ أترفض بسبب الكسل أم النقود ؟ يا لك من أخرق كسول ! قال تارانتييف . ــ وداعاً إلى حين . . . . . .

ــ مهلاً يا ميخا أندرييتش ، ــ قال أبلوموف مقاطعاً ــ يجب أن أتشاور معك .

ــ ما عندك ؟ قل بسرعة : فليس لديّ وقت .

ــ حلّت بي مصيبتان بشكل مفاجىء . يطالبونني بأن أترك الشقة ...

ــ يبدو أنك لا تدفع الإيجار ! قال تارانتييف وهو يهمّ بالانصراف.

ــ مهلاً ! إنني أدفع دائماً ، قبل الموعد . فهم يريدون أن يعملوا

شقّة أخرى . . . مهلاً ! إلى أين ؟ قل لي ما العمل : إنهم يستعجلونني ، يطالبونني بأن أغادر خلال اسبوع . .

— هل أنا مستشار عندك ؟ . . . إنك تتخيّل عبثاً . . .

— إنني لا أتخيّل شيئاً مطلقاً — قال أبلوموف — لا تضج ، لا تصرخ ، فالأفضل أنْ تفكّر بما ينبغي عمله . فأنت رجل عملي . . .

لم يعد تارانتييف يسمعه ، لأنه كان يفكّر بأمرٍ ما .

— حسناً ، هكذا سيكون الأمر ، عليك أن تشكرني — قال تارانتييف وهو يرفع القبعة عن رأسه ويجلس ، أوص بتقديم الشمبانيا مع الغداء : فموضوعك محلول .

— ماذا ؟ — سأل أبلوموف .

— أتأمر بالشمبانيا ؟

— طبعاً ، إذا كانت النصيحة تستحق . . .

— إنك لست جديراً بالنصيحة . أتعتقد أنني سأقدّم لك النصيحة مجاناً ؟ سله ، أو سَلْ قريبه ، — أضاف تارانتييف وهو يشير إلى ألكسييف .

هيّا ، هيّا ، تكلم ! — قال أبلوموف متوسلاً .

— إليك ما سأقوله : فلتأمر بالانتقال غداً إلى شقة أخرى . . .

— يا لها من فكرة ! كنت أعرف هذا لوحدي . . .

— مهلاً ، لا تقاطعني ! صرخ تارانتييف — انتقل إلى شقة أخرى غداً ، لعند اشبنتي في ناحية فيبورغ . . .

– ما هذا الذي تقول ؟ إلى ناحية فيبورغ ! يقولون ، إن الذئاب تعدو هناك في الشتاء . . .

– يحدث ذلك ، فهي تأتي من الجزر ، لكن ما علاقتك بهذا الأمر ؟

– هناك الملل والخواء ، فما من أحد يوجد هناك .

– إنك تكذب ! فإشبينتي تعيش هناك : لديها بيت وبستان . إنها امرأة أرملة شريفة ، لها طفلان ، يعيش معها أخوها العازب : انه عقل مفكر ، ليس على غرار ذاك ، الذي يجلس في ركن الغرفة هنا – قال تارانتييف وهو يشير إلى ألكسييف – إنه يتفوق علينا جميعاً !

– ما علاقتي بهذا الأمر كله ؟ – قال أبلوموف بنفاد صبر – لن أنتقل إلى هناك .

– سنرى . لا ، لا يجوز ذلك ، اسمع ونفّذْ ما يقال لك ، عندما تطلب النصيحة من أحد .

– لن أنتقل – قال أبلوموف بحسم .

– إذهبْ إلى الشيطان ! – أجاب تارانتييف وهو يميل قبعته على جبينه ، ثم مضى باتجاه الباب .

– كم أنت غريب الأطوار ! – قال تارانتييف وهو يعود – هل أنت مستمتع هنا ؟

– كيف ؟ إنني على مقربة من كل شيء فهنا المسرح والمخازن . . . ومركز المدينة وكل شيء .

– ماذا ؟ وهل تذهب خارج المنزل ، حتى تقول هذا ؟ متى كنت

في المسرح آخر مرة ؟ إلى أين تذهب ؟ ما حاجتك بمركز المدينة الملعون هذا ؟

— كيف ؟ هنالك أسباب كثيرة تدفعني لقول ذلك !

إنك لا تعرف السبب ! فكـّر ملياً : ستعيش هناك عند إشبينتي ، إنها امرأة شريفة ، ستعيش عندها بهدوء وسكينة ، دون أن يزعجك أحد ؛ فلا ضجة ولا جلبة ، كل شيء نظيف مرتب . انظر ، إنك تعيش هنا كما لو انك في خان ، وأنت النبيل الاقطاعي ! هناك النظافة والطمأنينة ، يوجد من تتبادل معه الحديث عندما تشعر بالضجر . لن يزورك أحد غيري . لديك شابان تتسلى معهما كما تريد ! ماذا تريد أكثر ؟ أما الفائدة فكبيرة هناك . كم تدفع هنا ؟

— ألفاً وخمسمائة .

— ستدفع هناك حوالي ألف روبل فقط ، لقاء بيت بكامله ! كم هي غُرفُهُ مضيئة رائعة ! فهي تبحث منذ زمن بعيد عن مستأجر هادىء منضبط — وها أنا ذا أرشحك . . .

هز أبلوموف رأسه ، بشرود ، مبدياً علامة الرفض .

— إنك تكذب ، ستنتقل ! — قال تارانتييف — فكـّر بالأمر ، وستجد أن الأمور ستكون في مصلحتك : ستستفيد خمسمائة روبلاً من فرق الإيجار . سيكون الوضع بالنسبة لك أحسن وأنظف ، فلن تسرقك الطاهية هناك ، ولا زاخار .

سمع في غرفة المدخل صوت يزمجر .

— سيكون هناك نظام أكثر — تابع تارانتييف — انظر إلى ما حولك ، الآن ، على سبيل المثال . كم هو سيّء أن تجلس إلى هذه الطاولة ! تتفقد الأشياء فلا تعثر على الخلّ والبهارات . سكاكين المائدة غير نظيفة ، البياض والملاحف تضيع ، كما تقول أنت نفسك ؛ الغبار يكسو كل شيء — يا له من أمر شنيع ! أما هناك ، فسترتب امرأة كل شيء : امرأة تختلف عنك ، وعن زاخار الأحمق هذا .

دوّى في غرفة المدخل صوت يزمجر بقوة أكثر

— لن تحتاج عندها لأن يفكر هذا العجوز بأي شيء — تابع تارانتييف: فستعيش في ظرف يكون كل شيء فيه جاهزاً . لماذا تتعب نفسك بالتفكير هنا ؟ انتقل إلى هناك وَضَعْ حداً لهذا كله . . .

— لا أستطيع أن أنتقل فجأة ، دونما سبب ، إلى ناحية فيبورغ ...

— يا للغرابة ! قال تارانتييف وهو يمسح عن وجهه العرق — الآن ، فصل الصيف : السكن هناك كالمصائف تماماً . لماذا تتقلّب في هذا العفن هنا ، في شارع غوروخف ؟ . . . هناك في الجوار ، حديقة بزبارودكين وأوختا ؛ نهر النيفا على بعد خطوتين عنك ، كما أنّ المنزل هناك يملك حديقة خاصة به — فلا غبار ولا انحباس في الهواء ! المسألة لا تحتاج إلى تفكير : سأنخطف لعندها ، الآن ، قبل الغداء — اعطني أجرة العربة — ستنتقل غداً . . .

— أيّ شخص هذا ! — قال أبلوموف — الشيطان وحده يعلم ماذا يبتكر فجأة : إلى ناحية فيبورغ . . . ليست فكرة حكيمة . كلا ،

من الأفضل أن تبتكر حيلة تمكّننا من البقاء هنا . فأنا أعيش في هذه الشقة منذ ثمان سنوات ، فلا أرغب بتغيير المكان . . .

— ستنتقل طبعاً . إنني ذاهب الآن ، لعند إشبينتي ، ثمّ أعود .

عزم تارانتييف على الإنصراف .

— مهلاً ، مهلاً ! إلى أين ؟ استوقفه أبلوموف — توجد لديّ مشكلة أخرى ، أكثر أهمّية . لقد استلمت رسالة من وكيل القرية ، قرّرْ ما ينبغي عليّ عمله .

— هكذا شببت ! — قال تارانتييف معترضاً — إنك لا تعرف فعل شيء ! فأنا أفعل كل شيء لك ! لأيّ شيء تصلح ؟ لست إنساناً أنت ، بل قشة تبن !

— أين الرسالة ؟ زاخار ، زاخار ! لقد ضيّعها من جديد ! — قال أبلوموف

— ها هي رسالة وكيل القرية — قال ألكسييف ، وهو يمسك رسالة مدعوكة

— أجل ، ها هي — كرّر أبلوموف ثم بدأ يقرأ بصوت عال .

ماذا تقول ؟ ما العمل ! — سأل إيليا إيليتيش ، بعد أن أنهى قراءة الرسالة — جفاف ، ضرائب مستحقة . . .

— يا لك من شخص ميؤوس منه تماماً ! — قال تارانتييف .

— ميؤوس منه ، لماذا ؟

— تسأل لماذا ؟

ـ حسن ، ما دمت ميئوساً منه ، قل لي ما العمل ؟

ـ ماذا تعطيني بالمقابل ؟

ـ قلت ، سآتي لك بالشمبانيا : ماذا تريد أيضاً ؟

ـ شمبانيا مقابل العثور على شقة : لقد أسديت لك عملاً خيّراً لم تشعر بأهميته ، وأنت لا تزال تجادل ، يا لك من ناكر للجميل ! ابحث بنفسك عن شقة ! أتعرف ماذا تعني الشقة ؟ أهمّ ما تعنيه بالنسبة لك الطمأنينة : ستعيش كما لو أنك عند أختك . سيكون هناك أيضاً الشاب العازب ، زد على ذلك أنني سأتردّد عليك يومياً . . .

ـ حسن ، حسن ، قل لي ما ينبغي عليّ أن أفعله الآن مع وكيل القرية ؟

ـ أضِفْ بيرة إلى الغداء ، عندها سأقول .

ـ بيرة الآن ! هذا ما ينقصني . . .

ـ وداعاً ـ قال تارانتييف ، وهو يضع القبعة ، من جديد ، على رأسه .

ـ آه ، يا إلهي ! وكيل القرية يكتب هنا ، بأنّ الدخل « أقل بألفي روبل » وأنت تطلب إضافة البيرة إلى الغداء ! حسن ، اشترِ بيرة .

ـ أعطني نقوداً !

ـ سيبقى معك من ثمن النبيذ .

ـ وأجرة العربة إلى ناحية فيبورغ ؟ ـ أجاب تارانتييف .

أخرج أبلوموف روبلاً وناوله إياه بأسى .

ـ وكيلك محتال ـ هذا ما كنت سأقوله لك ـ بدأ تارانتييف الكلام ، وهو يخفي الروبل في جيبه . ـ وأنت تصدقه كمغفّل . أرأيت على أية معزوفة يعزف ! جفاف ، قحط ، ضرائب مستحقة ، فلاحون هاربون . إنه يكذب يكذب ! سمعت ، بأن الضرائب والديون كلها ، قد سُدِّدَتْ في مناطقنا من محصول السنة الماضية ، فقد تمّ تسديدها في شوميلوفا فوتشينا ، ثم يأتي ليتذرّع ، فجأةً ، بالجفاف والقحط . فشوميلوفا لا تبعد عن أملاكك إلاّ خمسين فرسخاً فقط : لماذا لم يُتْلَف القمح هناك ؟ وها هو يختلق ضرائب مستحقة ! ماذا كان يراقب إذن ؟ لماذا أغفل ذلك ؟ من أين هذه الضرائب المتأخرة ؟ يتذرّع بفقدان العمل والتسويق ؟ يا له من وغد ! لو كنت مكانك لأدّبته ! لم ينصرف الفلاحون إلا لأنه انتزع منهم شيئاً ـ ما بالتأكيد ، فهو الذي صرفهم ، حتى انه لم يفكر برفع شكوى إلى رئيس الشرطة .

ـ لا ، هذا مستحيل ـ قال أبلوموف ـ حتى جواب رئيس الشرطة ، يكتبه في الرسالة بلا تصنّع ، لدرجة . . .

ـ آه منك ! إنك لا تفقه شيئاً . كل المحتالين يكتبون بلا تصنّع ـ صَدِّقني ! خُذْ على سبيل المثال ، ذلك الإنسان الطيب ، الذي يجلس هناك كالنعجة ـ تابع تارانتييف ، وهو يشير إلى ألكسييف ـ أتعتقد أنه يكتب بلا تكلّف ؟ ـ أبداً . أما قريبه فيكتب بلا تصنّع ، على الرغم من أنه خنزير ومحتال . وأنت لن تكتب بلا تكلّف ! وهكذا ،

فإنّ وكيلك قد كتب بمهارة دونما تصنع ، لأنه محتال . انظر كيف سبك كلماته بعناية : « يريد أن يعيد النظام إلى مكان السكن » .

— ماذا أفعل ؟ — سأل أبلوموف .

— إسْتَبْدِلْهُ فوراً .

— من سأعيّن ، ما أدراني بالفلاحين ؟ ربما سيكون من سأعيّنه أسوأ . فأنا لم أكن هناك منذ اثني عشر عاماً .

— اذهب إلى القرية بنفسك : إذْ يستحيل أن نفعل شيئاً بدون ذلك ، سافر إلى هناك صيفاً ، وفي الخريف تنتقل ، مباشرة ، إلى الشقة الجديدة . أما أنا فسأسعى هنا بنفسي ، كي تكون جاهزة .

— أنتقل إلى الشقة الجديدة ! أسافر إلى القرية بنفسي ! كم هي رهيبة تلك الإجراءات ، التي تقترح ! — قال أبلوموف بتبرّم . — كلا ، فلكي نتجنب التطرّف ونتمسك بالإعتدال . . .

— إيليا إيليتيش ، إنّك ستضيع تماماً . لو كنت مكانك ، لتدبّرت أمور أملاكي بنفسي ، أو ربما كنت قد اشتريت غيرها ، ربما كنت قد اشتريت بيتاً هنا في مكان جيد ، وشيّدت بيتاً هناك في القرية . . . أَعطِني أملاكك ، وسترى ما كنت سأفعله ، سيحكي الناس عني في كل مكان .

— كفى تفاخراً ، ابحث عن حلّ بدون أنْ أترك الشقة ، أو أذهب إلى القرية . . . لاحظ أبلوموف .

— هل ستتحرّك من مكانك في يوم من الأيام ؟ — قال تارانتييف —

انظر إلى نفسك : لماذا تصلح ؟ ماذا سيفيد منك الوطن ؟ إلى القرية لا تستطيع أن تذهب !

— لا يزال الوقت مبكّراً لذهابي ! — أجاب إيليا إيليتيش — قبل كل شيء ، يجب إنهاء الإصلاحات التي أنوي إدخالها إلى القرية . . .

أتعرف ما ينبغي عمله يا ميخا أندرييتش ؟ — قال أبلوموف فجأة — سافر أنت . إنك على دراية بالأمور ، كما أنك تعرف الأماكن جيداً هناك ، إذا فعلت ، فلن أبخل عليك بالنفقات .

— هل أصبحتُ مديراً لأعمالك ؟ — اعترض تارانتييف بتكبّر — زد على ذلك ، انني نسيت التخاطب مع الفلاحين . . .

— ما العمل ؟ قال أبلوموف متفكّراً — الحقيقة ، لا أعرف .

— أكتُبْ إلى رئيس الشرطة : استوضِحْ إن كان وكيل القرية قد تحدّث إليه بشأن الفلاحين الهاربين ، — قال تارانتييف ناصحاً — توَسّلْ إليه كي يذهب إلى القرية ، أكتُبْ بعد ذلك إلى الوالي ، كي يأمر رئيس الشرطة ، ليوافيه بمعلومات عن سلوك وكيل القرية . « فلتتفضّلْ سعادتكم ، لتشملونا برعايتكم الأبوية ، وتنالنا رحمتكم بالنظر في تفادي المصيبة المحتّمة المرعبة ، التي ستحلّ بي من جرّاء تصرفات وكيل القرية الرعناء ، كي أتجنّب الخراب المدمّر ، الذي سيلحق بي وبزوجتي وأطفالي ، البالغ عددهم اثني عشر طفلاً ، والذين سيبقون بدون أية رعاية ، أو لقمة خبز . . . » — اقترح عليه تارانتييف النّص .

بدأ أبلوموف يضحك .

– من أين سأجيء بمثل هذا العدد من الأطفال ، إذا ما طلبوهم ؟ – قال أبلوموف .

– اكتب كما قلت لك : فعبارة اثني عشر طفلاً ستمرّ على مسامعهم مرور الكرام ، فلن يطلبوا معلومات وإفادات ، لكنها ستكون ، بالمقابل ، « طبيعية ، بلا تصنّع » . . . سيعطي الوالي الرسالة لسكرتيره ، الذي يجب أن تكتب له أنت أيضاً ، مع وديعة بالطبع ، – عندها سيصدر السكرتير أمره . لا تنس أن تطلب من جيرانك : من جارك هناك ؟

– دبرينين هناك بالقرب – قال أبلوموف – غالباً ما كنت أراه هنا ، لكنه ، الآن ، هناك .

– اكتُبْ وقَدِّمْ له الرجاء جيداً : اكتب مثلاً : « اعمل هذا المعروف الكبير ، الذي لن أنساه ، وتصرف كمسيحي وصديق وجار » . وارفق مع الرسالة ، هديّةً ما ، من بطرسبورغ . . . علبة سجاير جيدة مثلاً . إذا لم تتصرّف على هذا النحو ، فلن تحصد شيئاً . يا لك من إنسان ضائع ! لو كنت مكانك ، لما تركت وكيل القرية يفلت مني ! متى يحين موعد البريد إلى هناك ؟

– بعد غد – قال أبلوموف .

اجلس الآن واكتب فوراً .

مادام البريد بعد غد ، فلماذا أكتب الآن ؟ ــ قال أبلوموف ملاحظاً. يمكنني أن أكتب غداً .

أكمل « أعمالك الخيرية » يا ميخا أندرييتش ــ أضاف أبلوموف ــ وسأضيف إلى الغداء أيضاً سمكة أو طائراً .

ماذا تريد مني أيضاً ؟ سأل تارانتييف .

ــ اجلس واكتب لي الرسالة . فكتابة ثلاث رسائل لن تأخذ منك كثيراً من الوقت ، أليس كذلك ؟ فأنت تكتب « بلا تصنّع » . . . ــ أضاف أبلوموف ، وهو يحاول أن يخفي ابتسامته ، ــ لولا ذلك ، لكان إيفان أليكسييتش قد كتبها . . .

ــ آه ، يا لتفتّقات ذهنك ــ أجاب تارانتييف ــ تريدني أن أكتب ! فأنا لم أكتب منذ ثلاثة أيام ، حتى في عملي الوظيفي : ما ان أجلس ، حتى تذرف الدموع من عيني اليسرى ، يبدو أنّ تيار الهواء قد أصابها ؛ كما يُصاب رأسي بالخدر بمجرد أن أكبّ على الكتابة . . . يالك من كسول .

ــ ليت أندريي يأتي سريعاً ؟ ــ قال أبلوموف ــ فهو يستطيع أن يتدبّر كل شيء . . .

ــ ها قد عثرت على فاعل خير ! قاطَعَهُ تارانتييف ــ يا له من ألماني ملعون ، ومن ماكر محتال !

كان تارانتييف يضمر عداءً غريزياً ونفوراً تجاه الأجانب . فالفرنسي والألماني والإنكليزي ، كانوا بالنسبة له عبارة عن مرادفات

للمحتال والمخادع والماكر وقاطع الطريق . حتى انه لم يكن يفرّق بين القوميات : فكلها في عينيه على حدٍّ سواء .

— اسمع يا ميخا أندريتيش — بدأ أبلوموف حديثه بصرامة — رجوتك مراراً بأنْ تكون أكثر ترفّعاً في لغتك ، وخاصّةً عندما يدور الحديث حول إنسان قريب منّي . . .

— إنسان قريب منك ؟ اعترض تارانتييف بحقد . — هل هو قريب لك ؟ إنه ألماني — فهذا أمر معروف لدى الجميع .

— إنه أقرب إليّ حتى من ذوي الأرحام : فقد ترعرعنا معاً وتعلّمنا سويّةً ، ولن أسمح بأيّة تفاهات كهذه . . .

استشاط تارانتييف غضباً .

— آه منك ؟ إذا كنت تفضل ذلك الألماني عليّ — قال تارانتييف — فلن أزورك بعد الآن .

وضع قبعته على رأسه ومضى باتجاه الباب . أما أبلوموف فقد لان على الفور .

— كان عليك أن تحترم فيه صداقتي ، وأن تتحدّث عنه بحذر أكثر — هذا كلّ ما أطلبه منك ! أعتقد انها خدمة ليست كبيرة .

— تريدني أنْ أحترم ألمانياً ؟ — قال تارانتييف باحتقار لا مثيل له — لماذا ؟

— لأننا ترعرعنا وتعلّمنا معاً ، كما سبق أنْ قلت لك .

— يا لها من أهمية عظيمة ! هذا الأمر لا يهمّني !

ـ لو كان هنا ، لأراحني بالتأكيد ، من كافة المشاغل منذ زمن بعيد ، دون أن يطلب مني نبيذاً ولا شمبانيا . . .

ـ هه ! تلومني ! تبّاً لك ولنبيذك وشمبانياك ! خذ نقودك . . . أين وضعتها ؟ نسيت تماماً المكان الذي وضعت فيه هذه النقود اللعينة !

أخرج قطعة ورقية ملطخة . امّحت كتابتها .

ـ كلا ، ليست هي ! . . . قال تارانتييف ـ أين وضعتها ؟ . . . وأخذ يفتّش في جيوبه .

ـ لا تجهد نفسك ! ـ قال أبلوموف ـ فأنا لا ألومك . بل أرجوك فقط . بأن تتحدّث بطريقة أكثر لياقة عن إنسان قريب منّي ، فعَل من أجلي الكثير الكثير . . .

ـ الكثير ! ـ اعترض تارانتييف بحنق ـ انتبه ، سيفعل لك أكثر ـ أَطعِمْه إذن !

ـ لماذا تقول ذلك لي ؟

أقول هذا ، لأنني سأرى اللحظة ، التي سيخدعك فيها صديقك الألماني هذا ، عندها ستعرف معنى أن يستبدل الإنسان مواطنه الروسي ، بشخصٍ ما متشرد . . .

ـ اسمع يا ميخا أندرييتش . . . بدأ أبلوموف .

ـ لا شيء يستحق السماع ، فقد سمعت كثيراً وعانيت منك الأمرّين ! الله وحده يعلم كم عانيت من الضيم . . . فوالده ، الذي لم ير الخبز في بلاده ساكسونيا ، جاء إلى هنا ليتكبّر علينا .

ـ لماذا تتهجّم على الموتى ؟ ما ذنب أبيه ؟

ـ كلاهما مذنب ، الأب والإبن ـ قال تارانتييف متجهماً ، وهو يطلق يديه في الهواء . ـ لم ينصحني والدي عبثاً ، بأن أحْذَرَ من هؤلاء الألمان ؟ فقد عرف الناس جيداً في حياته .

ـ ما الأمر الذي لا يعجبك في أبيه ، على سبيل المثال ؟ ـ سأل إيليا إيليتيش .

ـ مالا يعجبني فيه ، كونه أتى إلى مقاطعتنا في شهر أيلول بسترته وحذائه فقط . وفجأة ترك لابنه إرثاً كبيراً ـ ماذا يعني ذلك ؟

ـ كل ما تركه لابنه من إرث يساوي أربعين ألفاً ، قسم منه جاءه كصداق من زوجته ، أما الباقي فجاءه عن طريق تعليم الأطفال وإدارة أملاك الآخرين : فقد كان يتقاضى مرتباً جيداً .

ـ يا له من ابن جيد فمن الأربعين ألفاً ، التي ورثها عن أبيه ، سرعان ماكَوَّنَ رأسمالاً بقيمة ثلاثمائة ألفاً ؟ وعلى صعيد الوظيفة ، فقد رسب في امتحان تقدم له ليصبح موظفاً من المرتبة الثامنة ، وها هو الآن يسافر ويتجوّل ! إنه يطال كل شيء !

هل يفعل الإنسان الروسي الحقيقي ذلك كله ؟ الإنسان الروسي يختار أمراً واحداً فقط ، دون أن يستعجل الأمور . إنّه يأخذها برويّة ، وبهدوء ، ومع ذلك فإنه يبذل جهداً من أجل أن يحقق النجاح ! أما صديقك هذا فقد دخل لعبة الرشاوى ، ـ فمن السهل أن يدرك المرء كيف اغتنى ؛ ليس عملاً شريفاً هذا ! إنه أمر مستهجن ! لو كان

الأمر بيدي ، لحاكمت أمثال هؤلاء ! الشيطان وحده يعلم في أي بلاد يتسكع الآن ! — تابع تارانتييف — لماذا يتسكع في بلاد غريبة ؟

— يريد أن يتعلم ويعرف كل شيء .

— يتعلم ! ألا يكفيه ما علّموه ! ما الفائدة من هذا ؟ إنه يكذب ، لاتُصدِّقْهُ : فهو يخدعك كما يخدع طفلاً صغيراً . هل الكبار يتعلمون ؟ أتعرف ماذا يحكي ؟ يقول انه يتعلم ليصبح مستشاراً حكومياً ! فها أنت قد تعلمت في المدرسة . هل تتعلم الآن ؟ هل يتعلم ذاك أيضاً ؟ (قال ذلك ، وهو يشير إلى ألكسييف) . هل يتعلّم قريبه ؟ مَنْ مِن الناس الطيّبين يتعلم ؟ هل يداوم في المدرسة الألمانية ، ويتلقى الدروس هناك ؟ إنه يكذب ! لقد سمعت أنه ذهب ليرى إحدى الآلات ليوصي عليها : يبدو أنّ النقود الروسية أصبحت فائضة ! لو كنت قادراً ، لأودعته السجن . . . أية تصرفات هذه ! . . . كم تُعكِّر هذه التصرفات صفو نفسي .

انفجر أبلوموف ضاحكاً .

— لماذا تُكشّر عن أسنانك ؟ ألا أقول الحقيقة ؟

— لندع هذا الأمر ! — قاطعه إيليا إيليتيش — اذهب بحفظ الله حيثما تريد ، أما أنا فسأكتب الرسائل كلها مع إيفان ألكسييفيتش ، وسأحاول أنْ أضع مسودة خطتي بأسرع ما يمكن : وبالمناسبة ، سنفعل هذا سويّة . . .

انصرف تارانتييف باتجاه غرفة المدخل ، لكنه ما لبث أن عاد من جديد .

— لقد نسيت تماماً ! أتيت لعندك منذ الصباح لأمر — بدأ تارانتييف— لقد دُعيت لحضور عرس غداً : راكوتوف سيتزوج . اعطني بزة سهرتك يا صديقي ، فبزتي كما ترى ، بليت قليلاً . . .

— كيف يمكن ذلك ! قال أبلوموف متجهماً ، وهو يسمع الطلب الجديد هذا — بزتي ليست على مقاسك . . .

— على مقاسي ، — قال تارانتييف مقاطعاً — ألا تذكر بأنني قست سترتك :

بدت كما لو أنها قد فُصِّلَتْ خصّيصاً لي ! زاخار ، زاخار ! تعال إلى هنا أيها الثور العجوز ! صرخ تارانتييف .

زمجر زاخار كالدب ، لكنه لم يأت .

— استدعه يا إيليا إيلييتش . لماذا يتصرف هكذا ؟ — قال تارانتييف شاكياً .

— زاخار ! — صاح أبلوموف .

— يا إلهي ! دوّى صوت في غرفة المدخل ، تبعه وقع أقدام واثبة من مضجع زاخار .

ماذا تريد ؟ سأل زاخار ، مخاطباً تارانتييف .

— اجلب بزتي السوداء ! — قال إيليا إيلييتش آمراً — سيجربها ميخا أندرييتش ليرى إنْ هي على مقاسه : فهو سيذهب إلى العرس غداً . . .

— لن أعطيه البزة — قال زاخار بإصرار .

— كيف تجرؤ على قول ذلك ، عندما يأمرك سيّدك ؟ — صرخ تارانتييف . — إيليا إيلييتش ، لماذا لا ترسله إلى بيت المجانين ؟

— كفى ما لقيناه من مشاكل : تريدني أن أرسل عجوزاً إلى بيت المجانين ! — قال أبلوموف — اجلب البزة يا زاخار ؟ لا تعاند !

— لن أجلبها ! — أجاب زاخار ببرود — فَلْيُرْجِعْ الصدرية والقميص أوّلاً : فهما عنده منذ خمسة شهور .

لقد أخذهما بنفس الطريقة ، بمناسبة عيد ، فأصبحا أثراً بعد عين ؛ السترة مخملية ، والقميص رقيق هولندي : ثمنه عشرون روبلاً . لن أجلب البزة !

— وداعاً ! ليصحبكم الشيطان ! — ختم تارانتييف كلامه بحنق ، وهو ينصرف مهدداً زاخار بقبضة يده . — إيليا إيلييتش ، سأستأجر لك شقة — أتسمعني ؟ — أضاف تارانتييف .

— حسن ، حسن ! — قال أبلوموف بنفاذ صبر ، كي يتخلّص منه فقط .

ـ اكتب ما هو ضروري ـ تابع تارانتييف ـ لا تنسَ أن تكتب إلى الوالي وتذكر له أنّ لديك اثني عشر طفلاً « على الأقل » . ليكن الحساء جاهزاً في الساعة الخامسة ! ألَمْ تأمر بتجهيز الفطائر ؟

لكنّ أبلوموف كان صامتاً ، فلم يكن يسمعه منذ مدة من الزمن ، بل كان يفكّر بأمرٍ ما آخر وهو يغمض عينيه .

بخروج تارانتييف ، خيّم في الغرفة سكون ، لا يعكره شيء ؛ استمرّ عشر دقائق . كان أبلوموف منشغلاً بموضوع الرسالة إلى وكيل القرية ، وبالإنتقال المقبل إلى شقة أخرى ، كما كان مُتعَباً بعض الشيء من ثرثرة تارانتييف . وفي النهاية أطلق زفرة .

ـ لماذا لا تكتب ؟ ـ سأل ألكسييف بهدوء ـ لقد بريت لك القلم .

ـ حسن ، اذْهَبْ إلى مكانٍ ما بحفظ الله ! ـ قال أبلوموف ـ سأتولى الكتابة بمفردي ، أما أنت فستعيد كتابتها بعد الغداء .

ـ حسناً جداً ـ أجاب ألكسييف ـ حقاً قد أزعجاك بوجودي . . . سأذهب الآن لأبلغهم كي لا ينتظروا ذهابنا إلى كاترينغوف . وداعاً يا إيليا إيلييتش .

بيد أن إيليا إيلييتش لم يسمعه : إذ وضع رجليه تحته ، واضطجع على الأريكة ، ثم استغرق بعدها إما في النوم ، أو في التفكير

ـ ٧ ـ

ينتمي أبلوموف بالوراثة إلى طبقة النبلاء ، فهو موظف من الدرجة العاشرة يعيش في بطرسبورغ منذ إثني عشر عاماً دون أن يغادرها .

كان يعيش بادىء الأمر في عهد والديه بضيق أكثر ، حيث كان يسكن في غرفتين ، راضياً بخادمه زاخار فقط ، الذي أرسله والده معه من القرية ، لكنه أصبح بعد موت أبيه وأمه مالكاً وحيداً لثلاثمائة وخمسين نفساً ، أتته بالوراثة ، في إحدى المقاطعات النائية ، التي تكاد أن تقع في آسيا .

وبدلاً من الخمسة آلاف ، التي كان يتقاضاها ، أصبح دخله يتراوح ما بين سبعة وعشرة آلاف من الروبلات ؛ عندها أخذت حياته تتخذ آفاقاً أخرى أكثر بحبوحة ، فاستأجر شقة أكبر وأضاف طباخاً إلى خدمته ، واقتنى زوجاً من الأحصنة .

في تلك الأثناء ، كان لا يزال فتياً ، وإذا ماتعذّر علينا القول بأنه كان حيوياً ، فإنه يمكننا القول على الأقل ، بأنه كان أكثر حيويّة مما هو عليه الآن ؛ كان لا يزال مليئاً بالمطامح المختلفة ، الأمل يعيش فيه ، وكان ينتظر الكثير من القدر ومن نفسه أيضاً؛ كان يهيىء نفسه لمجالٍ ، لدورٍ — في عمله الوظيفي طبعاً ، وقد كان هذا هو الهدف من مجيئه إلى بطرسبورغ . ثم أخذ يفكّر بعد ذلك ، بدورٍ في المجتمع ؛ وفي الأفق البعيد ، في مرحلة الإنعطاف من الشباب المبكر إلى سن النضج ، كانت السعادة الزوجية في نهاية المطاف تداعب مخيلته وتبتسم له .

لكن الأيام مضت والسنين تتالت ، والزَّغَب تحوّل إلى لحية خشنة ، وبريق العينين تحوّل إلى نقطتين ذابلتين ، والقامة انحنت ، والشعر فَقَدَ نعومته ، فأصبح قاسياً ، والعمر تخطّى الثلاثين ، وهو لم يتقدم

خطوة واحدة بعد ، على أيّ صعيد ؛ فهو ما يزال يقف عند عتبة الحلبة ، في نفس المكان ، الذي كان يقف فيه منذ عشر سنوات مضت .

لكنه لا زال يتهيأ ويستعد ليبدأ حياته ، ما زال يرسم في ذهنه زخرف مستقبله ؛ ومع كل سنة يمضيها ، كان ينبغي عليه أن يبدّل شيئاً ويستبعد آخر في زخرفه ذاك .

كانت الحياة تنقسم في عينيه إلى نصفين : نصف يتكوّن من العمل والملل ، اللذين كانا مترادفين بالنسبة له ، وآخر يتكوّن من السكون والسرور الهادىء . لذا فإنّ المضمار الرئيسي ، أي الخدمة الوظيفية قد أربكته في بداية الأمر بصورة مزعجة .

فأبلوموف ، الذي تربّى بروح القرية ، وسط طباع وعادات موطنه الوديعة الدافئة ، كان مشبعاً بروح الوسط العائلي ، الذي عاشه ، قبل انتقاله إلى آفاق أوسع من العلاقة .

لذا فقد كان يتصوّر عمله الوظيفي المقبل كعمل عائلي لا أكثر ، من نوع العمل الخامل الكسول ، الذي كان يقوم به والده على سبيل المثال ، وهو يسجّل في دفتره الدخل والمصروف .

كان يفترض ، أنّ موظفي دائرةٍ ما من الدوائر الرسمية ، يشكّلون أسرة واحدة متحابة ، تهتم باستمرار ودأب براحة أفرادها وبمسراتهم المشتركة ، وكان يعتقد بأن التردد إلى مكان العمل والمداومة فيه ، ليس على الإطلاق ، دأباً إلزامياً يجب التقيّد به يومياً ؛ فالطقس

الممطر ، والقيظ ، وحتى مجرد عدم الرغبة ، يمكن أن تصلح أساساً كافياً وقانونياً لعدم المجيء إلى العمل .

كم كان حزنه عظيماً عندما علم أنّ هزّة أرضية يجب أنْ تحصل ، على أقل تقدير ، كي يُبَرَّر عدم مجيء موظف سليم الصحة إلى عمله الوظيفي ، لكن الهزات الأرضية لسوء الحظ ، لا تحدث في بطرسبورغ ، والطوفان يمكن أنْ يُقدّم ، بالطبع ، عذراً كافياً ، لكنه نادراً ما يحصل أيضاً .

كان أبلوموف يستغرق في تأمله عندما كانت تلوح أمام عينيه طرودٌ كُتِبَ عليها ضروري ، وضروري جداً ، وعندما كانوا يرغمونه لإنجاز معاملات ووثائق مختلفة ، فيغرق في العمل وفي كتابة كرّاسات بِسمْك إصبعين ، كانوا يسمّونها على سبيل السخرية ، مذكرات ؛ زد على ذلك ، أنه كان يُطلَب تنفيذ هذه الأعمال بسرعة ، فالجميع كانوا في عجلة من أمرهم ، لا يتوقّفون أبداً : فما أن يُنجَز عمل ، حتى يتبعه ، من جديد ، عمل آخر وما ان ينتهي حتى يليه عمل ثالث — فلا نهاية لهذا الأمر أبداً !

أُوقِظ مرتين ليلاً ليجبروه على كتابة « المذكرات » كما قُطِعَتْ زياراته بضع مرات — كلّ هذا بسبب الوثائق والمذكرات تلك . فجلب ذلك كله الخوف والسأم الرهيب له . « متى سأعيش ؟ متى سأعيش ؟ » — كان يُرَدِّد بإلحاح .

سبق له أن سمع في بيت والديه ، أنّ الرئيس في العمل هو أب

لمرؤوسيه ، فحفظ في ذاكرته صورة مشرقة باسمة ، صورة عائلية حميمة عن شخصية الرئيس . كان يتصوره كأب ٍ ثان ٍ يكافئ في أغلب الأحيان ، بحق ّ وغير حق ، مرؤوسيه ويهتم ّ ، ليس بحاجاتهم فحسب ، بل وبمسرّاتهم أيضاً .

كان إيليا إيلييتش يعتقد من قبل بأن ّ الرئيس حريص على وضع مرؤوسه ، يستفسر منه باهتمام : كيف نام في الليل ، ما سبب التعب البادي في عينيه ، هل ألمّ به صداع ؟

لكن ّ إحباطه كان شديداً ، منذ اليوم الأوّل من عمله الوظيفي . فمع وصول الرئيس ابتدأت الجلبة والململة ، فاضطرب الجميع وأخذوا يصطدمون ببعضهم من شدة الخوف ، بينما أخذ آخرون يصلحون هندامهم ، خشية ألا ّ يكونوا في وضع لائق كما ينبغي ، كي يبدوا أمام رئيسهم في أبهى صورة .

كان هذا يحدث ، كما لاحظ أبلوموف فيما بعد ، بسبب وجود بعض الرؤساء ، الذين يرون في تصرف كل مرؤوس يهرع لاستقبالهم بوجه هلع حتى الخدر العقلي ، ليس تكريماً لهم فحسب ، بل وحماساً أيضاً ، وموهبة في العمل الوظيفي .

لم يكن إيليا إيلييتش مضطراً لأن يضطرب أمام رئيسه ، الإنسان الطيب ، اللطيف في تعامله : فهو لم يلحق سوءاً بموظف عنده أبداً ، كما أن مرؤوسيه كانوا في غاية الرضا والإمتنان منه . لم يسمع أحد منهم قط ، كلمة نابية تصدر عنه ، ولا صراخاً أو جلبة ؛ فهو لا يطلب

شيئاً بصيغة الأمر أبداً ، بل بصيغة الرجاء . وإذا ما تَطَلَّبَ الأمر فعل شيء ، أو استدعاء مرؤوس ، أو توقيفه ، فإنه يفعل ذلك كله بصيغة الرجاء . فهو لم يخاطب أحداً قط بضمير أنت ، بل بضمير أنتم : فقد كان يستخدمه لمخاطبة الموظف الفرد ، والموظفين جميعاً .

بيد أن المرؤوسين جميعاً ، كانوا يتهيّبون أمام رئيسهم لسبب ما ، ويجيبون على سؤاله اللطيف ، بصوت آخر مغاير للصوت ، الذي يتكلمون به مع أناس آخرين .

كان إيليا إيليييتش بدوره ، يرتبك فجأة بمجرّد أن يدخل رئيسه إلى الغرفة ، دون أن يعرف سبب ذلك ، فما يلبث صوته أن يتغيّر ويصبح رفيعاً قبيحاً ، كأنه صوت أنسان آخر ، بمجرّد أن يبدأ رئيسه بالتحدّث إليه .

عاش إيليا إيليييتش قلقاً يعاني الخوف والضجر في خدمته الوظيفية ، حتى في ظل رئيس طيب متسامح . الله وحده يعلم ، ما كان سيحدث له ، لو أنه خدم بإمرة رئيس صارم عديم التسامح !

أمضى أبلوموف بصعوبة فائقة ، سنتين في الخدمة الوظيفية ، ولربما فكّر بتمديدها سنة ثالثة ، حتى يحين موعد الحصول على ترقية ، لكن حادثاً خاصاً أجبره على ترك عمله الوظيفي بوقت أبكر .

ذات مرة أرسل أبلوموف وثيقة هامة إلى أرخانغلسك بدلاً من أستراخان . ابتدأ التحقيق بالأمر ، وأخذوا يبحثون عن الفاعل .

كان الجميع ينتظرون بفضول ، كيف سيتم استدعاء أبلوموف

من قِبَل رئيسه ، وكيف سيجري الإستفسار بهدوء وبرود « إن كان إيليا إيلييتش ، هو الذي أرسل الوثيقة إلى أرخانغلسك » ، كما كانوا يحتارون بأي صوت سيجيب أبلوموف رئيسه .

البعض كان يفترض ، أنه لن يجيب مطلقاً : لأنه لن يستطيع .

كان إيليا إيلييتش يرتعد خوفاً بمجرد أن ينظر إلى الآخرين ، على الرغم من أن الجميع يعرفون بأن الرئيس سيكتفي بتوجيه ملاحظة لا أكثر ؛ لكنّ تأنيب الضمير ، بالنسبة لأبلوموف ، كان أكثر قسوة عليه من العقوبة والحكم .

لم ينتظر أبلوموف العقاب الذي يستحق ، بل ذهب إلى البيت وأرسل تقريراً طبياً .

كان التقرير يتضمن ما يلي : « أنا الموقع أدناه ، أشهد مع وضع خاتمي بأن الموظف إيليا أبلوموف مصاب بتضخم القلب وتوسّع في الجانب الأيسر من المعدة ، وبالتهاب مزمن في الكبد ، مما يهدد ، بشكل خطير ، صحة وحياة المريض . أمّا هذه الأعراض والأزمات فتحدث كما يُفتَرَض من جرّاء — الذهاب اليومي إلى العمل الوظيفي . لذا ، فمن أجل درء تكرار واستفحال هذه الأعراض والأمراض ، أرى من الضروري أن ينقطع المواطن أبلوموف عن الذهاب إلى الوظيفة مدةً من الزمن ، كما أقضي بأن يمتنع ، بوجه عام ، عن العمل الذهني وعن مزاولة أي نوع من أنواع النشاط » .

لكن هذا التقرير ساعده مدّةً من الزمن فقط . إذ كان لا بد أن

يتماثل للشفاء ، وبعدها سيصبح مُلْزَماً ، من جديد ، بالذهاب إلى وظيفته . فلم يتحمّل أبلوموف هذا الأمر ، فما كان منه إلا أن قدّم استقالته . هكذا انتهى نشاطه في الدوله ، ولم يتجدّد بعد .

أما الدور في المجتمع فقد تيسّر له على نحو أفضل .

في السنوات الأولى من إقامته في بطرسبورغ ، أي في سنوات شبابه المبكّر ، كانت قسمات وجهه الهادئه منتعشة في أغلب الأحيان ، كما ظلّت عيناه تشعّان بوهج الحياة فترة طويلة ، فتنبعث منهما أشعة الضياء والأمل والقوة . كان يضطرب ويتعلق بالأمل ، شأنه في ذلك شأن الجميع ، وكانت البهجة تغمره لأبسط الأمور ، كما كان يتألم لأتفه الأسباب .

كان ذلك كله منذ أمد بعيد ، في تلك المرحلة العذبة من العمر ، التي يفترِض الإنسان فيها ، أن يجد في أي شخص آخر صديقاً مخلصاً ؛ حدث ذلك في مرحلة من الزمن ، يمنح فيها الإنسان حبه لكل امرأة ، ويبدي استعداده للزواج منها ، الأمر الذي يتيسّر للبعض تحقيقه ، لكن غالباً ، بمزيد من الأسف طيلة الحياة .

في تلك الأيام السعيدة ، كان من نصيب إيليا إيلييتش أيضاً ، عدد غير قليل من النظرات الناعمة الدافئة ، وحتّى الشغوفة من جمهور الفتيات الفاتنات ، ووفرة من البسمات الواعدة ، وقبلتان أو ثلاث من القبلات غير المميّزة ، بالإضافة إلى عدد أكبر من المصافحات الودّية ، وألم يصل حتّى الدموع . لكنه بالمناسبة ، لم يقع في اسار

الجميلات ، ولم يكن عبداً لهنّ قط ، أو معجباً مواظباً مولعاً بهن ، لأنّ الإقتراب من النساء يفضي إلى متاعب كثيرة ، وغالباً ما كان أبلوموف يكتفي بانحناءة من بعيد ، على مسافة لا يستهان بها .

قلّما أن ساقه القدر لامرأة ، يمكن أن تنال منه منزلة ، أو تجعله مضطرماً بضعة أيام ، يعتبر فيها نفسه عاشقاً . فمغامراته الغرامية لم تتطورّ إلى قصص حب : فقد كانت تنقطع منذ البداية ، لكنها لم تكن تقلّ في براءتها وبساطتها وصفائها ، عن قصص حب تلميذة بلغت سنّ الرشد .

أكثر ما كان يتجنبه ، هنّ الفتيات الحزينات الشاحبات ، ذوات العينين السوداوين لدى الأغلبية الساحقه منهن ، التي تلتمع فيها « الأيام القاسية والليالي المظلمة » ، الفتيات اللواتي لا يبدين أتراحهنّ وأفراحهنّ لأحد ، واللواتي يؤتمَنّ ويُسَرّ لهنّ ، دائماً بشيء ما ، وعندما ينبغي البوح بما يخفينه من كلام ، فإنهنّ يرتعشن ويسكبن دموعهن على نحو مفاجيء ، ثم يطوقن رقبة الصديق بأيديهن وينظرن طويلاً إلى عينيه ، وبعدها إلى السماء ، ثم يقلن بأن حياتهن محكوم عليها باللعنة ، ويسقطن مغشياً عليهن في بعض الأحيان . كان يتجنّب أمثال ذلك النوع من الفتيات بخشية . فروحه كانت لا تزال نقية عذراء ، ربما تنتظر حبها ، موسمها ، شوقها المتأجج ، لكنها انقطعت عن الانتظار مع السنين ثم يئست أخيراً .

أصبح إيليا إيليتش يودعّ أصدقاءه بكثير من البرود . فبعد أن

تلقّى الرسالة الأولى من وكيل القرية ، عن الضرائب المستحقة والقحط ، استبدل على الفور ، صديقه الأول الطباخ ، بطاهية ثم باع الأحصنة ، وهجر في نهاية المطاف سائر أصدقائه .

لم يكن هنالك شيء يشغله عن البيت ، ومع كل يوم يمر ، فإنه كان يستقر في شقته بشكل أكثر ثباتاً وتشبّثاً .

أصبح صعباً عليه في بادىء الأمر ، أنْ يمضي اليوم كله وهو يرتدي ملابسه ، ثم أخذ يتكاسل ويتجنب تناول طعام الغداء في ضيافة أحد ، باستثناء معارفه المقرّبين ، وخاصة بيوت العازبين منهم ، حيث كان يستطيع أن ينزع ربطة عنقه ، ويفكّ أزرار صدريته حتى انه « كان ينعم بالإستلقاء » وينام ساعة .

سرعان ما أضجرته السهرات : لأنها كانت تتطلّب منه أن يرتدي بدلة السهرة ويحلق ذقنه يومياً .

قرأ في مكان ما ، بأن الأبخرة الصباحية هي المفيدة فقط ، بينما الأبخرة المسائية مضرّة ، فأصبح يخشى الرطوبة .

لكن ، على الرغم من هذه الأطوار الغريبة كلها ، فقد كان صديقه شتولتس يتمكّن من اصطحابه لتأدية بعض الزيارات ، لكن شتولتس غالباً ما كان يسافر من بطرسبورغ إلى موسكو ونيجيني والقرم ، ومن ثم إلى الخارج — وبدونه كان أبلوموف يغرق حتى أذنيه في وحدته وعزلته ، التي يمكن أن تخرجه منها فقط ، حادثة ما غير عادية ،

تخرج على ظواهر الحياة اليومية المألوفة ، لكن شيئاً من هذا لم يُتَوَقَّعْ حدوثه ، حتى في المستقبل المنظور .

زد على ذلك ، أنّ نوعاً ما من الخجل الصبياني وتوقُّع الخطر والشرّ من كل شيء ، قد عاوده مع الزمن ، نتيجةً لانقطاعه عن ظواهر الحياة الخارجية المتنوعة ، الأمر الذي لم يكن يُصادَفُ في مجال حياته اليومية .

لم يكن يخيفه ، على سبيل المثال ، تشقق السقف في غرفة نومه : فقد اعتاد عليه ولم يخطر بباله أيضاً قط ، ان الهواء الخانق في غرفته ، الموجود بشكل مستمر ، وجلوسه الدائم داخل غرفة مقفلة ، هو أشدّ ضرراً بالصحة من الرطوبة المسائية ، وان اتخام المعدة بالطعام يومياً هو نوع من الإنتحار البطيء ، فقد اعتاد ذلك كله ولم يكن يخشاه .

لم يألف الحركة والحياة ، لم يألف كثرة الناس والتنقل .

كان يشعر بالإختناق في زحمة الناس ، كان يجلس في القارب وهو يفقد الأمل بالوصول إلى الشاطىء الآخر بسلام ، كما كان يستقل العربة وهو يتوقع أن الأحصنة ستجمح وتتكسّر .

كأنّ هلعاً عصابياً ألـَمَّ به : كان يخشى الصمت الذي يحيط به ، أو أنه ببساطة لم يكن يعرف سبب القشعريرة ، التي تنتاب جسده . في بعض الأحيان ، كان ينظر بارتياب إلى الزاوية المظلمة في غرفته ، وهو يتوقع أن خياله سيجعل منه مضحكة ، وسيريه ظاهرة غير عادية .

هكذا لعب دوره في المجتمع . فقد يئس بتكاسل من آمال الشباب

التي خدعته ، أو التي انخدعت به ، ومن الذكريات العذبة ، الحزينة ، المشرقة التي يخفق قلب الآخرين شوقاً لذكراها

– ٧ –

ماذا كان يعمل في البيت ؟ هل كان يقرأ ، هل كان يكتب ؟ هل كان يتعلم ؟ أجل : فإذا ما وقع تحت يديه كتاب ، أو جريدة ، فإنه يقرأهما .

ما إنْ يسمع بمؤَلف ما رائع ، حتى يظهر عنده ميل لأخذ فكرة عنه ؛ فهو يبحث عن الكتب ويطلبها ، وإذا ما وصلته بسرعة ، فإنه يُقبِل عليها ، وتبدأ فكرة تتكوّن لديه عن الموضوع ؛ لكنّ خطوة أخرى تلزمه ، كي يتقنه ، الأمر الذي لم يكن يحدث ؛ تنظر إليه فتراه ما يزال مستلقياً ، وهو يتطلع بخمول إلى السقف ، والكتاب مرميّ بالقرب منه ، لم يكمل قراءته . فالفتور يتملكه على نحو أسرع مما يتملّكه الحماس ، فلم يكن يعود قط إلى الكتاب المهجور .

تعلّم في المدرسة الداخلية حتى سن الخامسة عشرة ، شأنه في ذلك شأن الآخرين ، شأن الجميع ، ثم قرر والداه بعد صراع طويل ، أن يرسلا أليوشا إلى موسكو ، ليتابع طوعاً أو كرهاً ، البرنامج التعليمي حتى النهاية .

لكنّ الطبيعة الخجولة الخاملة ، كانت تمنعه من ابراز كسله ونزواته أمام الناس الغرباء في المدرسة ، التي لم تُعْطَ فيها استثناءات لمصلحة الأولاد المُدلّلين . كان يجلس بمقتضى الضرورة في الصف

باستقامة ، يستمع إلى ما يقوله المعلمون ، لأنه كان يستحيل عليه فعل شيء آخر ، وكان يذاكر الدروس المعطاة له ، بعناء وعرق وآهات .

بوجه عام ، كان يعتبر ذلك عقاباً أنزلته السماء رداً على ذنوبنا .

لم ينظر قط ، أبعد من السطر الذي انتهى إليه المعلم لدى إعطائه الدرس ، ولم يكن يطرح أسئلة ، ولا يطلب إيضاحات . كان يكتفي بما هو مكتوب في الدفتر ؛ لم يُبدِ أيّ نوع من حبّ استطلاعٍ ملحاح ، حتى عندما لم يكن يفهم ما سمعه وقرأه .

وإذا ما أتمّ ، كيفما اتفق ، قراءة كتاب الحساب والتاريخ والاقتصاد السياسي بعد جهد جهيد ، فإنه كان يشعر بالرضى تماماً .

وعندما كان شتولتس يجلب له الكتب ، التي تنبغي قراءتها ، علاوة على ما هو مقرّر ، كان أبلوموف ينظر إليه طويلاً بصمت .

ــ أنت ضدّي أيضاً ! ــ كان يقول متأوّهاً ، وهو يتناول الكتب . فمثل هذه القراءة المفرطة ، كانت تبدو له صعبة ، غير عادية .

لِمَ هذه الدفاتر كلها ، التي يُهْدَر فيها الورق والوقت والحبر ؟ لِمَ هذه الكتب المدرسية ؟ أخيراً ، لِمَ هذه السنوات الست أو السبع من العزلة ، لِمَ هذه الإجراءات القاسية والعقوبات والجلوس والتعب على الدروس ؛ لِمَ هذا الحظر على الركض واللعب والتسلية ، وعلى كل شيء .

« متى سنعيش إذن ؟ ــ كان يسأل نفسه من جديد ــ متى سندخل في التداول هذا الرأسمال من المعلومات ، التي لا يحتاج المرء القسم

الأكبر منها ، في حياته ؟ خذ ، على سبيل المثال ، الإقتصاد السياسي ، والجبر والهندسة — ما حاجتي بهم في قريتي أبلوموفكا ؟ ومادة التاريخ نفسها لا تجلب إلا الضجر : تتعلّم ، تقرأ بأنّ زمن المحنة قد حلّ ، وأنّ الإنسان سيّء الحظ ، فتراه يبذل كل قواه ، يعمل ، يعجّ بالحركة ، يصبر ويكدح بصورة مريعة ، من أجل مستقبله المشرق .

ها هو الغد الباسم قد أتى — ليت التاريخ نفسه يستريح هنا : لكنّ شيئاً من هذا لا يحدث ، فتظهر السحب من جديد ، والبناء يتهاوى ثانية ، فيعود الإنسان إلى العمل والحركة . الأيام المشرقة لا تثبت ، فهي تمضي بسرعة — الحياة لا تتوقف ، كل شيء يجري ، كل شيء حطام بحطام .

القراءة الجادّة تتعبه . لم يستطع المفكرون أن يحرّكوا فيه ، الشوق إلى الحقائق التالية .

مقابل ذلك ، كان الشعراء يبعثون فيه الحياة ، فقد أصبح شاباً كالجميع . ها قد أقبلت لحظة الحياة السعيدة ، التي لا تخدع أحداً ، لحظة الحياة تبتسم للجميع ، لحظة تألّق القوى والآمال والكينونة وحب الخير ، لحظة الشجاعة والنشاط ، عصر خفقان القلب الجريء ، عصر النّبض القويّ والإرتعاش والخطابات الحماسية والدموع العذبة . فقد انجلى العقل والقلب معاً : فنفض النعاسَ عن كاهله ، فالروح كانت تطلب النشاط .

ساعده شتولتس على إطالة أمد هذه اللحظة بقدر ما هو ممكن بالنسبة

لطبع كالذي يتحلّى به صديقه . فقد استخدم شتولتس الشعراء مصيدة ، اقتنص من خلالها أبلوموف ، وأمسك به سنة ونصف سنة ، في ثنايا الفكر والعلم .

باستخدام الإندفاع الحماسي لحلم الشباب ، كان شتولتس ينشد من خلال قراءة الشعر أهدافاً أخرى غير التسلية والإستمتاع ، فقد كان يشير إلى الطريق الذي سيسلكه ، ويلمح إلى حياته المقبلة ويزيد من ولعه وتعلقه بالمستقبل . كانا يضطربان ويبكيان معاً ، ويقطعان العهود بالسير قدماً على الطريق المشرق السديد .

تأثر أبلوموف بعدوى حرارة الشباب عند شتولتس ، كان يتحرّق شوقاً للعمل ، الذي كان بالنسبة له هدفاً بعيداً ، لكنه ساحر .

بيد أنّ نور الحياة قد انطفأ ولم يعط ثماراً . فقد تاب أبلوموف إلى رشده ، وأصبح يقرأ أحياناً فقط ، بنصيحة من شتولتس على الأرجح، هذا الكتاب أو ذاك ، لكن بدون عجلة أو رغبة أو شوق ، بل بكسل ، وهو يمرّ على السطور مرور الكرام .

ما إنْ يحين موعد الغداء أو النوم ، حتى يتوقف عن القراءة ، مهما بلغ المقطع الذي يقرأ من المتعة والتشويق ؛ فيرمي الكتاب ، كيفما اتفق ، ويمضي إلى الغداء ، أو يذهب ليطفىء الشمعة وينام .

إذا جلبوا له مجلّداً أول من مؤلّف ما ، فلن يطلب المجلد الثاني لقراءته ، وإذا ما جُلب له ، فإنه يقرأه ببطء شديد .

حتى أنه لم يكن ينهي المجلدّ الأول ، ناهيك عن الثاني ، فقد كان

يمضي القسم الأكبر من وقت فراغه ، واضعاً مرفقه على الطاولة ، ورأسه فوق مرفقه ، الذي كان يستعيض عنه ، أحياناً ، بالكتاب ، الذي حدده شتولتس ليقرأه .

هكذا أنجز أبلوموف مضماره التعليمي . كان التأريخ ، الذي سمع فيه المحاضرة الأخيرة ، بمثابة تتويج جبار لسعة علمه . فقد اعتبر بطلنا الإمضاء ، الذي وضعه مدير المعهد على الشهادة ، خاتمة مطامحه التعليمية .

كان رأسه يمثل إرشيفاً من المسائل الميتة والوجوه والعصور والأرقام والديانات ، التي لا يجمعها جامع بالحقائق السياسية — الاقتصادية والرياضية وبغيرها من الحقائق الأخرى والقضايا والموضوعات . . . الخ .

كان رأسه بمثابة مكتبة مؤلفة من مجلدات غير كاملة ، مفككة حسب أقسام العلوم المختلفة .

كان تأثير التعليم على إيليا إيلييتش غاية في الغرابة : فبالنسبة له ، توجد بين العلم والحياة هوّة عميقة ، لم يحاول اجتيازها . فالحياة ، بالنسبة له ، مستقلة بحدّ ذاتها ، والعلم مستقل بحدّ ذاته أيضاً .

درس القوانين كلها ، حتى تلك التي لا يُعمل بها منذ زمن بعيد ، واجتاز حلقة بالمرافعات القضائية ، ومع ذلك ، فعندما كان يحتاج لكتابة مذكرة يرفعها إلى الشرطة بصدد حادثة سرقةٍ ما ، فإنه كان يتناول صحيفة من الورق وقلماً ، ثم يفكر ويفكر ، فيرسل بعدها لاستدعاء أحد الكتبة .

أما حسابات القرية فكان يقوم بها وكيله . « ما فائدة العلم هنا ؟ » — كان يحاكم الأمور بارتباك .

كان يعود إلى عزلته ، بعيداً عن عبء علومه . التي قد تستطيع أنْ تحرّك ، بحريّة في رأسه ، فكرة هائمة ، أو تدفع بخمول ، فكرة أخرى نائمة .

ماذا كان يفعل ؟ كان يرسم باستمرار زخرف حياته الخاصة . ما وجده من الحكمة والشاعرية في حياته ، لم يكن بدون أساس ، إذ لا يمكن اعتراف ذلك كله ، لولا الكتب وسعة الاطلاع .

بعد أن ترك عمله الوظيفي والمجتمع : بدأ يحل مسألة الوجود بطريقة أخرى ، ويفكّر برسالته في الحياة : فاكتشف أخيراً ، بأنّ أفق نشاطه وحياته وكينونته ، إنما يكمن في ذاته .

أدرك بأنّ السعادة العائلية وتدبير أملاكه ، إنما يقع على عاتقه . فحتّى ذلك الوقت ، لم يكن يعرف أموره جيداً : كان شتولتس يتدبر الأمور ، أحياناً ، بدلاً منه . لم يعرف بالتحديد ، دخله ولا مصروفه ، ولم يضع ميزانية قط — باختصار ، لم يكن يعرف شيئاً .

أما أبلوموف العجوز الأب ، فقد سلّم ابنه الأرض كما استلمها من والده تماماً ، فلم يعقّد الأمور ، مع انه عاش قرناً بكامله في القرية ، ولم يُتعبْ نفسه بمشاريع مختلفة ، كما يفعل الناس الحاليون : كأنْ يبتكر بعض المصادر الجديدة لزيادة دخل الأرض ، أو يُعمِّم ويعمّق الوسائل القديمة . . . الخ .

ظلّ يزرع الأرض كما كان يزرعها الأجداد ، كما بقيت أساليب تسويق المحصول في عهده على ما كانت عليه في ظل الأجداد أيضاً .

بالمناسبة ، كان أبلوموف العجوز الأب راضياً جداً ، فإذا ما أعطى محصول جيد أو سعر مرتفع دخلاً أعلى من السنة الفائتة : فإنه كان يسمي ذلك نعمة إلهية . أمر وحيد لم يكن يحبه ، هو الابتكارات والجهود الشاقة من أجل الحصول على الأموال .

– لم يكن الآباء والأجداد أكثر حماقة منا ، – كان يردّ في إجابته على أية نصائح ضارة من وجهة نظره ، – لقد عاشوا عمرهم بسعادة ، فليوفقنا الله لأن نحيا كما عاشوا .

وإذا ما حصل من أملاكه ، . دون اللجوء إلى حيلة أو مكر أو خداع ، على دخل يكفيه لأن يتغدى ويتعشى يومياً مع أسرته وسائر ضيونه – فإنه كان يشكر الله على ذلك ، ويعتبر السعي لاقتناء ما هو أكثر ذنباً .

وإذا ما جلب له ناظر القرية ألفين من الروبلات وأخفى ألفاً في جيبه ، ثم يدأ يتباكى متذرّعاً بالصقيع والجفاف والقحط ، فإنّ أبلوموف الأب كان يرسم إشارة الصليب ويقول باكياً : « هذه إرادة الله . وإرادة الله لا تناقش ! فلنشكر الله على ما نحن فيه » .

لم تتحسن الأحوال الاقتصادية في القرية ، منذ وفاة العجوزين ، بل إنها ساءت كما يبدو من رسالة وكيل القرية . وأصبحت الضرورة تقتضي ، كما سبق أن اتضح ، بأن يسافر إيليا إيلييتش بنفسه إلى هناك ،

كي يستوضح على الطبيعة : الأسباب الكامنة وراء التناقص التدريجي للدخل .

عزم على فعل ذلك ، لكنه كان يؤجّل الأمور باستمرار ، لأن السفر بالنسبة له ، كان يُعتبر ، إلى حدٍّ ما ، تضحية جديدة مجهولة .

سافر في حياته مرّةً واحدة فقط ، وسط فرشات الريش والحقائب وأفخاذ الخنازير المقدّدة وأرغفة الخبز ولحم المواشي والطيور ، المقلي والمسلوق ، بصحبة العديد من الخدم .

هكذا أنجز سفره الوحيد من قريته إلى موسكو ، فاتّخذ من سفره ذاك مقياساً لكل الأسفار بوجه عام . سمع : بأنّ الناس لا يسافرون ، الآن ، بهذه الطريقة : إذ أصبحوا يسافرون بسرعة .

كان إيليا إيلييتش يؤجّل سفره أيضاً ، لأنه لم يكن جاهزاً بعد ، كما ينبغي ، لمباشرة أعماله .

لم يكن على شاكلة أبيه وجدّه . فقد تعلم وخالط الناس ، الأمر الذي خلق لديه تصوّرات عديدة غريبة عنهما . كان يدرك بأنّ الكسب ليس ذنباً ، حتى أنه كان يعتقد ، أن من واجب كل مواطن أن يدعم بعمله الشريف ، الرفاه العام .

لذا ، كانت خطته الجديدة المكرسّة لتنظيم أملاكه وإدارة شؤون الفلاّحين ، التي يجب أن تواكب العصر ، تشغل القسم الأكبر من زخرف حياته ، الذي كان يرسمه في عزلته .

التنظيم هو الفكرة الرئيسية في خطته ، فالأقسام الأخرى جاهزة

في ذهنه منذ زمن طويل ، ولم يبق إلاّ التفاصيل فقط . من كشوف تقديرية وأرقام .

ما فتىء منذ سنوات عدّة يعمل بلا كلل ، لإعداد خطته ، وهو يفكر ويتأمل ، فيضيف شيئاً ما أثناء سيره أو استلقائه ، أو على مرأى من الناس أيضاً ، ويبدّل فقرات مختلفة مستعيداً في ذاكرته ما ابتكره البارحة ونساه في الليل ؛ وأحياناً ، تلتمع في رأسه فجأة كالبرق ، فكرة جديدة غير متوقعة ، فتبدأ بالغليان ، عندها يبدأ العمل .

فهو ليس منّفذاً بسيطاً لفكرة غريبة جاهزة ، بل هو مبدع ومنفذ لأفكاره الخاصة .

ما ان ينهض صباحاً من فراشه ، حتّى يستلقي على الأريكة بعد تناول الشاي مباشرة فيسند رأسه بيده ويبدأ بالتفكير ، دون أن يضنّ بالجهد ، فيستمرّ على هذا النحو ، حتّى تتعب رأسه من العمل المضني ، فيناديه ضميره قائلاً : كفى ما فعلت اليوم من أجل الخير العام .

عندها فقط ، يقرّر أن يستريح من أعباء العمل . فيستبدل وضعيته المتحفّزة بأخرى أقلّ صرامة وجهداً ، وأكثر ملاءمة للأحلام والتنعّم .

ما ان يتحرر أبلوموف من هموم العمل ، حتّى يغوص في ذاته ، ويعيش في عالم خلقه بنفسه .

كان سهلاً عليه الإستمتاع بالأفكار السامية . فهو لم يكن غريباً عن الشجون الإنسانية العامة . كان يبكي بمرارة من الأعماق على مصائب البشرية ويتألّم للعذابات المجهولة ، ويعاني القلق ، وينشد السعي إلى

مكان ما بعيد ، ربما إلى ذلك المكان ، الذي حبّبَه به شتولتس في وقت من الأوقات . . . . .

كانت الدموع العذبة تسيل على وجنتيه . . .

يحدث أيضاً أن يبدي الإزدراء إزاء العيب البشري ، إزاء الكذب والنفاق والشر ، الذي ينتشر في العالم ، فتتأجج فيه الأفكار فجأة ، وتتحرك في رأسه كالأمواج في البحر ثم تتطور بعدها إلى نوايا تحرق دمه ، فتتحرك عضلاته وتنتفخ عروقه ، وتتحول النوايا إلى رغبات : ثم يغير بسرعة وفي أقل من لحظة ، وضعيتين أو ثلاث من أوضاع جسده مدفوعاً بقوة أخلاقية ، فينهض نصف نهوض وعيناه تلمعان ، ثم يمد يده ويتطلع حوله بإلهام . . . ستتحقق الرغبة ، ستتحول إلى تضحية . . . عندها يا إلهي ! يا للعجائب ، يا للنتائج الرائعة ، التي يُتوقَع انتظارها من جهد عظيم كهذا ! . . .

ها هو ذا الصباح يلوح ، والنهار ينفذ ويميل نحو الليل ، فتميل معه قوى أبلوموف المتعبة لتهجع إلى السكينة : فتستكين في نفسه العواصف والتهيجات ، وتصحو رأسه من الأفكار ثم يجري دمه بهدوء في عروقه . ينقلب أبلوموف بهدوء على ظهره ، ويركز نظرة حزينة على النافذة ، ثم يتطلع إلى السماء والحزن في عينيه ، يرافق الشمس التي تحتجب وراء بيتٍ ما مُكوّنٍ من أربع طوابق .

كم وكم رافق مغيب الشمس على هذا النحو !

وفي الصباح ، تعود الحياة من جديد ، فتعود معها الاضطرابات

النفسية والأحلام ! كان يحبّ أن يتصور نفسه ، أحياناً ، قائداً عظيماً لا يقهر ، قائداً يتلاشى أمامه ، ليس نابليون فحسب ، بل وأرسلان لازاروفيتش أيضاً ؛ كان يحبّ أن يختلق الحرب وأسبابها : كأنْ تندفع ، على سبيل المثال ، شعوب من إفريقيا إلى أوروبا ، أو كأنْ يختلق حملات صليبية جديدة . فيحارب ويقرر مصائر الشعوب ، وينهب المدن ، ويعفو ويعدم ، ثم يبدي ضروب التضحية والخير والشهامة.

أو انه يختار ويتقمص شخصية مفكّرٍ أو فنان عظيم : فينحني الناس إكراماً له ، ويفوز بأكاليل الغار وتسير الجماهير وراءه هاتفة : « انظروا ، انظروا ، إنه أبلوموف ، إيليا إيلييتش المشهور ! » .

وفي اللحظات المرة القاسية ، تراه يتألم من الهموم ويتقلب من جنب إلى جنب ، وينبطح على وجهه ، حتى انه ينذهل تماماً في بعض الأحيان ، فينهض من الفراش ويجثو على ركبتيه ويبدأ الصلاة بحرارة ودأب ، متوسلاً للسماء بأن تحميه من كارثةٍ ما محدقة .

بعدها ، يسلم أمره للسماء ، فيصبح هادئاً غير مبال بكل شيء في هذا العالم ، كأنّ لسان حاله يقول : فلتفعل العاصفة ما تشاء .

هكذا كان يُسيّر قواه الأخلاقية ، هكذا كان يضطرب ، غالباً ، أياماً بكاملها ، ثم يصحو من حلمه الساحر ، أو من قلقه المضني وهو يتأوه بعمق ، في الوقت الذي يجنح فيه النهار إلى الليل ، حيث تصبح الشمس قرصاً كبيراً يختفي بروعة وراء بيت مؤلّف من أربع طوابق .

فيعود ليودّعها من جديد ، بنظرته المتأملة وابتسامته الحزينة ، ثم ينام بسلام بعيداً عن الهواجس والإضطراب النفسي .

لم يكن أحد يعرف أو يرى العالم الداخلي هذا إلا إيليا إيلييتش : فالجميع كانوا يعتقدون بأن أبلوموف ينام ويأكل هنيئاً مريئاً فقط ، إذ لا يتوقع المرء شيئاً منه أكثر من ذلك ، كما كانوا يحسبون بأن ذهنه خالٍ من أية أفكار . ذلك هو التصوّر السائد عنه ، بالنسبة لمن كانوا يعرفونه .

بيد أن شتولتس كان يعرف بالتفصيل مكنونات نفسه ويعترف بمواهبه ويقف على حقيقة النشاط البركاني الداخلي لذهنه المتوقد ، ويدرك مشاعر قلبه الإنساني . لكن شتولتس لم يكن يتواجد تقريباً في بطرسبورغ .

أما زاخار ، الذي أمضى حياته كلها بالقرب من سيده ، فقد كان الشخص الوحيد الذي يعرف بشكل أكثر تفصيلاً أيضاً ، حياة أبلوموف الداخلية كلها ، لكنّه كان مقتنعاً بأنّ سيده يعمل ويعيش بشكل طبيعي . كما ينبغي ، وانه لا يتوجّب العيش بطريقة أخرى .

— ٧ —

كان زاخار في الخمسين من عمره . لم يكن ينتمي مباشرة إلى أولئك الخدم الروس ذوي النزعة الفروسية ، الذين لا يعرفون الخوف واللوم . المشبعين بالإخلاص لأسيادهم حتى درجة نكران الذات ، الخالين من أية عيوب ، والذين يتحلّون بكافة الفضائل .

ففارسنا هذا كان من النوع الذي يعرف الخوف واللوم . فهو ينتمي إلى عصرين ، وسمه كل منهما بميسمه . أحدهما أورثه إخلاصاً لا حدود له لبيت آل أبلوموف . بينما ورث من العصر الآخر الرقة وفساد الأخلاق .

ومع أنه كان مخلصاً لسيده بحماس ، فقد كان على الرغم من ذلك ، غالباً ما يكذب عليه . فخادم الزمن الماضي ، كان يحافظ على سيّده من التبذير والإفراط ، أما زاخار فكان يحبّ أن يشرب مع أصدقائه على حساب سيّده ؛ الخادم في الزمن الماضي عفيف كالخصيّ ، بينما زاخار يركض وراء امرأة ذات سمعة سيّئة . الخادم في الزمن الماضي يحافظ بأمانة على أموال سيّده أكثر من أي صندوق . بينما يسعى زاخار ليقتطع من أموال سيّده لدى ابتياعه أي شيء قطعة نقدية من فئة العشر كوبيكات . ويستولي حتماً على كلّ قطعة نقدية معدنية من فئة العشر أو الخمس كوبيكات . وإذا ما نسي إيليا إيليتش أن يطلب من زاخار ما تبقّى من ورقة نقدية ، فإن القروش الباقية لن ترجع أبداً .

لم يسرق زاخار مبالغ كبيرة ، ربمّا لأنه كان يحسب حاجياته بقطع نقدية من فئة العشرة قروش ، أو لأنه يخشى افتضاح أمره . لكنه لم يمتنع عن ذلك ، في كل الأحوال بسبب من الإفراط في النزاهة .

كان الخادم ذو النزعة الفروسية ، المنتمي إلى الزمن الماضي ، يفضّل أن يموت من أجل حماية ما يؤتمن عليه ويُكلّف به ، شأنه

في ذلك شأن كلب الصيد المروّض جيداً ؛ أما زاخار فيتطلع ليأكل ويشرب ما كلفوه به ؛ ما يهتم به ذاك هو أن يأكل سيدّه أكثر ، فيصبح متبرّماً ضجراً عندما لا يأكل سيده ، أما هذا فتراه متبرماً ضجراً عندما يأكل سيده كل شيء وُضع في الصحن .

زد على ذلك ، أن زاخار يحب النميمة والفتنة أيضاً : فهو لا يكفّ عن الشكوى يومياً في المطبخ والمخزن وعند بوّابة الدّار ، حيث يقول بأنّ حياته لا تطاق ، إذ لا يوجد من هو أكثر سوءاً من سيدّه ، ثم ينعته قائلاً ، بأنه بخيل . ساخط . لا يمكن إرضاؤه . وأن الموت باختصار أفضل من العيش معه .

لم يكن زاخار يفعل ذلك بسبب طبيعته الشريرة أو رغبته في إلحاق الأذى بسيدّه ، وإنّما بفعل العادة ، التي توارثها أباً عن جدّ — وهي شتيمة النبيل صاحب الأملاك ، في كل مناسبة .

وبسبب من ضجر أو فقدان مادة للحديث ، ومن أجل أن يخلق لدى مستمعيه اهتماماً أكبر بما يقال ، فقد كان ينشر ، أحياناً ، عن سيدّه أخباراً مُختلَقَة لا أساس لها .

— إنّ سيدي يتردّد باستمرار على تلك الأرملة ، — كان زاخار ، يقول بصوت خافت أجش . — فقد كتب لها رسالة البارحة .

أو كأنْ يعلن . بأن سيدّه مقامر سكير لا مثيل له في العالم ، يمضي الليالي وهو يلعب القمار ويدمن على السكر .

لكن شيئاً من هذا لم يحصل : فإيليا إيليييتش لا يتردّد على أرملة . وينام الليالي كلها بوئام ، كما لم يلمس بيديه ورق لعب قط .

كان زاخار قذراً . لا يحلق ذقنه إلا نادراً ومع أنه يغسل يديه ووجهه ، إلا أنه على ما يبدو ، يتظاهر بفعل ذلك لا أكثر ؛ كما أنه لا يستخدم أي نوع من الصابون .

وعندما يكون في الحمام ، يجد نفسه بحاجة إلى ساعتين من الجهد لإزالة السواد . كي تعود يداه لتصبحا حمراوين .

إنه أخرق جداً : عندما يشرع بفتح البوابة أو الأبواب الأخرى . تراه يفتح مصراعاً واحداً . فما يلبث الآخر أن ينغلق ، فيركض ناحيته فينغلق الأول .

إنه لا يستطيع أبداً أن يلتقط فوراً من الأرض منديلاً أو أية أشياء أخرى ، فهو ينحني دائماً ثلاث مرات . كأنه يصطاد اصطياداً . وعندما يتمكن من التقاطه ورفعه في المرة الرابعة ، فإنه يسقط أحياناً . من يده ثانيةً .

وإذا ما حمل عبر الغرفة كومة من الآنية أو من أشياء أخرى ؛ فإنّ الأشياء التي فوق . تبدأ بالسقوط منذ أول خطوة يخطوها . يسقط أحد الأغراض في البداية . فيقوم فجأة بحركة متأخرة لا جدوى منها . كي يحول دون سقوطه . لكنه يُسقِط غرضين آخرين أيضاً . فينظر المغفل في حيرة إلى الأشياء . التي سقطت ؛ لا إلى الأشياء التي بقيت في يديه ، مما يجعله يحمل الصينية بشكل غير متوازن . فتستمر الأشياء

بالسقوط – وهكذا فإنه يحمل ، أحياناً كثيرة ، إلى الطرف الآخر من الغرفة صحناً أو كأساً ، ثم يرمي ، أحياناً ، آخر ما تبقى معه ، وسط سيل من السباب والشتائم .

تراه وهو يسير في الغرفة ، يصدم الطاولة أو الكرسي ، تارة بساقه وأخرى بجنبه ، كما أنه لا يستطيع دائماً أن يخرج مباشرة من مصراع باب مفتوح دون أن يصدم بكتفه المصراع المغلق ، فيصب جام غضبه وشتائمه على المصراعين معاً ، أو على صاحب البيت ، أو النجار ، الذي صنعهما .

كل الأشياء الموجودة في حجرة أبلوموف تقريباً ، مكسّرة محطّمة ، خاصة الأشياء الصغيرة الدقيقة ، التي تتطلب تعاملاً حذراً معها – كلّ هذا بفضل زاخار . فهو يعمّم موهبته في تناول الأشياء على كل الأغراض دونما تمييز ، إذ لا يفرّق في أسلوب تعامله بين شيء وآخر .

فإذا ما طلب منه ، على سبيل المثال ، إزالة الهباب من شمعة ، أو إملاء كأس ماء : فإنه يستخدم من القوة لتنفيذ ذلك ، نفس المقدار الذي يتطلبه فتح بوابة .

وإذا ما التهب زاخار حماساً ونشاطاً لإرضاء سيده ، وفكّر بأنْ يرتبَ وينظّف وينظّم كل شيء ، لا قدّر الله ، فإنّ المصائب والخسائر ستكون بلا حدود : إذ ان من المشكوك فيه أنْ يلحق جندي معادٍ ، اقتحم البيت عنوة ، من الضرر ، مثل ما سيلحقه زاخار . فيبتدىء التحطيم وسقوط الأشياء المختلفة وتكسير الآنية ، وقلب الكراسي ؛

وينتهي الأمر بطرده من الغرفة ، أو بخروجه من تلقاء نفسه ، وهو يكيل الشتائم واللعنات .

لكنه لحسن الحظ ، قلّما يلتهب حماساً للعمل .

كان ذلك كله يحدث ، بالطبع ، لأنّ أبلوموف قد تربّي واكتسب صفاته وسلوكه ليس في الزحام والضيق وظلام الحجرات والمخادع المترفة المرتبة غير المألوفة ، حيث الشيطان وحده يعلم ما وُضع فيها من أشياء كثيرة ، بل في القرية ، حيث الهدوء والفسحة والهواء المتجدد الطليق .

اعتاد أنْ يخدم هناك بالقرب من الأشياء الضخمة ، دون أنْ يعرقل حركاته أي شيء : فأكثر ما كان يتعامل معه ، هي الأدوات المتينة القوية : كالمجرفة والعتلة وأقواس الأبواب الحديدية ، وذلك النوع من الكراسي ، التي لا يمكن تحريكها من مكانها .

أما الأشياء الأخرى كالشمعدان ، والمصباح واللوح ونشافة الحبر ، التي يمكن أن تبقى مكانها دون أنْ يصيبها أذى ، ثلاث أو أربع سنوات ؛ فإنها تنكسر بمجرّد أنْ يلمسها . — آه يا سيدي ، انظر ، يا للغرابة : ما ان لمست يدي هذه القطعة ، حتّى انكسرت فوراً ! — كان زاخار يقول هذا ، أحياناً ، أثناء حدوث ذلك ، وهو يخاطب سيده أبلوموف .

أو انه لا يقول شيئاً مطلقاً ، بل يسرع في وضع القطعة سرّاً مكانها ، ثم يؤكّد لسيده بعدها ، بأنه لم يكسرها أبداً ؛ وأحياناً يتذرّع ، كما

لا حظتم في البداية ، بأنّ الشيء يجب أن يكون له عمر ونهاية ، فهو لن يبقى أبد الدهر ، حتى لو كان من حديد .

كان النقاش معه لا يزال ممكناً في الحالتين الأوليتين ، لكن عندما كان يتسلح ، عند الحاجة القصوى ، بحجّته الأخيرة ، فإنّ أية معارضة له تكون بلا جدوى ، إذ كان يعتبر نفسه محقّاً بشكل قطعي .

ذات مرة ، حدّد زاخار لنفسه وإلى الأبد ، مجالاً محدّداً لنشاطه ، لا يتجاوزه طواعية على الإطلاق .

في الصباح ، كان يشعل النار في السماوار وينظف الحذاء ، وأحياناً ، الملبس الذي طلبه سيده ، لكنه لم ينظّف يوماً أي لباس لم يُطلَب ، حتى ولو بقي معلّقاً عشر سنوات .

بعدها كان يكنس وسط الغرفة — لكن ، ليس يومياً — دون أن يصل إلى الزوايا ، كما كان ينفض الغبار عن تلك الطاولة فقط ، التي لا يوجد عليها شيء ، كي لا يبذل جهداً في نقل الأشياء .

بعد ذلك ، كان يمنح نفسه كل الحق بأن ينام في مضجعه ، أو يثرثر مع أنيسيا في المطبخ ومع الخدم عند البوابة ، دون أن يأبه بشيء .

وإذا ما طُلِب منه أن يفعل شيئاً ما ، زيادة على ذلك ، فإنه كان ينفذ الأمر دونما رغبة ، بعد مجادلات وقناعات بعدم جدوى الأمر ، أو بعدم إمكانية تنفيذه .

لقد فشلت كل الوسائل الرامية لإقناعه ، بأنْ يُدخِل بنداً دائماً في مجال الأعمال ، التي رسمها لنفسه .

فإذا ما طُلِب منه أن ينظف أو يغسل شيئاً ، أو أن يأخذ ويجلب آخر ، فإنه كان ينفذ الأمر ، كعادته ، بتذمّر : لكن إذا ما طلب منه أحد ما أن يفعل الشيء ذاته ، بشكل دائم ، فإنّ إحراز ذلك كان ضرباً من المستحيل .

كان يجب أنْ يؤمر ، من جديد ، في اليوم الثاني والثالث . . . الخ ، لأن يفعل الشيء ذاته ، الأمر الذي كان يستلزم ، من جديد أيضاً ، الدخول معه في توضيحات مزعجة .

بالرغم من ذلك كله ، أي بالرغم من أنّ زاخار كان يحب تعاطي المشروبات الكحولية والفتنة والنميمة وسرقة القطع النقدية من فئة العشر كوبيكات ، وتكسير الأشياء المختلفة وتحطيمها ، وعلى الرغم من كسله أيضاً ، فإنه كان خادماً مخلصاً من الأعماق لسيده .

ربما أبدى استعداده لأن يحترق ويغرق في سبيله ، دون أن يعتبر ذلك تضحية تستدعي الاستغراب أو تتطلب مكافأة . كان يعتبر ذلك أمراً طبيعياً لا يمكن التصرّف إلاّ بمقتضاه ، أو بتعبير أفضل ، فإنه لم يكن يفترض ذلك فحسب ، بل كان يتصرّف ، أيضاً ، على هذا النحو دون أي تردّد .

لم تكن لديه أية نظريات بهذا الصدّد ، إذ لم يخطر بباله قط ، أن يخضع مشاعره وعلاقاته بإيليا إيليتش لأي تحليل ، لأنه لم يكن هو الذي ابتكرها ، بل توارثها عن أبيه وجدّه وإخوته وزملائه من الخدم ، الذين تربّى ووُلِد بينهم ، ثم أصبحت هذه المشاعر تسري في لحمه ودمه .

كان زاخار مستعداً لأن يفدي سيده بروحه ، معتبراً ذلك واجباً حتمياً عادياً ، فهو تماماً كالكلب الذي يرمي بنفسه على وحش صادفه في الغابة ، دون أن يفكّر بالسبب الذي دفعه إلى ذلك ، ولم يدفع سيده .

مقابل هذا ، إذا ما تطلب الأمر من زاخار ، على سبيل المثال ، أن يجلس الليل كلّه بالقرب من سرير سيده ، دون أن يغمض له عين ، فإنه سينام حتماً ، حتى ولو توقفت صحة سيده ، لا بل حياته كلها على ذلك .

لم يكن يكتفي ، ظاهرياً ، بالإمتناع عن إبداء أي نوع من الخنوع ، أمام سيده فحسب ، بل كان فظاً ، كثير الدالة في الحديث معه ، كان يغضب منه دون أنْ يظهر ميلاً إلى الدعّابة ، حتى أنه كان يغتابه عند البوابة ؛ بيد أنّ هذا لم يكن يحدث إلاّ لفترة محدودة فقط ، ولم يكن لينتقص أبداً من شعوره الفطري المشبع بالإخلاص تجاه إيليا إيلييتش شخصياً ، لا بل تجاه كل من يحمل اسم أبلوموف ، وتجاه كل ما هو قريب منه ، وعزيز غال عليه .

ربما كان شعور زاخار هنا متعارضاً مع وجهة نظره إزاء شخصية أبلوموف ، فلعلّ دراسة طباع سيده ، قد توحي له بقناعات أخرى . من المحتمل ، أنّ زاخار سيعارض ذلك ، لو أنّ أحداً وضّح له درجة تعلقه بإيليا إيلييتش .

أحب زاخار أبلوموفكا ، كما تحب القطة علّيتها ، والحصان اصطبله ، والكلب بيته ، الذي وُلِد وترعرع فيه . ففي إطار تعلقه هذا ، تكوّنت لديه انطباعاته الشخصية الخاصة .

أحبّ في قريته ، مثلاً ، الحوذي أكثر من الطباخ ، والراعية بربارا أكثر من الاثنين معاً ، وإيليا إيلييتش أقلّ منهم جميعاً ، بيد أنّ أيّ طباخ في أبلوموفكا ، كان بالنسبة له أفضل من كل الطباخين الآخرين في العالم ، أما إيليا إيلييتش فكان بالنسبة له فوق كل الاقطاعيين منزلة .

لم يكن يطيق خادم البوفيه تاراسكا ، لكنه لم يكن ليستبدل تاراسكا هذا بأحسن رجل في العالم كله ، لسبب واحد فقط ، هو أن تاراسكا من قرية أبلوموفكا .

كان يخاطب أبلوموف بفظاظة وبلا تكلف ، تماماً كما يخاطب الساحر التركي صنمه المعبود بفظاظة وبلا تكلّف : فهو ينهره ، ويحطّ من شأنه ، وربما يضربه ، أحياناً ، لكنه يبقى ، على الرغّم من ذلك كله ، مدركاً باستمرار ، تفوّق طبيعة هذا الصنم المعبود عليه .

فأبسط الأسباب كان كافياً لأنْ يُثير هذا الشعور في أعماق زاخار ، ويجبره على أنْ ينظر إلى سيده باحترام وبتبجيل ، حتى انه كان يذرف الدموع ، أحياناً ، من شدة الحنان والتأثر — كان يضع سيده في منزلة تفوق في سموها منزلة السادة الآخرين جميعاً ! حتى انه لم يرضَ بأَنْ يُوضَع أي سيد آخر في منزلة تكافىء منزلة سيده .

كان زاخار ينظر إلى جميع السادة الآخرين ، القادمين إلى أبلوموف ، ويخدمهم بشيء من الترفع ، ويقدّم لهم الشاي وغيره ببعض التسامح ، كأنّه يريد أن يشعرهم بتشرفهم في مقابلة سيده . كان يعترضهم

بفظاظة ، ويتفحص القادم منهم بتكبر من رأسه حتى قدميه ، ثم يقول : « السيد نائم » .

بدلاً من الفتنة والغمز ، كان زاخار يرفع أحياناً ، من شأن إيليا إيليتش على نحو مفاجىء وبشكل مفرط مبالغ فيه ، في المخازن واللقاءات عند البوّابة .

كان يبدأ بتعداد فضائل سيده : العقل ، اللطف ، الكرم ، الطيب ، وإذا ما أعوزت سيده صفات التقريظ ، فإنه كان يستعيرها من الآخرين ، كأنْ ينسب إليه الغنى والمقدرة غير العادية .

وإذا ما تطلّب الأمر منه تهديد البوّاب ، وحتى صاحب البيت نفسه ، فإنه كان يخيفهم دائماً بسيده : « سأخبر سيدي ، وسترى ، — كان يقولها بنوع من التهديد ، — ستنال جزاءك ! » . لم يكن زاخار يعتقد بوجود من هو أكثر نفوذاً من سيّده في هذا العالم .

لكن علاقات أبلوموف الظاهرية مع زاخار ، كانت دائماً عدائية بطريقة ما . فقد سئم كل منهما الآخر ، بسبب أنهما عاشا معاً وحيدين ، مدة طويلة من الزمن .

فالحياة اليومية المشتركة الدائمة بين شخصين ، لا تمر عبثاً ، دون أن تترك آثارها على هذا وذاك : فالأمر يتطلب الكثير من التجربة الحياتية والمنطق والمودّة من هذا الطرف وذاك ، كي يستمر كل منهما في احترام الآخر ، دون أنْ يزعج أحدهما صديقه ، أو ينزعج من العيوب المتبادلة .

كان إيليا إيليتش يعرف إحدى مزايا زاخار ، وهي اخلاصه المتناهي له ، وقد اعتاد عليها لدرجة ، أنّه كان يعتبر أيضاً ، بأن الأمر لا يمكن ولا ينبغي أن يكون خلافاً لذلك ؛ وباعتياده على ذلك ، واعتباره أمراً مسلّماً به ، لم يعد أبلوموف يشعر بهذه المزية ويقدّر أهميتها ، في الوقت الذي لم يعد فيه يستطيع ، رغم عدم مبالاته بكل شيء ، أن يصبر على عيوب زاخار الصغيرة ، التي لا حصر لها .

وإذا كان زاخار ، الذي يكنّ في أعماق نفسه اخلاصاً متناهياً لسيده ، على غرار الخدم في الزمن الماضي ، يختلف عنهم في عيوبه الراهنة ، فإن إيليا إيليتش الذي يُقدّر في قرارة نفسه إخلاص زاخار له ، لم يكن يبدي ذلك العطف الصادق ، الودّي تقريباً تجاهه ، الذي كان يكنّه السادة القدماء لخدمهم .

لقد سئم زاخار من نفسه أيضاً . فبعد أن أمضى شبابه في خدمة بيت أسياده ، انتقل لخدمة إيليا إيليتش وهو في مرحلة الكهولة ، ومنذ ذلك الوقت بدأ يعتبر نفسه مادّة كمالية لا أكثر ، وأداة من لوازم البيت الأرستقراطي ، مخصّصة لإكمال بهاء وروعة الأسرة العريقة ، لا أداة من الأدوات الضرورية . لذا فإنّه بعد أن يُلْبِس سيده ، ما طلبه منه صباحاً ، ويساعده في نزع ثيابه مساءً ، لم يكن يفعل شيئاً طوال الوقت .

ومع أنه كان كسولاً ، فإنه كان كسولاً أيضاً في تربيته كخادم . كان يتباهى أمام الخدم ، بأنه لا يفعل شيئاً ، فهو لا يشعل السماوار

ولا يكنس البيت . كل ما يفعله هو أنّه ينام في غرفة المدخل ، أو يمضي ليثرثر في مسكن الخدم ، أو في المطبخ أو يقف ساعات طويلة عند البوابة ، مكتّفاً يديه على صدره ، وهو ينظر بتأمل وشرود إلى كل الجهات .

بعد هذا النمط من الحياة ، الذي اعتاد عليه ، أُلقِي على كاهله ، فجأةً ، عبء ثقيل يحمّله مسؤولية خدمة بيت بكامله ! كان عليه أن يخدم سيده إيليا إيليتش ، ويكنس البيت وينظّفه ، ويكون جاهزاً رهن الإشارة ! بسبب ذلك كله ، أصبح متجهماً ، عابساً تتجلّى الفظاظة والقسوة في طباعه ، فهو يزمجر في كل مرة يجبره فيها صوت سيده على مغادرة مضجعه .

لكن ، على الرغم من عبوسه الواضح وقسوته ، فقد كان زاخار يملك قلباً طيباً عطوفاً . كان يحبّ أن يمضي الوقت مع الأطفال الصغار . كان يُشَاهَدُ ، غالباً ، في فناء الدار عند البوابة مع مجموعة من الأطفال يُوَفِّق فيما بينهم ، أو يغيظهم ، أو يلاعبهم أو يجلس معهم ، فيجلس أحدهم على ركبته اليمنى ، وآخر على اليسرى ، بينما يُطوِّق أحد الصبية بيديه رقبة زاخار من الخلف ، أو يعبث بلحيته .

كان أبلوموف يعكّر صفو زاخار ، عندما كان يطالبه بتأدية خدمات فورية ، وبالمجيء إليه على جناح السرعة ، بينما كان الولع بالتقاعس عن فعل أي شيء ، والرغبة الدائمة في الثرثرة يدفعان زاخار للذهاب ، تارة ، إلى المطبخ أو المخزن ، وأخرى إلى البوابة .

كان يعرف كل منهما الآخر منذ زمن بعيد ،إذ مضى زمن طويل على حياتهما معاً . فقد حمل زاخار على يديه أبلوموف ، عندما كان لا يزال رضيعاً ، كما أن إيليا إيلييتش يتذكّر زاخار ، عندما كان لا يزال شاباً رشيقاً نهماً وماكراً .

فالصلة القديمة بينهما وثيقة متينة . فلئن كان إيليا إيلييتش لا يستطيع أنْ ينهض وينام ، ويُسرِّح شعره ، وينتعل حذاءه ، ويتناول طعامه بدون مساعدة زاخار ، كذلك زاخار لا يتصوّر سيداً أو كائناً آخر إلاّ إيليا إيلييتش يستطيع أنْ يلبسه ثيابه ويطعمه ويخاطبه بفظاظة ، ويتحايل ويكذب عليه ويُجِلّه ويحترمه في الوقت نفسه .

— ٨ —

أغلق زاخار الباب إثر انصراف كلّ من تارانتييف وألكسييف ، لكنه لم يجلس في مضجعه ، فقد كان يتوقع ، أنّ سيده سيناديه حالاً ، لأنه سمع أبلوموف يقول ، بأنه يعتزم كتابة شيء ما . لكنّ الصمت في حجرة أبلوموف ، كان يشبه صمت القبور .

نظر زاخار من خلال شق الباب مستطلعاً أمر سيده . كان إيليا إيلييتش مستلقياً على الأريكة ، وهو يسند رأسه على راحتيه ، وأمامه كتاب . فتح زاخار الباب .

— لماذا استلقيت من جديد ؟ — سأل زاخار .

— لا تزعجني ، فأنا أقرأ ، كما ترى ! — قال أبلوموف باقتضاب.

– آنَ أن تغسل وجهك وتكتب ، – قال زاخار بإلحاح .

– أجل . لقد آن الوقت لأن أفعل ذلك حقاً . – صحا أبلوموف من شروده . – اذهب الآن . سأفكر .

– متى لحق أن يستلقي من جديد ! – غمهم زاخار وهو يَثِبُ إلى مضجعه – يا له من رشيق !

أفلح أبلوموف بأن يقرأ الصفحة ، التي اصفرّت بفعل الزمن ، والتي توقف عندها عن القراءة منذ شهر مضى . وضع الكتاب مكانه ثم تثاءب ، واستغرق بعدها يفكر بعمق في « المصيبتين » .

– يا للضجر ! همس أبلوموف ، وهو يمطّ ساقيه تارة ويجمعهما تارة أخرى .

كان ينزع للتنعّم والتخيّلات ، فوَجّه بصره نحو السماء وراح يبحث عن نجمه المفضّل ، الذي كان في الأوج ، يغمر بضيائه جدران البيت الكلسي ، الذي كان يحتجب وراءه في الليالي ، على مرأى من أبلوموف . « كلا ، يجب أن أعمل قبل كل شيء – فكّر بصرامة وبعدها . . . » .

كان الصباح الريفي قد انبلج منذ زمن بعيد ، كما أن الصباح في بطرسبورغ كان على وشك أن ينتهي أيضاً . كان يترامى إلى مسامع أبلوموف من الخارج ، مزيج من ضجيج أصوات بشرية وغير بشرية : غناء فنانين متجولين مصحوب ، غالباً ، بنباح الكلاب . كما جاء

بعض المارة يعرضون حيواناً بحرياً ، ويحملون ويروّجون بأصوات مختلفة ، كلّ المنتجات التي تخطر على البال .

كان أبلوموف مستلقياً على ظهره ، واضعاً كلتا يديه تحت رأسه ؛ كان مشغولاً بإعداد خطة أملاكه . استعرض في ذهنه بسرعة ، عدداً من الموضوعات الجدّيّة الجذرية عن الريع الإقطاعي ، وحراثة الأرض ، كما ابتكر اجراء جديداً شديد الصرامة ضد كسل وتشرّد الفلاحين ، ثم توصَّل إلى تنظيم حياة ومعيشة الفلاحين الخاصة .

لقد شغله بناء البيت الريفي ، فتوقف بارتياح لبضع دقائق على توزيع الغرف ، وحدَّد طول وعرض غرفة الطعام والبلياردو ، كما فكر بموضوع نوافذ غرفته ، حتى انه فكّر بالأثاث والسجاجيد .

ثم رتّب بعد ذلك الجناح الجانبي من البناء ، متصوّراً عدد الضيوف الذين يزمع استقبالهم ، وخصّص مكاناً للإسطبل والعنابر وسكن الخدم وغيرها من المرافق الأخرى المختلفة .

وأخيراً ، وَجَّه اهتمامه إلى الحديقة : فقرّر أن يترك أشجار الزيزفون والبلوط على ما هي عليه ، في نفس المكان ، أما أشجار التفاح والكمثرى ، فقد قرّر إتلافها ، على أنْ يغرس مكانها أشجار الأكاسيا ؛ كما فكّر في إقامة منتزه ، لكنه وجد بعد أنْ أجرى في ذهنه كشفاً تقديرياً للتكاليف ، بأنه يتطلب مبالغ كبيرة ، وبعد أن أرجأ الموضوع إلى وقت آخر انتقل إلى جنائن الزهور والنباتات الزجاجية .

هنا ، خطرت في ذهنه فكرة مغرية عن الفواكه المقبلة ، وصارت

في حيويتها حدّاً بعيداً ، لدرجة أنه استبق الزمن ، فجأة ، بضع سنوات إلى الأمام ، فتخيّل نفسه في القرية يعيش فيها دون أنْ يغادرها ، وقد أصبحت أملاكه منظّمةً وفق خطته .

تخيّل نفسه جالساً على الشرفة في ليلة صيفية ، وراء مائدة الشاي . تحت مظلّة من الأشجار لا تخترقها الشمس ، ممسكاً بيده غليوناً طويلاً ، وهو ينفث الدّخان بتكاسل ، مستمتعاً بالمنظر الذي انكشف أمامه وراء الأشجار ، وبالبرودة المعتدلة والصمت ؛ بينما تصفرّ الحقول في الأفق البعيد ، وتهبط الشمس وراء غابة البتولا الشهيرة ، وتحمرّ البحيرة المصقولة كالمرآة ، وينطلق البخار من الحقول ، فيصبح الجو رطباً منعشاً ، وتظهر الغيوم ويهرع الفلاحون زرافات إلى بيوتهم .

الخدم المبتهجون يجلسون عند البوابة ، حيث تسمع من هناك البالالايكا(١) والقهقهات والأصوات الفرحة ، الفتيات يلعبن بمرح ، أطفاله الصغار يلعبون حوله بفرح وسرور ، فيتسلّقون على ركبتيه ويتعلّقون برقبته ؛ ووراء السماوار تجلس . . . سيدة المحيط كله ، آلهته . . . المرأة ! الزوجة ! بينما تتلألأ النيران البشوشة بسطوع في غرفة الطعام المرتبة ببساطة رائعة ، حيث توجد بالقرب طاولة مستديرة كبيرة ؛ أما زاخار ذو اللحية البيضاء تماماً ، الذي رُقِّيَ إلى رتبة كبير الخدم ، فيقوم بفرش المائدة . ويرتب الكريستال برنّة محبّبة ويضع

---

(١) آلة موسيقيه وترية روسية مشهورة (المترجم) .

فضيات المائدة ، وفي كل دقيقة يُسقِط على الأرض تارة كأساً وأخرى شوكة ، ثم يجلس الجميع حول عشاء وافر شهي ؛ هنا يجلس رفيق طفولته وصديقه المخلص شتولتس ، وآخرون ، وجوههم مألوفه ؛ ثمّ يغادرون بعدها إلى النوم . . . .

توردّ وجه أبلوموف ، فجأة ، بنشوة السعادة : فالحلم كان واضحاً ، حيوياً شاعرياً لدرجة أنّه أدار وجهه ، فوراً ، تجاه الوسادة . أحسّ فجأة برغبة مبهمة بالحب ، بسعادة هادئة ، وتحرّق شوقاً لسهول وهضاب موطنه ، لبيته ، لزوجته وأطفاله . . .

خمس دقائق مضت وهو لا يزال منكباً على وجهه ، ثم أخذ بعدها ينقلب ببطء على ظهره . كان وجهه يطفح بشعور وديع مؤثر : لقد كان سعيداً .

أخذ يمطّ رجليه بلذّة وبطء حتى انشمر سرواله قليلاً إلى الأعلى ، لكنه لم يلحظ هذا الإخلال البسيط بالنظام . لقد حمله الحلم اللطيف ، برقة وحرّية ، بعيداً في آفاق المستقبل .

كانت تستولي عليه فكرة محببة : كان يفكر بمجموعة صغيرة من الأصدقاء ، يقطنون في قرى ومزارع تبعد حوالي خمسة عشر أو عشرين فرسخاً عن قريته ، يتبادلون الزيارات كل يوم ، يتغدّون ويتعشّون ويرقصون ؛ أخذت تنجلي أمامه أيام مشرقة ووجوه باسمة . بلا هموم وتجاعيد ، وجوه ضاحكة مستديرة متوردّة ، بلحى كثيفة وشهية دائمة ؛ صيف دائم وسرور دائم ، طعام شهي وكسل لذيذ . . .

— يا إلهي ، يا إلهي ! هتف من غمرة السعادة ، ثم صحا من حلمه .

في هذه الأثناء ، تعالت أصوات من الشارع تقول : « بطاطا ! سكر ناعم ! فحم ! فحم ! . . . تبرّعوا أيها السادة المحسنون لبناء بيت الله ! » . ومن المنزل المجاور ، الذي يبنى من جديد ، كانت تتعالى ضربات المطارق وأصوات العمال .

— آه ! — تأوه إيليا إيلييتش بصوت مسموع وبأسى . — « أية حياة هذه ! كم هو كريه ضجيج العاصمة ! متى ستحلّ حياة النّعيم الموعودة ؟ متى سننعم بالأحراش والحقول العزيزة ؟ — قال أبلوموف متفكراً . ليتني كنت الآن متمدداً على العشب ، تحت شجرة أرقب الشمس عبر الأغصان ، وأحصي العصافير ، التي تحطّ على الأغصان . وخادمة متورّدة الخديّن تكشف عن مرفقين عاريين بضيّن مسبوكين ، ذات رقبة لوّحتها الشمس ، تجلب الغداء حيناً ، والإفطار حيناً آخر ؛ تغضّ الماكرة بصرها ثم تبتسم . . . متى سيحين ذلك الزمن ؟ . .

« والخطة ! ووكيل القرية والشقة ؟ » — قفزت فجأة إلى مخيلته .

— أجل ! أجل ! — قالها إيليا إيلييتش بعجلة ، — الآن ، في هذه الدقيقة !

نهض أبلوموف بسرعة نصف نهوض ، وجلس على الأريكة ، ثم أنزل ساقيه إلى الأرض فوقعت في خفّه فوراً ، وجلس على هذا النحو ؛ نهض بعدها تماماً ، ووقف متأملاً مدة دقيقتين .

— زاخار ، زاخار ! — صرخ بصوت عال ، وهو يتطلع إلى الطاولة والمحبرة .

— ماذا تريد أيضاً ؟ — سُمِعَتْ هذه العبارة مصحوبة بقفزة — إلى متى ستجرّني قدماي ؟ أضاف زاخار هامساً بصوت أجش .

— زاخار ! — كرر إيليا إيلييتش بشرود ، دون أن يرفع نظره عن الطاولة — اسمع . . . — بدأ أبلوموف ، وهو يشير إلى المحبرة ، لكنه استغرق في شروده من جديد ، قبل أن ينهي العبارة .

هنا أخذت يداه تمتدّ إلى الأعلى ، بينما كانت ركبتاه تنثنيان ، ثم بدأ يتمطّى ويتثاءب . . .

— بقي عندنا هناك — بدأ أبلوموف كلامه وهو يتمطّى ، مع توقّف بين الكلمات ، — جبنة ، و . . . هات النبيذ ؛ فما زال الوقت طويلاً حتّى الغداء ، لذا فإنني سأتناول شيئاً من طعام الإفطار .

— جبنة ؟ — قال زاخار — لم يبق شيء .

— لم يبق شيء ، كيف ؟ — قاطع إيليا إيلييتش. — أذكر جيداً ، أنه بقيت قطعة كبيرة . . .

— كلا ، كلا ! لم تبق أية قطعة ! — أصرّ زاخار بعناد .

— بقي ! —

— لم يبق ، — أجاب زاخار .

— اشتر إذن .

تفضّلْ واعطني نقوداً .

– توجد هناك بعض النقود ، خذها .

– يوجد هنا روبل وأربعون كوبيكاً فقط ، بينما يلزمني روبل وستون كوبيكاً .

– كانت هناك بعض القطع المعدنية أيضاً .

– لم أر شيئاً ! – قال زاخار وهو يراوح من ساق لأخرى . – أجل ها هي ذا قطعة فضّية موجودة هنا ، لكن لا توجد أية قطع نحاسيّة .

– كانت موجودة : أعطاها لي البارحة موزع البريد بنفسه .

– ما أعطاك إياه ، كان بوجودي ، رأيته يعطيك عملة فضيّة ، لكنني لم أره يعطيك عملة نحاسيّة . . .

« أليس تارانتييف هو الذي أخذها ؟ فكّر إيليا إيليييتش بتردّد . – كلا ، لقد أخذ قطعاً فضيّة » .

– ماذا يوجد هناك أيضاً ؟ – سأل أبلوموف .

– لا يوجد شيء . ربما تكون قد بقيت قطعة من فخذ الخنزير . يجب أن نسأل أنيسيا .

أأجلبها لك ؟

– هات ما يوجد . كيف لم يكن هناك شيء ؟

– لم يكن ! قال زاخار ، ثم مضى ، بينما أخذ إيليا إيليييتش يتمشى في الغرفة ، وهو يفكّر .

– أجل ، لديّ الكثير من المشاغل – قال أبلوموف بصوت خافت – الخطة ما زالت تتطلب كثيراً من العمل أيضاً . . . بقي شيء من الجبنة ، –

أضاف متأملاً ، ـ لا بدّ أنّ زاخار قد التهمها ، ثم يأتي ليقول ، بأنه لم يبق جبنه ! والنقود النحاسية ، أين اختفت ؟ ـ قال أبلوموف ، وهو يبحث متلمّساً بيده ما يوجد على الطاولة .

بعد مضيّ ربع ساعة ، فتح زاخار الباب بالصينية ، التي كان يحملها بكلتا يديه ، وبعد أن دخل الغرفة ، حاول أن يغلق الباب بساقه ، لكنه أخطأ هدفه ، وذهبت ساقه في مكان فارغ ، فسقط الكأس ، وسقطت معه سدادة الدورق الزجاجي ورغيف الخبز .

ـ يفعل ذلك مع كل خطوة يخطوها ـ قال إيليا إيلييتش ـ فهو ما زال واقفاً يتفرّج ، لا يلتقط ما أسقطه !

انحنى زاخار والصنية في كلتا يديه ، ليلتقط رغيف الخبز ، لكنه وجد بعد أن جلس القرفصاءأن يديه مشغولتان ، وانه لا يستطيع التقاطها.

ـ هيا ، التقطها ! ـ قال إيليا إيلييتش مستهزئاً . . . ما بك ؟

ـ انتظروا حتى تتحرّر يداي ، وسترون ! ـ انفجر زاخار بغيظ ، وهو يوجّه كلامه إلى الأغراض الساقطة على الأرض . ـ كيف يمكن لامرىء أن يتناول إفطاره قبيل الغداء مباشرة ؟

وبعد أن وضع الصينية ، التقط كل ما أسقطه ، وبعد أن التقط الخبز نفخ عليه ثم وضعه على الصينية .

شرع إيليا إيلييتش بتناول طعام الإفطار ، بينما وقف زاخار بعيداً عنه بعض الشيء متطلعاً إليه خلسة ، عاقداً العزم ، على ما يبدو ، ليقول أمراً ما

لكنّ أبلوموف كان يتناول إفطاره ، دون أن يعيره أي انتباه ؛

سعل زاخار مرتين .

ظل أبلوموف منشغلاً بطعامه ، دون أن يعيره أي انتباه ؛

— أرسل لنا صاحب الشقة منذ قليل — بدأ زاخار حديثه ، أخيراً ، بشيء من الإرتباك — يقول ، بأن المتعهد كان عنده ، وهو يطلب السماح لإلقاء نظرة على الشقة ، إذ تقرّر كل شيء ، بالنسبة لإعادة بنائها .

ظلّ إيليا إيليتش يتابع طعامه ، دون أن يجيب بكلمة .

— إيليا إيليتش — قال زاخار بصوت خافت .

تظاهر إيليا إيليتش بأنه لا يسمع شيئاً .

— يطلبون بأن نخلي الشقة في الأسبوع المقبل — قال زاخار .

تناول أبلوموف رشفة من النبيذ ، وهو لا يزال صامتاً .

إيليا إيليتش ، ماذا سنفعل ؟ — سأل زاخار بطريقة تشبه الهمس تقريباً .

— لقد حذّرتك من الحديث معي بهذا الشأن ، — قال إيليا إيليتش بلهجة صارمة ، ثم نهض واقترب من زاخار .

ابتعد زاخار عنه .

— يا لك من شخص مقيت يا زاخار ! — أضاف أبلوموف بحمية .

انزعج زاخار .

ـ هكذا إذن ـ مقيت ! ـ قال زاخار ـ لماذا أنا مقيت ؟ إنني لم أقتل أحداً .

ـ أجل ، إنك لمقيت ! كرّر إيليا إيليييتش ـ فأنت تسمّم حياتي .

ـ لست مقيتاً ! ـ قال زاخار بإصرار .

ـ لماذا تلح عليّ بشأن الشقة .

ـ وماذا أستطيع أن أفعل .

ـ وأنا ، ماذا أستطيع أن أفعل أيضاً .

ـ أما كنت تريد أن تكتب إلى صاحب الشقة ؟

ـ سأكتب ، لكن عليك بالانتظار ، فلا يجوز أن أكتب فجأة .

ـ ليتك تكتب الآن .

ـ الآن ، الآن ! الأمر ليس بمثل هذه السهولة فالمسألة ليست مسألة تقطيع حطب ، فهي لا تتم ببساطة . ـ قال أبلوموف ، وهو يحرّك ريشة جافة في المحبرة ـ لا يوجد حبر ! كيف أستطيع الكتابة .

ـ سأعدّ الكفاس فوراً ـ قال زاخار ، ثم أخذ المحبرة ومضى برشاقة إلى غرفة الانتظار ، بينما بدأ أبلوموف يبحث عن ورقة .

ـ لا يوجد ورق ! قال أبلوموف ، وهو ينبش في الدرج ويتلمّس الطاولة . ـ الأوراق مفقودة أيضاً ! آه من زاخار هذا : فالعيش لا يستقيم معه .

ـ هه ألستَ مقيتاً ، ساماً ؟ ـ قال إيليا إيليييتش مخاطباً زاخار وهو يدخل الغرفة ، ـ انك لا تهتم بشيء ! كيف يخلو البيت من الورق ؟

– يا لها من أذيّة يا إيليا إيليتش ! إنني رجل مسيحي : وأنت تنعتني بأنني مقيت سام ، لِمَ هذا كله ؟ مقيت ، سام ! لقد وُلِدت وترعرعت في ظل سيدي والدك ، صحيح أنه كان يشبهني بالكلب ويفرك أذني ، لكنني لم أسمع منه قط ، مثل هذه الكلمة ! أيّ ذنب اقترفت ؟ تَفَضَّلْ ، ها هي ورقة .

تناول من على منضدة الكتب نصف صحيفة من الورق ومادية اللون .

– أيمكن الكتابة على مثل هذا النوع من الورق ؟ – سأل أبلوموف وهو يرمي الورقة . – كنت اغطّي بها الكأس في الليل ، كي لا يسقط فيه شيءٌ ما . . . أيّها المقيت ، السّام .

استدار زاخار وأخذ ينظر إلى الجدار .

– لا حاجة للبحث : هاتها ، سأكتب عليها مسودّة ، ثم يبيّضها ألكسييف فيما بعد . جلس إيليا إيليتش إلى الطاولة ودَوَّن بسرعة : « سيدي الكريم ! . . » .

يا له من حبر رديء ! – قال أبلوموف – كن يقظاً يا زاخار في المرّة القادمة . ونَفِّذْ عملك كما ينبغي !

فكّر قليلاً ، ثم بدأ الكتابة .

« الشقة ، التي أقطنها في الطابق الثاني من هذا المنزل ، الذي يعتزمون إجراء بعض الإصلاحات فيه ، تناسب ، تماماً طراز حياتي ، كما تناسب عاداتي ، التي اكتسبتها نتيجة إقامتي الطويلة في هذا المنزل .

لقد علمت من عبدي زاخار تروفيموف ، بأنّكم طلبتم أن تخبروني : بأنّ الشقة ، التي أقطنها .. . . » .

توقف أبلوموف ، ثم قرأ ما كتبه .

ـ أسلوب ركيك ، فكلمة « أن » وردت مرّتين في النص كما ورد أيضاً كلمتا : الذي والتي .

أخذ أبلوموف يعيد ترتيب الكلمات وهو يهمس : فوجد أن كلمة « الذي » تعود إلى الطابق ـ فلم تعجبه أيضاً . عاود الكرّة من جديد ، وهو يفكر بطريقة تجنّبه ورود كلمة « أنّ » مرّتين .

بدأ أبلوموف يشطب « أنّ » تارةً ، ثم يضعها من جديد تارةً أخرى . أعاد ترتيب كلمة « أنّ » ثلاث مرات ، لكنّه كان يجدها إمّا عديمة المعنى ، أو مجاورة لـ « أنّ » أخرى .

ـ يبدو أن لا مناص من « أنّ » هذه ! ـ قال أبلوموف بنفاذ صبر . ـ إلى الشيطان هذه الرسالة ! لن أزعج نفسي بمثل هذه التفاهات ! لقد نسيت كتابة الرسائل . ها هي الساعة الثالثة قد أوشكت .

ـ زاخار ، خُذْ ـ مزّق أبلوموف الرسالة إلى أربعة أجزاء ، ثم رماها على الأرض .

ـ أرأيت ؟ سأل أبلوموف

ـ رأيت ، ـ أجاب زاخار ، وهو يلتقط الرسالة الممزّقة .

ـ لا تُحدّثْني بعد اليوم بشأن الشقة . ما هذا الذي بيدك ؟

ـ الحسابات .

– آه يا إلهي ! إنّك تنهكني تماماً ! كم الحساب عندك ، هيّا ، بسرعة !

– ستة وثمانون روبلاً وأربعة وخمسون كوبيكاً للّحام .

أطلق إيليا إيلييتش يديه في الهواء .

– هل جُنِنت ؟ مثل هذه الكومة من النقود للّحام وحده ؟

– إنّك لم تدفع منذ ثلاثة أشهر ، لذا فإن هذا المبلغ سيتجمّع طبعاً ! كلّ شيء مكتوب هنا ؛ فأنا لم أسرق شيئاً .

– ألست مقيتاً ، سامّاً ؟ تشتري بهذا المبلغ كلّه من اللحام ! أيرضيك هذا ؟ من الخير أن تدّخر .

– إنني لم آكله ! – قال زاخار متجهّماً .

– كلاّ ! لم تأكله ؟

– أتلومني على رغيف الخبز ، التي آكلها ؟ انتبه لما تقول !

ثم ناوله دفتر الحسابات .

– لمن أيضاً ؟ – قال إيليا إيلييتش وهو يدفع بأسى دفتر الحسابات الملطّخ بالبقع .

– مئة وعشرون روبلاً وثمانية عشر كوكبيكاً للخبّاز ولبائع الخضار .

– هذا تخريب ! هذا أمر لا مثيل له ! – قال أبلوموف فاقداً رشده . – هل أنت بقرة ، حتى تلتهم هذه الكمية من الخضراوات .

ـــ كلا ! أنا إنسان مقيت ، سام ! ـ لاحظ زاخار بمرارة ؛ وهو يدير ظهره تماماً لسيّده

-- لو أنّك وضعت حدّاً لتردّد ميخا أندرييتش إلياك ، لكان المبلغ أقل من ذلك بكثير ! ـ أضاف زاخار .

ـ احسبْ ، كم المجموع ! ـ قال إيليا إيلييتش ، وبدأ يجري الحساب بنفسه .

أخذ زاخار يعدّ بأصابعه .

ـ الشيطان وحده يعلم ، كم سيكون المجموع : ففي كلّ مرّة تطلع علينا بشيء جديد ! ـ قال أبلوموف -- كم الحساب عندك ؟ مئتا روبل ؟

ـ انتظر ، أعطني مهلة ! ـ قال زاخار ، وهو يغمض عينيه ويدمدم . ـ ثمانية عشرات ، وعشر عشرات ـ ثمانية عشر عشرة ، وعشرتان أيضاً . . .

ـ إنك لن تنهي حساباتك على هذا النحو أبداً ، قال إيليا إيلييتش ـ اذهب إلى مضجعك واجلب لي الحسابات غداً ، اهتم بالورق والحبر . . . يا له من مبلغ كبير ! حاول ان ندفع المبلغ تقسيطاً فأنت تريد ، دائماً ، أن نسدّد كل شيء دفعة واحدة . . . يا للغرابة !

ـ مئتان وخمس روبلات واثنان وسبعون كوبيكاً ـ قال زاخار ، بعد أن أنهى إجراء الحسابات ـ النقود من فضلك .

ـ كيف ، الآن ! انتظر : سأدقّق الحسابات غداً . . .

ـ الرأي رأيك يا إيليا إيلييتش ، لكنهم يطالبوننا . . .

ـ كف عن ذلك ! قلت غداً ، يعني ، ستستلم النقود غداً .
اذهب ، أما أنا فسأنصرف للعمل : لديّ عمل أكثر أهمية .

جلس إيليا إيلييتش على الكرسي ، ووضع ساقيه تحته ، وما ان بدأ يفكّر ، حتى رنّ الجرس . ظهر رجل قصير القامة . ذو بطن بارز قليلاً ، وجهه أبيض ، وجنتاه متوردتان ، له صلعة يطوقها من الخلف شعر كثيف أسود ، ككثافة الأهداب .

كانت صلعته دائرية نظيفة ، تلمع كما لو أنها من عظم الفيل . كان وجه الزائر يتميز بالإهتمام والإنشغال بكل شيء . كان معبّراً متحفظاً في نظرته ، معتدلاً في ابتسامته ، متواضعاً في سلوكه .

كان يرتدي بدلة مريحة تنفتح باتّساع وسهولة ، كرتاج البوّابة ، لدى أوّل ملامسة تقريباً . كان قميصه يبهر من شدة البياض ، الأمر الذي يناسب صلعته . على سبّابة يده اليمنى خاتم ضخم كبير ، عليه حجر أسود .

ـ دكتور ! ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ ـ هتف أبلوموف ، وهو يمدّ إحدى يديه إلى الضيف بينما يدفع الكرسي بالأخرى .

ـ إنني مشتاق إليك ، وما دمت لم توجّه لي الدعوة لزيارتك ، فقد قرّرت أن آتي من تلقاء نفسي .

ـ أجاب الطبيب بدعابة ـ كلاّ ، ـ أضاف بعدها بجدّية ، ـ كنت هنا ، عند جارك في الطابق العلوي ، وأتيت بعدها لمشاهدتك .

— أشكرك . كيف حال جارنا ؟

— سيعيش ثلاثة أو أربعة أسابيع ، ولربما سيستمر حتى الخريف ، وبعدها . . . فهو مصاب بمرض خطير : النهاية معروفة . وأنت ، كيف أحوالك ؟

هزّ أبلوموف رأسه بأسى .

— سيئة يا دكتور . فكرت باستشارتك ، فأنا لا أعرف ماذا أفعل . المعدة لا تهضم تقريباً ، أشعر بثقلٍ في مدخل المعدة ، الحرقة تؤلمني ، والتنفّس صعب عليّ . . . قال أبلوموف بهيئة يرثى لها .

— اعطني يدك — قال الطبيب ، ثم قاس النبض وأغمض عينيه برهة . — أيوجد سعال ؟ — سأل الطبيب .

— في الليل ، خاصة عندما أتناول العشاء .

— غم ! أيحدث عندك خفقان قلب ؟ أتؤلمك رأسك ؟

ثم وجّه الطبيب أيضاً ، عدداً من الأسئلة المشابهة ، وبعدها أحنى صلعته وفكّر بعمق . رفع رأسه بعد دقيقتين وقال بصوت حازم :

— إذا عشت سنتين أو ثلاث أيضاً ، في هذا المناخ ، وبقيت مستلقياً طوال الوقت ، خاصة إذا كنت تأكل الدّسم — فستموت بالسكتة القلبيّة .

ارتعش أبلوموف .

— ماذا ينبغي أن أفعل ؟ قل لي ، بالله عليك ! — سأل أبلوموف .

— عليك أن تفعل ما يفعله الآخرون : أن تسافر إلى الخارج !

ـــ إلى الخارج ! ـــ كرّر أبلوموف بدهشة .

ـــ أجل ، وماذا في الأمر ؟

ـــ عفوك يا دكتور ، إلى الخارج ! كيف يمكن ذلك ؟

ـــ كيف ؟

تفحّص أبلوموف بعينيه نفسه ، ثم حجرته وكرّر آلياً :

ـــ إلى الخارج !

ـــ ما المانع ؟

ـــ ما المانع ؟ كلّ شيء . . .

ـــ كلّ شيء ؟ أليس لديك نقود ؟

ـــ أجل ، أجل ، لا توجد لديّ نقود حقاً ، ـــ بدأ أبلوموف حديثه بحيوية ، مبدياً سروره بهذا العائق الطبيعي ، الذي يستطيع أن يختبىء وراءه . ـــ انظر ما يكتبه لي وكيل القرية . . . أين الرسالة ؛ أين وضعتها ؟ زاخار ! .

ـــ حسن ، حسن ـــ بدأ الطبيب حديثه ، ـــ هذا ليس شأني ، واجبي يحتّم عليّ أن أقول بأنك يجب أن تغيرّ نمط حياتك ، أن تغيرّ المكان والهواء والعمل ـــ أن تغيرّ كلّ شيء ، كل شيء .

ـــ حسن ، سأفكر ، إلى أين يجب أن أسافر ، وماذا ينبغي أن أفعل ؟ ـــ سأل إيليا إيلييتش .

ـــ سافر إلى كيسنغن ، أو إلى إمس ـــ بدأ الطبيب حديثه ـــ اقضِ هنا حزيران وتموز ، أكثِرْ من شرب المياه ، توجّهْ بعدها إلى سويسرا ،

أو تيرول : عليك أن تعالج نفسك بالعنب . اقضِ هناك أيلول وتشرين الأول . . .

ـــ لا يعلم إلا الشيطان ماذا يوجد في تيرول ! ـــ همس إيليا إيلييتش بصوت خافت لا يكاد يُسمَع .

ـــ بعد ذلك ، توَجَّهْ إلى مكان جاف ، إن شئت ، إلى مصر . . .

« ها ! هكذا ! » ـــ فكّر أبلوموف .

ـــ ابتَعِدْ عن المشاغل والهموم . . . .

ـــ ما أسهل الكلام ـــ لاحظ أبلوموف ـــ فأنت لا تتلقى رسائل من وكيل القرية ، كالتي أتلقاها .

ـــ عليك أن تتجنب التفكير أيضاً ـــ تابع الطبيب .

ـــ التفكير ؟

ـــ نعم ، أقصد التوتّر الذهني .

ـــ وماذا أفعل بمخطط تنظيم أملاكي ؟ عفوك ، أتظنني جذع شجرة حور ؟

ـــ افعل هناك ما تريد ! واجبي أن أحذّرك فقط . عليك أن تتجنب المخاوف أيضاً : فهي تضرّ بالعلاج . عليك أن تُرَوِّحَ عن نفسك ، بامتطاء صهوات الخيل والرقص ، وبالحركة المعتدلة في الهواء النقي الطلق ، وبالأحاديث اللطيفة ، خاصة مع النساء ، كي يرتعش القلب قليلاً بفعل الأحاسيس العذبة .

كان أبلوموف يصغي إليه منكّساً رأسه .

ـــ ماذا بعد ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ امتَنِعْ عن القراءة والكتابة ! استأجر فيلاّ . تكون نوافذها تجاه الجنوب ، ولتكن الأزهار كثيرة حولها وكذلك النساء ، واستمع إلى الموسيقى . . .

ـــ ما هو الطعام الذي سأتناوله ؟

ـــ تجنّبْ اللحوم بوجه عام ، وكذلك النشويات ، والهلاميّات أيضاً . يمكنك تناول مرقة خفيفة وخضراوات ، لكن عليك أن تكون حذراً : فالكوليرا تتواجد الآن في كل مكان تقريباً ، الأمر الذي يتطلب منك أقصى درجات الحذر . . . يمكنك أن تمارس رياضة المشي ثمان ساعات يومياً . استخدم البندقية ، وتعلّم الصّيد . . .

يا إلهي ! . . . ـــ أطلق أبلوموف أنيناً .

ـــ وأخيراً ، ـــ ختم الطبيب حديثه ـــ سافِرْ شتاءً إلى باريس ، وتمتّعْ برونق الحياة هناك ، ولا تُفكِّرْ بشيء . اذهَبْ من المسرح إلى الباليه وإلى الحفلات التنكرية ، قم برحلات إلى ضواحي المدينة ، احرص على أن تكون دائماً وسط الأصدقاء والضجة والضحك . . .

ـــ أما يلزمني شيء آخر ؟ ـــ سأل أبلوموف بحزن مكبوت عميق .

تفكّر الطبيب . . .

ـــ ربما تحتاج لهواء البحر : استقل الباخرة من انكلترا إلى أمريكا . . .

ثم نهض مودّعاً .

ـــ إذا نفّذت ذلك كله بدقة . . . ـــ قال الطبيب . . .

— حسن ، حسن ، سأنفّذ حتماً . — أجاب أبلوموف بتهكّم . وهو يودّعه .

انصرف الطبيب تاركاً أبلوموف على أسوأ حال ، فقد أغمض عينيه ، ووضع كلتا يديه على رأسه ، ثم تقلّص على الكرسي كالكومة ، وجلس على هذا النحو ، دون أن ينظر إلى أية جهة ، أو يشعر بأي شيء .

سمع من خلفه نداءً خجولاً .

— إيليا إيلييتش !

— ماذا ؟ أجاب أبلوموف .

— ماذا أقول لصاحب الشقة ؟

— عن أي شيء ؟

— بشأن إخلاء الشقة ؟

— تعود للحديث عن هذا من جديد ؟ — سأل أبلوموف بدهشة .

— كيف سأتصرّف يا إيليا إيلييتش ؟ تأمّلْ بنفسك : فحياتي مُرَّة بما فيه الكفاية ، وأنا أنتظر الموت . . .

— كلا ، فأنت تريد ، كما يبدو ، أن ترسلني إلى القبر ، بسبب موضوع الشقة هذا — قال أبلوموف — تَقَيّدْ بما قاله الطبيب !

لم يجد زاخار ما يقوله ، فأطلق زفرة جعلت أطراف منديل عنقه تخفق على صدره .

— هل قررت أن تقتلني ؟ — سأل أبلوموف من جديد — هل سئمت منّي إلى هذا الحد ؟ لماذا لا تتكلم ؟ .

– كيف يمكن ذلك ! ليمنحك الله العمر الطويل ! من ذا الذي يريد بك سوءاً ؟ –

همهم زاخار بارتباك كامل ، بسبب المجرى التراجيدي ، الذي اتّخذه الحديث .

– أنت ! – قال إيليا إيليتش – لقد منعتك وحذرتك من التحدث عن موضوع الشقة ، لكنه لا يمضي يوم ، إلاّ وتذكّرني بالموضوع خمس مرات : هذا يقلقني – افهَمْ ذلك . فصحّتي سيئة بدون هذه الإزعاجات .

– سيدي . . . لماذا لا ننتقل من الشقة ؟ – قال زاخار بصوت مرتجف ، نابع من معاناة حقيقية .

– تريدني أن أنتقل ! هكذا تحاكم الأمور ببساطة ! – قال أبلوموف ، وهو يحوّل كرسيه صوب زاخار . – آه منك ، هل فكّرت مليّاً ، ماذا يعني أن ننتقل ؟ ألم تفكّر حقاً ؟

– يبدو أنني لم أفكر ! – أجاب زاخار باستكانة ، مبدياً استعداده لموافقة سيّده على كل شيء ، كي لا تصل الأمور إلى مشاهد انفعالية ، لم يعد يحتملها .

– ما دمت لم تفكر ، فعليك أن تصغي وتتبصرّ ، فيما إذا كان بالإمكان أن ننتقل ، أم لا .

ماذا يعني أن ننتقل ؟ هذا يعني ، أنك تقول لي : اذهب يا سيدي ، وغادر البيت يوماً بكامله . .

– وماذا فيما لو غادرت البيت ؟ – لاحظ زاخار – هل هنالك ما يمنع بأن تغادر المنزل يوماً بكامله ؟ البقاء في المنزل ، بشكل دائم ، ليس صحيحاً . أنظرْ كيف ساءت صحتك ! سابقاً ، كنت تبدو بتمام العافية ، أما الآن ، فالله وحده يعلم كيف أصبحت . حبّذا لو تتنزه في الشوارع ، وتشاهد الناس . . .

– كفى سخفاً ! – قال أبلوموف . – هكذا إذن ، تريدني أن أتمشى في الشوارع !

– أجل ، هذا مفيد ، – تابع زاخار بحماس كبير – يقال ، أنه قد جيء بوحش لا مثيل له : لو تذهب وتشاهده . حبذّا لو تذهب إلى المسرح ، أو إلى حفلة تنكّرية ، فنحن سنتدبر أمر الإنتقال من الشقة بدونك .

– يا لها من ترّهات ! كم تهتم براحة سيدك ! هل يعتبر أمراً عادياً ، أن أتسكّع يوماً بكامله خارج المنزل ، دون أن أستلقي بعد الغداء ؟ . . تنتقلون بدوني ! تنتقلون بدون إشرافي . أعرف – قال أبلوموف بطريقة أكثر إلحاحاً – ماذا يعني الإنتقال ! إنه يعني التحطيم ، الجلبة ، تكديس الأغراض على الأرض في كومة واحدة : الصندوق ظهر الأريكة ، اللوحات ، الكتب ، الزجاجات ، وكل الأغراض التي لا يمكن أن تعثر عليها في أي وقت آخر ! الانتقال من الشقة يعني ، أن تراقب وتهتم بكل شيء كي لا يضيع أو يتكسر . . . يعني أن يكون نصف الأغراض هنا ، والنصف الآخر في الشحن ، أو في الشقة

الجديدة : أريد أن أدخن ، فأتناول الغليون ، وعندما أطلب التبغ ، تراه قد نقل . . . أريد أن آكل ، فلا أرى شيئاً ؛ ما أن يلمس المرء شيئاً حتى يتسخ ، فكل شيء قد كساه الغبار ، أريد أن أغسل يديّ فلا أجد سبيلاً لذلك ، فلا يبقى أمام المرء إلاّ أن يسير ويداه تشبهان يديك . . .

— يداي نظيفتان — لاحظ زاخار ، وهو يبرز نعلين بدلاً من يدين .

— كفى ، لا ترني يديك ! — قال إيليا إيليتش مشيحاً بوجهه . — تريد أن تشرب ، — تابع أبلوموف — تأخذ الدورق الزجاجي ، لكنك لا تجد كأساً . . .

— يمكن أن تشرب من الدورق مباشرة ! — أضاف زاخار بلطف .

— الأمور عندك دائماً هكذا ! فكل شيء ممكن بالنسبة لك : عدم النظافة ، عدم إزالة الغبار ، عدم نفض السجّاد . وفي الشقة الجديدة — تابع إيليا إيلييتش وكله شغف وحيويّة ، وهو يرسم لوحة الانتقال من الشقة كما تتراءى له ، — ستمضي ثلاثة أيام قبل أن يُرتّب شيء ، فكل غرض سيكون في غير مكانه : اللوحات على الأرض ، الشحاطة على السرير ، الأحذية موضوعة في حزمة واحدة مع الشاي ودهان الأحذية . ينظر المرء فيرى ساق الكرسي قد تحطمت ، أو زجاج اللوحة قد تكسّر ، أو الأريكة قد تلطخت بالبقع . ما أن يسأل المرء عن شيء ،

حتّى يُجاب – لا أحد يعرف أين ، ربما ضائع ، لا ، انه منسي في الشقة القديمة : فتركض إلى هناك . . .

– في وقت آخر ، تركض عشر مرات : إلى الأمام والخلف – قاطع زاخار .

– هكذا إذن ! – تابع أبلوموف – تستيقظ صباحاً في الشقة الجديدة ، فلا تجد إلاّ الملل ! لا ماء ، ولا تدفئة ، وفي الشتاء يحاصرك البرد ، فتصبح الغرف كالثلاجة ، حيث الحطب مفقود ، فتروح وتجيء ، إذ لا يعرف المرء كيف يتدبّر الأمر . . .

– والجيران . لا نعرف كيف سيمنّ الله علينا بهم – لاحظ زاخار من جديد ، – قد لا نستطيع أن نطلب منهم حزمة حطب ، أو جرعة ماء .

– صحيح ! – قال إيليا إيلييتش . – لنفترض أننا انتقلنا – يحسب المرء أنّ المشاغل والهموم ستنتهي بحلول المساء : لكن شيئاً كهذا لن يحدث ، فهي ستستمر أسبوعين . يُخيّل للمرء ، أن كل شيء قد رُتّب . . . تلقي نظرة ، فتجد أن الأمور قد بقيت دون إنجاز : فالستائر يجب أن تعلق ، واللوحات يجب أن توضع على الجدران – روحك تتعذّب ، والحياة لا تهنأ لك . . . والنفقات ، النفقات . . .

– في المرة الماضية ، منذ ثمان سنوات ، بلغت النفقات . كما أذكر الآن حوالي مئتي روبل ، أكّد زاخار .

– يا لها من مهزلة ! – قال إيليا إيلييتش – كم ستكون الحياة

موحشة ، في البداية ، في الشقة الجديدة ! هل سيعتاد المرء سريعاً على الحياة الجديدة ؟ ستمضي خمسة ليالٍ ، قبل أن يغمض لي جفن في المكان الجديد ، سيَخزُني الحنين حالما أنهض وأجد بدلاً من لافتة خرّاط المعادن، شيئاًما آخر مقابلي،وعندما لاتطل من النافذة،قبل الغداء، تلك العجوز مقصوصة الشعر ، فإني سأحس بمزيد من الأسى . . . أرأيت الآن بنفسك ، لأي مدى أوصلت سيدك ؟ — سأل إيليا إيلييتش بعتاب .

— أرى — همس زاخار باستكانة .

— لماذا اقترحتَ عليّ أن ننتقل ؟ هل تتحمّل الطاقة البشرية هذا العناء كله ؟

— اعتقدت ، بأن الآخرين ليسوا أسوأ منّا ، ومع ذلك يبدلّون مكان إقامتهم ، لذا فنحن يمكننا أيضاً . . .

— ماذا ؟ ماذا ؟ — سأل إيليا إيلييتش فجأة باندهاش ، وهو ينهض من على كرسيه . — ماذا قلت ؟

ارتبك زاخار ، فجأةً ، وهو لا يعرف ما يستطيع أن يقوله لسيّده ، ليخفّف من صيحته وحركته الحماسيتين ، فما كان منه إلا أن صمت .

— الآخرون ليسوا أسوأ منا ! — كرّر إيليا إيلييتش مذعوراً . — إلى هذا الحدّ ذَهَبتَ في كلامك ! الآن عرفت أن شأني عندك ، لا يزيد على شأن أي شخص « آخر » !

انحنى أبلوموف بسخرية أمام زاخار واتّخذ وجهه هيئة تنمّ عن أقصى درجات الإمتهان .

— عفوك يا إيليا إيلييتش ، هل يمكن أن أساويك بأي شخص آخر ؟

— اغربْ عن وجهي ! .. قال أبلوموف بلهجة آمرة ، مشيراً بيده إلى الباب . — فأنا لا أطيق مشاهدتك . « الآخرون » ، آه ؟ طيّب !

انصرف زاخار إلى مضجعه وهو يتنهّد بعمق .

— يا لها من حياة ! — همهم زاخار وهو يهجع إلى مضجعه .

— يا إلهي ! — تأوّه أبلوموف — كنت أريد أن أكرّس هذا الصباح لشؤون العمل ، فإذا بي أُكَدَّرُ ليوم كامل ! من ذا الذي فعل ذلك ؟ إنه خادمي الخاص ، المخلص ، المُجَرَّب . كيف استطاع أن يفعل ذلك ؟

انقضى وقت طويل وثائرة أبلوموف لم تهدأ ، كان يتمدّد تارةً ، وينهض أخرى ، ثم يتمشى في الغرفة جيئة وذهاباً ، ويعود ليستلقي من جديد . لقد رأى في تخفيض منزلته إلى درجة الآخرين ، من قبل زاخار ، انتهاكاً لحقّه الطبيعي ، الذي يقضي بأن يفضّله خادمه على الناس قاطبةً .

أخذ يتفكّر بعمق في معنى هذه المقارنة ، محلّلاً ماذا يعني الآخرون ، ومن هو بالذات ، أخذ يتفكّر في مشروعية هذه المقارنة ، وإلى أية درجة هي مُحِقّة وممكنة ، وكم هي قاسية الإساءة التي ألحقها به زاخار ، وأخيراً هل أهانه زاخار عن وعي ، أي هل كان مقتنعاً ، بأنّ إيليا إيلييتش يعني بالنسبة له ما يعنيه أيُّ شخص « آخر » ، أم

انّ الأمر لا يتعدى كونه مجرّد زلّة لسان ، دونما مساهمة من عقله . لقد أصاب ذلك كله كرامة أبلوموف في الصميم ، لذا فقد قرر أنْ يُظهر لزاخار الفرق بينه وبين أولئك ، الذين عناهم بكلمة « آخرين » ، وأن يجعله يشعر بفداحة مسلكه .

— زاخار ! صاح أبلوموف بصوت ممدود وبصورة مهيبة .

لم يقفز زاخار ، كعادته ، من مضجعه بمجرّد سماعه النداء ، ولم يضرب الأرض برجليه ، ويزمجر كما كان يفعل ، بل نزل بهدوء ومضى خانعاً ، هادئاً ، بلا إرادة ، كالكلب الذي يشعر من صوت سيده ، بأن لعبته مكشوفة ، وأنه يناديه لينال العقاب .

فتح زاخار الباب إلى منتصفه ، لكنه لم يتجاسر على الدخول .

— ادخل ! — قال إيليا إيلييتش .

ومع أن الباب قد انفتح بسهولة وبغير قيد ، فإنّ زاخار قد فتحه بطريقة يبدو من خلالها ، أنه يتعذر عليه الدخول ، فحشر نفسه في الباب دون أن يدخل .

كان أبلوموف جالساً على حافة السرير .

— تعال إلى هنا ! — قال أبلوموف بإصرار .

— تحرَّرَ زاخار من الباب بصعوبة ، لكنه أغلقه فوراً بمجرّد أنْ دخل ، ثم ألصق ظهره عليه التصاقاً وثيقاً .

— إلى هنا ! — قال إيليا إيلييتش ، مشيراً بإصبعه إلى مكان بالقرب منه .

خطا زاخار نصف خطوة ، ثم توقّف على بُعْد مترين من المكان المُشَار إليه .

ــ اقتربْ أيضاً !

تظاهر زاخار بأنه يسير ، لكنه كان يراوح في حقيقة الأمر مكانه وهو يدقّ الأرض بقدميه ، ثم بقي مكانه .

بعد أن أيقن إيليا إيلييتش ، أنه لن يستطيع ، بأية طريقة ، أن يستدرج زاخار ، هذه المرة ، إلى مكان أكثر قرباً منه ، فقد تركه هناك حيث كان يقف ، ثم نظر إليه معاتباً برهة من الزمن ، دون أن ينبس ببنت شفة .

شعر زاخار بالحرج ، من هذه النظرة الصامتة المتأملة لشخصه ، فتظاهر بأنّه لا يلاحظ سيّده ، مع أنّه كان يقف على مقربة منه ، أكثر من أيّ وقت مضى ، ومع ذلك ، فإنه لم يُلْقِ أيّة نظرة على إيليا إيلييتش .

أخذ يُسَمِّرُ نظره إلى الجهة الأخرى ، إلى اليسار : فرأى هناك شيئاً مألوفاً بالنسبة له ، منذ زمن بعيد ــ شاهد خيوط العنكبوت بالقرب من اللّوحة المعلقة على الحائط ، كما وجد في العنكبوت تأنيباً حيّاً على تقصيره وإهماله .

ــ زاخار ! نطق إيليا إيلييتش باعتداد وبصوت خافت .

لم يُجِبْ زاخار ، وكأنه كان يقول في قرارة نفسه : « ماذا تريد ؟ هل تريد زاخار آخر ، فأنا الذي يقف هنا » ، ثم حوّل نظرهُ من اليسار

إلى اليمين مروراً بسيده ؛ وهناك في الجهة اليمنى ، شاهد ما ذكّره بنفسه أيضاً ، فقد رأى مرآة مكسوة بطبقة من الغبار السميك تشبه الشاش : رأى في المرآة وجهه المتجهم البشع ، فبدا كما لو أنه كان ينظر إلى نفسه عبر الضباب .

حوّل زاخار نظره عن هذا المشهد الكئيب ، وقد تملكه شعور من عدم الارتياح ، فقرر أن يثبّته لحظة على إيليا إيلييتش ، فالتقت نظراتهما .

لم يستطع زاخار أن يتحمل اللوم المرتسم في عيني سيده ، فحوّل نظره نحو الأسفل : حيث قرأ هنا ، على السجادة المشبعة بالغبار والبقع ، شهادة بائسة كالحة على جهوده في خدمة سيده .

— زاخار ! — كرّر إيليا إيلييتش بتأثّر .

— ماذا تريد يا سيدي ؟ همس زاخار بصوت لا يكاد يُسمَع ، ثم ارتعش قليلاً متأثراً بلهجة سيده .

— أعطني الكفاس !

اطمأنّ قلب زاخار بعض الشيء ، فاندفع بفرح الطفل صوب الخزانة وجلب له الكفاس .

— ما هو شعورك ؟ — سأل إيليا إيلييتش بوداعة ، بعد أن أخذ رشفة من كأسه ، الذي كان يمسكه بكلتا يديه . — هذا غير لائق ، أليس كذلك . ؟

لان وجه زاخار فجأة ، تحت تأثير شعاع متألق من الندم ، غطّى

قسمات وجهه المتوحش . فقد أحسّ بالبوادر الأولى من الشعور بالإحترام تجاه سيده ، فأخذ ينظر ، فجأة ، في عينَي إيليا إيلييتش مباشرة .

— هل تشعر بذنبك ؟ — سأل إيليا إيلييتش .

« أيّ « ذنب » اقترفت ؟ — فكّر زاخار بأسًى » .

— إيليا إيلييتش — بدأ زاخار الكلام بصوت خافت جداً ، — لم أقل شيئاً ، سوى أنني . . .

— (مقاطعاً) لا ، انتظرْ ! — هل تفهم ما فعلت ؟ خذ الكأس وَضَعْهُ على الطاولة ، ثم أَجِبْ !

لم يُجِبْ زاخار ، فهو لم يفهم ، بالتأكيد ، ما فعله ، لكن هذا لم يمنعه من النظر إلى سيده بكثير من الاحترام ، حتى انه خفض رأسه قليلاً ، كعلامة اعتراف بالذنب .

— ألست شخصاً مقيتاً ؟ — سأل أبلوموف .

ظل زاخار ملتزماً الصمت ، لكنه رفّ عينيه ثلاث مرّات فقط .

— لقد كدّرت سيدك ! — قال إيليا إيلييتش وهو يتوقف بين الكلمات ، ثم أخذ ينظر إلى زاخار بإمعان ، متلذذاً بارتباكه .

— لم يعرف زاخار كيف يهرب من كربِه .

— ألم تكدّرني ؟

— كدّرتك ! قال زاخار بصوت يكاد يشبه الهمس ، وهو في غاية الارتباك والحيرة من هذه الكلمة الجديدة المؤسفة : أخذ يوزع

نظراته إلى اليمين واليسار والأمام ، علّه يجد ما ينقذه ، فتراءت أمام ناظريه ، من جديد ، أشياء كثيرة : العنكبوت ، الغبار ، انعكاس وجهه في المرآة المكسوة بالغبار ، ووجه سيّده .

« ليت الأرض تبتلعني ! آه ، ما أطيب الموت ! » ــ أسرّ زاخار لنفسه بعد أن وجد أنْ لا مناص من هذا المشهد الدرامي ، مهما داور وراوغ . شعر بأن عينيه تطرفان أكثر فأكثر ، حتى طفرت الدموع منهما .

أخيراً ، أجاب سيده بأغنية مشهورة ، لكن ، من خلال النثر لا الشعر .

ــ بأي شيء كدرتك يا إيليا إيلييتش ؟ ــ قال زاخار بصوت يشوبه البكاء .

ــ بأي شيء ؟ هل فكرت ، بما تعنيه كلمة « آخر » ؟ ــ توقف أبلوموف وهو يتابع النظر إلى زاخار .

ــ أأقول لك ماذا تعني ؟

استدار زاخار كالدب في وجاره وأطلق زفرة ملأت الحجرة .

ــ الآخر ــ الذي تقصده ــ يعني شخصاً فقيراً ملعوناً ، فظاً ، جاهلاً ، يعيش بفاقة في الأوحال . في كوخ ، ينام على اللبّاد في مكانٍ ما من فناء الدار . أتريد أن تجعل مني شخصاً كهذا ؟ لا بأس . انه يعيش على البطاطا والسمك الفسيخ ، تقذفه الفاقة من زاوية لأخرى ، لا يكف

عن التسكع ليل نهار . الآخر هو من ينتقل إلى شقة جديدة أيضاً الآخر ، هوليفاييف ، الذي يسير واضعاً تحت إبطه عصا ، رُبِطَتْ عليها حزمة ، تحتوي على قميصين ومنديل . . . تسأله « إلى أين ؟ » — فيجيب « انني متنقل » . ذلك ما تعنيه كلمة « آخر » ! فهل أنا ، حسب رأيك ، شخص « آخر » ؟

نظر زاخار إلى سيده ، ثم أخذ يراوح مكانه ، وهو يلتزم الصمت .

— ماذا تعني كلمة « آخر » ؟ — تابع أبلوموف — الآخر هو ذلك النموذج من الناس ، الذي ينظّف حذاءه بيديه ، ويرتدي ملابسه بنفسه ، مع أنه ينسب لنفسه ، أحياناً ، مآثر الأسياد ؛ إنه يكذب ، فهو لا يعرف ما هي المأثرة ؛ الآخر هو الذي لا يجد من يرسله لتنفيذ مهمة ، — بل يركض بنفسه لتأدية ذلك ، الآخر هو من يضع الحطب بنفسه في المدفأة ، ويزيل الغبار أحياناً . . .

— يوجد كثيرون من هذا النوع من الناس وسط الألمان — قال زاخار متجهماً .

— صحيح ! وأنا ؟ أتعتقد أنني « آخر » ؟ .

— إنك شخص آخر تماماً ! — قال زاخار متشكياً ، وهو لم يفهم بعد ، ماذا يريد أن يقول سيده .

— أنا شخص آخر تماماً ؟ وَيْحَكَ ، تبصَّرْ فيما تقول ! أتدرك كيف يعيش « الآخر » ؟ « الآخر » يعمل دونما كلل ، يتحرك بسرعة ، — تابع أبلوموف — إذا امتنع عن العمل ، فإنه لا يأكل . « الآخر »

يُسَلِّم بانحناء ، « الآخر » يتوسل ، يتذلل . . . وأنا ، ماذا أفعل ؟ هيّا ، قرّر : ماذا تظن ، هل « الآخر » أنا ؟

— كفى يا أبتاه ، كم أَتْعَبْتَنِي بهذه الكلمات المؤسفة ! — قال زاخار متضرّعاً — آه ، يا إلهي !

— أنا شخص « آخر » ! كيف ذاك ! هل أجهد نفسي ، هل أعمل ؟ هل آكل قليلاً ؟ هل منظري نحيل يبعث على الشفقة ؟ هل ينقصني شيء ما ؟ فما خدَمْتُ أحداً ، ولا قدَّمْتُ شيئاً لأحد ! لم ألبس والحمد لله ، طيلة حياتي ، جورباً بنفسي ! هل أزعج نفسي ؟ لماذا ؟ لمن أقول ذلك كله ؟ ألست أنت الذي تخدمني منذ نعومة أظفاري ؟ فأنت الذي تعرف ذلك كله ، أنت الذي رأيت بنفسك كيف تربَّيْت برقة ودلال ، فأنت تعرف ، أنني ما عانيت البرد والجوع يوماً ، وما عرفت الفاقة والكدح بوجه عام ، ولا مارست عملاً يدوياً . كيف طاوعك ضميرك بأن تقارنني بالآخرين ؟ هل صحتي مثل صحة « الآخرين » ؟ هل أستطيع أن أعمل وأتحمّل ما يفعله ويتحمّله الآخرون ؟

فَقَدَ زاخار ، بشكل قاطع ، كل إمكانية لفهم حديث أبلوموف ، لكن شفتيه انتفختا بسبب اضطرابه الداخلي . كان المشهد الدرامي المؤثّر يُرعِد فوق رأسه كسحابة . بيد أنه ظل صامتاً .

— زاخار ! — كَرَّرَ إيليا إيليتش .

— ماذا تريد ؟ — همس زاخار بصوت لا يكاد يُسْمَع .

— أعطِني كفاس أيضاً .

جلب زاخار الكفاس ، لكن ، ما أنْ فرغ إيليا إيلييتش من شربه . حتى همّ زاخار بالإنصراف برشاقة متناهية .

— كلا ، كلا ، قف مكانك ! — بدأ أبلوموف الحديث — إني أسألك : كيف طاوعك ضميرك أن تهين بمرارة ، سيدك ، الذي حملته على يديك وهو طفل ، وخدمته زمناً طويلاً ، سيدك الذي يُنْعِم عليك ؟

لم يصمد زاخار : فكلمة يُنْعِم أجهزت عليه ! أخذت عيناه تطرفان أكثر فأكثر . فعلى الرغم من ضآلة ما كان يفهمه من حديث إيليا إيلييتش الدرامي ، فقد كان حزنه يزداد كلّما فهم شيئاً .

— إنني مذنب يا إيليا إيلييتش ، — بدأ زاخار يبدي ندمه بصوت مبحوح ، — بسبب غبائي ، حقاً ، بسبب غبائي . . .

لم يستطع زاخار اختيار الفعل ، الذي يجب أن يستخدمه في نهاية حديثه .

— وأنا ، تَابَعَ أبلوموف بصوت ينمّ عن شخص مُهان هُدِرَتْ كرامته — لأَجْلِ مَن أفكّر ليلاً ونهاراً ، لأجل من أَدْأَب ، فرأسي تضطرم أحياناً ، وقلبي يكاد أنْ يتوقف عن الخفقان ، لا أنام الليالي وأنا أتقلّب وأفكر طوال الوقت لمعرفة ما هو أفضل وأحسن . . . ؟ لأجل مَنْ ؟ من أجلكم . ربّما تعتقد ، عندما تراني متدثراً ، أحياناً ، بالأغطية حتى قمة رأسي ، كجذع الحطب ، بأنني نائم ؛ كلاّ ، لا أكون نائماً ، بل أفكر بعمق ، كي لا يتعرض الفلاحون لفاقة أو حاجة ، كي لا يحسدوا الغرباء ، كي لا يشتكوا عليّ لربي يوم الحساب ،

كي يصلوا من أجلي ويذكروني بالخير ، يَالَكُمْ مِن ناكري الجميل !—
ختم أبلوموف حديثهُ بعتاب مرير .

تأثّر زاخار ، بعمق ، بفعل الكلمات المؤسفه الأخيرة . بدأ ينشج قليلاً ، وأخذ بكاؤه وحشرجته يشتدان في هذه المرة ، ليؤلّفا نوتةً تعصى على أية آلة موسيقية ، بما في ذلك الناقوس الصيني ، أو الطبول الهندية .

— إيليا إيليتش ! — قال زاخار متوسلاً ، — عفوك يا سيدي ! ليكن الله في عونك ! كم أنت تتحمّل من أجلنا ! يا أمّنا العذراء المقدسة ! ما هذه المصيبة ، التي حلتّ بنا على حين غرة . . .

— وأنت — تابع أبلوموف دون أن يسمعه أو يصغي إليه — حريٌّ بِكَ أنْ تخجل مما فعلت !

يا لك من أفعى دَفّأْتُها في صدري !

— أفعى ! — قال زاخار وهو يضرب كفاً على كف ، مُصَعِّداً بكاءه ، بطريقة يبدو من خلالها ، أنّ عشرين صرصاراً كانوا يطيرون ويطنوّن في الحجرة . متى ذكرت لك الأفعى ؟ —

قال زاخار وهو يجهش في البكاء . إنني لا أراها ، حتى ولا في الحلم ، يا لها من شنيعة قذرة !

أصبح كلٌّ منهما لا يفهم الآخر مطلقاً وأخيراً ، لم يعدْ أيّ منهما يفهم ؛ حتى نفسه .

— كيف حاد لسانك عن الصواب ؟ — تابع إيليا إيليتش — كيف

تخطىء معي وأنا الذي حددّْت لك في خطتي بيتاً خاصاً ، وحاكورة ، وعينت لك مرتباً ! أنت مدير أعمالي ، وكبير خدمي ، ومؤتمني على شؤوني! الفلاحون رهن إشارتك ؛ كل هذا من أجلك يازاخار تروفيميتش ، أجل ، من أجلك يا زاخار تروفيميتش ! فعلت ذلك كله وهو لا يزال غير راضٍ ، يقارنني مع « الآخرين » ! يا لها من مكافأة ! يا له من شرف !

ما انفكّ زاخار عن البكاء ، بينما كان إيليا إيلييتش في غاية التأثّر — وفي معرض نصحه لزاخار . ذهب أبلوموف بعيداً في تعداد الحسنات ، التي يقدّمها للفلاحين ، بينما ختم حديثه بصوت مرتجف ، والدموع في عينيه ، موجّهاً اللوم والعتاب لهم .

— اذهبْ الآن برعاية الله ! — خاطب أبلوموف زاخار بلهجة متسامحة . — مهلاً ، أعطني كفاس أيضاً ! لقد جفّ حلقي تماماً : كان عليك أنْ تستنتج ذلك من تلقاء نفسك — لقد جفّ حلق سيدك ، هل تسمع ؟ انظر ما فعلته بي !

— آمل بأن تكون قد أدركت ذنبك ، — قال إيليا إيلييتش عندما جلب زاخار الكفاس ، — كما آمل بأن لا تقارن سيدك مع الآخرين في المستقبل . ومن أجل أن تكفّر عن ذنبك ، عليك أن تتدبّر الأمر مع صاحب الشقة بطريقةٍ ما ، تجنّبنا الإنتقال . بهذه الطريقه يمكن أن تؤمّن الهدوء والراحة لسيّدك : لقد أقلقتني وحرمتني من فكرةٍ ما جديدة مفيدة ، كنت على وشك بلورتها . أتعرف ، من ذا الذي

حرمته ؟ حرمت نفسك بالذات ، فلقد كرّست حياتي كلها من أجلكم ، فمن أجلكم قدمّت استقالتي من الوظيفة ، من أجلكم أحبس نفسي في غرفة مغلقة . . . سامحك الله ! ها هي الساعة الثالثة ! لم يبق إلاّ ساعتين ، ويحين موعد الغداء ، ماذا ألحق أن أفعل خلال ساعتين ؟ لا شيء . أما الأعمال فكثيرة لديّ . لذا أجد نفسي مضطرّاً لأنْ أؤجل الرسالة إلى موعد البريد المقبل ، أما الخطّة فسأضع مسودّتها غداً . سأستلقي الآن قليلاً : لقد أُنْهِكْتُ تماماً ، أما أنت فأسدل الستائر ، وأغلق الباب بإحكام ، كي لا يزعجني أحد ، ربّما أنام ساعة ، لا تنسَ أنْ توقظني في الرابعة والنصف .

بدأ زاخار يتّخذ في الحجرة ، كل الإحتياطات الكفيلة بتوفير الراحة لسيده ، فوضع الأغطية عليه ، في البداية ، وأخذ يدسّ أطراف البطانية تحت سيده ، كي لا ينفذ الهواء إلى الداخل ، ثم أسدل الستائر وأغلق الأبواب والنوافذ بإحكام وانصرف .

ـ ليت الموت يأخذك ، يا لك من عفريت ! ـ غمغم زاخار وهو يمسح آثار الدموع ، ثم انسلّ إلى مصطبته . ـ إنه عفريت حقاً ! هه ، بيت خاص ، بستان ، مرتب ! قال زاخار بعد أن فهم الكلمات الأخيرة فقط . ـ إنه بارع بمثل هذه الكلمات المثيرة للشفقة : كأنه كان يحزّ قلبي بسكين . . . منزل ، هه ، هنا بيتي وبستاني ، هنا سأموت ! ـ قال زاخار وهو يضرب بغيظ مصطبته . ـ مرتب ! حتى القطعة المعدنية من فئة الخمسة قروش لا أراها ، والتبغ لا يتوفر لي ،

وإشبينتي لا أعرض عليها شيئاً أقدّمه ! يداي فارغتان ! . . . كم أتمنى الموت !

استلقى إيليا إيلييتش على ظهره ، لكنه لم ينم سريعاً . كان يفكّر ويفكّر ، يضطرب ، ويضطرب . . .

– مصيبتان فجأةً ! – قال أبلوموف وهو يتدثّر بالأغطية حتى قمة رأسه . – أرجو أن أصمد ! حقيقة الأمر ، هي أن هاتين المصيبتين ، أي رسالة وكيل القرية المشؤومة ، والإنتقال إلى شقة جديدة ، لم تعد تقلق أبلوموف ، فقد أصبحتا في عداد الذكريات غير المحببّة .

« ما زال الوقت بعيداً ، حتى يحين موعد المصائب ، التي يتحدث عنها وكيل القرية ، فحتى ذلك الوقت ، يمكن أن يتغيّر الكثير : لعل الأمطار تصلح المزروعات ؛ ربمّا يسدّد وكيل القرية بقيّة الضرائب المتأخرة ؛ وقد يُعاد الفلاحون الهاربون إلى « أماكن سكنهم » كما يكتب » .

« إلى أين هرب هؤلاء الفلاحون ؟ – تفكّر أبلوموف ، وهو يمعن النظر في معالجة هذه المسألة – لنفترض أنهم هربوا ليلاً ، في جوّ رطب وبدون خبز . أين سينامون ؟ هل يُعقَل أن يناموا في الغابة ؟ فالجلوس مستحيل فيها ! الأمر مختلف في بيوت الفلاحين ، فعلى الرّغم من الروائح الكريهة ، إلاّ أن الدفء متوفر على الأقل . . . » .

« علام القلق ؟ قريباً ، ستأتي الخطة في الوقت المناسب – لماذا الخوف قبل الأوان ؟ آه منّي . . . » .

أخذت فكرة الإنتقال من الشقة تقلقه أكثر فأكثر . فقد كانت هذه المشكلة أحدث وآخر مصيبة حلّت به ؛ لكن روح أبلوموف الساكنة الخاملة المهدّئة ، كانت تعتبر أنّ زمناً طويلاً قد مضى على هذه المسألة . ومع أنه كان يتنبأ ، بشكل غامض ، بحتمية الإنتقال ، خاصة بعد أن تدخّل تارانتييف في الموضوع ، إلاّ أنه كان يؤجّل ، ذهنياً ، ولو لأسبوع ، تنفيذ هذا الأمر المزعج ، الذي ينغّص حياته ، فيقول في قرارة نفسه : ها قد ربحت أسبوعاً بكامله من الهدوء والطمأنينة !

« ربما سيحاول أن يتدبّر الأمر بطريقة ما ، تنتفي فيها مسألة الإنتقال كلياً ، عسى أن يتمّ ذلك ، لعلّ الموضوع يؤجّل إلى الصيف المقبل ، أو يُصْرَفُ النظر عن الإصلاحات نهائياً ! يجب ألاّ ننتقل ! ...»

هكذا كان أبلوموف يضطرب ويهدأ بالتناوب . فقد وجد هذه المرّة ، في تلك الكلمات الإسترضائية المهدّئة مثل : عسى ، لعل ، ربما ، بطريقة ما ، مستودعاً كاملاً من الأمل والعزاء ، يُهدّىء به روعه ويحمي نفسه من مصيبتين ، في هذه اللحظة على الأقل .

خَدَرٌ عذب لطيف سرى في جسده تبعَتْهُ غشاوة من النعاس ، غَطّتْ حواسه ، شبيهة بغشاوات الجليد الأولى ، الرقيقة الخجولة ، التي تلامس سطح الماء ؛ دقيقة أخرى — ويطير وعيه إلى مكان لا يعلمه إلاّ الله . لكن إيليا إيليتش صحا فجأة ، وفتح عينيه .

— إنني لم أغسل وجهي ! كيف يمكن ذلك ؟ فأنا لم أفعل شيئاً — همس أبلوموف — كنت أريد أن أضع خطتي على الورق ، ولم أضعها ،

لم أكتب شيئاً إلى رئيس شرطة القضاء ، ولا إلى حاكم المقاطعة أيضاً .
كنت قد بدأت كتابة رسالة إلى صاحب الشقة ولم أكملها ، الحسابات لم أدقّقها ، والنقود لم أسلّمها — هكذا ضاع الصباح هباءً !

استغرق في التفكير .

« ما الذي يحدث ؟ هل يمكن لشخص آخر أن يتصرّف على هذا النحو ؟ لا َحتّ الفكرة في ذهنه — آخر . . . . ماذا تعني كلمة آخر ؟».

استغرق بإجراء عملية مقارنة . بين نفسه ، وبين « الآخر » . بدأ يفكر ويفكر : فتبلورت لديه ، الآن ، فكرة ، مناقضة تماماً لتلك الفكرة ، التي قدمّها لزاخار عن الآخر .

كان عليه أن يعترف ، بأن شخصاً آخر مكانه ، لا بدّ من أن يكون قد أفلح في كتابة تلك الرسائل كلها ، دون أن تتجاور كلمتا « الذي » و « إنّ » . ولا لمرة واحدة ، ولا ننتقل إلى الشقة الجديدة ، ولأنجز ونفّذ خطّته ، ولسافر إلى القرية . . .

« كنت أستطيع أن أفعل ذلك كله . . . — تفكر أبلوموف — فأنا أعرف الكتابة ، كنت أكتب في يوم من الأيام ، ليس الرسائل فحسب ، بل أشياء أخرى تتطلب ذكاءً أكبر ! أين اختفى هذا كله ؟ والإنتقال من الشقة ، أليس مسألة بسيطة ؟ يكفي أن يعزم المرء على ذلك ! « الآخر » لا يلبس رداءً أبداً — أضاف أبلوموف سمة أخرى لتحديد صفات الآخر ؛ — « الآخر » . . . هنا تثاءب أبلوموف ... لا ينام تقريباً ... « الآخر » يتسلّى في حياته ، يتواجد في كلّ مكان ،

يشاهد كلّ شيء .. . وأنا ! أنا . . . لست « الآخر » !ـ قالها بأسى واستغرق في تفكير عميق . حتى أنه حررّ رأسه من الأغطية .

حلّت لحظة من أكثر اللحظات وعياً ووضوحاً في حياة أبلوموف .

كم كان مرعباً بالنسبة له ، أن يبرز في نفسه فجأة ، تصوّر واضح حيّ عن مصير الإنسان ودوره ، وأن تفرض ذاتها عملية المقارنة بين هذا الدور ، وبين حياته التي يعيشها ، وأن تنهال عليه المسائل الحياتية الملّحة ، الواحدة تلو الأخرى ، بدون انتظام وبشكل يبعث على الخوف ، تماماً كالطيور التي يباغتها شعاع شمس مفاجىء ، وهي تختبىء في أنقاض مظلمة .

كم أَحَسَّ بالحزن والألم ، عندما أدرك مدى تخلّفه وانقطاع نموّ قواه المعنوية ، والعجز الذي يمنعه عن فعل أي شيء ؛ أخذ الحسد يأكله ، فهو يحسد الآخرين ، الذين يعيشون حياتهم كما ينبغي ، بينما يجد نفسه عاجزاً عن العمل ، كما لو أنّ حجراً ضخماً قد أُلقِي به على درب حياته الضيق التافه .

تكوّن في قرارة نفسه المستكينة الخائفة ، شعور مؤلم ، بأنّ جوانب كثيرة في شخصيته لم تستيقظ إطلاقاً ، بينما بقيت الجوانب الأخرى في مستوى متدنٍّ من النمو ، لم يَرْقَ أيٌّ منها إلى مستوى الكمال المنشود . في غضون ذلك ، كان يشعر ، بمزيد من الألم ، بأن أساساً مشرقاً خيرّاً مدفون في أعماقه ، كما في القبر ، ولربمّا يكون قد مات الآن . أو أنه لا يزال كامناً في أعماق نفسه ، كما يكون في أعماق

الجبل ، الذهب الذي آن له أنْ يتحوّل منذ زمن بعيد ، إلى عملة متداولة .

لكنّ هذا الكنز قد وُضع في مكان عميق من طبقات الأرض ، ورُدِم بطبقات سميكة من الغرانيت والنّفايات ، كما لو أن أحداً قد سرقه ودفنه في أعماق نفسه . بيد أن أمراً ما قد منعه من الإنطلاق إلى ميدان الحياة والتحليق في آفاق العقل والإرادة . كأن عدوّاً ما خفيّاً قد وضع عليه في بداية الطريق ، يداً قوية ثقيلة ، رمته بعيداً ، لتحول دون ممارسة دوره الإنساني . . .

أصبح صعباً عليه ، على ما يبدو ، أن يتخلّص من الأماكن الموحشة ومجاهل الغابات ، ليهتدي إلى الطريق السويّ . فالغابة تحيط به من جميع الجهات ، وعالمه النفسي أصبح أكثر ظلاماً ، والطريق الضيقه اعشوشبت أكثر فأكثر ؛ واشراقة الوعي عنده تضاءلت وأخذت تخبو وتختفي ، وقواه الكامنه استيقظت للحظةٍ واحدةٍ فقط . لقد تعطّل عقله وإرادته ، منذ زمن بعيد ، وإلى غير رجعة على ما يبدو .

تضاءلت أحداث حياته إلى مقاييس غاية في الصغر ، إلى مقاييس مجهرية ، ومع ذلك لم يستطع أن يتغلب ، حتى على هذه الأحداث ؛ فهو لا ينتقل من حدث لآخر ، بل تتقاذفه الأحداث ، كما تتقاذف الأمواج خشبة عائمة ؛ إنه عاجز عن أن يضع بنفسه ، حدّاً لضعف إرادته ، أو يستخدم عقله لمواجهة الأحداث حسب تتابعها .

كان يشعر بالمرارة بسبب هذا الاعتراف الداخلي أمام نفسه .

فالتأسف على الماضي ، الذي لا طائل منه ، وملامات الضمير المؤلمة ، كانت تلسعه كالإبر ، لذا ، فإنه كان يحاول بكل طاقاته ، أن يلقي عن كاهله عبء هذه الملامات ويبحث عن المذنب في شخص آخر غيره ، يحمله المسؤولية ويوجه إليه وخز تلك الملامات .

لكن من هو هذا الشخص ؟

— كل هذا بسبب . . . زاخار ! — قال أبلوموف بصوت يشبه الهمس . .

تذكّر تفاصيل المشهد الحواريّ مع زاخار ، فغطّى وجهه كلّه ، احمرار الخجل . « ماذا ، لو سمع أحد — ما ذلك المشهد ؟ . . — تفكر أبلوموف متجمداً عند هذه الفكرة . — شكراً لله على أنّ زاخار لا يعرف أن يكرر ما قلت ؛ شكراً لله ! » .

أطلق زفرة ولعن نفسه ، ثم تقلّب من جنب لآخر ، وهو يبحث عن مذنب ، لكنه لم يجده . لقد وصلت آهاته وزفراته ، حتى إلى مسامع زاخار .

— ها هو ذا ينفخ هناك من كثرة شرب الكفاس ! — غمغم زاخار .

« لماذا أنا هكذا ؟ — أسرّ أبلوموف لنفسه ، والدموع تكاد أن تطفر من عينيه ، ثم دسّ رأسه تحت الأغطية من جديد » .

أطلق زفرة في غمرة بحثه عن البداية الشرّيرة ، التي تنغّصُ حياته وتمنعه من العيش كما ينبغي ، كما يعيش « الآخرون » ، ثم أغلق

عينيه ، وبعد دقائق قليلة ، بدأ النعاس يسيطر رويداً رويداً على أحاسيسه .

— وأنا أيضاً . . . كنت أريد . . . . — قال أبلوموف وهو يرفّ عينيه بصعوبة — شيئاً ما من هذا القبيل . . . أيُعْقَل أن تكون الطبيعة قد حرمتني . . . لا ، شكراً لله . . . فالتشكّي لا يجوز . . .

سُمِعَتْ إثر ذلك زفرة مستكينة . فقد تحوّل من اضطرابه إلى وضعه الطبيعي ، إلى السكون واللامبالاة .

— يبدو أنّ قدري هكذا . . . ماذا أستطيع أن أفعل ؟ . . . أسَرَّ إلى نفسه بصعوبة ، لأنّ النعاس كان يدبّ في جسده .

« الدخل هذا العام أقل بألفي روبل . . . » — قال أبلوموف فجأة بصوت عالٍ ، وهو يهذي — الآن ، الآن ، انتظرْ . . . — ثمّ صحا نصف صحوة .

— بيد أنّ . . . من الطّريف أن أعرف . . . لماذا أنا . . . هكذا ؟ . . — قال أبلوموف هامساً . ثم انغلقت أجفانه تماماً . — لماذا؟... يجب أن يكون السبب . . . لأنني . . . — حاول جاهداً أن ينطق ، لكنه لم يستطع .

هكذا لم يستطع أن يصل إلى السبب ؛ فقد تجمّد لسانه وهمدت شفتاه ، فجأة ، في منتصف الكلمة ، وبقيتا نصف مفتوحتين . فعوضاً عن الكلمة ، سُمِعَتْ زفرة أعقبها غطيط منتظم لشخص نائم باطمئنان .

لقد قطع عليه النوم حبلَ أفكاره الكسول البطيء ونقله بلمح البصر إلى عصر آخر ، إلى أناس آخرين ، إلى مكان آخر ، حيث سننتقل إلى هناك بصحبة القارىء ، لنقتفي أثره في الفصل المقبل .

حلم أبلوموف

أين نحن ؟ إلى أيّ مكان مبارك من هذه الأرض ، نقلنا حلم أبلوموف ؟ يا لها من منطقة رائعة !

لا يوجد هنالك ، في الحقيقة ، بحر ولا جبال عالية ، ولا صخور ومنحدرات قاسية ، ولا غابات كثيفة — فلا وجود ، مطلقاً ، لأي شيء ضخم موحش كالح .

علامَ هذا الشيء الموحش الضخم ؟ علامَ البحر مثلاً ؟ فلا حاجة لنا به ! إنه يبعث الحزن في الإنسان فقط : ما ان ينظر المرء إليه ، حتى تتملكه الرغبة بالبكاء . فالقلب يضطرب وجلاً أمام منبسط المياه الفسيح ، فما من شيء فيه يريح النظر ؛ الذي يتعب من رتابة هذه اللوحة ، التي لا نهاية لها .

فهدير البحر ودويّه الجنوني المسعور ، وقهقهاته ؛ لا تداعب السمع : فهي منذ بداية العالم ، تكرّر بإلحاح ، أغنية وحيدة ، ذات مضمون كئيب ، مليء بالألغاز ؛ ينبعث منها أنين لا يتغيّر ، وتأوهات

سرمدية يخال المرء أنها تصدر عن وحش محكوم عليه بالعذاب الأبدي ، وأصوات مشؤومة حادة ، لا يتبين المرء كنهها . الطيور لا تزقزق في وسط كهذا فلا يجد المرء هنا ، إلا طيور النورس الصامتة فقط ، التي تبدو وكأنه قد حكم عليها بالصمت ، فتراها منتشرة بكآبة عند الشاطىء ، وهي تدور فوق الماء .

كم هو ضعيف زئير الوحش أمام قهقهات الطبيعة هذه وهديرها ؛ كم هو ضعيف أيضاً صوت الإنسان أمامها ، فالإنسان ذاته صغير ضعيف ، لدرجة أنه يختفي في الثنايا البالغة الصغر ، لهذه اللوحة الفسيحة ، التي لا حدود لها ! ربمّا بسبب ذلك كله يصبح من العسير عليه أن ينظر إلى البحر .

تبّاً للبحر ! حتّى صمته وسكونه لا يبعثان في النفس شعوراً بالراحة والإطمئنان : فالمرء يرى في تموجاته ، التي لا تكاد تلحظ ، قوة غير محدودة ، على الرغم من أنها نائمة ، قوة تَسْخَرُ في بعض الأحيان ، بصورة لاذعة ، من إرادة الإنسان وتدفن بعمق أفكاره الشجاعة الجسورة ، كما يرى الإنسان في تلك التموّجات الناعمة همومه ومشاغله أيضاً .

الجبال والمنحدرات لم تخلق أيضاً ، لتسلية الإنسان والترويح عنه . فهي رهيبة مخيفة ، تبدو مسلطة عليه كمخالب وأسنان الوحش الكاسر ، إنها تذكّره ، بقوة ، بتركيبنا الجسدي الواهي ، وتبعث فينا الرعب والخوف مدى الحياة . أما السماء فوق هذه الصخور والمنحدرات ،

فتبدو بعيده ، لا يمكن إدراكها ، وكأنها قد تركت الناس وشأنهم .

لم تكن البقعة ، التي وجد فيها بطلنا نفسه ، فجأة ، على هذا النحو من الأوصاف . فالسماء هناك ، كانت تبدو على العكس من ذلك ، أكثر اقتراباً من الأرض ، لكن ليس من أجل أن ترميها بالسهام . بل من أجل أن تحضنها بأكثر ما يمكن من الحب : فهي تمتد فوق الرأس على ارتفاع غير عالٍ ، كسقف عزيزٍ حانٍ ، يحمي هذه البقعة المباركة ، على ما يبدو ، من كلّ النكبات .

الشمس هناك ساطعة ، دافئة تبعث الضياء قرابة نصف عام ، ثم تبتعد رويداً رويداً ، دونما رغبة ، كأنها تريد أن تعود مرة أخرى أو مرتين ، لتطلّ على المكان المحبوب وتمنحه في الخريف . حيث الغيوم الدائمة ، يوماً مشرقاً دافئاً .

الجبال هناك تبدو وكأنها نماذج أو موديلات فقط عن جبال شاهقه مخيفة في مكان ما . إنها سلسلة هضاب خفيفة الإنحدار ، يستمتع المرء بالتزحلق منها على ظهره ، أو بالجلوس عليها لتأمّل غروب الشمس .

نهر ينساب مرحاً ضاحكاً عابثاً ، تراه تارةً ، يصبّ في بركة فسيحة ، بينما يندفع بسرعة ، تارة أخرى ، ثم يهدأ متأملاً ، وهو يحبو على الحصى والحجارة ، فيصدر من لدنه في كل الاتجاهات ، جداول صغيرة ، يغفو المرء على خريرها بحلاوة وتنعّم .

وعلى امتداد خمسة عشر أو عشرين فرسخاً من البقعة كلها ، تترامى أمام عينيّ الناظر ، من كل الجهات ، لوحات طبيعية رائعة ،

ومناظر ضاحكة تبعث على السرور . فالضفاف الرملية المنحدرة للنهر ذي المياه العذبة الصافية ، الذي يتسالّ من الهضبة ، مكسوّة بشجيرات كثيفة من أشجار التبولا ، ترافق مسيل النهر الملتوي — كأنّ يَدَ فنّان قد رتّبتْها ، بعناية ، الواحدة تلو الأخرى ، ورَسَمَتْها بإتقان لا مثيل له .

كم ينشد القلب ، الذي أضنته الإضطرابات النفسية الداخلية ، أو ذاك الذي لا يعرفها مطلقاً ، الإختباء في هذه البقعة المنسية من الجميع ، ليعيش بسعادة لم يعرفها أحد . فكلّ شيء هناك يبشر بحياة هانئة مديدة حتى آخر العمر ، حتى يصفرّ الشعر ؛ كل شيء يبشّر بحياة ناعمة ساكنة كسكون الموتى .

مدار السنة هنا ، يجري بانتظام ورزانة .

الربيع يحلّ في آذار ، حسب التقويم الفصلي . فتندفع الجداول الموحلة من أعالي المرتفعات ، وتذوب القشرة التي تغطّي وجه الأرض ، وينطلق البخار الدافىء ؛ أما الفلاح فينزع فروته المصنوعة من جلد الغنم ، ويخرج إلى الهواء الطلق ، بالقميص فقط ، فيستمتع طويلاً بالشمس ، مغطّياً عينيه بيده وهو يهز كتفيه بسرور ؛ ثم يعيد العربة المقلوبة رأساً على عقب إلى وضعها الصحيح ، أو يتفحّص ويركل بقدمه المحراث المرميّ تحت السقيفة ، بكثير من الفرح ، استعداداً لمزاولة أعماله المعتادة .

في الربيع ، لا تعود العواصف الثلجية المفاجئة بالظهور من جديد ، ولا تكسو الحقولَ بالثلج أو تكسر الأشجار .

أما الشتاء فيظلّ حتّى موعد الدفء ، كالحسناء المتكبّرة الباردة ، متماسكاً ، لا يظهر أيّ ضعف ؛ فهو لا يزعج بذوبانات الثلوج المباغتة ، ولا يضني بصقيع لا يحتمل ؛ فكل شيء يسير وفق النظام الاعتيادي ، الذي أقرّته الطبيعة .

في تشرين الثاني يبدأ الثلج والصقيع ، ويشتدّان مع حلول عيد الغطاس لدرجة ، أن الفلاح تكتسي لحيته بالثلج حتماً ، بمجرّد أن يخرج من كوخه لحظةً واحدة ؛ وفي شباط يشمّ أي امرىء حسّاس رائحة الربيع على الأبواب .

أما الصيف فيبعث على السرور ، بوجه خاص ، في هذه البقعة من الأرض ، حيث الهواء الجاف النقي ، المشبع بالعبق والغار وبرائحة الشّيح الذكية ، حيث النسيمات العذبة المنعشة لأشجار الصنوبر والبطم ؛ فهناك الأيام الصاحية المشرقة ، حيث تلفح أشعة الشمس قليلا بحرارتها ، دون أن تؤذي مطلقاً ، أما السماء فتظلّ صافية قرابة ثلاثة أشهر ، لا تعكّرها أية غيمة .

ما ان تبدأ الأيام الصافية المشرقة ، حتّى تستمر أسابيع ثلاثة ، أو أربعة ؛ فيصير الليل دافئاً هناك ، وخانقاً بعض الشيء . أما النجوم فتغمز ببشاشة وبودّ في كبد السماء .

المطر يهطل – المطر الصيفيّ النافع ! فهو ينهمر بسرعة وغزارة ،

ويقفز بمرح ، كالدموع السخية الحارة ، التي يذرفها شخص ما ، غمَرَهُ الفرح فجأة ؛ وما أن يتوقف المطر حتى تطلّ الشمس باسمة مشرقة بالحب ، فتجفّف الحقول والوديان والهضاب : وتبتسم المنطقة كلها من جديد ، ابتسامة السعادة ، وهي تردّ التحية للشمس بالمثل .

ويحيّي الفلاح المطر بسرور : « المطر يُرَطّب ، والشمس تُجَفّف ! » . . . مُعَرّضاً بكثير من المتعة ، وجهه وكتفيه وظهره لرذاذ المطر الناعم الدافىء .

ليست العواصف الرعدية مخيفة هناك ، بل مفيدة : فهي تحدث دائماً في الوقت المحدد ، دون أن تنسى تقريباً يوم النبي إيليا «١» وكأنها تريد أن تؤكد الأسطورة الشعبية فعدد الرعدات وقوّتها ، على ما يبدو ثابت في كل عام ، فهو يشابه في انتظامه ، التيار الكهربائي المنظّم ، الذي تتحكم به الدولة .

ليست مخيفة أيضاً هي الزوابع ، فلا يسمع المرء عن أي تدمير في هذه المنطقة . وفي الجرائد ، لا يقرأ المرء إطلاقاً ، شيئاً من هذا القبيل ، في هذه البقعة المباركة . ولم يعاقب الباري هذه المنطقة بأي نوع من أنواع الأوبئة . فما رأى أحد قط من سكان هذه البقعة المباركة شيئاً من البيارق السماوية المرعبة ، ولا شاهد كُرَيّات نارية ، ولا ظلاماً مفاجئاً ؛ لا توجد هناك حشرات سامة ، ولا يطير الجراد ، كما لا توجد أسود كاسرة أو نمور مزمجرة ، ولا دببة أو ذئاب ، بسبب

(١) الإشارة هنا إلى يوم النبي ايليا الذي ينظم الرعود كما تعتقد الاساطير (المترجم).

عدم وجود الغابات . وفي القرية والحقول ، تسرح هناك بكثرة ، الأبقار والنعاج والدجاج .

الله وحده يعلم ، فيما إذا كان الشاعر والحالم سيسرّان بطبيعة هذه البقعة الآمنة .

فهؤلاء السادة يحبّون ، كما هو معروف ، تأمّل القمر وسماع تغريد البلابل . انهم يحبون القمر العابث ، الذي يتوارى خلف الغيوم ، ويطلّ عبر أغصان الأشجار خلسة ، ويلقي بأشعته الفضّية مغازلاً المحبيّن والمُتَيَّمين .

ما من أحد في هذه البقعة المباركة يعرف قمراً كهذا . ما يعرفونه : هو القمر الذي يتطلّع بملء عينيه إلى القرى والحقول ، بكثير من اللطف والودّ ، القمر الذي يشبه طستاً نحاسيّاً نظيفاً لمّاعاً .

سيكون عبثاً ، أن ينظر إليه الشاعر بعينين فرحتين : إذ أنه سينظر بدوره ، إلى الشاعر ، كما تنظر حسناء ريفية مستديرة الوجه ، وهي ترد على النظرات المعبّرة الشغوفة لزير نساء مديني .

في هذه البقعة المباركة ، لا يُسْمَع تغريد البلابل أيضاً ، ولربما كان ذلك ناجماً عن فقدان الورود والمخابىء ، التي يكتنفها الظل ؛ لكن ما أوفر طير السمّن هناك ! ففي الصيف ، يصطاده الأطفال بأيديهم ، في فترة الحصاد .

ومع ذلك ، ما من أحد هناك يعتبر أن السمّن يشكل مادة للتأنق في المأكل ، فهذا الفساد لم يتأصل بعد في طباع الناس في تلك البقعة

المباركة : فالسمّن عندهم – طائر ، لا يعتبر أساسياً في طعامهم . فهو طائر يُمَتِّع السمع بتغريده . لذا ، يوجد هناك في سقف كل بيت تقريباً ، قفص مصنوع من الخيوط ، بداخله سمّانة .

ربما لن يُسرّ الشاعر أو الحالم ، حتّى بالمشهد العام لهذه البقعة البسيطة المتواضعة فلن يتيسّر لهما رؤية أمسية ذات طابع سكوتلندي أو سويسري ، حيث الطبيعة كلها – الغابة والمياه وجدران المنازل الريفية ، والكثبان الرملية – متلألئة بهالةٍ قرمزية ، يبرز على خلفيتها رجال ونساء يسلكون طريقاً رملياً ملتوياً ، لرؤية أطلال كثيبة ، يحثّون الخطى بعدها إلى قلعة حصينة ، حيث بانتظارهم هناك ، عنزة بريّة على العشاء ، وقصيدة شعرية تؤدّيها سيدة شابة بعذوبة نادرة ، على غرار لوحات والترسكوت ، التي أغنت مخيّلتنا .

كلا ، فلا وجود لشيء من هذا في منطقتنا .

كل شيء هادىء ، ساكن في تلك القرى الثلاث أو الأربع ، التي تؤلف هذه المنطقة ! فهي متناثرة على مقربة من بعضها ، كأنّ يداً عملاقة قد ألقت بها صدفة ، فتناثرت في اتجاهات مختلفة ، وبقيت على حالها منذ ذلك الوقت .

أحد البيوت باق على حاله ، كما كان منذ قديم الأزل ، فهو مرمي على حافة وادٍ ضيق . نصفه معلّق في الهواء ومستند على ثلاثة أعمدة خشبية . فقد عاش فيه ثلاثة أو أربعة أجيال بهدوء وسعادة .

حتّى الدجاجة تخشى أن تدخل إليه ، ومع ذلك فإنّ الرجل القويّ

أو نيسيم سوسلوف يعيش فيه مع زوجته ، على الرغم من أنه لا يستطيع أن يقف فيه على امتداد قامته .

الدخول إليه صعب للغاية ، فعتبة البيت معلقة فوق الوادي ، الأمر الذي يتطلب من كل شخص يريد دخوله أن يتمسّك بالعشب بإحدى يديه ، بينما يتمسك بالسقف باليد الأخرى ، ثم يندفع مباشرة إلى الأمام ، كي تصبح ساقه على العتبة .

منزل آخر معلق في الرابية كعش السنونو ؛ بينما تناثرت ثلاثة منازل أخرى بالقرب صدفة ؛ وهناك منزلان آخران في قعر الوادي .

كل شيء هادىء ساكن في القرية ؟ المنازل مفتوحة ، لكن المرء لا يشاهد أحداً ؛ سحابات من الذباب فقط ، تطير وهي تطنّ في الهواء المنحبس .

من العبث أن تبدأ الصراخ بصوت عال ، بمجرد أن تدخل أحد هذه البيوت : سيكون جوابك صمت القبور . ربما تسمع ، أحياناً ، أنين مريض ، أو سعالاً خافتاً لعجوز على حافة القبر ، وربما يظهر ، فجأة ، من وراء حاجز ، طفل ، حافي القدمين ، طويل الشعر ، لا يتجاوز عمره سنوات ثلاث ، عليه قميص فقط ، فينظر بصمت واهتمام إلى الشخص الداخل ، ثم لا يلبث أن يختبىء من جديد .

الصمت المطبق نفسه ، والسكون يسودان الحقول أيضاً ، لكن يمكن أنْ تصادف في مكانٍ ما ، فلاّحاً أنهكه القيظ ، يكدح كالنملة ، وهو يضغط على محراثه ويتصبّب عرقاً .

الهدوء والطمأنينة يسيطران على أمزجة الناس وطباعهم في هذه المنطقة . فلا سطو ، ولا جرائم قتل ، ولا أية حوادث مرعبة تحدث هناك ؛ ما من شيء يثير الحماس في نفوسهم ، حتى المشاريع الطموحة .

سكّان هذه المنطقة يعيشون بعيداً عن الناس الآخرين . فمركز القضاء ، وأكثر القرى قرباً منهم ، تبعد حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين فرسخاً .

الفلاحون ينقلون الحبوب ، في وقت محدد ، إلى أقرب مرفأ على الفولغا ، بينما كان البعض منهم يذهب إلى المعرض مرة واحدة في العام ؛ أكثر من ذلك ؛ لم يكونوا يقيمون علاقات مع أحد .

اهتمامات الناس في هذه المنطقة ، منصبّة على أنفسهم بالذات ، فهي لا تتعارض مع مصلحة أي كان .

كل ما يعرفونه ، هو أنّ مركز المقاطعة يقع على بعد ثمانين فرسخاً عنهم ، وأن حاكم المقاطعة موجود فيه ، لكنّ قلّة منهم كانت تسافر إلى هناك ؛ عرفوا فيما بعد أيضاً ، أن ساراتوف ونيجني هي أبعد من مركز المقاطعة ، سمعوا ، أيضاً ، عن موسكو وبطرسبورغ ، وأن الفرنسيين ، أو الألمان يعيشون أبعد من بطرسبورغ ، في بلاد ، هي بالنسبة لهم ، كما هي بالنسبة لسكان العصور القديمة ، عالم غامض مجهول ، بلاد مليئة بالغرائب والأعاجيب ، الناس فيها عمالقة برأسين ، حيث فيها الظلام الدائم — وأخيراً ، فقد كانت نهاية معارفهم تعتبر ، بأن الأرض تمسك بها سمكة . فلولاها لكان الدمار قد حلّ بالكون .

وبما أن منطقتهم لا يعبرها أحد تقريباً ، فلم يكن هناك أي مصدر يستقون منه الأخبار عما يجري في هذا العالم : ومع أن باعة جوّالين يبيعون الأواني الخشبية كانوا يعيشون على مسافة عشرين فرسخاً منهم فقط ، إلا أنهم لا يعرفون شيئاً أكثر منهم . يصعب أن يعثر المرء على شيء يقارن به حياتهم ، ليتبيّن فيما إذا كانوا أغنياء أم فقراء .

عاشوا سعداء مقتنعين ، بأن الحياة لا ينبغي ولا يمكن أن تكون أفضل مما يعيشون ، واثقين بأن الآخرين جميعاً يعيشون عيشتهم ، وأن أيّ أسلوب آخر للحياة ، هو خطأ بخطأ .

لن يصدّقوا ، إذا ما قيل لهم ، أنّ الآخرين يحرثون الأرض ويزرعونها ويحصدونها ويبيعون المحاصيل بطريقة أخرى مختلفة . هل يمكن أن تكون لديهم مشاعر وهموم . ؟

لديهم كبقية البشر مشاغل وهموم ونقاط ضعف ، ودفع أتاوات وضرائب .

لم يمت عندهم ، في السنوات الخمس الأخيرة ، من مجموع بضع مئات من الأنفس ، أيّ شخص ، لا موتاً طبيعياً ، ولا قسرياً .

وإذا ما توفي أحد منهم بسبب تقدم في السن ، أو نتيجة مرض مزمن ، فإنهم يظلّون زمناً طويلاً يبُدون العجب من هذه الحادثة غير الطبيعية .

بينما لم تتملكهم الدهشة مطلقاً ، عندما أنهك الحداد تاراس نفسه، لدرجة أنه كاد أن يفارق الحياة ، الأمر الذي اضطرهم لصبّ الماء عليه .

من بين الجرائم ، تُذْكَر واحدة فقط ، هي سرقة الحمص والجزر واللفت من الحواكير ، فهذا النوع من الجرائم شائع جداً عندهم ، كما اختفى ذات مرة ، فجأة ، خنزيران ودجاجتان ، وهي الحادثة ، التي أقلقت المنطقة كلها ، حيث أُلْصِقَت التهمة بقافلة من باعة الأواني الخشبية ، مرت في المنطقة وهي في طريقها إلى المعرض . على العموم ، فقد كان هذا النوع من الحوادث نادراً جداً .

ذات مرة ، تم العثور أيضاً ، على شخص مستلقٍ في خندق ، خارج سور القرية ، بالقرب من الجسر ، كان قد تخلّف عن جماعة من الناس مرت بالقرب ، وهي في طريقها إلى المدينة .

شاهده الأولاد أولاً ، فركضوا مذعورين إلى القرية ، حيث راحوا يتحدّثون عن ثعبان ، أو غول ، مستلق في خندق ، مضيفين ، بأنه طاردهم ، حتى أنه كاد أن يلتهم كوزكا .

سرعان ما تسلّح الفلاحون بالمذاري والمطارق وتوجهوا فوجاً واحداً صوب الخندق .

— إلى أين أنتم ذاهبون ؟ — أخذ الشيوخ يهدّئون الأمور — ماذا تنوون أن تفعلوا ؟ لا تستعجلوا الأمور : فلا مبرّر للعجلة .

لكن الفلاحين مضوا يجدّون السير ، وقبل أن يصلوا إلى المكان المقصود بأكثر من خمسين متراً ، أخذوا ينادون الغول بأصوات مختلفة : لكنْ ما من جواب ، ثم توقفوا ، وتحركوا ، بعدها ، من جديد .

كان أحد الفلاحين مستلقياً في الخندق ، وهو يسند رأسه على كومة

من التّراب ، وبالقرب منه يوجد كيس وعصا ، عُلّق عليها زوج من الأحذية المصنوعة من الألياف .

لم يتجرّأ الفلاحون على الإقتراب منه .

— إي ، يا أخ ! — أخذ يصيح كل بدوره ، بينما كان البعض يحكّ قذاله ، والبعض الآخر ظهره . — ماذا تفعل هناك ؟ إي ، أنت ! ماذا تريد ؟

قام عابر الطريق بحركة ، محاولاً أن يرفع رأسه ، لكنه لم يستطع : فقد كان ، على ما يبدو ، مريضاً أو منهكاً جداً .

عزم أحد سكان القرية على أن يلكزه بالمذراة .

— لا تفعل ! لا تفعل ! — صاح كثيرون — لماذا هذا الإصرار على معرفة من هو ؛ انه لا ينطق بشيء ، فلربمّا يكون واحداً من أولئك البسطاء . . . اتركوه يا شباب ، اتركوه ! — هيا لنذهب ، — قال البعض ، — لنذهب : فمن هو بالنسبة لنا ، هل هو عمنا ؟ دعوه وشأنه .

ثم عاد الجميع إلى القرية ، وحدّثوا الشيوخ ، بأنّ شخصاً غريباً متمدّداً هناك ، لا ينطق بشيء ، لا يعلم إلا الله ما الذي جاء به إلى هناك .

— ما دام غريباً ، دعوه وشأنه ! — قال الشيوخ ، وهم يجلسون على المصطبة ، واضعين أكواعهم على ركبهم . — ما شأننا به ! حتّى أنه ، لم يكن هنالك أيّ مبرر للذهاب إليه !

هكذا كان حال المنطقة ، التي وجد أبلوموف نفسه فيها ، في الحلم .

من بين القرى الثلاث أو الأربع المتناثرة هناك ، كانت واحدة تسمّى سو سنوفكا ، وأخرى فافيلوفكا ، تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة فرسخ .

كانت سوسنوفكا وفافيلوفكا موروثتين عن آل أبلوموف ، لذا فقد عُرِفتا باسم أبلوموفكا .

كانت سوسنوفكا مقر آل أبلوموف ومركز سكناهم . وعلى مسافة خمسة فراسخ منهما فقط ، توجد قرية فيرخليوفا ، التي كانت ملكيتها في يوم من الأيام ، تعود أيضاً لآل أبلوموف ، لكنها انتقلت منذ زمن بعيد لأناس آخرين ، كما يتبع هذه القرية ، أيضاً ، مجموعة أخرى من البيوت المتناثرة هنا وهناك .

كانت ملكية القرية هذه تعود إلى إقطاعي غنّي ، لم يتواجد في أملاكه أبداً : إذ كان يديرها عنه بالنيابة أحد الألمان .

تلكم هي جغرافية هذه المنطقة بالكامل .

استيقظ إيليا إيليتش صباحاً ، فوجد نفسه في سرير صغير . لم يكن يتجاوز السابعة من عمره . كان مسروراً مرحاً .

كم كان جميلاً ، ممتلىء الجسم ، رائع القسمات ! وجنتاه مستديرتان ، لدرجة أن صبيّاً آخر لا يستطيع أن يكتسب مثلهما ، حتّى ولو نفخ وجهه عمداً .

كانت مربيته تنتظر استيقاظه . فبدأت تشد جوربه ، لكنه لم

يتمكّنها من ذلك ، إذ لم يكن يستقرّ على وضع ، فقد كان يحرّك رجليه وهو يعبث . لكن المربية كانت تتمكّن من الإمساك به ، فيغرب الإثنان في الضحك .

أخيراً ، استطاعت أن توقفه على ساقيه ، ثم غسلت وجهه ، وسرّحت شعره ، وقادته إلى أمه .

ما أن رأى أبلوموف والدته ، التي ماتت منذ زمن بعيد ، حتى بدأ قلبه يخفق فرحاً من شدّة حبّه لها : فأخذت تبرز رويداً رويداً من تحت أجفانه ، وهو نائم ، دمعتان بقيتا جامدتين .

أمطرته أمه بقبلات حارة ، ثم أخذت تتفحصه بعينين حانيتين لا تشبعان من رؤيته ، وهي تسأل المربّية مستوضحة ، هل يمرض ، هل ينام بهدوء ، هل يستيقظ ليلاً ، هل يتقلّب في النوم ، هل تنتابه الحرارة ؟ ثم أمسكته بيده ، وقادته إلى الإيقونة .

أخذت تلقنه تراتيل الصلاة هناك ، وهي تجثو على ركبتيها وتعانقه بإحدى يديها .

كان الطفل يرددها بشرود ، وهو ينظر إلى النافذة ، التي يتسرب منها إلى الغرفة ، عبق الليلاك البارد .

— ألن نذهب اليوم إلى النزهة يا ماما ؟ — سأل الطفل فجأة وسط الصلاة .

— سنذهب يا روحي ، — قالت بعجلة ، دون أن تحوّل نظرها عن الإيقونة ، وهي تستعجل إكمال كلمات الصلاة المقدسة .

كان الطفل يكرّرها بخمول ، لكن أمه كانت تصبّ فيها روحها بالكامل .

ذهبا بعد ذلك إلى والده ، ثم إلى مائدة الشاي .

بالقرب من مائدة الشاي ، شاهد أبلوموف عمته الطاعنة في السن ، التي تعيش في منزل والديه . إنها في الثمانين من عمرها ، تتكلم بلا انقطاع وهي تهز رأسها بفعل الشيخوخة مع ابنتها التي تقف خلف كرسيّها . وهناك أيضاً ثلاث عوانس بلغن سن الكهولة ، قريباته من جهة أبيه ، والاقطاعي تشيكمسينيف ، قريبه من جهة أمه الذي يملك سبع أنفس فهو مخبول قليلاً ، حلّ في ضيافتهم منذ بعض الوقت ، وهنالك أيضاً بعض الشيوخ ، بالإضافة إلى نساء أخريات طاعنات في السنّ .

تلقّف هذا الحشد الكبير من آل أبلوموف وحاشيتهم ، الصغير إيليا إيلييتش ، وأخذوا يمطرونه بوابل من المديح والدعابة والقبلات ، حتى أنه لم يتمكن من مسح آثار قبلاتهم ، التي لم يكن يرغبها .

بعد ذلك كله ، أخذوا يطعمونه السكاكر والحلويات والزبدة .

وبعد أن داعبته أمه أيضاً ، أرسلته كي يتمشّى في الحديقة ، على المرج الأخضر ، دون أن تنسى بالطبع ، تحذير مربيته من تركه وحيداً ، أو الإقتراب من الخيل والكلاب والماعز ، أو الإبتعاد عن البيت ، والأهم من ذلك كله عدم الإقتراب من الوادي الضيق ، الذي يُعتبر أخطر مكان في المنطقة ، يتمتع بسمعة رهيبة مخيفة .

ذات مرة ، عُثر هناك على كلب اعتبره سكان القرية مسعوراً ،

لسبب واحد فقط ، هو أنه ولّى هارباً عندما هاجمه الرجال بالمذاري والمطارق ، فاختفى ، كما قيل ، في مكان ما خلف الهضبة ؛ كما رميت فيه جيفة ، أيضاً . أما قطاع الطرق ، والذئاب . والعديد من الكائنات الأخرى المخيفة المختلفة ، التي توجد في هذه المنطقة ، أو تلك التي لا وجود لها إطلاقاً في هذا العالم ، فموجودة فيه كما يفترضون .

لم ينتظر الطفل تحذيرات أمه : فقد أصبح في الحديقة منذ بعض الوقت .

أخذ يتجول في منزل والديه ، مبدياً إعجابه الشديد به ، وكأنه يشاهد معالمه للمرة الأولى ؛ فقد كان مشدوداً للبوّابة المسقوفة ، وللسقف الخشبي الذي نبتت عليه وَكَسَتْهُ الطحالب الغضّة الناعمة الخضراء ، وللملحقات المختلفة من الأبنية في الحديقة المهملة .

تملّكته الرغبة بأن يركض على امتداد الرّواق المعلّق ، الذي يحيط بالبيت كله ، ليستمتع برؤية النهر من هناك ، لكن الرّواق قديم ، يكاد أن ينهار ، إذ يُسْمَح بالسير عليه « للعامّة » من الناس فقط ، أما السادة فلا يسيرون عليه أصلاً .

لم يُصغِ إلى تحذيرات أمه ، فاتّجه إلى درجات السلّم التي أغرته ، لكن مربّيته ظهرت في عتبة الباب وتمكنت بطريقة ما من الإمساك به .

أفلت منها واندفع راكضاً باتجاه مخزن الحشائش المجففة ، وهو يعتزم صعود السلم المنحدر ، فكان عليها أن تركض كي تتمكن من

تفويت الفرصة عليه ، قبل أن يتمكّن من دخول زريبة الأبقار ، ومنها إلى الهوّة — لا سمح الله !

— يا إلهي ، يا له من طفل حرِك ! ألن تجلس بهدوء ياسيد ؟ عيب ! — قالت المربية .

كانت المربية تقضي الليل والنهار ركضاً واهتماماً بالطفل المدلل ، خشية أن يسقط فيهشّم أنفه ، فتداعبه وتسهر عليه بمزيد من الحنان والرقّة ، خوفاً من أيّ حادث أو طارىء : فقلبها كان ينبض حبّاً واهتماماً به ؛ فهذه المشاعر كانت تسيطر عليها وتعمر قلبها ، فلربما لولاها ، لكانت حياتها قد انطفأت منذ زمن بعيد .

بيد أن الطفل لم يكن حَرِكاً دائماً : أحياناً ، كان يهدأ فجأة ، فيجلس بالقرب من مربيته ، ثم ينظر إلى كل شيء باهتمام . كان عقله الطفولي يراقب كل الظواهر ، التي تجري أمامه ، فتنطبع في مخيّلته بعمق ، ثم تنمو وتنضج مع الزمن .

الصباح رائع . الهواء رطب بارد منعش. الشمس لم ترتفع كثيراً بعد . كانت الظلال الطويلة ترتسم متراكضة في كل مكان ، فكل شيء يلقي بظلاله : البيت ، الأشجار ، الأبراج والأروقة . وفي الحديقة وفناء الدار ، كانت توجد زوايا منعشة عليلة تبعث على التأمّل والنعاس . وفي الأفق البعيد كان حقل الجودار يتوهّج كالنار ، بينما النهر يلمع ويتلألأ تحت أشعة الشمس ، مما كان يؤلم ويبهر الأعين .

— لماذا الظلام هنا ، والضياء هناك ؟ — سأل الطفل مربيته .

-- لأن الشمس تسير لملاقاة القمر ، لكنها لا تراه ، لذا فهي عابسة ، وما أن تراه من بعيد ، حتّى تبتهج .

يستغرق الطفل في تفكيره ، وهو يتأمل كل شيء حوله : يشاهد أنتيب ذاهباً من أجل الماء ، بينما يرتسم بالقرب منه على الأرض أنتيب آخر ، أكبر من الحقيقي بعشر مرات ، أما البرميل فقد بدا بحجم البيت بينما كان ظل الحصان يغطي المرج كله ، إذ لم يخط إلا خطوتين فقط فوق المرج ، حتّى أصبح فجأة وراء الجبل ، في الوقت الذي لم يتجاوز فيه أنتيب بعد فناء الدار .

خطا الطفل خطوتين أيضاً ، ولم يبق إلا خطوة أخرى — حتّى يصبح وراء الجبل .

كانت تحدوه الرغبة للذهاب إلى الجبل ، ليشاهد من هناك أين اختفى الحصان . لكن ، ما أن وصل البوابة ، حتّى سمع صوت أمه من النافذة :

— أيتها المربية ! ألا ترين كيف أصبح الطفل في الشمس ! خذيه إلى البرودة ، كي لا يصاب بضربة شمس ، — وإلا فإنه سيمرض ويصاب بالغثيان . ويمتنع عن الطعام . إذا بقيت هكذا ، فسيفلت منك ويذهب إلى الوادي !

— آه ، يا لك من مدلل ! غمغمت المربّية بصوت خافت ، وهي تحمله باتجاه العتبة .

كان الطفل يتطلع ويراقب بنظرة حادّة مقلدة ، كيف يتصرف الكبار ويمضون الصباح .

لم يغب عن اهتمام الطفل شيء ، صغيراً كان أم كبيراً ؛ فانغرست في ذهنه ، دون أن تمحى ، لوحة الحياة المنزلية ، وتشرّب ذهنه الغضّ الطّريّ بصورها التي تَبَدَّتْ أمامه ، فرَسَمَ لنفسه ، عن غير وعي ، مخطط حياته ، على نمط الحياة التي تحيط به .

لا يجوز أن نقول ، بأن الصباح كان يضيع سدىً في منزل آل أبلوموف . فطرق السكاكين ، التي تقطع اللحم والخضار في المطبخ ، كان يصل حتى القرية .

ومن مسكن الخدم كان يسمع أزيز مغزل يرافقه صوت رقيق خافت لامرأة : لكن كان يصعب على المرء أن يميّز ، فيما إذا كانت تبكي ، أو ترتجل أغنية كئيبة بدون كلمات .

ما ان عاد أنتيب مع برميله ، حتى تجمّع حوله في فناء الدار ، سائقو العربات والنسوة . فقد أتوا من مختلف الجهات ، وهم يحملون الدلاء والمذاود والطناجر .

امرأة عجوز هناك ، تحمل فنجاناً من الطحين وكومة من البيض ، وهي في طريقها إلى المطبخ ؛ وطباخ يقذف الماء من النافذة ، فيبلّل كلباً لم يحوّل عينيه عن النافذة ، طيلة الصباح ، وهو ينظر إليها ، ويلوّح ذنبه متلمّظاً .

حتى أبلوموف الأب العجوز نفسه — لم يبق أيضاً بدون عمل . كان يجلس طيلة الصباح عند النافذة ، وهو يراقب حتماً ، كل شيء يجري في فناء الدّار .

– إي ، إيغناشكا ، ماذا تحمل أيها المغفل ؟ – كان أبلوموف الأب يسأل الشخص ، الذي يسير في فناء الدار .

– أحمل سكاكين لأجلّخها في مسكن الخدم – كان الشخص يجيب ، دون أن ينظر إلى سيده .

– حسناً ، هيا ، هيا ! لكن ، جَلِّخْها جيداً !

بعدها يستوقف امرأة :

– إي ، يا امرأة ! إلى أين ذاهبة أنت ؟

– إلى القبو ، يا أبتاه – قالت وهي تتوقف ، واضعةً يدها فوق عينيها وهي تنظر إلى النافذة ،

– إنني ذاهبة لأجلب الحليب .

– هيا ، اذهبي ، اذهبي ! – كان السيد النبيل يجيب – انتبهي ، كي لا ينكبّ الحليب ، – وأنت ، أيها الشقي زاخار ، إلى أين أنت هارب من جديد ؟ – كان يصيح أبلوموف الأب بعدها – سأريك كيف يكون الهرب ! إنني أراك هارباً للمرة الثالثة . ارجع إلى غرفة المدخل !

يعود زاخار من جديد لينام في غرفة المدخل .

أول ما كان أبلوموف العجوز يهتم به ، هو عودة الأبقار من الحقل ، ليأمر بسقايتها ؛ ثم يراقب بعدها الكلب ، ليرى فيما إذا كان يتتبع دجاجة ، كي يتخذ فوراً اجراءات صارمة لإحلال النظام .

وزوجته مشغولة جداً : فها هي تناقش منذ ساعات ثلاث مع الخياط أفيركا مسألة هامة : كيف ستجعل من صدرية زوجها سترة

لصغيرها أليوشا ؛ فهي ترسم التفصيلة بنفسها ، وتراقب كي لا يسرق الخياط شيئاً من القماش ؛ ثم تنتقل بعدها إلى غرفة الخادمات ، فتحدّد لكل منهن ما ستطرزه من المزركشات ؛ وتستدعي بعدها ناستاسيا إيفانوفنا ، أو سيتبانيدا أغابوفنا أو إحدى النسوة من حاشيتها ، لتصحبها في نزهة عبر الحديقة ، من أجل هدف عمليّ : لترى فيما إذا كانت تفاحة الأمس ، التي رأتها ، قد نضجت ، أم سقطت ؛ أو لتغرس شجرة هنا ، وتقلّم أخرى هناك . . . الخ .

لكنّ شغلها الشاغل ، هو المطبخ والغداء . كان البيت كله يجتمع لمناقشة طعام الغداء ، حتى العمة الطاعنة في السن ، كانت تدعى للإجتماع أيضاً ، كانت كل واحدة منهنّ تقترح وجبة . فهذه تقترح حساء بلحم الطيور ، وتلك حساء بالشعيرية أو الكرشة ، وأخرى مرقة حمراء أو بيضاء .

كان كل اقتراح يناقش بالتفصيل ، ثم يُقرّ أو يرفض بعدها بشكل نهائي ، من قبل سيدة البيت .

وإلى المطبخ ، كانت ترسل بلا انقطاع ، تارةً ناستاسيا بتروفنا ، وتارة أخرى ستيبانيدا إيفانوفنا ، كي تُذكّرا بإضافة هذا الصنف من الطعام ، وإلغاء ذاك ، ولتجلبا الحلويات والعسل والنبيذ إلى المائدة ، ولتراقبا الطباخ فيما إذا كان يتقيّد بما هو مسموح به .

كان الإهتمام بالمأكل ، الشاغل الحياتي الرئيسي الأول في قرية أبلوموفكا .

كم من العجول تُسَمَّن هناك من أجل أعياد السنة ! كم من الطيور تربّى ! كم ينفق من الجهد والإهتمام على الطعام ! فالصيصان وأفراخ الدجاج الرومي ، المخصصة للأعياد والمناسبات الاحتفالية الأخرى ، كانت تتغذى بالبندق ؛ كما كان الإوز يمنع من الحركة ، إذ كان يعلق في كيس ، قبل العيد بعدة أيام ، كي يمتنع عن الحركة ويكتنز بالدهن . كم كانت وافرة هناك ، أنواع المربيات ، والمملحات وأصناف الشواء ! كم كانت وافرة في أبلوموفكا أنواع الفطائر والشراب والعسل !

هكذا كان الجميع في انشغال وانهماك حتى منتصف النهار ، فالكل كان يعيش حياة مليئة بهذا النوع من المشاغل ، حياة شبيهة بحياة النمل .

لم يكن هذا النمل الكادح يهدأ في أيام الآحاد والأعياد أيضاً ؛ كان صوت السكاكين في المطبخ يسمع أكثر فأكثر ، إذ يصبح أكثر قوة من المعتاد؛ وهناك امرأة تروح وتغدو مرات عدة ، من العنبر إلى المطبخ ، مع كمية مضاعفة من الطحين والبيض ؛ وفي فناء الدار ، حيث تُرَبّى الطيور ، كان الأنين يتصاعد ويزداد سفك الدماء . فطيرة ضخمة تُحَمَّص هناك ، يأكل منها السادة في اليوم التالي أيضاً ، بينما تذهب البقية منها في اليومين الثالث والرابع إلى مسكن الخادمات ، ويبقى شيء منها حتى يوم الجمعة ، فيصل طرف يابس تماماً من الفطيرة ، بدون أية حشوة بتاتاً ، كمنّةٍ خاصة ، إلى أنتيب ، فيرسم شارة الصليب أولاً ، ثم يكسر بيديه هذا الطرف القاسي كالحجر محدثاً

قرقعة كبيرة ، وهو مسرور ، ليس بسبب الفطيرة ذاتها ، بل لكونها صُنِعَتْ خصيصاً للسادة النبلاء ، فهو تماماً كعالم الآثار ، الذي يشرب بمتعة كبيرة ، نبيذاً رديئاً من كسرة آنية مضى عليها ألف سنة .

ما زال الطفل يشاهد ويراقب كل شيء بذهنه الطفولي ، الذي لا يفوِّت شيئاً . رأى كيف حلّ منتصف النهار وحان وقت الغداء ، بعد انقضاء صباح حافل مفيد .

الظهيرة حارة ؛ السماء صافية ، خالية من الغيوم ، قرص الشمس معلق فوق الرأس بلا حركة . يلفح الأعشاب . الهواء منحبس ، بدون حركة . ما من شجرة أو صفحة ماء تتحرك . صمت مطبق شامل يلفّ القرية والحقول — كأنّ كل شيء قد تلاشى . صوت بشري يجلجل ويرنّ من بعيد في هذا الفراغ الصامت . وعلى مسافة تزيد على عشرين فرسخاً ، يُسمَع أزيز صرصار يطير هناك ، وشخير ينطلق من عشب كثيف ، كأنّ أحداً قد تمدد هناك وراح في غفوة حلوة هانئة .

كان يسود البيت سكون مطبق . فقد حلّت ساعة النوم الشاملة بعد الغداء .

رأى الطفل كيف انصرف أبوه وأمه وعمته العجوز ، وحاشيتهم إلى أماكن نومهم ؛ أما من لم يملك مكاناً يلجأ إليه ، فقد كان يذهب إلى مخزن الحشائش المجففة ، أو إلى الحديقة ، أو إلى أي مكانٍ ظليل طلباً للبرودة ، حيث يغطي وجهه بمنديل يحميه من الذباب ، فينام هناك . بعد أن أنهكه القيظ وزاده الغداء خمولاً . أما حارس البستان فقد تمدد تحت شجرة في الحديقة ؛ بينما نام الحوذي في اسطبله .

ألقى إيليا إيلييتش نظرة إلى بيت الخدم : كان الجميع مستلقين جنباً إلى جنب ، على الأرض وتحت الظلال ، وعلى المقاعد الطويلة أيضاً ، فالتحق من تلقاء نفسه بالأطفال ، الذين كانوا يلعبون في الحديقة ، ويحفرون في الرمل . أما الكلاب فقد دخلت إلى بيوتها ، لأنه لم يكن هنالك أحد تنبح عليه .

كان يمكن للمرء أن يعبر البيت كله ، دون أن يصادف أحداً ، وكان يسيراً على أيٍ كان أن يسرق كل شيء هناك وينقله على العربات من فناء المنزل : كان يمكن أن يتم ذلك كله بسهولة ، لو أن اللصوص كانوا متواجدين في هذه المنطقة .

كان النوم عميقاً جداً ، لا يغلبه شيء ، شبيه بنوم الأموات : فكل شيء قد سكن تماماً ؛ الصمت مطبق ، يعكره فقط ، شخير متنوع منبعث من مختلف أركان وزوايا المنزل ، بمختلف الألحان والنغمات ، التي يمكن أن تخطر على بال .

كان أحد ما يرفع رأسه من النوم ، أحياناً ، فيلقي نظرة لا معنى لها ، متلفتاً بدهشة إلى اليمين واليسار ، وينقلب إلى الجنب الآخر ، ويبصق وهو بين النوم واليقظة ، دون أن يفتح عينيه ، ثم يمضغ شفتيه محدثاً بعض الأصوات ، أو يغمغم بشكل غير مفهوم إطلاقاً ، ويعود ليسترسل في سباته من جديد

وآخر ينهض فجأة ، دونما مقدمات ، فيقفز على ساقيه بسرعة ، وكأنه يخشى أن يُفَوِّت لحظة العمر ، فيخطف كأساً من الكفاس ،

وينفخ على الذباب الطائر ليرغمه على الانتقال إلى زاوية أخرى ، لكن الذباب يبقى مكانه ، ويبدأ يطنّ بقوة ، على أمل أن يحسّن مواقعه ، ثم يبلّل صاحبنا حلقه ويسقط من جديد على مضجعه ، كما لو أنه قد أصيب بطلق ناري قاتل .

لا زال الطفل يراقب ويراقب .

بعد الغداء، خرج مع مربيته إلى الهواء الطلق . لكن المربية لم تستطع أن تقاوم إغراء النوم وسيطرته ، على الرغم من قسوة إجراءات سيدتها الرادعة . فقد أصابتها ، أيضاً ، عدوى هذا المرض الشامل المسيطر في قرية أبلوموفكا .

في البداية ، كانت تراقب الطفل بنشاط وحيوية ، دون أن تتركه يذهب بعيداً عنها ، فقد كانت تزجره بصرامة ، عندما كان يحاول أن يهرب مبتعداً ، ولكنها ما إن أحسّت بعد ذلك ، بأعراض العدوى ، التي تقترب منها ، حتى بدأت تتوسل إليه كي لا يغادر البوابة ، أو يلمس الماء ، أو يتسلل إلى بيت الدجاج ، أو يخرج إلى الرواق .

جلست بعد ذلك في مكان ما رطب بارد : على العتبة ، على باب القبو ، ولربما على العشب ، كي تنسج ، على ما يبدو ، جورباً وتراقب الطفل في الوقت نفسه . لكن حركتها سرعان ما أخذت تتباطأ ، ثم أحنت رأسها .

« يجب أن أراقب الطفل وأمنعه من التسلل إلى الرواق — أخذت تفكر وهي على وشك النوم ، — أو من الذهاب أيضاً . . . ربما إلى الوادي . . . » .

هوى رأس العجوز على ركبتيها وسقط الجورب من بين يديها ، وغاب الطفل عن نظرها ، ثم فتحت ثغرها قليلاً وأخذت تصدر شخيراً خفيفاً .

كان الطفل ينتظر بنفاذ الصبر ، هذه اللحظة ، التي تبدأ معها حياته المستقلة الخاصة .

شعر الطفل كما لو أنه كان وحيداً في هذا العالم ، فولى هارباً من مربيته وهو يسير على رؤوس أصابعه. تفحص الجميع وتأكد من نومهم ؛ لكنه كان يتوقف وهو ينظر بإمعان كيف كان أحدهم ينهض وهو نائم ، فيبصق ثم يعود ليغمغم شيئاً ما مبهماً في حلمه ؛ بعد ذلك ، انطلق راكضاً إلى الممشى وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان ، ثم طاف حول الألواح الخشبية ، التي تطلق صريراً ، ودخل إلى بيت الطيور ، ثم خرج منه وتوغل بعيداً في الحديقة ، وأخذ ينصت إلى أزيز صرصار ، راح يتابع بعينيه طيرانه في الجو ؛ ثم سمع وقع أقدام على العشب ، فبدا له كأن أحداً ما يبحث عن معكّري هذا الصمت ويصطادهم ؛ أمسك الطفل صرصاراً ، فوضع بين جناحيه قشة وراح يتابع بنظره كيف سيطير بوجود هذا العبء الإضافي ، الذي يحمله ، ثم نزع جناحيه وأخذ ينظر إليه متفكراً كيف سيتدبّر أمره ، وبمتعة فائقة ، راح يراقب ، وهو يحبس أنفاسه ، عنكبوتاً يمص دم ذبابة كان قد اصطادها ، فشاهد كيف كانت الفريسة الضحية تتخبط بين أرجله وهي تطلق أزيزاً قوياً . فما كان من الطفل ، إلا أن أنهى المشهد بقتل الضحية ومعذبها .

تسلل بعد ذلك ، إلى خندق وأخذ يحفر في الأرض بحثاً عن بعض الجذور ، حيث أخذ يسلخ القشور ، ثم أكل حتى الشبع مفضلاً إياها على التفاح والمربيات ، التي تقدمها أمه له .

ركض بعيداً خارج البوابة : كانت تتملكه الرغبة بالذهاب إلى غابة البتولا ؛ إذ بدت له قريبة جداً ، لدرجة أنه كان يعتقد ، أن خمس دقائق تلزمه فقط للوصول إليها ، شريطة أن يسلك طريقاً مستقيماً مباشراً ، عبر الساقية والأغصان المتشابكة والحفرات ، لا عبر الطريق المتعرج ؛ لكنه خاف أن يعبر هذه المجاهل : فهناك كما سمع في يوم من الأيام ، العفاريت واللصوص والوحوش الضارية المرعبة .

تملكته الرغبة بالذهاب إلى الوادي أيضاً : فهو لا يبعد عن الحديقة أكثر من ستين متراً ؛ ركض إلى طرف الحديقة المطل ، ثم أغمض عينيه ، محاولاً أن يستجمع قواه ، قبل أن يلقي نظرة . . . استيقظت في مخيلته ، فجأة ، كل الحكايات والأساطير عن هذا الوادي : فاستولى عليه الرعب ، وركض مسرعاً تجاه مربيته وهو يرتجف خوفاً ، فأيقظها .

جفلت من نومها ، وأصلحت وضع المنديل على رأسها ، ثم دست تحته باصبعها ، خصلات شعرها الأشيب ، وتظاهرت بأنها لم تنم إطلاقاً ، وأخذت تنظر بارتياب إلى أليوشا ، ومن ثم إلى نوافذ سادتها ، وبدأت تغرز بأصابع مرتجفة ، صنارتيها في الجورب الموجود على ركبتيها .

في غضون ذلك ، بدأ القيظ يخف قليلاً ، وأصبح النشاط يدب أكثر فأكثر في الطبيعة ؛ ذلك أن الشمس كانت قد اقتربت من الغابة .

أخذ جدار الصمت ينكسر في المنزل شيئاً فشيئاً : لقد سُمِع في مكان ما منه صرير أحد الأبواب ، كما ابتدأ يُسمَع وقع الخطى في فناء الدار ؛ وهناك في مخزن الأعشاب المجففة ، عطس أحد ما .

ظهر شخص يخرج من المطبخ مسرعاً ، وهو يحمل سماواراً ضخماً ، أحنى ظهره لشدة ثقله . أخذوا يتجمعون حول الشاي : هذا وجهه مدعوك وعيناه دامعتان ؛ وذاك على وجنتيه وفوديه بقعتان حمراوان ؛ وآخر يتكلم وقد فقد صوته بسبب النوم . هذا يتأوه ، وذاك يتثاءب ، وآخر يمشط شعره ، ورابع يتمطى بغية أن يعود لوضعه الطبيعي .

سَبّبَ الغداء والنوم عطشاً لا يرتوي . كان العطش يحرق الحلق ؛ ومع أنهم قد شربوا فناجين كثيرة من الشاي ، تجاوزت العشرة ، لكن هذا لم يحل المشكلة : فلم يكن يسمع إلا الأنين والتأوّهات ؛ لجأ البعض إلى تناول عصير العنب والكمثرى ، والكفاس ، بينما لجأ آخرون لتعاطي بعض الوصفات الطبية العلاجية لإزالة الجفاف من الحَلْق .

الكل يبحث عن التخلص من العطش ، كما يبحث المرء ويسعى للتخلص من عقاب الله ، كلهم تائهون يتحرقون عطشاً ، كما تتحرق قافلة من الرحّالة في الصحراء العربية ، لا تجد أي مصدر للماء .

ها هو ذا الطفل بالقرب من أمه : يتفرّس تلك الوجوه الغريبة

المحيطة به ، يصغي إلى أحاديثهم الخاملة ، التي تبعث على النعاس . لقد سرّه أن ينظر إليهم ويستمع إلى كلامهم الفارغ ، الذي كان يبدو مثيراً لفضوله .

بعد الشاي ، سيجد كل منهم لنفسه عملاً : فمنهم من سيذهب إلى النهر هائماً . يدحرج الحصى بساقه ؛ بينما سيجلس آخر أمام النافذة يتلقّف بعينيه كل ظاهرة عابرة : فيتابع بعينيه قطة تركض في فناء الدار ، أو غراباً طائراً ، وهو ينقل رأسه تارة إلى اليمين ، وأخرى إلى اليسار . الكلاب تحب أحياناً ، أن تقعي على النافذة أياماً بكاملها ، معرضة رأسها للشمس ، وهي تتابع باهتمام وبالطريقة نفسها ، كل شخص يمر ، وأي شيء يتحرك .

أخذت الأم رأس أليوشا ووضعته على ركبتيها ، وراحت تسرح شعره بهدوء وتكاسل مبدية إعجابها بنعومته ، حتى أنها أرغمت ناستاسيا إيفانوفنا ، وستيبانيدا تيخونوفنا على أن تبديا الإعجاب أيضاً ، ثم راحت تتحدث إليهنّ عن مستقبل أليوشا ، جاعلة منه بطل إحدى الملاحم الرائعة ، التي سيسطرها بنفسه .

ها هو ذا الغسق قد خيّم . ابتدأت طقطقة النار تُسْمَع من جديد في المطبخ ، حيث تعالى طرق السكاكين المتقطع : فقد كان العشاء يُحَضَّر .

اجتمع الخدم عند البوابة : إذ كان يُسْمَع من هناك لحن البالايكا «١» ممتزجاً بالقهقهات .

---

(١) آلة وترية روسية قديمة (المترجم) .

هبطت الشمس خلف الغابة ، وألقت ببعض أشعتها ، التي ما زالت تبعث شيئاً من الدفء ، لتمتد عبر الغابة كلها ، على شكل شريط ناري مضطرم يصبغ رؤوس أشجار الصنوبر بلون الذهب . ثم أخذت الأشعة تنطفئ وتتلاشى ، الواحد تلو الآخر ، بينما بقي الشعاع الأخير مدة طويلة منغرزاً كإبرة في غيض الأغصان ، لكنه ما لبث أن انطفأ وتلاشى .

كانت الأشياء تفقد شكلها وقوامها ؛ كان كلّ شيء في البداية يكتسي لوناً رمادياً ، لا يلبث أن يصبح بعد ذلك داكناً . كان تغريد العصافير يخفت شيئاً فشيئاً ، لكنه سرعان ما تلاشى ، بينما بقي عصفور واحد عنيد ، يطلق زقزقات متقطعة ، تحمل نفس الإيقاع ، ثم أخذت تقلّ شيئاً فشيئاً ، وفي المرة الأخيرة أطلق صفرة ضعيفة خالية من أية رنّة ، ثم خفَقَ جناحيه محرّكاً برفق أوراق الشجر من حوله . . . وغفا .

أصبح كل شيء صامتاً . الصراصير وحدها كانت تطلق صريراً قوياً . أبخرة بيضاء كانت تنبعث من الأرض فتنتشر فوق المرج والنهر . النهر هدأ أيضاً ؛ أصبح ساكناً .

كانت رائحة الرطوبة تُشَمُّ من كل صوب ، والظلام يخيم أكثر فأكثر . الأشجار تجمّعَتْ على شكل وحوش ضارية ؛ الغابة أصبحت مرعبة ، مخيفة ؛ انطلق ، فجأة ، صرير بدا كأنه صادر عن غول غَادَرَ مكانه ، فداس على غصن يابس ، محدثاً هذه القرقعة .

نجمة تتلألأ في السماء ، كأنها عين ساهرة ؛ أما النيران فأخذت تتراقص على نوافذ المنزل .

لحظات من الصمت الرهيب المطبق تلفّ الطبيعة كلها ؛ لحظات يعمل فيها العقل المبدع بشكل أكثر قوةً من المعتاد ، وتنبعث فيها الأفكار الشاعرية بحرارة ، ويضطرم القلب فيها بحيوية؛ لحظات تتفجر فيها المشاعر ، ويحزّ السأم فيها النفس بشكل أكثر إيلاماً ، وتنضج في النفس الخشنة خلالها ، بشكل أكثر قوة وثباتاً ، بذرة فكرة آثمة . . . لحظات ينام فيها الجميع في أبلوموفكا بعمق وطمأنينة .

— هيا إلى النزهة يا ماما ! — قال أليوشا .

— فلتحطك عناية الله ! الآن ! — أجابته الأم ، — الجو رطب ، في الخارج ؛ كل شيء يبعث على الخوف هناك : الغول يسرح في الغابة الآن ، ويخطف الأطفال الصغار .

— إلى أين يخطفهم ؟ كيف شكله ؟ أين يعيش ؟ — سأل الطفل .

أطلقت الأم مخيلتها على هواها .

كان الطفل يصغي إليها ، وهو يفتح ويغمض عينيه ، قبل أن يستولي عليه النوم تماماً . جاءت مربيته ، فحملته إلى فراشه بعد أن نام تماماً .

— شكراً لله ، ها هو ذا اليوم قد انقضى ! — كان آل أبلوموف يقولون ، وهم يتمددون في الفراش ، متأوهين وراسمين شارة الصليب — أمضينا اليوم بسلام ؛ نرجو الله أن يكون الغد كذلك ! شكراً لله ! شكراً لله !

انتقل أبلوموف في حلمه إلى مشهد آخر : في أمسية شتوية لا نهاية

لها ، وجد نفسه ملتصقاً بمربيته ، التي كانت تحكي له همساً ، عن منطقة لا مثيل لها ، حيث لا ليل ولا برد ، العجائب والمعجزات فيها لا تنقطع ، أنهار العسل واللبن تجري بلا انقطاع ؛ منطقة لا يعمل المرء فيها أبداً على مدار السنة ، الناس فيها يعرفون أمراً واحداً فقط ، هو أن الشباب الطيبين الوسيمين ، من أمثال إيليا إيلييتش ، الذي يفوق جماله وصف الأساطير ، يتنزهون فيها من طلوع الشمس إلى غروبها .

ساحرة طيّبة هناك ، تظهر ، أحياناً ، بهيئة كراكيّ ، اختارت لنفسها حبيباً هادئاً بريئاً ؛ حبيباً كسولاً يعبده ويحترمه الجميع ؛ كانت تغمره بطيبها ومحبتها ، بينما كان الحبيب ، على ما يبدو ، يهتم ببزّته الرائعة الجميلة فقط ، ثم شاءت الأقدار أن يتزوج فتاة أخرى لا يعرفها أحد ، تُدعى ميليتريساكير بيتيبفنا .

كان الطفل ينصت بشغف ، فقد أمتعته الحكاية كثيراً .

تناست المربية ، ولربما الأسطورة ذاتها ، بمهارة فائقة ، كل ما هو حقيقي في الحكاية ، فبقي عقل أبلوموف ومخيلته ، وقد تشرّبا بهذه الأوهام ، أسيرين لها حتى الشيخوخة . روت له المربية بلطف ، أسطورة إميل المغفل ، التي تعتبر انتقاداً قاسياً ماكراً لأجدادنا ، وربما لنا أيضاً .

ومع أن إيليا إيلييتش الراشد ، قد عرف فيما بعد ، أنْ لا وجود لأنهار اللبن والعسل ، ولا للساحرات الطيبات ، وعلى الرغم من أنه كان يستذكر حكايات مربيته بشيء من السخرية ، إلا أن سخريته تلك لم تكن صادقة ، فغالباً ما كانت تترافق بتنهيدة داخلية : لقد امتزجت

الأسطورة عنده بالحياة ، وكم كان كثيباً ، لأن الأسطورة ليست هي الحياة ، والحياة ليست هي الأسطورة .

كان يحلم ، عن غير قصد ، بميليتريساكيربيتيفنا ؛ فما زال مشدوداً إلى تلك المنطقة ؛ التي لا يعرف الناس فيها إلا التنزّه ؛ ما زال مشدوداً إلى تلك المنطقة ، التي لا وجود للهموم والأحزان فيها ؛ بقي في نفسه أبد الدهر ، نزوع ورغبة لأن يستلقي بالقرب من الموقد ، وأن يتمشى ، وهو يرتدي البدلة الجاهزة الجميلة ، ويأكل على نفقة تلك الساحرة الطيبة .

سمع أبلوموف الأب ، وأبلوموف الجد من قبله أيضاً ، في طفولتهما ، نفس الحكايات والأساطير ، التي كانت متداولة منذ قديم الزمن ، تتناقلها أفواه المربيات والعجائز عبر القرون والأجيال .

ها هي ذا المربية العجوز ترسم لوحة أخرى ؛ تداعب بها مخيلة الطفل.

حكت له عن تضحيات وبطولات الأجداد ، التي فاقت بطولات أخيل وأوليس ، عن بسالة إيليا مورمتس ، ودوبرين نيكيتيتش ، وأليوشا بوبوفيتش ؛ وعن أفواج الأبطال وتجوالهم في روسيا ، وكيف كانوا يهزمون جيوشاً جرّارة من الدخلاء والغزاة ؛ حكت له عن قطاع الطرق الأشرار ، وبنات القيصر النائمات ، عن المدن والناس المتحجرّين . ثم انتقلت لتحكي له أخيراً عن العفاريت والموتى والغيلان والوحوش وببساطة وبراعة هوميروس ، وبنفس الدرجة من الصدق النابض بالحياة والوضوح في التفاصيل ؛ التي تتخلّل لوحاته ؛ كانت المربية العجوز

ترسم أمام مخيلة الطفل وذاكرته ، إلياذة الحياة الروسية ، التي سطرها جبابرة تلك العهود السحيقة الغابرة ، عندما لم يكن الإنسان قد فهم بعد مخاطر وأسرار الطبيعة والحياة ، عندما كان الإنسان لا يزال يرتعد أمام صورة العفريت والجنّ والمسخ ، ويرى في أليوشا بوبوفيتش المصدر ، الذي يمنحه الحماية من كل المصائب المحيطة به ، عندما كانت العجائب والمعجزات لا تزال مسيطرة في الهواء والماء ، والغابة والحقل .

كانت حياة إنسان ذلك الزمن مرعبة مليئة بالقلق ؛ كان الخطر يتهدّده بمجرّد أنْ يخرج من عتبة المنزل : فإما أن يفترسه وحش ، أو يذبحه قاطع طريق ، أو يسلبه كل ما لديه تتريّ شرّير ، أو يختفي دونما خبر أو أثر .

كانت تتبدّى له ، فجأة ، بيارق سماوية ، وأعمدة وكريّات نارية ؛ بينما يلوح أمامه ضوء يتوهج فوق القبر الرطب هناك ، أو كائنٌ ما يتنزه في الغابة ، وعيناه تلمعان وسط الظلام ، كالمصباح وهو يقهقه بشكل يبعث على الرعب .

كان الإنسان ذاته يتعرّض لأشياء غير مفهومة : ترى إنساناً عاش مدّة طويلة على أحسن ما يرام ، وفجأة يبدأ بالهذيان أو بالصراخ ، أو يهيم ليلاً وهو نائم ؛ بينما ترى إنساناً آخر ، يبدأ يتلوّى ، دونما سبب ، وهو يضرب الأرض . كل ما جرى ، هو أن دجاجة قد صاحت ، أو غراباً قد نعق فوق السقيفة .

كان الإنسان الضعيف يتيه ، وهو يتلفّت إلى الحياة برعب ؛ فقد كان يبحث في الخيال عن حلّ لأسرار وألغاز الطبيعة ، التي تحيط به .

ربمّا كان الخيال ، والصمت الأبدي للحياة الراكدة ، وغياب الحركة ، وبروز المخاوف الحقيقية كلها ،ووجود المغامرات والمخاطر ، هي التي أرغمت الإنسان على أن يخلق وسط العالم الحقيقي الواقعي ، عالماً آخر لا يتحقق ، يبحث فيه عن اللهو كما يحلو لمخيّلته الفارغة ، ولربما يبحث فيه أيضاً عن حلٍّ لكافة الظروف الاعتيادية المتشابكة ، وعن أسباب الظواهر الطبيعية وغيرها ، خارج الظاهرة ذاتها .

عاش أسلافنا التعساء بتخبّط ، فلم يملكوا إرادتهم ، بل كانوا يندهشون ويرتعبون من الحيرة والشر ، ويحاولون أن يستفسروا الأسباب من طلاسم الطبيعة المبهمة الخرساء .

سبب الموت عندهم ، هو أنهم أخرجوا ، أولاً . رأس الشخص من البوابة قبل ساقيه أما الحريق فيجدون سبباً له ، لأن الكلب قد نبح ثلاث ليال تحت النافذة ؛ لذلك فهم يبذلون جهدهم كي يُخرِجوا الشخص من البوابة ، من ساقيه أولاً ، لا من رأسه ، بينما يعمدون إلى قتل الكلب ، الذي ينبح ، أو إلى طرده من فناء الدّار .

لا زال الإنسان الروسي حتّى الآن ، وسط الواقع القاسي المحيط به ، يميل إلى تصديق أساطير الزمن القديم المُغْرِيَة ، ولربما مضى زمن طويل ، قبل أن يتخلّص من هذا الإعتقاد .

بعد أن سمع من مربيته أسطورة الصوف الذهبي ، وأسرار القصر المسحور ، ازداد الطفل نشاطاً ، وقد تخيل نفسه بطلاً من أبطال هذه الأساطير ، ـــ ثم أخذ بدنه يقشعر ، لأنه كان يتألم بسبب الفشل الذي أصاب ذلك المقدام .

كانت المربية العجوز تقصّ له الحكاية تلو الحكاية . بحرارة وروعة وحماس ، وفي بعض الأماكن ، بإلهام ، لأنها بالذات كانت تصدقّ نصْف هذه الحكايات . كانت عينا المربية العجوز تتطايران شرراً ، ورأسها يرتجف من الإضطراب ، وصوتها يرتفع بشكل غير عادي .

كان الطفل يلتصق بها أكثر فأكثر . وقد استولى عليه رعب شديد ، والدموع في عينيه .

ما إن تتحدث المربية عن الأموات . الذين ينهضون من قبورهم منتصف الليل أو عن الضحايا ، الذين يقاسون من الأسر لدى الغيلان والوحوش ، أو عن الدبّ ذي الساق الخشبية الذي يجوب النواحي والقرى ، بحثاً عن ساقه الحقيقية المقطوعة — حتى ينتصب شعر الطفل رعباً ؛ فيتجمدّ خياله الطفولي تارةً ، ويضطرم تارة أخرى ؛ كان الطفل يعاني حالة مؤلمة ، لكنْ عذبة ؛ كانت أعصابه تتوتر كالأوتار .

عندما كررت المربية العجوز ، بكآبة ، كلمات الدبّ : « أصدري الصرير تلو الصرير ، يا ساقي الخشبية ، المقطوعة من شجر الزيزفون ؛ لقد جبت النواحي والقرى ، فرأيت كل النساء نائمات ما عدا واحدة لم تكن نائمة ، كانت تجلس على جلدي ، وتسلق لحمي ، وتغزل وبري » ؛ وعندما تسلل الدبّ ، أخيراً إلى البيت استعداداً لخطف سارق ساقه . لم يستطع الطفل أن يتمالك نفسه : فارتمى على يدي مربيته وهو يبكي ويرتجف ؛ وطفرت دموع الخوف من عينيه . بينما أخذ يضحك في

الوقت نفسه ، من الفرح ، لأنه لم يكن بين أنياب الوحش ، بل في مضجعه ، بالقرب من مربيته .

أصبحت مخيلة الطفل عامرة بأشباح ورؤى غريبة ؛ فاستوطن الخوف والملل والكآبة في نفسه ، لفترة طويلة ، ولربما إلى الأبد . يتلفتّ حوله بأسى ، فلا يرى في الحياة إلاّ الأذى والمصائب ، في الوقت الذي لا يزال يحلم فيه بمنطقة ساحرة ، لا شرّ فيها ولا أحزان ولا همّ ؛ يحلم بمنطقة تعيش فيها ميليتّريسا كيربيتييفنا ، حيث يأكل الناس ويلبسون مجاناً .

لا تفرض الأسطورة سيطرتها على الأطفال في أبلوموفكا فقط ، بل على الكبار الراشدين أيضاً . فكل من في بيت أبلوموف وقريته ، بدءاً من السيد النبيل وزوجته ، إلى الحداد القوي البنية تاراس ، — يرتعد خوفاً من ظلمة الليل : فتتحول كل شجرة إلى عملاق ، وكل غصن - إلى مأوى لقطاع الطرق .

كان الرجال والنساء والأطفال يرتعدون خوفاً من طرْق مصراع نافذة ، ومن عواء الريح في مدخنة . فما من أحد يتجرأ على الخروج من البوابة بمفرده ، بعد العاشرة ليلاً في عيد الغطاس ؛ كما كان الجميع يخشون الذهاب إلى الإسطبل في عيد الفصح ، خشية أنْ يكون مسكوناً بالعفاريت .

كان الناس في أبلوموفكا يصدقون كل شيء : فهم يعتقدون بوجود العفاريت وقيام الموتى من قبورهم . فإذا ما قيل لهم ، بأن كومة

من القش كانت تتجوّل في الحقل — فإنهم يصدّقون ذلك ، دون أن يفكروا بالأمر ؛ وإذا ما أطلق أحدٌ ما إشاعة ، بأنّ هذا ليس خروفاً ، بل هو شيء ما آخر ، وإذا ما قيل لهم ، أن مارفا ساحرة ، فإنهم سيخافون من الخروف ومن مارفا : فلن يخطر ببالهم أن يسألوا ، لماذا لم يعد الخروف خروفاً ، ولا كيف تحوّلت مارفا إلى ساحرة ، لا بل إنهم يصببّون جام غضبهم على كل من تراوده نفسه بالتشكيك في الأمر — . إلى هذا الحدّ كان الإعتقاد بالمعجزات والخرافات قوياً في أبلوموفكا .

بيد أن إيليا إيلييتش أدرك فيما بعد ، بأن الكون منظّم ببساطة ، فلا ينهض الموتى من قبورهم ، أما العمالقة فيوضعون في السرادق بمجرد أن يظهروا ؛ بينما يُودَع قطاع الطرق السجن ؛ لكن إذا كان الإعتقاد نفسه بالأشباح قد انتفى ، فلا بد أن يبقى شيء ما من الرعب والانقباض النفسي الغريزي المشبع بالملل .

أدرك إيليا إيلييتش ، أن المصائب لا تأتي من الغيلان والعفاريت ، لكنه مع ذلك ، كان يتوجّس خشيةً من كل خطوة يخطوها . فإذا ما بقي في غرفة مظلمة ، أو شاهد أحد الموتى ، فإنه لا بد أن يرتعد خوفاً من نذير الشؤم هذا ، الذي يرى فيه غمّاً تَأَصَّل في نفسه منذ الطفولة ؛ وإذا ما سخر من مخاوفه في الصباح ، فإنه يعود ليرتعد خوفاً في الليل .

وجد إيليا إيلييتش نفسه ، فجأة ، وقد أصبح فتىً في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر .

إنه يتعلّم الآن في بلدة فيرخليوفا ، التي تبعد حوالي خمسة فراسخ عن أبلوموفكا ، عند الألماني شتولتس ، المدير المحلي ، الذي أسسّس مدرسة داخلية لأبناء النبلاء في المنطقة .

كان أندريي شتولتس ، ابن مدير المدرسة ، الذي له من العمر ما لأبلوموف تقريباً ، يتعلم في المدرسة أيضاً ؛ وكان هناك صبي آخر أيضاً ، لم يتعلم تقريباً أي شيء ، لأنه كان يعاني من مرض الخنازير ، فقد أمضى طفولته كلها وعيناه ، أو أذناه معصوبتان بشكل دائم ، وكان يبكي دائماً في السر لأنه لا يعيش عند جدته ، بل في منزل غريب ، وسط الأشرار ، حيث ما من أحد يلاطفه أو يعدّ له فطيرة يشتهيها .

عدا هؤلاء ، لم يكن في المدرسة الداخلية أولاد آخرون .

وضع الأب والأم ابنهما المدلل أليوشا في المدرسة . لقد كلفهم هذا ، الكثير من الدموع والعويل والتردد لكن لا مفرّ من ذلك ، فقد أدخلوه المدرسة أخيراً .

كان الألماني رجلاً عملياً ، صارماً ، كما هو شأن كل الألمان تقريباً . ربما كان بإمكان أليوشا أن يتعلم شيئاً ما مفيداً ، لو أن أبلوموفكا كانت تبعد خمسمائة فرسخاً عن فيرخليوفا . إلا أنّ تأثير الوسط الأبلوموفي وجاذبيته ، ونمط الحياة والعادات في الديار الأبلوموفية كان يشمل فيرخليوفا أيضاً ، إذْ كانت في وقت من الأوقات تابعة لأبلوموفكا أيضاً ، فكل ما فيها ، باستثناء بيت شتولتس ، ينضح بالكسل الفطري ذاته ، وبسذاجة الطباع وبالسكون والخمول .

كان عقل الطفل وقلبه قد تشرّبا بصور وقيم وطباع تلك الحياة ، قبل أنْ يرى أيّ كتاب . لكنْ ، كيف تبدأ النواة الذهنية الأولى بالتطور في ذهن الطفل باكراً ؟ كيف تتجذر المفاهيم والإنطباعات الأولى في نفس الطفل بعد الولادة ؟

قد يرى الطفل الرضيع ويخمّن معنى وترابط ظواهر الوسط المحيط به ، بمجرد أن يبدأ بالنّطق ، ولربما استطاع ذلك ، قبل أن ينطق كلياً وحتّى قبل أن يحبو ؛ ربما استطاع ذلك منذ اللحظة ، التي يلقي فيها على كل شيء يراه ، نظرات طفوليّة متمعّنة يصفها الكبار البالغون بأنها مبهمة .

ربمّا كان أليوشا قد لاحظ وفهم ، منذ زمن بعيد ، كل ما يقال ويفعل أمامه : فهو يرى والده لا يفعل شيئاً من الصباح إلى المغيب ، متنقلاً من زاوية لأخرى ، في بنطاله القطني وسترته البنيّة المصنوعة من الجوخ ، وواضعاً يديه خلف ظهره ، ينشق التبغ من حين لآخر ويعطس ؛ كان يرى أمه وهي تتنقّل من القهوة إلى الشاي ، ومن الشاي إلى الطعام ؛ ربمّا أدرك أيضاً ، أن والده لا يهتم مطلقاً بمعرفة كمية أكوام القمح ، التي حصدت وجمعت ، ولا يحاسب على التقصير في المحاصيل ، بينما تراه في الوقت نفسه في البيت يقلب الدنيا رأساً على عقب ، لأتفه الأسباب ، كأنْ يحصل بعض التأخير في جلب منديل كان قد طلبه ؛ عندها يبدأ بالصراخ وبالحديث عن الفوضى وغياب النظام .

ربمّا قرّر ذهنه الطفولي ، منذ زمن بعيد ، بأن الحياة لا ينبغي أن تكون ، إلاّ على النحو ، الذي يعيشه البالغون من حوله – وهل يمكن أن نطالبه باتخاذ قرار آخر ؟ لكن ، كيف كان يعيش البالغون في أبلوموفكا ؟

هل سألوا أنفسهم يوماً : ما معنى الحياة ؟ الله أعلم . كيف كانوا يجيبون على السؤال ؟ على الأرجح ، لم يكونوا يجيبون مطلقاً : فالأمر بالنسبة لهم ، في منتهى البساطة والوضوح .

إنهم لم يسمعوا يوماً ، بما يسمى حياة صعبة شائكة ، ولا بأناس يحملون في صدورهم مهام صعبة عسيرة ، أو يكافحون لهدف ٍ ما ، متنقّلين من مكان لآخر على وجه هذه البسيطة ، أو يكرّسون حياتهم في سبيل عمل سرمدي لا ينتهي .

لم يكن الأبلوموفيون يؤمنون بالإضطرابات الروحية والمعاناة النفسية ؛ لم يعتنقوا في حياتهم ، يوماً ، أهدافاً ومطامح في سبيل غاية ٍ ما ؛ فقد كانوا يخشون تأجّج العواطف الحماسية ؛ كانوا يرتعدون خوفاً بمجرد أن يسمعوا ، أنّ أناساً آخرين في منطقة ٍ ما ، تُبلَى أجسادهم بسرعة ، بسبب الجهد البركاني للإضطرام الروحي الداخلي ، ذلك أن أرواح الأبلوموفيين كانت ترفل بأجساد ليّنه ساكنة ، لا يزعجها شيء .

لم تعركهم الحياة كالآخرين ، فلا تجاعيد مبكّرة ، ولا معاناة وصدمات نفسية مدمّرة ، ولا أمراض .

كان الناس الطيبون منهم يعتبرون أن الحياة المثلى ، هي تلك التي

يسودها الهدوء ، وينتفي فيها النشاط ، بكلمات أخرى ، الحياة بالنسبة لهم ، تعني الهدوء وعدم النشاط ، تعني البطالة ، التي تعكّرها في بعض الأوقات ، بطريقة ما ، مصادفات متنوعة غير سارّة ، كالأمراض ، والمشاجرات ، وكذلك العمل .

كانوا يعتبرون العمل عقوبة ، لم يستطيعوا أن يتعايشوا معها أو يحبوها ، وإذا ما سنحت فرصة للتحرر منه ، فإنهم يجدون ذلك ضرورياً .

لم يزعجوا أنفسهم قط بأية أسئلة ذهنية غامضة ، فلم يسألوا أنفسهم يوماً : ما السبب الذي يجعل الناس يتألقون عافية ومرحاً ؛ وما السبب الذي يجعل الناس يعمّرون طويلاً هناك ؛ ما السبب الذي يجعل الرجال في سن الأربعين يشبهون الشبّان اليافعين ؛ ما السبب الذي كان يجعل الناس أكثر صلابة فيما مضى .

حقاً ، كان الناس فيما مضى أكثر صلابة : إذ لم يكونوا يسارعون سابقاً ليشرحوا للطفل معنى الحياة ، ولم يكونوا يُعِدّونه من أجلها ، ولم يرهقوه بالكتب ، التي تُولّـِد في الذهن كثرة الأسئلة ، التي تلتهم القلب والذهن وتُقصّر الحياة .

فقانون الحياة كان جاهزاً ، مُوحىً به إليهم عن طريق الآباء ، الذين تلقّفوه جاهزاً أيضاً عن الأجداد ، والأجداد عن آبائهم ، مع نصيحة تقضي بالمحافظة عليه كاملاً غير منقوص ، دونما تغيير . ما كان يحدث في عهد الأجداد والآباء ، كان يحدث أيضاً في عهد والد إيليا إيليتش ، ولربما يحدث الآن أيضاً ، في أبلوموفكا .

هل كان عليهم أن يفكروا ، أو يقلقوا ، أو يعرفوا أي أهداف ينشدون ؟ لا ، ليسوا بحاجة لأي شيء من هذا القبيل : فالحياة تجري على مقربة منهم كالنهر الهادىء ؛ فما عليهم إلاّ أن يجلسوا على ضفة هذا النهر ، ويراقبوا الظواهر ، التي تتعاقب أمام أعينهم .

بدأت تتعاقب أمام مخيلة إيليا إيلييتش النائم ، وكأنها لوحات حية ، مشاهد ثلاث من الحياة ، تجري في أسرته . ولدى أقربائه ومعارفه : الأعياد ، العرس ، والدفن .

ثم أخذ يمرّ بعدها موكب مبرقش ، مكوّن من أجزاء بهيجة ومحزنة : التعميد ، عيد التسمية ، الأعياد العائلية ، يوم ما قبل الصيام ، يوم ما بعد الصوم ، المآدب الصاخبة ، رحلات الأقارب ، التحيات ، التهاني ، الدموع الرسمية ، والابتسامات الرسمية .

كان كل شيء ينطلق بمنتهى الدقة والوقار والمهابة .

مثلت أمام مخيلته أيضاً ، وجوه مألوفة ، بمختلف الطقوس والمراسم ، بقلقها وانشغالها . أعطهم فرصةً لحضور أي حفلة خطوبة تشاء ، أو عيد تسمية — وستراهم يتصرفون وفق كل القواعد المألوفة ، دونما أدنى هفوة . ففي أبلوموفكا يعرف الناس بدقة ، أين يُجلِسون فلاناً ، ماذا يقدمون وكيف ، من سيسير في الموكب ومع من ، — دون أن يرتكبوا خلال ذلك كله ، مطلقاً ، أدنى هفوة .

هل ينجحون في تربية الطفل هناك ؟ يكفي أن يلقي المرء نظرةً ليرى كم هي متورّدة وجناتهم ، وممتلئة صحتهم ، أولئك الملائكة

الصغار ، الذين تحملهم ، أو تقودهم أمهاتهم المحلّيات . فكلهن إصرار على أن يكون أطفالهن أصحاء ، بدينين ، ناصعي البياض .

ستراهم يعزفون عن الربيع ، ويتجاهلون قدومه ، إذا لم يشووا في بدايته قبرّة ، إذ كيف يمكنهم ألا يفعلوا ذلك كله ؟

تلك هي حياتهم وذاك هو عملهم ، تلك هي أتراحهم وأفراحهم كلها : إنهم يبعدون عن أنفسهم كل الهموم والأحزان ، ولا يعرفون مسرات أخرى ؛ فحياتهم مزدحمة للغاية ، بهذه الأحداث الأصيلة المحتّمة ، التي كانت تزوّد ذهنهم وقلبهم بغذاء لا ينتهي .

بقلب يخفق من شدة الاضطراب ، كانوا ينتظرون مناسبة ، أو وليمة ، أو موكباً ، وما ان يزوجوا ، أو يعمّدوا ، أو يدفنوا شخصاً ، حتى ينسوا الشخص نفسه ومصيره ، ليستغرقوا بعدها في خمولهم ، الذي يخرجهم منه حادث آخر من النوع نفسه — عرس ، تعميد . . . الخ

ما ان يولد الطفل حتى يصبح همُّ أبويه الأول ، تأدية كل ما تتطلبه آداب الطقوس من دقة وتقيد بها ، أي إقامة حفلة التعميد ؛ بعدها يبدأ الاهتمام به .

كانت الأم تضع أمام نفسها ، وأمام المربية مهمة محددة : تربية طفل صحيح الجسم وحمايته من الزكام والنزلات الوافدة ، ومن ضربة العين وكل الظروف والعوامل الضارة الأخرى . جهود كبيرة كانت تبذل ، كي يأكل الطفل كثيراً ويبقى مرحاً على الدوام .

ما ان يقف الطفل الرضيع على ساقيه ، أي ما ان تصبح المربية

غير ضرورية له ، حتّى تغزو قلب أمه خلسة ، رغبة باطنية في البحث عن رفيقة له ، تكون أيضاً بأتمّ صحة وأحسن حال .

ويحلّ من جديد ، زمن الطقوس والحفلات والولائم ، وأخيراً زمن العرس ؛ فعلى هذا يتركّز زخم الحياة كله .

تبدأ بعدها الكرّة من جديد : ولادة الأطفال ، الطقوس ، المآدب ، لا يشذّ عن ذلك مؤقتاً ، إلا المآتم ، لكن ليس لمدة طويلة : فبعض الوجوه تترك المكان لغيرها ، والأطفال يصبحون شباباً وعرساناً أيضاً ، ثم يتزوجون ويصبح لهم أولاد ـــ هكذا تستمر الحياة ، وفق هذا المخطط ، بنسيج رتيب ، مستمر لا يتوقف إلاّ في القبر .

صحيح أن هموماً أخرى كانت تُفرض عليهم ، أحياناً ، إلا أن الأبلوموفيين كانوا يستقبلونها بجمود راسخ ، بينما كانت الهموم كالتي تحوم فوق رؤوسهم ، تنطلق مسرعة بالقرب منهم كالعصافير ، التي تطير مقتربةً من جدار أملس صقيل ، لا تجد فيه مكاناً تلجأ إليه . ثم ترفرف بأجنحتها ، بالقرب من الحجر الصلب ، وتتابع طيرانها .

ذات مرة ، انهار جزء من الرواق من إحدى جهات المنزل ، فطمر دجاجة مفرّخة مع صيصانها تحت الأنقاض ، وكاد الإنهيار أن يطال أكسينيا زوجة أنتيب ، التي كانت تجلس تحت الرواق ؛ لكنها لحسن حظّها كانت قد ذهبت في تلك اللحظة .

عمّت الضوضاء في المنزل : فهرع الجميع ، صغيرهم وكبيرهم ، وارتاعوا لمجرد التصوّر ، بأنّ سيدتهم نفسها كان يمكن أن تكون

هناك بصحبة إيليا إيليتش ، وكان يمكن أن يصيبها أيضاً ما أصاب الدجاجة والصيصان .

تأوه الجميع ، وأخذ كل منهم ياوم الآخر ، وهم يتساءلون ، كيف لم يخطر هذا الإحتمال ، منذ زمن بعيد ، على بال أحد : واحد يذكر ، وآخر يأمر بالترميم ، وثالث يرمم .

استغرب الجميع ، كيف انهارت الشرفة ، بينما كانوا بالأمس يبدون إعجابهم قائلين : كم صمدت طويلاً !

ابتدأت الهموم والتأويلات المتعلقة بإصلاح القسم المنهار ؛ وأبدوا أسفهم على الدجاجة وصيصانها ، ثم تفرّقوا ببطء إلى أماكنهم ، بعد أن حذّروا بشدة من اصطحاب إيليا إيليتش إلى الرواق .

بعد ثلاثة أسابيع ، جاءت الأوامر إلى أندريوشكا وبتروشكا وفاسكا ، بسحب الألواح الخشبية والدرابزين إلى السقيفة ، كي لا تبقى مرمية في الطريق ثم بقيت هناك حتى الربيع .

كان بال الأب العجوز أبلوموف ينشغل بفكرة إصلاحها ، في كل مرة يشاهدها من النافذة : فيستدعي النجار ويبدأ بالتشاور معه فيما إذا كان من الأفضل أن يشيد رواقاً جديداً ، أم يهدم القسم المتبقي ؛ ثم يصرفه إلى البيت قائلاً : « اذهب ، سأفكر في الأمر » .

استمرّ الأمر على هذه الحال إلى أن أُخبر السيد النبيل بأن فاسكا ، أو موتكا قد تسلّق هذا الصباح إلى الشرفة ليستطلع القسم المتبقي منها ، فوجد أن الزوايا قد انفصلت عن الجدران تماماً ، وأنها ستنهار من جديد .

استدُعي النجار عندئذ إلى اجتماع حاسم ، تقرّر على أثره ، أن يُدعم مؤقتاً ، الجزء المتبقي من الشرفة ببقايا الأعمدة الخشبية القديمة ،— الأمر الذي تمّ تنفيذه في نهاية الشهر .

— إي ! ستعود الشرفة من جديد ! قال أبلوموف العجوز لزوجته. انظري كيف رتّب فيدوت جذوع الشجر ، بشكل رائع ، فهي تبدو كأعمدة القصور ! لقد أصْلِح الأمر الآن : إنها ستدوم طويلاً !

في تلك الأثناء ، ذكّره أحدٌ ما بإصلاح البوابة وعتبة الباب ، إذ أن الشقوق بين درج السلم قد أصبحت كبيرة لدرجة ، أن القطط ليست وحدها ، هي التي تستطيع فقط ، أن تتسلل من شقوق الدرج إلى القبو ، بل والخنازير أيضاً .

— أجل ، أجل ، يجب إصلاح ذلك — كان إيليا إيفانوفيتش يجيب باهتمام ، وهو يتجه لتفحّص السقيفة فوراً .

— في الواقع ، لقد انخلعت تماماً — قال وهو يهز عتبة الباب كالأرجوحة .

— كانت تهتز أيضاً ، حتى عندما كانت جديدة ، — لاحظ أحدٌ ما .

— كيف ، — أجاب أبلوموف — لكنها لم تسقط ، على الرغم من أنها بقيت ستة عشر عاماً دون أي إصلاح .

لقد صنعها لوكا في حينه جيداً ! . . . لقد كان نجّاراً حقاً ! أجل . كان نجّاراً رائعاً — لقد مات — رحمه الله ! أما الآن فتراهم يتدلّلون : لكنني على ثقة بأنهم لا يستطيعون أن يصنعوا شيئاً كهذا .

ثم نظر إلى الجهة الأخرى . هه ! يقال أن عتبة الباب تهتز ، هه ! أجل ، إنها تهتز ، لكنها لم تسقط حتى الآن .

واضح ، أن لوكا النجار هذا ، كان رائعاً حقاً .

بالمناسبة ، يجب أن ننصف السادة النبلاء : تراهم يضطربون ، أحياناً ، حتى أنهم يحزنون ويغضبون ، عندما تحلّ بهم مصيبة ، أو عندما يكونون في وضع حرج .

كيف يمكن أن نغفل هذا الشيء أو نترك ذاك — كانوا يقولون . يجب اتّخاذ الإجراءات فوراً تراهم يتحدثون ، فقط ، عن إصلاح عبّارة ، أو تسييج بستان ، كي لا تخرّب الحيوانات الأشجار ، إذ أن جزءاً من السياج في أحد الأماكن ، قد أصبح على الأرض تماماً .

تجاوزت عناية إيليا إيفانوفيتش كل تصورّ ، لدرجة أنه رفع بيديه ، ذات مرّة ، عندما كان يتنزه في الحديقة ، وهو يتأوّه ويئنّ ، السياج المرمي على الأرض ، وأمر البستاني بأن يضع عودين من الخشب بأقصى السرعة : هكذا ، بفضل تصرّف أبلوموف هذا ، بقي السياج منتصباً طوال الصيف ، لكنه ما لبث أن سقط ثانية ، بفعل تراكم الثلوج .

حتى أن عنايته بلغت في نهاية المطاف حدّاً بعيداً . فقد أمر بوضع ثلاثة ألواح خشبية جديدة على العَبّارة بعد أن سقط عنها مباشرة ، أنتيب وحصانه وبرميله ، في الخندق . فلم يكد يشفى من الكدمات حتى كانت العَبّارة قد أُصْلِحَتْ من جديد .

توغلت البقرات والعنزات في البستان ، بعد أن سقط السياج من جديد : فقضمت أغصان عنب الثعلب فقط ، وشرعت تقضم شجرة الزيزفون العاشرة ، لكن ، ما إن وصلت إلى أشجار التفاح ، حتى جاءت الأوامر بغرز السياج كما ينبغي ، وبحفر خندق حوله .

وجدوا بقرتين وعنزة واحدة في البستان ، وقد انتفخت بطونها جيداً !

رأى إيليا إيليتش في حلمه ، أيضاً ، صالة استقبال مظلمة فسيحة في منزل والديه ، فيها بعض الكراسي الخشبية القديمة ، المصنوعة من شجر الدّردار ، عليها أغطية أزليّة ، مع مقعد خشبي قاسٍ ، مغطّى بقماش أزرق باهت ، عليه بقع من الغبار ، وكرسي جلديّ كبير وحيد .

في إحدى الأمسيات الشتوية الطويلة ، كانت الأم متربعة على المقعد الخشبي ، تحيك بتكاسل جورباً لطفلها ، وهي تتثاءب ، وتحك رأسها من حين لآخر ، بصنّارتها .

بالقرب منها تجلس ناستاسيا إيفانوفنا وبيلاجيا إيغانتييفنا . كانتا تخيطان شيئاً ما لأليوشا ، أو لأبيه ، أو لنفسيهما ، بمناسبة العيد .

كان الأب يروح ويغدو في الغرفة ، وقد بدا عليه الإرتياح التام ، واضعاً يديه خلف ظهره ، فيجلس على الكرسي قليلاً ، ثم يبدأ السير من جديد ، مصغياً باهتمام إلى وقع خطواته ، ثم ينشق التبغ بعدها ، فيعطس ، ثم ينشق من جديد .

كانت شمعة دهنية تشتعل ، إذ لم يكن يسمح بإشعالها إلاّ في الأمسيات الشتوية والخريفية فقط ، أما في أشهر الصيف فكانوا يبذلون

قصارى جهودهم ، ليناموا ويستيقظوا بدون شموع ، مكتفين بما تبقى من ضوء النهار .

كانت أسباب ذلك تعود في قسم منها إلى العادة . بينما كان يعود القسم الآخر للتوفير ، ذلك أن سكان أبلوموفكا كانوا يتعاملون ببخل شديد ، مع كل شيء يُشترَى ، مع كل شيء لا يُنتَج في البيت .

كانوا يذبحون بترحاب ، ديكاً رومياً كبيراً ، أو عشرة فراريج لدى قدوم ضيف ، لكنهم لا يضعون حبّة زبيب زائدة في الطعام ؛ حتى انّ وجوههم كانت تمتقع ، إذا ما صبّ ضيفهم لنفسه كأساً من النبيذ ، بدون إذنٍ منهم .

بالمناسبة ، هذا النوع من الفساد والتبذير لم يكن يحدث هناك تقريباً : فلا يفعل ذلك إلاّ إنسانٌ ما طائش ، أو فاسد ؛ ومثل هؤلاء الناس لا يسمح لهم بالدخول إلى بيوتهم مطلقاً .

كلاّ ، فمثل هذه الطباع لا توجد هناك : فالضيف عندهم لا يمكن أن يلمس شيئاً ، قبل أن تُوجّه الدعوة إليه ، مرات ثلاث . فهو يعرف جيداً ، أن الدعوة الأولى كالتي تُوجَه إليه ، غالباً ما تتضمن طلباً بالامتناع عن تناول الطعام أو النبيذ ، أكثر مما تتضمن دعوة لتذوقهما .

لم تكن الشموع تُشعَل لأي شخص كان : فالشمعة كانت تُشترى من المدينة بنقود وكانوا يقفلون عليها بالمفتاح ، كما يقفلون على كل الأشياء المشتراة . وكانت بقايا الشموع تُحصَى وتُخبّأ بعناية .

بوجه عام ، لم يكن الناس هناك يحبون إنفاق النقود ؛ وإذا كان الغرض ضرورياً ، فإنّ النقود تُنْفَق لاقتنائه بمزيد من الأسى ، هذا إذا كان الثمن زهيداً . أما إنفاق مبلغ أكبر على غرضٍ ما ضروري ، فيكون مصحوباً بالآهات والعويل والسباب .

كان سكان أبلوموفكا يفضلون أن يتحملوا أقصى درجات عدم الراحة ، حتى أنهم اعتادوا على عدم اعتبارها عدم راحة ، على أن ينفقوا النقود .

بسبب ذلك كله ، كان غطاء المقعد الخشبي ملطّخاً بالبقع منذ زمن بعيد ، وكرسي إيليا إيفانوفيتش الجلدي ، مغطّى باللّباد أو الألياف : فلم يبق من الجلد إلاّ قطعة صغيرة على المسند فقط . أما بقية الجلد فقد سقطت منذ خمس سنوات ؛ ولربّما لنفس السبب أيضاً ، كانت البوابة مقوّسة ، والعتبة تهتز . أما أن يدفع المرء لقاء شيءٍ ما ، مهما كان ضرورياً ، مئتي أو ثلاثمائة ، أو خمسمائة روبل ، فذلك ما كان يعتبر انتحاراً بالنسبة لهم .

ما ان سمع العجوز أبلوموف ، بأن اقطاعياً شاباً في الجوار قد سافر إلى موسكو ، واشترى عشرة قمصان بثلاثمائة روبل ، وحذاء بخمسة وعشرين روبلاً ، وسترة للعرس بأربعين روبلاً ، حتى رسم شارة الصليب ، وأسرع في الكلام وقد تملكه الرعب : « مثل هذا الشاب ، يجب أن يُودَع السجن »

بوجه عام ، كانوا صُمّاً إزاء الحقائق السياسية ــ الاقتصادية

المتعلقة بضرورة تحقيق دورة سريعة نشطة لرؤوس الأموال . وزيادة انتاجية السلع والتبادل .

كانوا يعرفون ويمارسون ، بسذاجة ، استخداماً وحيداً لرؤوس الأموال — هو وضعها في صندوق والقفل عليها .

كان سكان البيت ، أو زوّاره المعتادون ، يجلسون في أوضاع مختلفة ، على الكراسي في صالة الاستقبال . وهم يتحدّثون .

غالباً ، ما كان الصمت المطبق يسود بين الجلساء : إذ أنهم يتقابلون يومياً ؛ فكنوزهم العقلية قد استنفدت أثناء لقاءاتهم ؛ اما الأخبار من الخارج ، فنادراً ما كانت تصلهم .

كانت أصداء وقع خطوات حذاء إيليا إيفانوفيتش الثقيل تنتشر ، وتمزق جدار الصمت ، وهو يقوم بعمله المنزلي المعتاد : السير والجلوس ، كما كان صوت رقاص الساعة الجدارية يسمع أيضاً ، وبين الحين والآخر ، كانت بالاجيا إيغناتييفنا . أو ناستاسيا إيفانوفنا تقطع الخيط بيدها ، أو بأسنانها ، فتحدث صوتاً يقطع حبل الصمت .

نصف ساعة من الصمت تمضي . أحياناً ، يتثاءب بعدها أحدٌ ما بصوت مسموع قائلاً : « اغفر لي يا رب » .

ثم يتثاءب جاره ، والذي يليه ، كأن الأمر يحدث بإيعاز ، ويمضي الأمر على هذا النحو ، فتطال العدوى جميع من في الغرفة .

يمضي إيليا إيفانوفيتش إلى النافذة . فينظر عبرها قائلاً بشيء من الدهشة : « الساعة لم تتجاوز الخامسة بعد ، بينما الظلام قد خيم تماماً

في الخارج ! » . — أجل : — يجيب أحدٌ ما . في مثل هذا الوقت . يخيّم الظلام دائماً ؛ وتحلّ الأمسيات الطويلة

وفي الربيع تراهم يبتهجون ويفرحون . لأن النهارات الطويلة قد أقبلت وإذا ما سألهم سائل عن حاجتهم بها ، فإن الجواب سيعييهم . لأنهم لا يعرفون .

يعود الصمت من جديد .

يبدأ أحدٌ ما بإزالة الهباب عن الشمعة ، فتنطفىء فجأة ، — فيرتعش الجميع ، ويقول أحدٌ ما حتماً : « زائر غير متوقع ! » .

أحياناً ، يصبح هذا الأمر مداراً لحديث .

— من هذا الزائر يا ترى ؟ — تقول صاحبة البيت — أَيُعقَلُ أن تكون ناستاسيا فاديبفنا ؟ آه . ليت الأمر كذلك ! لا ، لا يمكن ، فهي لن تأتي قبل العيد . كم كنا سنتعانق ونبكي على انفراد ! ليتها تأتي الآن . . . لكن ، هيهات !

— متى سافرت من عندنا ؟ — سأل إيليا إيفانوفيتش — سافرت ، على ما أذكر ، بعد عيد النبي إيليا ، أليس كذلك ؟

— ما بلك يا إيليا إيفانوفيتش ! إنك ، دائماً تنسى ! حتى عيد شفاعة الأموات ، لم تنتظره ،

— صَحّحَتْ زوجته .

— يبدو لي ، أنها كانت ، هنا ، في عيد القدّيس بطرس ، — قال إيليا إيفانوفيتش معترضاً .

– أنت دائماً هكذا ! – قالت الزوجة بعتاب – إنك لا تعرف إلاّ الجدل والمشاكسة . . .

– كيف تقولين ، أنها لم تكن في عيد القديس بطرس ؟ لقد حضّرنا فطائر محشوّة بالفطر خصّيصاً لها : فهي تحب . . .

– إنك تتكلم عن ماريا أنيسيموفنا : فهي التي تحب الفطائر المحشوة بالفطر – كيف لا تذكر ذلك ! حتى ماريا أنيسيموفنا لم تحضر عندنا عيد النبي إيليا .

كان حساب الزمن عندهم ، يتم عن طريق الأعياد وفصول السنة والأعمال المنزلية والعائلية المختلفة ، دون أن يذكروا مطلقاً ، الأشهر والتواريخ . ربّما كان السبب يعود ، جزئياً ، لأن الجميع ، ما عدا أبلوموف العجوز ، لم يكونوا يعرفون أسماء الأشهر ونظام العدّ .

صمت إيليا إيفانوفيتش المهزوم ، بينما استغرق الحاضرون جميعاً في النوم من جديد ، وقد استولى النعاس، أيضاً ، على أليوشا المتمدّد خلف ظهر أمّه .

– بعدها ، قال أحد الحاضرين وهو يتنهد بعمق – : لقد كان زوج ماريا أنيسيموفنا ، المرحوم فاسيلي فوميتش ، رجلاً قوي البنية ، لكنّه قضى ! قضى ولم يتجاوز الستين عاماً – مثل هؤلاء يعيش مئة عام !

– كلّنا سنموت ، أمّا متى – فتلك مشيئة الله ! – اعترضت بالاجيا إيغناتييفنا، وهي تتنهدّ . . . يقال أن آل خلو بوفي لا يفرغون

من تعميد الطفل ، حتّى يولد آخر ، فقد وضعت آنّا أندرييفنا طفلها السادس .

ـــ ليست آنّا أندرييفنا الوحيدة ! ـــ قالت ربة المنزل ـ ـ ما أن تزوّج أخوها ، حتى أخذ الأطفال يولدون ـــ يا إلهي ، كم يكلفون من العناء ! والصغار سيكبرون . وسيبحثون عن عروسات جميلات ، والفتيات سيبحثن عن أزواج أيضاً ، لكن كيف سيعثرن على عرسان؟ فجميعهم يريدون ، الآن ، صداقاً . . .

ـــ مالك تتكلمين هكذا ! ـــ سأل إيليا إيفانوفيتش ، وهو يقترب منها .

ـــ أقول ، بأن . . .

ثم تتكرر الحكاية .

ـــ تلك هي الحياة ! ـــ نطق ايليا ايفانوفيتش ، متّخذاً هيئة الواعظ الحكيم ـــ واحد يموت ، وآخر يولد ، وثالث يتزوّج ، أما نحن فنهرم سنة إثر سنة ، ويوماً إثر يوم ! لماذا الأمور هكذا ؟ اليوم مثل البارحة ، والبارحة مثل الغد ! . . . ما ان يفكر المرء في ذلك كله ، حتى ينتابه الحزن . . .

ـــ الكبار يصبحون شيوخاً ، والشباب يكبرون ! ـــ قال أحدهم بصوت يغلبه النعاس .

ـــ يجب أن نصلّي ونبتهل إلى الله أكثر ، دون أن نفكر بشيء ! ـــ لاحظت صاحبة البيت بصرامة .

ـــ صحيح ، صحيح ـ لاحظ إيليا إيفانوفيتش بصوت خائف متلعثم ، وهو يروح ويغدو ، فقد كان يريد أن يتفلسف من جديد .

ساد الصمت من جديد ، مدّةً طويلة ، فلم يكن يُسْمَع إلاّ الصوت الذي يحدثه سحب الخيط من الإبرة . وفي بعض الأحيان ، كانت صاحبة البيت تكسر جدار الصمت .

ـــ أجل ، لقد خيّم الظلام في الخارج ـ قالت هي ـــ فليقدرنا الله لأن نعيش ونستمتع بالأعياد المقبلة ؛ ستكون أياماً حافلة تبعث على السرور ، ولن نشعر بالليالي وهي تمرّ . وإذا جاءت مالانيا بتروفنا ، فستعمّ البهجة عندئذ ! إنها تجيد كل شيء ! فهي تتقن صب القصدير وتدبير العديد من التسليات والألعاب . . . يا لها من امرأة حاذقة !

ـــ أجل ، إنها لسيدة حقاً ! علّق أحد المتحدثين . فهي التي ابتكرت فكرة التزحلق من المرتفع ، حيث جرح لوكا سافيتش حاجبه . . .

انتفض الجميع فجأة ، ونظروا إلى لوكا سافيتش ، ثم انفجروا بالضحك .

ـــ لوكا سافيتش . كيف حدث هذا ؟ هيا ، إحْكِ لنا ! ـــ قال إيليا إيفانوفيتش ، وقد أغرب في الضحك .

استمر الجميع بالضحك ، حتى أليوشا استيقظ وقهقه .

ـــ ماذا أحكي ! ـــ قال لوكا سافيتش المرتبك . ـــ لم يحدث شيء مطلقاً : فقد اختلق ألكسي نعوميتش هذا كله .

ـــ إي ! ـــ صاح الجميع بصوت واحد . ـــ كيف تقول ، أنه

لم يحدث شيء ؟ هل مُتْنَا حتى تقول ذلك ؟ وجبينك . فالندب ما زال بادياً عليه حتى الآن . . .

ثمّ أغربوا في الضحك .

— لماذا تضحكون ؟ حاول لوكا سافيتش أن يتكلّم أثناء الفواصل ، التي تخلّلت الضحك . — حصل هذا بسبب . . . فاسكا الخبيث . . . لقد وضع تحتي زلاّقات صغيرة . . . فتزحلقت تحتي . . . ورحت . . .

كان الضحك الشامل يحجب صوته . حاول عبثاً ، إتمام حكاية سقوطه : فقد استولى الضحك عليهم جميعاً ، حتى أنه وصل إلى غرفة المدخل ، وملأ البيت كله : فقد تذكّر الجميع الحادثة المضحكة ، وقهقهوا طويلاً في آنٍ واحد ، وبصورة خارقة للعادة ، كالآلهة الأولمبيين . ما ان يبدأ الضحك يخفت ، حتى ينفجر أحدٌ ما ، فيتابعون من جديد .

وأخيراً ، هدأ الجميع بطريقةٍ ما .

— ألا تريد أن تتزلّج الآن على الزلاّقات يا لوكا سافيتش ؟ — سأل إيليا إيفانوفيتش .

انفجر الجميع في الضحك من جديد ، مدة عشر دقائق .

— ما رأيك بأن نطلب من أنتيبكا تهيئة مرتفع للتزحلق ؟ — قال أبلوموف فجأة . — لم يطِقْ لوكا سافيتش ذلك . . .

لكن الضحك الجماعي لم يترك له مجالاً للحديث .

— هل الزلاّقات . . . ما تزال سليمة ؟ — قال أحد المتحدثين بصعوبة فائقة ، لأن الضحك كان يمنعه .

عاد الضحك من جديد .

ضحك الجميع طويلاً ، ثم أخذوا يهمدون رويداً رويداً : هذا يمسح دموعه ، وذاك يمخط ، وآخر يسعل بشدة ثم يبصق ، وهو يقول بصعوبة :

— آه ، يا إلهي ! لقد خنقني البلغم تماماً . . . لقد أضحكني كثيراً ! يا له من ذنب ! ظهره في الأعلى ، وأطراف ردائه منفتحة . . . يا له من مشهد !

هنا دوّت قهقهة أخيرة كانت أطول من سابقاتها ، ثم هدأ الجميع بعدها

فهذا يتنهّد وآخر يتثاءب بصوت مسموع ، ثم التزم الجميع الصمت.

وكالعادة ، أصبح يسمع عندها فقط ، صوت رقاص الساعة الجدارية ، ووقع أقدام أبلوموف . وصوت الخيط الذي يُقطَع بالأسنان أو باليدين .

توقّف إيليا إيفانوفيتش ، فجأة ، في وسط الغرفة ، ممسكاً بنهاية أنفه وكله هلع وقلق .

ما هذه المصيبة ، انظروا ! — قال إيليا إيفانوفيتش . لا بدّ أنّ وفاةً ستحدث : فنهاية أنفي تحكّني . . .

— آه ، يا إلهي ! — قالت زوجته ، وهي تضرب كفاً على كف —

كيف تقول هذا ؟ فالوفاة لا تحدث عندما يشعر المرء ، أنّ أنفه يحكه ، سامحك الله يا إيليا إيفانوفيتش ، ما أكثر نسيانك ! سيكون معيباً أن تقول هذا يوماً أمام الناس والضيوف .

ــ ما معنى أن يحكّ المرء نهاية أنفه إذن ؟ ــ سأل إيليا إيفانوفيتش بارتباك .

ــ هذا يعني أنك ستنظر إلى كأس .

ــ إنني أخطىء باستمرار ! ــ قال إيليا إيفانوفيتش ــ كيف لي أن أتذكر معنى حك الأنف من الجانب ، أو الطرف ، أو معنى حك الحاجبين . . .

ــ حك الأنف من الجانب ــ تابعت بالاجيا إيفانوفنا ــ يعني أن أخباراً ستصلك ؛ حك الحاجبين ــ يعني الدموع ؛ حك الجبين ، معناه أنك ستسلم على أحد ، فإذا كان الحك من الجهة اليمنى ، فستسلم على رجل ، وإذا كان من الجهة اليسرى ، فهذا يعني أنك ستسلم على امرأة ؛ حك الأذنين يعني أن مطراً سيهطل ، أما حك الشفتين فيعني أنك ستُقبّل أحداً ؛ حكّ الشاربين معناه أن ضيوفاً سيزورونك ، أما حك المرفق فيعني أنك ستنام في مكان جديد ، حك الكعبين معناه السفر . . .

ــ رائع يا بالاجيا إيفانوفنا ! ــ قال إيليا إيفانوفيتش . ــ حك قفا الرأس يعني أن سعر الزبدة سيصبح رخيصاً . . .

بدأت السيدّات يتهامسن ويضحكن ، بينما كان بعض الرجال

يبتسمون ؛ كأن انفجاراً في الضحك كان يوشك أن يحدث ، لكن صوتاً يشبه زمجرة كلب ، وهرير قطة ، عندما يتهيآن لمهاجمة بعضهما ، قد دوىّ في تلك اللحظة في الغرفة . إنها دقات الساعة الجدارية .

ـ إنها الساعة التاسعة ! ـ قال إيليا إيفانوفيتش بدهشة ملؤها الفرح . ـ أرأيتم كيف مضى الوقت دون أن نشعر به . فاسكا ! فانكا ! موتكا !

ظهرت وجوه ثلاثة يغلبها النعاس .

ـ لماذا لا تمدّون الطاولة ؟ ـ سأل أبلوموف بدهشة وأسى . ـ ألا تفكرّون بسادتكم ؟ ما بالكم واقفون ؟ هيا ؛ تحركّوا ، هاتوا الفودكا بسرعة !

ـ الآن فهمت لماذا كان أنفك يحكّك ! ـ قالت بالاجيا إيفانوفنا بحيويّه . ـ ستشرب الفودكا ، وستنظر إلى الكأس .

بعد العشاء ، كانوا يرسمون إشارة الصليب ، ثم يتفرّقون إلى النوم ، حيث كان الحلم مُخيّماً فوق رؤوسهم النائمة .

لم ير إيليا إيليييتش في حلمه أمسية أو أمسيتين فقط ، على هذه الشاكلة ، بل أسابيع وأشهر وسنوات بكاملها ، كان فيها الليل والنهار يمرّان على هذا النحو .

لم يكن هنالك شيء يعكّر رتابة الحياة هذه ، كما لم يكن الأبلوموفيون أنفسهم يميلون أو يرغبون بتعكير الرتابة تلك ، ذلك أنهم لم يتصوروا قط ، حياة أخرى ، وإذا ما استطاعوا أن يتصوروا ، فإنهم كانوا يرفضون عنها ، وأمارات الخوف بادية على وجوههم .

لم يكونوا يرغبون أو يريدون حياة أخرى . ولو أن الظروف أدخلت بعض التغييرات في حياتهم ، مهما كان نوعها ، لقابلوها بمزيد من الأسف والندم . فالضجر سيقتلهم ويقض مضاجعهم ، إذا لم يكن الغد مثل اليوم ، وبعد الغد مثل الغد .

ما حاجتهم بالتنوع الحياتي والتغيرات والأحداث ، التي ينشدها ويعمل من أجلها الآخرون ؟ فليشرب الآخرون هذا الكأس ، وليمضوا حياتهم كما يحلو لهم ، أما هم ، الأبلوموفيون ، فلا يعنيهم الأمر مطلقاً .

فالأحداث والمصادفات ، على الرغم من أنها لا تخلو من فائدة ما ، تبقى مقلقة : فهي تسبب مشاغل وهموماً وركضاً ، ولا تدع الإنسان يستقر على حال ، بل ترغمه على الحركة والتنقل ، وهذا ليس أمراً هيناً !

أمضوا عشرات السنين ، وهم ينامون ويتثاءبون ، أو ينفجرون في الضحك لدى تبادل الطرائف والنكات الريفية ، أو يتجمعون في حلقة ويقصون لبعضهم ما شاهدوه في حلمهم ليلاً .

فإذا كان الحلم مرعباً ، تراهم يستغرقون في التفكير وقد تملكهم الخوف ، دون أن ينطقوا بنكتة أو طُرْفة ؛ وإذا كان تنبؤياً بالمستقبل ، تراهم يفرحون أو يحزنون بلا تكلف ، تبعاً لما شاهدوه في الحلم من أسى أو عزاء . وإذا ما استدعى الحلم تتبعاً لفأل ، تراهم يتخذون بسرعة كل الإجراءات الفعالة .

أما أوقاتهم فيمضونها بلعب الورق ، ففي الأعياد يلعبون مع ضيوفهم لعبة بنت الكُبّا وغيرها .

تقوم إحدى النسوة ، أحياناً ، ولْنَقُلْ ناتاليا فاديييفنا بزيارتهم أسبوعاً أو أسبوعين . تبدأ العجائز ، أولاً ، بسرد واستعراض أحوال القرية كلها ، كيف يعيش الناس فيها ، ماذا يعملون . . . الخ ، دون أن يكتفين بالتطرّق إلى حياة الناس العائلية والشخصية والخفيّة فحسب ، بل يتناولن بالحديث أيضاً ، أفكار ورغبات كل شخص ، فيشتمن من لا يستحق الإحترام في أنظارهنّ ، خاصّة الأزواج غير الأوفياء ، بعدها يذكرن مختلف المناسبات : عيد التسمية ، التعميد والولادة ، ثم يسردن الأحاديث من نموذج أنّ فلاناً دعا إيفان لزيارته ، ولم يَدْع نيكولا مثلاً .

ما ان يتعبن من ذلك كله ، حتّى يبدأن بعرض ملابسهن الجديدة وفساتينهنّ ومعاطفهنّ ، وحتى تنانيرهنّ وجواربهنّ . ثم تتباهى صاحبة البيت ببعض ملبوساتها ومطرزاتها من النوع المُصَنّع منزليّاً .

ثم يتملكهن التعب من هذا أيضاً . عندها يتناولن القهوة والشاي والمربّيات .

بعدها يسود الصمت .

يجلسن مدة طويلة ، كل واحدة منهن تراقب الأخرى فتتنهّد إحداهنّ بين الحين والآخر ، بينما تبكي أخرى أحياناً .

ـــ ما بك يا أماه ؟ ـــ تسأل أخرى بقلق .

— آه ؛ إنني حزينة يا روحي ! تجيب الضيفة متنهّدة . — لقد أغضبْنا ، نحن الملعونات ، ربّنا ، فاختفى الخير .

— آه ، لا تخيفيني ، لا ترعبيني يا عزيزتي ! — تقاطع صاحبة البيت .

— أجل ، أجل ، — تتابع تلك . — ها هي الأيام الأخيرة من حياة البشر قد أقبلت :

ستقوم الخلائق على بعضها ، والممالك . على الأخرى . . . سيأتي يوم الحساب ! — تختتم ناتاليافادييفنا حديثها ، ثم تبكيان بمرارة .

لم تكن ناتاليا فاديفنا تقدمّ ، طبعاً ، أيّ برهان من جانبها يدعم استنتاجها هذا ، فلم يقم أحد ضد أحد ، حتى ان النجوم المذنّبة لم تظهر ؛ كل ما في الأمر ، هو أنّ هواجس باطنية قاتمة كان تستيقظ ، أحياناً ، لدى العجائز :

كأن يتسمـّم البيت كله ، على سبيل المثال ، من الصغير إلى الكبير بغاز الفحم .

قلّما يسمع المرء عن أمراض أخرى في البيت والقرية ، بيد أن حوادث أخرى كانت تحدث ، أحياناً ؛ كأن يصطدم أحدٌ ما بوتد في الظلام ، أو يسقط لوح خشبي من السقف ، فيصيب رأس إنسان ما .

لكن هذا ، نادراً ما كان يحدث ومن أجل معالجة هذه الحوادث غير المتوقّعة ، كانت تستخدم وسائل منزلية مجربّة : فيسقون المصاب ماءً مقدّساً أو يقرأون عليه تعويذة ، ويزول كل شيء .

بيد أن التسمّم بغاز الفحم ، كان يحدث غالباً ، فيسقط الجميع طريحي الفراش ؛ ويُسمع الأنين والآهات ، فترى أحدهم قد طوق رأسه بالخيار ، وربطه بمنشفة ، بينما يضع آخر توتاً بريّاً في أذنيه ثم يشمّ الفجل البرّي ؛ وثالث يخرج إلى الصقيع بطاق القميص فقط ، ورابع يتمدّد على الأرض ، وهو غائب عن الوعي .

كان هذا يحدث ، دوريّاً ، مرّة ، أو مرّتين شهريّاً . فرغبتهم بعدم ترك الدفء يخرج من المداخن سدى ، كانت تدفعهم لإغلاق المواقد ، عندما تكون ألسنة النيران فيها لا تزال تلتهب ، كنيران « روبرت ـ الشيطان » . فتصبح فقاعات الدخان تنطلق من كلّ مكان ، لتملأ البيت كلّه .

ذات مرّة ، كسر حادث غير متوقع ، رتابة حياتهم ، بشكل حقيقي .

بينما كانوا يتجمعون حول مائدة الشاي ، بعد أن استراحوا من غداء ثقيل ، وصل فجأةً أحد فلاّحي أبلوموف ، الذي عاد لتوّه من المدينة ، فوضع يده في جيبه بحثاً عن شيءٍ ما ، ثم أخرج أخيراً ، رسالة مدعوكة معنونةً باسم إيليا إيفانوفيتش أبلوموف .

انذهل الجميع ، حتى أن وجه صاحبة البيت قد تغيّر قليلاً ؛ أما عيون الحاضرين فقد تركّزت على الرسالة ، واستطالت أنوفهم تجاهها .

ـ يا لها من نادرة ! ممّن هذه الرسالة ؟ نطقت السيدة النبيلة ، أخيراً ، بعد أن عادت إلى رشدها .

تناول أبلوموف الرسالة ، وأخذ يقلّبها بيديه بارتباك ، دون أن يعرف ما يفعل بها .

— من أين أخذتها ؟ — سأل أبلوموف وهو ينظر إلى الفلاح — من أعطاك إيّاها ؟ .

بينما كنت أقف في ساحة ، المدينة . جاء بعض الجنود مرّتين ، يسألون فيما إذا كان أحد فلاحي أبلوموفكا موجوداً هناك : كانوا يريدون أن يسلموه رسالة لينقلها إلى السيد أبلوموف .

— وبعدها ؟ . . .

تواريت عن الأنظار في البداية : فانصرف الجندي ، الذي كان يحمل الرسالة . لكن فندلفت فيرخليوفا رآني وأخبر عنّي . قَدِموا فوراً ، ثمّ وبخّوني وأعطوني الرسالة .

— ماذا أفعل بها ؟ — قلت لهم . فأمروني بأن أسلمها لحظوتكم .

— كان عليك ألا تأخذها — لاحظت السيدة صاحبة البيت بغضب .

— لم آخذها في البداية . فقد قلت لهم ، انه غير مسموح لنا أن ننقل الرسائل — فأنا لا أتجرأ على ذلك ، فلتوصلوا أنتم ، هذه الرسالة بأنفسكم ! عندها . بدأ أحد الجنود يوبخني بقسوة ويتهدّدني : وعزم أن يشتكي إلى رؤسائه ، عندها أخذت الرسالة .

— يا لك من مغفل ! — قالت السيدة النبيلة .

— من أرسل هذه الرسالة ؟ . . . قال أبلوموف متفكراً ، وهو يتفحّص العنوان — يبدو أن الخطّ مألوف حقاً !

راحت الرسالة تنتقل من يدٍ لأخرى . بدأت التفسيرات والتخمينات : ممّن هذه الرسالة ، عن أيّ أمر تتحدث ؟ أصبح الجميع في مأزق .

أمر إيليا إيفانوفيتش بالبحث عن النظارات : فوجدوها بعد ساعة ونصف من البحث المضني . وضع نظارتيه وعزم على فتح الرسالة .

— إيليا إيفانوفيتش ، أرجوك ، لا تفتحها . — أوقفته زوجته والخوف بادٍ عليها .

— من يدري ، ما تحتويه هذه الرسالة ؟ ربّما هي رسالة شؤم ، قد تكون مصيبة علينا : فالناس لا يؤمن جانبهم في هذه الأيام ! سيكون لديك متسع من الوقت لقراءتها غداً ، أو بعد غد — فهي لن تهرب .

خُبِّئَتِ النظارة والرسالة في الصندوق وأقفل عليهما : بدأ الجميع بتناول الشاي . كان يمكن أن تبقى الرسالة هناك سنوات ، لو أنها لم تكن ظاهرة غير عاديّة أقلقت أذهان الجميع . أصبحت الرسالة حديث كل من في البيت وشغلهم الشاغل .

نفذ صبرهم أخيراً ، فاجتمعوا في اليوم الرابع ، وشرعوا يفتحون الرسالة بارتباك .

— « راديشيف » — قرأ أبلوموف — إي ! إنها من فيليب ماتفييتش !

— الحمد لله ! هكذا إذن ! — انطلقت الأصوات من كل الجهات — لا يزال حياً حتى الآن ؟

لم يمت بعد ! شكراً لله ! ماذا يكتب ؟

بدأ أبلوموف يقرأ الرسالة بصوت مسموع . اتضح ، أن فيليب

ماتفييتش كان يرجوه بحرارة : أن يرسل إليه وصفة البيرة : التي كانت تُصنّع جيداً في أبلوموفكا على وجه الخصوص .

— لنرسلها ، لنرسلها له ! — قال الجميع — يجب أن نكتب إليه رسالة .

انقضى اسبوعان دون أن يكتب شيء .

— يجب ، يجب أن نكتب ! — أكد إيليا إيفانوفيتش لزوجته — أين الوصفة ؟

— أين هي ؟ — قالت زوجته — يجب أن نبحث عنها . تمهّل ، لماذا العجلة ؟ سننتظر حتّى موعد العيد والإفطار ، عندئذ سنكتب إليه بعون الله .

— من الأفضل أن أكتب الرسالة في العيد حقاً !

في العيد ، أصبح الحديث يدور من جديد ، حول الرسالة . لكن إيليا إيفانوفيتش عزم أخيراً ، وبشكل نهائي ، على كتابة الرسالة . اعتزل في حجرته ووضع نظارته ، ثم جلس إلى الطاولة .

كان الصمت الرهيب يعم أرجاء المنزل كلّه ؛ فقد مُنِع كلّ من في المنزل . من القيام بأيّة حركة ، وإبداء أية ضجة . « السيدّ النبيل يكتب ! » — كان الجميع يتحدثون بصوت ملؤه الاحترام والمهابة ، تماماً كما يتحدثون في حضرة ميت . ما أن دوّن إيليا إيفانوفيتش ببطء واعوجاج وبمزيد من الحذر ، بيدٍ مرتجفة ، كما لو أنه يمارس أمراً ما خطيراً للغاية ، عبارة : « سيدي الكريم » حتّى ظهرت زوجته .

ـ فتّشت ، فتّشت ـ لكن ، لا أثر للوصفة . ـ قالت الزوجة . بقي عليّ أن أفتش في الخزانة وغرفة النوم . بأي طريق سترسل الرسالة ؟

ـ عن طريق البريد ـ أجاب إيليا إيفانوفيتش .

ـ كم ستكلف إلى هناك ؟

أخرج أبلوموف روزنامته القديمة .

ـ أربعين كوبيكاً ـ قال أبلوموف .

ـ أربعين كوبيكاً تنفقها على مثل هذه السخافات ! ـ لاحظت الزوجة . ـ من الأفضل أن تنتظر فرصة سانحة إلى هناك . اطلب من الفلاحين أن يستطلعوا الأمر .

ـ في الواقع ، من الأفضل أن ننتظر فرصة سانحة ـ أجاب إيليا إيفانوفيتش ، ثم وضع ريشته على الطاولة ونزع نظارته .

ـ إنك محقة في ذلك ـ ختم أبلوموف حديثه ـ فالرسالة لن تهرب : لدينا متسع من الوقت لأن نرسلها .

ليس واضحاً ، فيما إذا كان فيليب ماتفيتش قد استلم الرسالة .

أحياناً ، كان إيليا إيفانوفيتش يأخذ كتاباً بيديه ، أيّ كتاب ، فالأمر سيّان عنده . فلم يكن ينشد إرضاء حاجة ملحّة من خلال القراءة ، بل كان يعتبر الأمر أبّهة وترفاً ، يمكن الإستغناء عنهما ، تماماً كأنْ تُعلّق أو لا تعلّق لوحة على الجدار . أو كأن تذهب في نزهة أو لا تذهب : فالأمر سيان . سواء وقع هذا الكتاب بيده ، أم ذاك ، كان يعتبر الكتاب شيئاً مخصصاً للتسلية ، لقتل الفراغ والملل .

لم أقرأ كتاباً منذ زمن بعيد — كان أبلوموف يقول ، وكان يغيّر العبارة أحياناً ، فيقول : أعطني شيئاً ما للقراءة . كان يصدف أيضاً ، أن يرى بشكل عابر ، كومة من الكتب وَصَلَتْه بعد وفاة أخيه ، فيخرج أيّ كتاب تقع عليه يده ، دون أن يقصده بالتحديد . فسواء وقعت يده على كتاب تفسير الأحلام لميروشكوف . أو على مسرحيات روكوف التراجيديّة ، أو على لوائح جدولية مضى عليها ثلاث سنوات — فإنه يقرأها جميعاً بنفس الدرجة من المتعة ، قائلاً من حين لآخر : تباً له من ابتكار ! تبّاً له من قاطع طريق ! .

كانت صيحات التعجب تلك تنصب على الكتّاب والمؤلّفين ، فهو لم يكن يمنحهم أيّ احترام ، حتى أنّه كان يكنُّ لهم نوعاً من الإزدراء ، الذي كان يكنُّه لهم أناس ذلك الزمن القديم . كان يعتبر المؤلف كالرّاقص ، شأنه في ذلك شأن الكثيرين من الناس في ذلك الزمن . مسليّاً ، مهرّجاً ، سكّيراً مضحكاً .

كان يقرأ على مسامع الجميع أحياناً ، بصوت عالٍ ، أخباراً من جريدة مضى عليها ثلاث سنوات .

— تفيد الأنباء الواردة من لاهاي — يقرأ أبلوموف — بأنّ جلالة الملك قد عاد سالماً من جولة قصيرة قام بها في أرجاء القصر . كان أبلوموف يتوقف هنا وهو ينظر إلى المستمعين عبر نظّارته .

أو :

— قدّم سفير ما أوراق اعتماده في فيينا .

– وفي مكان آخر من الجريدة – كان أبلوموف يقرأ أيضاً – بأن مؤلفات السيدة – جانليس قد ترجمت إلى اللغة الروسية .

– إنهم يترجمون هذه المؤلفات ، كي يبتزّوا النقود من اخواننا النبلاء – لاحظ أحد صغار الملاكين النبلاء ، الذي كان يجلس بين المستمعين .

كان المسكين أليوشا يسافر ويسافر ليتابع تعليمه عند شتولتس . كان الضجر يستولي عليه عندما يستيقظ يوم الاثنين . فيسمع صوت فاسكا الحاد وهو يصرخ من العتبة :

– أنتيبكا ! جهزّ العربة ، سيذهب سيّدي النبيل أليوشا إلى الألماني !

كان قلبه يخفق وهو يأتي إلى أمه حزيناً . أما هي فكانت تعرف سبب حزنه هذا ، فتتنهّد سرّاً . لأنه سيفارقها أسبوعاً كاملاً .

لم يكونوا يعرفون الأصناف ، التي سيحضرّونها له في ذلك الصباح : أيُحضرِّون له الحلوى والفطائر ، أم يزودونه بالبسكويت والمملحات ، والمربيّات ومختلف أنواع الأطعمة الشهيّة ، المجففّة منها والمطبوخة . كان ذلك كلّه يجري ، اعتقاداً منهم ، بأن الأطعمة ، التي كان يتناولها عند الألماني ، لم تكن دسمة بما فيه الكفاية .

– لن يشبع هناك – كان آل أبلوموف يقولون . . ففي الغداء يقدّمون حساء ولحماً وبطاطس ، ومع الشاي يقدّمون الزبدة ، بينما يتناولون عشاءً خفيفاً في المساء .

بالمناسبة ، كان إيليا إيلييتش يفرح كثيراً . عندما كانت أمه تستقبله أيام الإثنين تلك ، على مائدة الشاي . بابتسامة وخبر سار :

— لن تذهب اليوم ، الخميس عيد عظيم : فهل تستحق المدرسة عناء الذهاب والإياب من أجل ثلاثة أيام فقط .

أو كـأَنْ تقول فجأةً له : « اليوم يبدأ أسبوع الوالدين » — فلا وقت للدراسة : سنعدّ الزلابية » .

في مناسبة أخرى ، كانت أمه تنظر إليه صباح يوم الإثنين وتقول :

— أرى أن عينيك ذابلتان اليوم . هل صحتك بخير ؟ — ثم تهزّ رأسها .

كان الصبيّ الماكر يصمت ، على الرغـم من وضعه الصّحي الجيد .

— ابق هذا الأسبوع في البيت — كانت الأم تقول — فالله سيعوّضك عن المدرسة .

كان كلّ من في البيت على اقتناع تامّ ، بأن البقاء في البيت خلال أيام السبت المخصصة للوالدين ، أهم بكثير من الذهاب إلى المدرسة ، وأنّ العيد الذي سيصادف يوم الخميس ، يستحق الغياب عن المدرسة طيلة الأسبوع .

أحياناً ، كان أنتيبكا يأتي إلى الألماني فجأة ، في منتصف الأسبوع ، ليأخذ إيليا إيلييتش إلى البيت ، فيقول :

— جاءت ماريا سافيشنا ، أو ناتاليا فاديفنا أو كوزافكوفا في

زيارة إلى منزل سيّدي بصحبة أطفالهن . العربة تنتظر سيّدي أليوشا ليتفضّل بالذهاب إلى البيت !

يحلّ أليوشا ضيفاً في البيت عدّة أسابيع . بعدها يرى آل أبلوموف أن العيد قد أصبح على الأبواب ، فيقرّر أحدٌ ما في الأسرة ، لأمرٍ ما ، بأن الدراسة تتوقف خلال أسبوع العيد ، ثم يقولون بعد ذلك أن الصيف قد أصبح قريباً جداً ـ الأمر الذي لا يستحق عناء السفر ؛ وفي الصيف يمضي الألماني نفسه وقت راحته ، لذا فإنه يُفَضَّل تأجيل أمر ذهاب أليوشا إلى المدرسة حتى الخريف .

هكذا نرى ، أن إيليا إيليتش كان يستريح من عناء الدراسة مدة نصف عام . ينمو خلالها جسده ، وينام بعمق ، ويصبح بديناً . لكن آل أبلوموف ، كانوا على العكس من ذلك . يرون بأن أليوشا قد أصبح نحيلاً شاحباً خلال المدة التي كان يمضيها عند الألماني شتولتس .

ـ الدراسة لن تهرب ، أما الصحة فلا تفتدى بثمن . إنها أغلى شيء في الحياة ـ ذلك ما كان يقوله الأب والأم ـ . تراه عائداً من المدرسة كما لو أنه عائد من المستشفى : نحيلاً ، الشحم كله قد ذاب . حركاً ، يريد أن يركض باستمرار ! ،

ـ أجل ، ليست الدراسة شيئاً محبباً : إنها تسبب العناء ! ـ قال الأب معلقاً .

استمر الوالدان الحنونان يبحثان عن الأسباب والمبرّرات لإبقاء

ابنهما في البيت . لم يكتفيا بالتذرّع بالأعياد فحسب ، بل تجاوزا ذلك . في الشتاء برد قارس ، في الصيف يتعذر السفر والتنقل في القيظ ، فضلاً عن أن المطر يهطل أحياناً ، أما في الخريف فالأوحال تزعج وتعيق السفر .

بالمناسبة ، كان آل أبلوموف يبذلون كل ما في وسعهم ليسبغوا على اقتراحاتهم وأعذارهم أكثر ما يمكن من المشروعية في أعينهم ، وفي عيني شتولتس خاصة ، الذي لم يكن يرحم مطلقاً هذا النوع من الدلال ، لا في حضورهم ولا في غيابهم .

لقد انقضت وولّت عهود بروستاكوف وسكوتينين منذ زمن بعيد . فالحكمة المأثورة القائلة : العلم نور والجهل ظلام أصبحت تعم المدن والقرى ، فضلاً عن الكتب التي يوزّعها بائعوها .

حتى الشيوخ أصبحوا يدركون فائدة التعليم ، لكنْ فائدته الظاهرية فقط : كانوا يعتبرون أن الناس قد أصبحوا أكثر رقيّاً ؛ بمعنى أنهم يستحوذون الرتب والألقاب والأوسمة والنقود ، بفضل التعليم فقط . أما أولئك الذين شاخوا على العادات والطباع القديمة والإقتباس . فقد أصبحوا في وضع صعب .

أصبحت تنتشر إشاعات ودعايات مشؤومة ، ليس عن ضرورة تعلم القراءة والكتابة فحسب ، بل وعن ضرورة تعلم علوم أخرى ، لم يُسمع بها من قبل . أمّا الهوّة بين الألقاب والمناصب الحكومية

المختلفة فأخذت تزداد اتساعاً ، إذ لا يمكن عبورها إلا على جسر يسمونه دبلوماً .

فالعسكريون القدامى من أصحاب العادات القديمة وأرباب الرشاوى ، صاروا يختفون تدريجياً . فكثيرون ممن لم يموتوا بعد ، طُردوا بسبب عدم أمانتهم وقلّة الثقة فيهم ، بينما قُدّم آخرون منهم للمحاكمة ؛ أما أولئك الذين يئسوا من النظام الجديد ، فكانوا أكثر سعادة وحظاً فانصرفوا إلى أصقاع آمنة لينجوا بأنفسهم .

كان آل أبلوموف يدركون فائدة التعليم ، لكن فائدته الظاهرية فقط . وبما أنهم كانوا يملكون مفهوماً ضبابياً غامضاً عن الضرورة الداخلية الحقيقية للتعليم ، فقد كانوا يرغبون بأن يلتقطوا بعض ميزاته البرّاقة الظاهرية ليقدموها لابنهم أليوشا .

كانوا يحلمون ببدلة رسمية مفصلة خصيصاً من أجله ؛ فقد تصوروه مستشاراً في محكمة ، حتى أن أمه تصوّرته والياً لإحدى المقاطعات ؛ لكنهم كانوا يريدون بلوغ ذلك كله بأيسر السبل والحيل المختلفة ، بواسطة طريقةٍ ما تجنبّهم سرّاً ، العقبات والأحجار والصعاب المتناثرة على طريق التعليم ، ليتجاوزوها ويقفزوا من فوقها بدون عناء ، أي أن يتعلم قليلاً دون أن يصل الأمر إلى أعماق روحه وجسده ، أو يؤدي إلى فقدان الصحة والبدانة المباركة ، التي اكتسبها في طفولته ؛ بل أن يقتصر تعليمه على درجة تسمح له بمراعاة الشكل الظاهري المطلوب

فقط ، كأنْ يحصل على شهادةٍ ما كُتب فيها ، بأن أليوشا قد اجتاز العلوم والفنون كلها .

لاقت منظومة التعليم الأبلوموفية كلّها ، معارضة شديدة من جانب شتولتس . كان صراعاً عنيداً قاسياً قد نشب بين كلا الجانبين . كان شتولتس يهاجم بإصرار . وبصراحة منافسيه ، لكنهم كانوا يتفادون ضرباته ويفلتون منها بفضل حيلهم ، التي سبق ذكرها ، فضلاً عن بعض الحيل الأخرى .

لم يتقرر النصر ولم تحسم المعركة ؛ ولربما كان بمقدور الإصرار الألماني أن يتغلّب على عناد وجمود آل أبلوموف . لو لم يكن الألماني يواجه مصاعب خاصة من جهته ، الأمر الذي لم يحسم النصر بسببه ، لا لمصلحة هذه الجهة ، ولا لتلك . حقيقة الأمر هي أنّ ابن شتولتس كان يدلّل أبلوموف الابن ، فيلقّنه الدروس ويدوّنها ، ويعمل له الترجمات .

كانت تنعكس بوضوح في شخصية إيليا إيلييتش ، حياته المنزلية عند أهله . وأسلوب معيشته عند شتولتس .

ما ان يستيقظ إيليا إيلييتش في منزل والديه حتّى يشاهد بالقرب من سريره . زاخار تروفيميتش ، الذي أصبح فيما بعد خادمه المشهور .

كان زاخار يشدّ له جوربه ، ويلبسه حذاءه كما كانت المربية تفعل تماماً ؛ أما أليوشا البالغ من العمر أربعة عشر ربيعاً ، فلم يكن يعرف شيئاً سوى أنْ يمدّ له وهو مستلق هذه الساق أو تلك ؛ وإذا لم يعجبه عمل زاخار . فإنه كان يضربه على أنفه بأخمص القدم .

وإذا ما فكر زاخار المهان أن يشكيه لأهله ، فإنه كان يتلقى أيضاً الضرب من سادته الكبار .

بعدها ، كان زاخار يُسَرّح له شعره ويلبسه سترته ، وهو يدخل يدي أليوشا بحذر شديد في الأكمام . كي لا يزعجه كثيراً ، ثم يُذَكِّر إيليا إيلييتش بعمل هذا الأمر وذاك : كَأَنْ ينهض في الصباح ، ويغتسل . . . الخ .

وإذا ما أراد إيليا إيلييتش شيئاً ما ، فما عليه إلاّ أنْ يَرِفَّ بإحدى عينيه ، حتى يركض ثلاثة أو أربعة من الخدم لتلبية وتنفيذ رغبته ؛ وإذا ما أسقط شيئاً ، فإنه لا يلتقطه مطلقاً . لكنه كان يرغب ، أحياناً ، بأنْ ينطلق كصبي رشيق ، ليعمل كل شيء بنفسه ؛ هنا يصرخ أبوه وأمه وعمّاته الثلاث . فتلتقي الأصوات الخمسة في صوت واحد :

— لماذا ؟ إلى أين ؟ وفانكا ، وفاسكا ، وزاخاركا ، ما عملهم ؟ اي ، فاسكا ! فانكا ! زاخار ! أيها المغفلون ، ما لكم تنظرون ؟ سأريكم ! . . .

هكذا لم يكن إيليا إيلييتش يتمكّن من عمل أي شيء بنفسه ولنفسه . وبعد أن اكتشف بنفسه بأنّ هذا أكثر مدعاة للراحة ، تعلّم أنْ ينادي أيضاً : « أي ! فاسكا ! فانكا ! زاخاركا ! اجلبوا هذا ، خذوا ذاك . أريد هذا ، بل ذاك ! اركضوا واجلبوه ! » .

لكن سرعان ما أضجرته معاملة والديه الرقيقة .

فإذا ما ركض على السلم ، أو خارج البيت ، تنطلق فوراً عشرة

أصوات يائسة متوسلة : « آه ، آه ! أمسكوه ، أوقفوه ! سيسقط ، سينجرح . . . قف ، قف ! » وإذا ما فكّر في الشتاء بأنْ يفتح كوّة ، أو ينخطف إلى مدخل المنزل ، . . فإنّ أصواتاً تلاحقه من جديد : « اي ، إلى أين ؟ كيف يمكن ذلك ؟ لا تركض ، لا تمش ، لا تفتح : ستسقط . ستصاب بالزكام . . . » .

كان أليوشا يلزم البيت بشيء من الأسى . معللاً نفسه بالدفء ؛ كان ينمو ويترعرع كالوردة الغريبة ، التي تنمو ببطء وخمول تحت الزجاج . أما قواه الباحثة عن مخرج تنطلق منه وتظهر . فقد كانت تنكفيء إلى الداخل . فتذبل وتغور .

لكنه كان يستيقظ أحياناً . نشطاً ، نضراً ، مرحاً ، كان يشعر أن شيئاً ما يضجّ ويغلي في أعماقه ، كأنّ مارداً قد استوطن نفسه ، فيندفع كي يصعد إلى السطح ، ليمتطي صهوة حصان جامح ، ينطلق به عبر المراعي والمروج ، أو ليعتلي سوراً أو سياجاً ، أو ليشاكس كلاب القرية ؛ كانت تتملكه الرغبة أحياناً ، بأن ينطلق راكضاً عبر القرية ، والحقل والمسيل وغابة البتولا ، كي يصل بقفزات ثلاث إلى قعر الوادي . وكان يحسّ بالرغبة أيضاً ، بأن ينضمّ إلى الأولاد ، ليلعب معهم بالثلج ويجرّب قواه .

كان المارد يغالبه بشدة : فتراه يتمالك نفسه ، ويصبر ويصبر ،

لكن صبره كان ينفذ أخيراً . فينطلق من عتبة المنزل إلى الخارج شتاءً ، بدون غطاء رأس ، ثمّ يجتاز البوّابة ، فيغرف الثلج بكلتا يديه ، ويسرع للانضمام إلى الأولاد .

كان الهواء النقيّ يخدش وجهه ، والصقيع يلسع أذنيه ، والبرد ينفخ في فمه وحلقه ، لكن صدره كان عامراً بالفرح ، وهو ينطلق بأقصى سرعة ممكنة ، يضحك ويزعق .

ها هو ذا يشاهد الأولاد ، فيضربهم بالثلج ، لكن الضربة كانت خائبة : إذ أنّ المهارة تنقصه ؛ وبينما كان يغرف كومة من الثلج ، صفعت وجهه كلّه كتلة من الثلج ، فسقط وهو يشعر بشيء من الألم بسبب عدم العادة ، لكنه كان فرحاً على الرّغم من ذلك ، حتّى أنه كان يضحك والدموع في عينيه . . .

عمّت الجلبة أرجاء المنزل كله : أليوشا غير موجود ! علا الصياح ، وازدادت الضجّة : قفز زاخاركا إلى الخارج ، فتبعه فاسكا ، ميتكا وفانكا ، — أخذوا يركضون في فناء المنزل حائرين مرتبكين .

تبعهم كلبان ، لم يقدرا كما هو معروف ، أن يظلاّ غير مباليين ، وهما يشاهدان إنساناً يركض .

كان الناس يصرخون ويولولون ، والكلاب تنبح ، وهم يركضون عبر القرية . شاهدوا الأولاد أخيراً . وبدأوا يعاقبونهم . فأخذوا يمسكون هذا بشعره ، وذاك بأذنيه ، وآخر برقبته ؛ حتّى أنهم أخذوا يهدّدون آباءهم .

بعد ذلك ، أخذوا النبيل الصغير ولفّوه بمعطف ، ثمّ بفروة أبيه ، وبيطانيتين وحملوه بعدها بمهابة إلى البيت .

كان أهله قد قطعوا اليأس من رؤيته ، وعدّوه ميتاً ؛ وكم كان

فرح والديه وأقاربه كبيراً عندما شاهدوه حيّاً ، لم يصبه أذى . فشكروا الله ، وسقوه بعدها نعناعاً وبيلساناً ، كما سقوه في المساء ، شراب توت العلّيق أيضاً ، وأبقوه في الفراش أياماً ثلاثة ؛ لكن شيئاً وحيداً كان يمكن أن يفيده فقط : أن يلعب بالثلج من جديد . . .

— ١٠ —

ما إن بلغ شخير إيليا إيلييتش مسامع زاخار ، حتى قفز بحذر ، ثم خرج من مضجعه على رؤوس أصابعه دون أن يحدث ضجّة ، فأغلق باب حجرة سيّده وتوجّه إلى البوّابه .

— أهلاً وسهلاً يا زاخار تروفيميتش ! لم نرك منذ زمن بعيد ! — بدأ سائقو العربات والخدم والنسوة والأولاد المتجمّعين عند البوّابة ، حديثهم بأصوات مختلفة .

— ما أخبار سيّدك ؟ هل رحل من البيت ؟ — سأل البوّاب

— إنّه ينام كثيراً — قال زاخار بكآبة .

— ما السبب ؟ — سأل الحوذي . — لم يستيقظ بعد . . . يبدو أنه مريض ، أليس كذلك ؟

— هه ، مريض ، ماذا تقول ! لقد شرب حتى أصبح بطنه كالطبل ! — قال زاخار بصوت ينمّ عن اقتناع كامل بذلك . — هل تصدّقون ؟ لقد شرب لوحده ، زجاجة ونصف من نبيذ الماديرا ، وزجاجتين من الكفاس ، ثمّ نام بعدها .

– هكذا ! – قال الحوذي بحسد .

– لماذا يشرب حتى الثمالة في هذه الأيام ؟ – سألت إحدى النسوة .

– لا ، يا تاتيانا إيفانوفنا – أجاب زاخار ، وهو ينظر إليها من طرف عينيه – المسألة لا تقتصر على هذه الأيام فحسب : فهو لم يعد يصلح مطلقاً لأي شيء – كم أصبح حديثه مقرفاً !

– يبدو أنه مثل سيدي تماماً ! – لاحظت وهي تتنهّد .

– تاتيانا إيفانوفنا ، هل ستذهب سيدتك إلى مكانٍ ما اليوم ؟ – سأل الحوذي . – هل أستطيع أن أستفيد من الوقت لأذهب إلى مكان غير بعيد ؟

– لا أعرف إلى أين سيأخذها . – أجابت تاتيانا – إنها تجلس مع عشيقها ، يتصبّبان على بعضهما .

– أراه يتردد إليكم غالباً ، – قال البواب ، – فهو يزعجني في الليالي . ياله من خبيث ! الآخرون يخرجون ويرجعون في وقت مبكر نسبياً ، أما هو فيعود دائماً بعد الجميع بوقت طويل ، ثمّ يسبّ ويشتم رغم ذلك كله ، لأن البوابة مقفلة . . . كأنّ من واجبي أن أحرس البوّابة من أجله فقط ! .

– تباً له من مغفل ! – قالت تاتيانا – ياله من نموذج غريب من البشر ! ما هو الشيء الذي لا يهديها إياه ؟ إنها تتبرج وتتبختر كالطاووس تماماً ، وتمشي مزهوّة بنفسها . تنانيرها وجواربها تبعث على الخزي !

يمضي أسبوعان دون أن تغسل رقبتها ، أما وجهها فتطليه بالمساحيق . . .
لا بدّ أن يقول كل من يشاهدها لنفسه : « تبّاً لها من تافهة ! خير لها أن تضع منديلاً على رأسها ، وتذهب لتطلب الغفّارة . . . »

ضحك الجميع باستثناء زاخار .

— أجل ، فتاتيانا إيفانوفنا لا تخطىء الهدف ! كانت الأصوات تتحدث باستحسان .

— حقاً ! — تابعت تاتيانا — كيف يخرج السادة مع مثل هذا النوع من النساء ؟ . . .

— إلى أين ذاهبة أنت ؟ — سألها أحدٌ ما — ما هذه الصرّة ، التي معك ؟

— أحمل فستاناً إلى الخياطة ؛ أرسلته غندورتي : إنه واسع ! فجسدها لا يلائمه شيء ! حان وقت ذهابي . وداعاً ، إلى لقاء قريب .

— وداعاً ، وداعاً ! ... قال البعض .

— وداعاً يا تاتيانا إيفانوفنا — قال الحوذي — مرّي مساءً .

— لا أعرف قد أمرّ ، والآن . . . وداعاً !

— وداعاً ! — قال الجميع .

— وداعاً . . . أراكم بخير ! — قالت تاتيانا وهي تنصرف .

— وداعاً يا تاتيانا إيفانوفنا ! — صرخ حوذي آخر أيضاً .

بدا زاخار وكأنه كان ينتظر دوره بالحديث بعد أن انصرفت .

فقد جلس على عمود صغير من الحديد الزهري بالقرب من البوّابة ، وبدأ يحرك ساقيه ، وهو يتطلّع بأسى وشرود إلى المارة وعابري السبيل .

-- كيف حال سيدك اليوم يا زاخار تروفيميتش ؟-- سأل البوّاب .

-- كما هو دائماً : حانق ، -- قال زاخار ، -- كلّ هذا بسببك أنت ، كم سببّت لي من المصائب بموضوع الانتقال من الشقة ! لقد جنّ جنونه : فهو لا يريد أن يغادر الشقة مطلقاً!

-- ما ذنبي أنا ؟ -- سأل البوّاب -- لو عاد الأمر لي ، لتمنيت أن يعيش سيّدك هنا أبد الدهر ؛ لكنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً ، فهل أنا صاحب المُلْك ؟ إنهم يأمرونني وأنا أنفّذ . . . ليتني كنت مالكاً لكنني لست كذلك . . .

هل يشتملك سيّدك ؟-- سأل أحد السائقين .

-- كثيراً ، فليمنحني الله الصبر !

-- وماذا في الأمر ؟ إنه سيّد طيّب ، إذا كان يكتفي بالشتيمة فقط ! -- قال أحد الخدم ، وهو يفتح علبة نشوقه المستديرة . ثم امتدّت أيدي المجموعة كلها من أجل التبغ ، باستثناء يد زاخار . ابتدأ التنشقّ والعطس والبصاق الشامل .

-- إذا كان من النوع الذي يشتم ، فهذا أفضل -- تابع ذاك الخادم حديثه -- كلما وبّخ أكثر ، كلما كان أفضل : على الأقل . فهو لا يضرب إذا شتم . لقد عشت حياة بائسة عند أحد السادة : كان يمسك بالشعر فوراً ، دون أن يعرف المرء السبب .

كان زاخار ينتظر باستخفاف نهاية حديث ذلك الخادم . بعدها توجّه إلى الحوذي وتابع :

— إنه يصم الإنسان بالعار ، دونما سبب أو ذنب — قال زاخار — فهو يفعل ذلك بمنتهى السهولة !

— يبدو أنه فظّ ، أليس كذلك ؟

— اي ! — قال زاخار بصوت أجش ، وهو يغمض عينيه . — مصيبة كم هو فظّ ! المسألة ليست في هذا فقط ، لا . يتهمني بأنني لا أعرف المشي ، وبأنني أكسر كل ما تقع عليه يداي ، وأترك كل شيء بدون تنظيف .

يقول بأنني أسرق وألتهم كل شيء . . . تفو ! . . أما اليوم فقد انهال علي بالشتائم ، مستخدماً كل الألفاظ المعيبة . من أجل أي شيء ؟ من أجل قطعة صغيرة من الجبنة ، كانت قد بقيت من الأسبوع الفائت . يخجل المرء أن يرميها ، حتى إلى كلب ، — فما من إنسان قط ، يمكن أن يفكّر بأكلها ! سأل عنها فأجبته بأنْ لا وجود لها ، وعندئذ . . .

عندئذ وقعت الطامّة الكبرى ، وراح يقول : « شنقك حلال ، سلقك بالقطران الغالي حلال ، يجب نتف لحمك بملقط شديد السخونة ؛ يجب غرزك بخازوق من شجر الحور ! » .

استمر يضايقني ، ويضايقني . . . ما رأيكم يا اخوتي ؟ منذ مدة غير بعيدة ، حرقتُ له رجله بالماء الغالي — دون أن أعرف كيف حدث

ذلك — ، وأخذ يصرخ ؛ يا إلهي كيف كان يصرخ ! لم أبتعد عنه ، علّه يدفعني بقبضة يده ، لكنه لم يفعل . . . بل راح يشتم ويشتم!

أخذ الحوذي يهز رأسه ، بينما قال البواب : « يا له من سيد ذليق اللسان ! » .

— لا بد أنه سيد نبيل رائع ما دام يشتم فقط ! — أصرّ ذاك الخادم على كلامه — هناك نموذج آخر من السادة أسوأ بكثير ، ترى الواحد منهم ينظر ، وينظر ، دون أن يشتم مطلقاً ، ثمّ يمسك بالشعر فجأة ، دون أن يعرف المرء سبب ذلك !

— لم يكن عبثاً ألاّ تلتئم ساقه حتى الآن : فما زال يدهنها بالمرهم ؛ إنه يستحق ذلك ! — قال زاخار دون أن يعير من جديد ، الخادم الذي قاطعه أيّ اهتمام .

— ياله من سيد نموذجي ! — قال البوّاب .

— إنه يشتمني لمجرد تخيّلات يختلقها — تابع زاخار — فيعيّرني بالأقرع . . . ليست لديّ رغبة بمتابعة الحديث . فها هو اليوم قد ابتكر شيئاً جديداً يعيّرني به : « سام » . نطق أخيراً !

— ما الغرابة في ذلك ؟ — تابع ذاك الخادم حديثه . — إنه طيب حقاً . ما دام يكتفي بالشتيمة فقط ، الحمد لله على ذلك ، ليمنح الله أمثاله الصحة والعافية . . . هناك نموذج آخر من السادة النبلاء أسوأ بكثير ، ترى الواحد منهم صامتاً طوال الوقت ، ينظر وينظر ، ثم

من جانبه فيقبض عليك فجأة . هذا ما كان يفعله ذاك السيد ، الذي كنت أعيش في كنفه . الشتيمة يمكن تحمّلها . . .

— إنك تستحق ذلك — قال له زاخار بغيظ ، مشيراً إلى مقاطعاته الكلاميّة ، التي لا تغتفر ، — لو كنت مكانه لعاملتك بشكل أكثر قسوة .

— زاخار تروفيميتش ، كيف يعيّرك «بالأقرع » ؟ هل أنت شيطان حتى يعيّرك بذلك ؟ — سأل فتى قوزاقيّ في الخامسة عشرة من عمره .

أدار زاخار رأسه ببطء نحوه ، وسلط عليه نظرة غاضبة عابسة .

— انظرْ ! — قال زاخار بحدّة . — حذارِ يا فتى ! أقصر لسانك وإلاّ ! اذهب من حيث أتيت ! .

ابتعد الفتى القوزاقيّ عنه مسافة خطوتين ثم توقف ، وهو يتطلع إلى زاخار مبتسماً .

— لماذا تكشر عن أسنانك ؟ — ، زجر زاخار غاضباً — طيّب ، إذا وقعت بيدي ، فسأجعلك تكشّر جدّياً !

في هذه الآونة ، خرج راكضاً من البوابة ، خادم ضخم الجثة ، ينتعل حذاءً ويرتدي بدلة خاصة بالخدم ، ذات شرائط مبرومة منتهية برؤوس حديدية مدببة ، حلّتْ أزرارها . اقترب من القوزاقيّ ، فصفعه أولاً ، ثم نعته بعد ذلك بأنه مغفل .

— ماتفيي موسييتش ، لماذا هذا كله ؟ — قال القوزاقيّ المرتبك

الحائر ، وهو يضع إحدى يديه على وجنته ، وعيناه ترفّان بشكل تشنّجي .

ـــ هه ! هكذا إذن ، فأنت تثرثر هنا ! ـــ أجاب الخادم . ـــ لقد قلبت البيت كله رأساً على عقب بحثاً عنك ، وأنت هنا !

أمسكه بشعره . ثم أخفض رأسه وضربه بقبضة يده على وجنته ببطء ، ثلاث ضربات منتظمة ذات إيقاع .

ـــ لقد ناداك سيّدي خمس مرّات ـــ أضاف الخادم بهيئة الواعظ ـــ فوّبخوني بسببك أيها الجرو الحقير ! هيا !

ثمّ أشار له بيده إلى السلم بطريقة آمرة . وقف الصبي دقيقة في حيرة من أمره ، فطرفت عيناه مرتين ، نظر بعدها إلى الخادم ، ثمّ نفض شعره ومضى إلى السلم ، بعد أن تيقّن ، بأن الخادم لن يضيف شيئاً آخر إلى ما قاله .

كان ذلك عيداً بالنسبة لزاخار !

ـــ أحسنت ، أحسنت يا متفيي موسييتش ! اضرب ، اضرب ! ـــ كان زاخار يقول بحنق وقد سرّه المشهد . ـــ شكراً لك يا متفيي موسييتش ! كان ذلك رائعاً . . . هه ، « شيطان أقرع » آه ! هل ستسخر مني بعد الآن ؟ .

ضحك الخدم في آن واحد ، مبدين تعاطفهم مع الخادم الذي ضرب القوزاقيّ ، ومع زاخار ، الذي سُرّ كثيراً لما جرى . لكن القوزاقيّ لم يتعاطف معه أحد .

لم يكن المرء يستطيع أن يأخذ أو يعطي مع سيدي السابق — بدأ من جديد ، ذاك الخادم الذي كان يقاطع زاخار دائماً . فإذا ما فكر المرء بأن يُروِّح عن نفسه ويتسلى ، تراه يحزر فجأة ما كنت تفكر به ، فيمسك ، ويتصرف تماماً ، كما تصرف ماتفيي موسييتش مع أندريوشكا.

الشتيمة وحدها لا تهم ! ما أهمية أن ينعت المرء « بشيطان أقرع » ، هه ، شخصية عظيمة !

— ربما أمسكك سيده بشعرك أيضاً لو كنت عنده — أجابه الحوذي وهو يشير إلى زاخار : — فشعرك كثيف وسميك كاللبّاد ! لكن ، ما هو الشيء الذي يستطيع أن يمسك به على رأس زاخار تروفيميتش ، فرأسه أجرد . كالقرْع تماماً . . . ربما يستطيع أن يمسك زاخار بلحيتيه الموجودتين على عظام وجنتيه : إذ يوجد هناك ما يمسك به حقاً ! . . ضحك الجميع ، بينما صعق زاخار من سخرية الحوذي ، الذي كان يجري معه حديثاً ودّياً حتى هذه اللحظة .

— سترى عندما سأقول لسيّدي ، كيف يجد ما يمسكك به ، أنت أيضاً — بدأ زاخار يصرخ في وجه الحوذي بصوت مبحوح — : سيكوي لك لحيتك ، ألا ترى كيف هي مجدولة كالحبال !

— متى كان سيّدك حاذقاً بما يكفي ، كي يكوي لحى سائقين غرباء ! لا ، اكووا مسام لحاكم ، لأن ما تقوله ، كثير عليكم !

هل نقبل حوذياً مثلك ، أيها اللّص ؟ — قال زاخار بصوت مبحوح — فأنت بالذات ، لا تستحق أن يكدنك سيّدي !

ـــ سيّدك ، هه ! ــ علّق الحوذي بسخرية ــ أين عثرت عليه ؟

ضحك الجميع ، البواب والحلاّق والخادم ، والمدافع عن نظام الشمّ ، بالإضافة إليه نفسه .

ـــ اضحكوا . اضحكوا ، سأخبر سيّدي ! ـــ قال زاخار مزمجراً . ــ أما أنت ــ أضاف زاخار موجّهاً حديثه إلى البوّاب ــ فعليك أن توقف هؤلاء اللصوص ، لا أن تضحك معهم . لماذا أنت موجود هنا ؟ كي تحافظ على النظام . والآن ماذا تفعل ؟ سأقول لسيّدي ؛ انتظر ، ستنال حسابك !

ـــ كفى ، كفى يا زاخار تروفيميتش ! ــ قال البوّاب مهدّئاً ــ ماذا فعل لك ؟

ـــ كيف يتجرأ على التحدّث بهذه الطريقة عن سيّدي ؟ ــ قال زاخار معترضاً بحماس وهو يشير إلى الحوذي ــ أيعرف من هو سيّدي؟ــ سأل متفاخراً ــ إنك لن ترى في الحلم مثل سيّدي : بطيبه وذكائه وجماله ! ، قال زاخار مخاطباً الحوذي ـــ . أما سيّدك فيبدو كالفرس الهزيل المنهوك تماماً ! يعاف المرء أن ينظر إليكم وأنتم تخرجون من فناء البيت : فأنتم أشبه بالمتسولين ! تأكلون الفجل البرّي مع الكفاس . يا له من عار ! انظر إلى هذه الخروق التي ترتديها : الثقوب لا تحصى فيها !

تجدر الإشارة إلى أن الثياب التي يرتديها الحوذي ، كانت خالية من الثقوب تماماً .

— أجل ، لا يستطيع المرء أن يجد شيئاً كهذا — قال الحوذي مقاطعاً ، ثمّ نتش مزقة القميص المتدلية تحت إبط زاخار ، إلى الخارج .

— كفى ، كفى ! — قال البوّاب بإصرار ، مباعداً بيديه بينهما .

— تُمزِّقُ ثوبي ! —صرخ زاخار ، وهو يسحب قميصه إلى الخارج أكثر — . انتظر ، سأريه لسيّدي ! أنظروا ماذا فعل : لقد مزّق قميصي ! . . .

أنا ! — قال الحوذي ، وقد أصبح خائفاً بعض الشيء — واضح أن سيدك كان يعاقبك ويهزّك . . .

— سيّدي يعاقبني ! — قال زاخار — إنه إنسان رائع ، يملك روحاً طاهرة ، إنه كالذهب ، فليهبه الله الصحة والعافية ! إنني أعيش عنده ، كما لو أنني في الملكوت السماوي : لا أعرف الحاجة ، أعيش بنعيم وهدوء ، آكل من مائدته ، وأخرج حيثما أريد ، لم ينعتني قط بمغفل — أرأيت ! . .. وفي القرية يوجد منزل خاص بي ، وحاكورة خاصة ، الفلاّحون كلهم رهن إشارتي ! فأنا المشرف والكلّ بالكلّ ! أما أنت وسيّدك . . .

لكن صوته لم يسعفه ، بسبب غيظه الشديد ، كي يسحق خصمه نهائياً .

فتوقف لحظة ، يستجمع قواه ، ويبتكر كلمة لاذعة ، لكنه لم يبتكر شيئاً بسبب شدة نزقه .

— تُمزِّق قميصي ! انتظر ، سأريك !. . . قال زاخار مختتماً حديثه .

أثير زاخار بشدّة ، عندما وصل الأمر إلى تناول سيّده من قبل الآخرين . فقد أحيوا فيه عزة النفس وحبّ الرفعة والكرامة : واستيقظ الوفاء وتجلّى بقوة . كان مستعداً لأن يسقي السمّ ، لا لخصمه فحسب ، بل ولسيدّ خصمه ولأقارب سيدّ خصمه ، الذين لم يعرفهم أبداً . فقد كرّر هنا ، بدقة مدهشة : كل الوشايات والكلمات النابية عن السادة ، المستمدّة من أحاديثه السابقة مع الحوذي .

— أنتم معشر اليهود : من أمثال سيدّك الصعلوك اللعين وأمثالك ، أسوأ من الألمان ! — قال زاخار بغضب — إنني أعرف من هو جدّكم : إنه ناظر قرية من العامّة . رأيت البارحة ضيوفاً يخرجون من عندكم ، فاعتقدت أنهم لصوص تسلّلوا إلى البيت : كان منظرهم يبعث على الرثاء ! وأُمُّكُمْ كانت تبيع ألبسة مسروقة بالية في السوق — .

— كفى ، كفى ! . . . قال البوّاب مهدّئاً .

— أجل ! سيّدي ولله الحمد من خيار الناس ! أصدقاؤه جنرالات وكونتات وأمراء . حتى أنه لا يُدْخِل فوراً أي كونت إلى مجلسه : فالبعض يأتي ويقف في غرفة الإنتظار . . . أما المؤلفون فيترددون عليه باستمرار . . .

— من هم المؤلفون ؟ — سأل البوّاب ، وهو يريد أن ينهي الخلاف — أليسوا موظفين ؟

— كلا ، إنهم سادة يبتكرون بأنفسهم كل ما يحتاجون — قال زاخار موضحاً .

— ماذا يعملون عندكم ؟ — سأل البواب .

— ماذا ؟ أحدهم يطلب غليوناً ، وآخر نبيذاً إسبانياً معتّقاً . . . — أجاب زاخار ، ثم توقف بعد أن لاحظ أن الجميع تقريباً يبتسمون بسخرية .

— أيها الأنذال ، ما لكم تتغامزون ؟ — قال زاخار مسرعاً في الكلام ، وهو ينظر إليهم شزراً . — تُمزّق قميصي ! سأخبر سيّدي ! — قال مضيفاً ، ثم انصرف إلى البيت مسرعاً .

— زاخار تروفيميتش ، مهلاً ، مهلاً ! — صاح البوّاب — هيّا إلى الحانة لنتناول شيئاً .

توقف زاخار في الطريق ، واستدار بسرعة ، ثم اندفع إلى الشارع بسرعة أكبر دون أن ينظر إلى الخدم . وصل إلى باب الخمارة ، الكائنة في الجهة المقابلة ؛ هنا استدار نحوهم ، فرمى الجميع بنظرة عابسة ، ثم أشار بيده بشكل أكثر عبوساً كي يتبعوه ، واختفى في الداخل .

تفرق الآخرون أيضاً : منهم ن ذهب إلى الخمّارة ، ومنهم من ذهب إلى البيت ؛ بينما بقي خادم واحد فقط .

ما هو وجه الخطورة فيما لو أخبر سيّده ؟ كان الخادم المدافع عن نظام الشتيمة يسائل نفسه ببرود ، وهو يفتح ببطء علبة النشوق . — يبدو من كلّ الدلائل ، أن سيّده طيّب ، إنه يكتفي بالشتيمة فقط ! الشتيمة أمر بسيط يمكن احتماله ! بينما ترى سيّداً آخر ، ينظر ، وينظر ، ثم يمسك بالشعر . . .

— ١١ —

بُعيد الساعة الرابعة فتح زاخار باب الشقة بحذر شديد وبدون ضجّة ، ثم أخذ يسير على رؤوس أصابعه حتى وصل غرفته ؛ بعدها اقترب من باب حجرة سيّده ، فوضع أذنه على الباب أولاً ، ثم قرفص ووضع إحدى عينيه على ثقب القفل .

كان الشخير يعمّ أرجاء الغرفة

— إنه نائم — أسَرَّ زاخار لنفسه — يجب أن أوقظه : قريباً ستدق الساعة الرابعة والنصف .

سعل ثم دخل الحجرة .

— إيليا إيلييتش ! إيليا إيلييتش ! — بدأ زاخار بصوت خافت وهو يقف عند طرف السرير من جهة الرأس .

استمرّ بالشخير .

— نائم ! كالقتيل تماماً . — قال زاخار . — إيليا إيلييتش !

لمس زاخار يد سيّده برفق .

– انهض : إنها الرابعة والنصف .

تمتم إيليا إيليتش رداً على ندائه ، لكنه لم يستيقظ .

– إيليا إيلييتش ، انهض ! إنه لأمر معيب ! – قال زاخار بصوت مرتفع .

لم يلق جواباً .

– إيليا إيلييتش ! – قال زاخار بإصرار ، وهو يشدّ سيّده بكمّه .

حرّك أبلوموف رأسه قليلاً ، ثم فتح بصعوبة إحدى عينيه ، فبدا الخدر جليّاً فيها .

– من هذا ؟ – سأل بصوت مبحوح .

– أنا . انهض .

– اذهب ! – تمتم إيليا إيلييتش ، واستغرق من جديد في سبات عميق . أصبح الصفير ينطلق من أنفه ، بدلاً من الشخير . شدّه زاخار من طرف ردائه .

– ماذا تريد ؟ – سأل أبلوموف متوعداً ، ثم فتح عينيه فجأة .

– لقد أمرتني أن أوقظك .

– أعرف ذلك . لقد نفذّت واجبك ، انصرف ! الباقي يتعلق بي . . .

– لن أذهب ، – قال زاخار وهو يشدّ من جديد كمّ سيّده .

– لا تلمسني ! – قال إيليا إيلييتش باقتضاب ، ثم دفن رأسه في الوسادة وبدأ الشخير فوراً .

— إيليا إيلييتش ! هذا لا يجوز على الإطلاق !

ثمّ لمس سيّده .

— اعمل معروفاً . لا تزعجني ! — قال أبلوموف بإلحاح ، وهو يفتح عينيه .

— أجل ، تقول اعمل معروفاً ، لكنك ستغضب فيما بعد ، لأنني لم أوقظك .

— آه منك ! يا إلهي ! ما هذا الإنسان ! — قال أبلوموف — دعني أنام دقيقة واحده ؛ ما بك ، دقيقة واحدة فقط ؟

صمت إيليا إيلييتش فجأة ، ثمّ غلبه النعاس فوراً .

— آه ، كم تحبّ النوم ! قال زاخار وكلّه ثقة بأن سيّده لا يسمعه . إنه ينام بلا إحساس ، كزند شجرة الحور ! لماذا خلقك الله على وجه البسيطة ؟

— انهض ! . . . . قال زاخار مزمجراً .

— ماذا ؟ ماذا ؟ — قال أبلوموف بشيء من الرعب وهو يرفع رأسه.

— لماذا لا تنهض يا سيّدي ؟ — قال زاخار بلطف .

— ماذا قلت ، آه ؟ — كيف تجرؤ أن تقول هكذا ؟

— ماذا يا سيدي ؟

— تتكلّم بفظاظة ؟

— هكذا تراءى لك في الحلم . . . والله في الحلم .

— أتعتقد أنني نائم ؟ لست نائماً ، فأنا أسمع كلّ شيء . . .

— آه منك أيّها النائم أبداً ! قال زاخار في قنوط — لماذا أنت متمدّد ككتلة من خشب ؟ إنّ النظر إليك يبعث على الغثيان . أيها الناس الطيبّون ، انظروا ! . . . تفو !

— انهض ، انهض ! — قال زاخار فجأة بصوت مذعور . — إيليا إيلييتش ، انظر لما يجري من حولك . . .

رفع أبلوموف رأسه بسرعة وتطلّع حوله ، ثمّ تمدّد من جديد وهو يتنهّد بعمق .

— دعني أستريح ! — قال أبلوموف برزانة .. لقد أمرتك بأن توقظني ، أما الآن فإنني ألغي هذا الأمر ، — أتسمع ؟ سأستيقظ بنفسي عندما يخطر لي .

أحياناً ، كان زاخار يتوقّف قائلاً : « نم ، لتذهب إلى الجحيم ! » بينما تراه مرّة أخرى يصّر على إيقاظه ، وقد أصرّ هذه المرّة .

— انهض ، انهض ! — صرخ زاخار بملء صوته ممسكاً أبلوموف بكلتا يديه بطرف ردائه وأكمامه . قفز أبلوموف فجأة على ساقيه ، بشكل غير متوقّع ، وانقضّ على زاخار .

— انتظر ، سأعلمّك كيف تزعج سيدّك عندما يريد أن ينام ! — قال أبلوموف .

وولّى زاخار هارباً ، لكن أبلوموف صحا من حلمه تماماً في الخطوة الثالثة ، وبدأ يتمطّى ويتثاءب .

– اعطني . . . كفاس . . . – قال أبلوموف متثائباً .

في هذه الآونة انفجر ضاحكاً أحد ما لاح من وراء ظهر زاخار . التفت الإثنان إلى بعضهما .

– شتولتس ! شتولتس ! – صرخ أبلوموف من شدة الفرح ، ملقياً بنفسه على الضيف .

– أندريي إيفانيتش ! – قال زاخار مكشّراً .

استمرّ شتولتس يضحك بشدة : لقد رأى المشهد ، الذي جرى كلّه.

* *

الجزء الثاني

— ١ —

كان شتولتس ألمانياً من جهة أبيه فقط : أمه كانت روسية ، يعتنق المذهب الأرثوذوكسي . لغته الفطريّة كانت روسية : فقد تعلمتّها من أمّه ومن الكتب وفي الجامعة ، وأثناء لعبه مع أولاد القرية وخلال حديثه مع آبائهم ، وفي أسواق موسكو . بينما ورث اللغة الألمانية عن أبيه وتعلمتّها من الكتب .

نشأ شتولتس وترعرع في قرية فيرخليوفا ، حيث كان والده مديراً للمدرسة . منذ الثامنة من عمره ، كان يجلس مع أبيه أمام الخارطة الجغرافية ويحللّ موضوعات هردر وفيلاند : والكتاب المقدّس ، ويحصي نسبة الأمية في صفوف الفلاّحين والبورجوازيين الصغار وأصحاب المعامل ، بينما كان يقرأ مع أمه تاريخ الأديان ويدرس معها قصص وحكايات كريلوف الرمزية ويحلّل موضوعات تيليماك .

كان يركض مع الأولاد ليشارك في تخريب أعشاش الطيور ، بمجرّد أن يتحرّر من متابعة أبيه وأمه ، وفي أحيان كثيرة ، كانت تنطلق من جيبه صأصأة فراخ الغربان في الصف وأثناء الصلاة .

كان الأب يجلس تحت شجرة في الحديقة ، في فترة ما بعد الغداء . وهو يدخّن غليونه ، بينما كانت الأم تحيك بصنّارتها صدريّةً ما ، أو تخيط شيئاً ما ، وفجأة تتعالى الجلبة وتنطلق الأصوات مدويّة في الشارع . ويندفع إلى البيت حشد كامل من الناس .

ما الأمر ؟ — تسأل الأم المذعورة .

— إنهم يقتادون أندريي من جديد ، بكلّ تأكيد — كان الأب يقول ببرودة أعصاب . تنفتح الأبواب ويقتحم الحديقة حشد من الفلاحين والنسوة والأولاد . كانوا يقتادون أندريي حقّاً — لكن في أية هيئة : بدون حذاء ، وبثياب ممزقّة وأنف مهشّم .

كانت الأم تبدو هلعة قلقة عندما يختفي أندريوشا من البيت نصف يوم . ولو لا تحذير والده بعدم منعه من الخروج ، لحبسته بالقرب منها .

كانت تغسله وتغيّر ملابسه الداخليه وثيابه ، فيصبح أندريوشا ولداً نظيفاً مهذّباً نصف يوم بكامله ، بينما يقتاده أحد ما عند المساء ، وأحياناً في الصباح وقد صار وسخاً أشعث ، يصعب التعرف عليه . أو يضعه الفلاحون في العربة مع الحشائش والأعشاب ويجيئون به إلى البيت ، أو يعود مع صيّادي الأسماك على القارب وقد نام على الشباك.

كانت الأم تستقبله بالدموع ، بينما يبقى الأب غير مبال ، لدرجة أنه كان يضحك أيضاً .

— سيصبح طالباً جيداً ، أجل سيصبح طالباً جيداً ! — كان الأب يقول أحياناً .

— عفوك يا إيفان بفدانيتش ، — كانت الأم تقول شاكية ، — لا يمرّ يوم إلاّ ويعود فيه إلينا ببقعة زرقاء على جسده ، لقد تهشّم أنفه منذ مدّة قريبة ، حتى سال الدم .

— ما نفع الولد الذي لا يهشّم أنفه ، أو أنف صبيّ آخر ؟ — كان الأب يقول ضاحكاً .

تروح الأم تبكي وتبكي ، ثم تجلس بعدها وراء البيانو ، كي تروّح عن نفسها : فتسيل الدموع وتسقط على مفاتيح البيانو .

يأتي أندريوشا ، أو يؤتى به ، ويبدأ الحديث بحيوية ونشاط وسرعة ، وبأسلوب يرغم والدته على الضحك ؛ كان فَطِناً جداً ! سرعان ما أصبح يقرأ تيليماك كما تقرأه أمه .

ذات مرّة ، اختفى مدّة أسبوع : بكت الأمّ كثيراً ، أما والده فلم يفعل شيئاً من هذا القبيل ، بل كان يتمشى في الحديقة ويدخّن .

— لو ضاع أبلوموف الابن — قال شتولتس الأب ، رداً على اقتراح زوجته ، التي كانت تلحّ عليه بضرورة البحث عن أندريوشا — لجعلْتُ القرية كلها وشرطة المنطقة تجدّ بحثاً عنه ، لكن أندريي سيأتي ؛ إنه طالب جيّد يُعتَمد عليه !

في اليوم التالي ، وجدوا أندريي نائماً في سريره بطمأنينة ؛ بينما عثروا تحت السرير على بندقية ورطل من البارود والخردق .

— أين كنت ؟ من أين أخذت البندقية ؟ — أغرقته أمه بأسئلتها . — مالك صامت ؟

ــ ها قد عدت ! ــ أجاب أندريوشا .

سأله والده . فيما إذا كانت الترجمة من كورنيل نيبوت إلى اللغة الألمانية جاهزة .

ــ كلا ، ــ أجاب أندريي .

أمسكه أبوه من ياقة قميصه وقاده إلى خارج البوّابة . ثم وضع على رأسه سيدارة وركله من الخلف ، فسقط على الأرض .

ــ اذهب ــ قال الأب ــ ، عد مع ترجمة مقطعين بدلاً من مقطع واحد ، واستظهر لأملك الدور ، الذي حدّدته لك من الكوميديا الفرنسية : بدون ذلك ، لا تعد !

عاد أندريي بعد أسبوع وقد جلب الترجمة و تفظ الدور .

كان أبوه يضعه إلى جانبه في عربة ذات نوابض فيسلّمه الأعنّة ، ويعهد إليه بقيادة العربة . فيأمره بالتوجّه إلى المعمل والحقول ، ثم إلى المدينة من أجل قضاء عمل ما عند التجار ــ أو في الدوائر الرسمية ، بعدها يذهبان ليتفحصا تربةً ما طينية ، فيأخذ الأب عينةً منها بإصبعه ، فيشمّها ويلحسها أحياناً ، ثم يعطيها لابنه كي يشمّها أيضاً ؛ بعدها يشرح له نوعيتّها . موضحاً لأي شيء تصلح . أحياناً ، كانا يذهبان إلى أماكن استخراج البوتاس والقطران ليشاهدا مراحل العملية كلها .

وفي سنّ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ، كان الفتى ينطلق غالباً ، بمفرده في العربة . أو على ظهر الحصان . إلى المدينة . لأداء

بعض المهام ، التي كلّفه بها والده ولم يحدث قط أن أخطأ الهدف ، أو نسي شيئاً مما أوصاه به والده .

— رائع يا ولدي العزيز ! — كان الأب يقول بعد أن يسمع تقرير ولده عمّا أنجزه ، ثم يعطيه ، وهو يربّت على كتفه براحة كفّه العريضة ، روبلين أو ثلاثة روبلات ، تبعاً لأهميّة المهمّة ، التي نفذها .

بعدها تزيل الأم عن أندريوشا السنّاج والوسخ والطين والقطران عبر عملية غسل طويلة .

لم تكن الأم معجبة اطلاقاً بهذه التربية العملية المليئة بالعمل . كانت تخشى أن يصبح ابنها على غرار أبناء المدن من الحرفيين الألمان ، الذين ينتسب والده إليهم . كانت الأم تعتبر الأمة الألمانية كلها مكونّة من حشد من الحرفيين أصحاب براءات الاختراع ، فلم تكن تحبّ الفظاظة والإستقلاليّة والغطرسة ، التي يبديها الجمهور الألماني في كل مكان ، تعبيراً عن حقوقه المدنية المكتسبة منذ ألف عام . الأمر الذي يبدو لها تماماً كالبقرة ، التي تشرع قرنيها ، دون أن تعرف ، بالمناسبة ، اخفاءهما.

من وجهة نظرها ، لم يكن في الأمة الألمانية كلها ، ولا يمكن أن يكون جنتلمان واحد . فلم تر في الطبّع الألماني أيّ دماثة او لطف او تسامح ؛ بكلمات أخرى ، لم تر الصفات ، التي تجعل الحياة عذبة في هذا العالم الرّائع ، والتي بفضلها يمكن تفادي قانون ما ، وتخطي عادة شاملة ، وعدم الخضوع للنظام .

كلاّ ، فهؤلاء الأجلاف يتشبثّون ويصروّن على ما هو مقرر

عندهم ، ويتمسّكون بعقيدتهم بعناد . فهم على استعداد لأن يثقبوا الجدار بجباههم ، من أجل أن يتصرفوا وفق القوانين .

عاشت الأمّ في بيت مترف . وسنحت لها الفرصة أن تتواجد في الخارج ، وتجوب ألمانيا كلها . كانت تخلط الألمان جميعاً في حشد واحد ؛ كانت تضع بائعي الحوانيت ، الذين يدخنّون لفافات قصيرة ويبصقون عبر أسنانهم ، والصنّاع والتجّار . والضبّاط المنتصبين كالعصا ، والجنود والموظفّين مع الناس العاديين ، الذين يصلحون فقط ، للأعمال الجسّدية الشاقة ، وتحصيل النقود عن طريق العمل المضني والنظام السخيف والانتظام المملّ للحياة ، والأداء الدقيق للواجبات . كانت تخلط أبناء المدن هؤلاء في حشد واحد ، بأساليبهم الخرقاء ، وأياديهم الخشنة الكبيرة وحديثهم الفظّ .

« مهما ألبست الألماني لباساً فاخراً — كانت الأم تعتقد ـ ومهما كان القميص الذي يرتديه ناصع البياض ، رقيقاً ، ومهما كان حذاؤه لمّاعاً ، فستبقى يداه الخشنتان الضاربتان إلى الحمرة تتدلّيان من تحت أكمام قميصه الأبيض ، وستحسبه رغم بدلته الأنيقة خبّازاً أو صاحب بوفيه . فيداه الخشنتان لا تصلحان إلاّ للتعامل مع مخرز ، أو آلةٍ ما قاسية خشنة في جوقة موسيقية » .

بيد أن ملامح الفتى النبيل كانت تلوح في ابنها ، على الرّغم من أنه ينحدر من جهة أبيه ، من طبقة غير نبيلة ، لكنّه على كلّ حال ابن سيّدة روسية متحدّرة من طبقة النبلاء . فهو أبيض البشرة ، رائع

التكوين ، يداه صغيرتان وكذلك ساقاه ، وجهه نظيف ، نظرته صافية نشطة ، لا يرتوي المرء من النظر إليه ، شأنه في ذلك شأن جميع الأطفال في بيت روسي مترف ، أو في بيت أجنبي مترف ، ليس عند الألمان بالطبع .

وفجأة تراه أمه وقد أصبح يُدوِّر حجر الرحى في الطاحون بنفسه ، ويعود مثل أبيه من المعامل والحقول إلى البيت ، بيديه الحمراوين الوسختين الخشنتين ، وقد تلوّث بالقطران وروث الحيوانات ، زد على ذلك أنه كان يعود بشهيّة جيدّة . كشهيّة الذئاب !

اندفعت الأمّ تقلّم أظافر أندريوشا ، وتسرّح شعره ، وتخيط له ياقات وقمصاناً متقنة ؛ طلبت تفصيل سترة له في المدينة ، علّمته أن يصغي إلى ألحان هرتز الباعثة على التأمل ؛ كانت تغنّي له عن الأزهار وأشعار الحياة ، وتُسرّ له عن السمعة الرائعة للمحارب حيناً . وللكاتب حيناً آخر ؛ كانت تحلم له بدور عظيم على غرار تلك الأدوار التي تكون من نصيب أولئك . . .

بيد أن هذه الآمال كلّها ، كان لا بد أن تتحطم بسبب الحسابات ، وترتيب الأوراق الملطّخة بالزيت ، التي تتضمن تواقيع الفلاّحين ، وبسبب الذهاب الدّائم إلى المعامل !

كانت الأم تكره حتى العربة ، التي يسافر عليها أندريوشا إلى المدينة . كانت تكره مشمّعه الذي أهداه والده له ، وقفّازاته الخضراء

المصنوعة من جلد الشامو ا ـ باختصار ، كانت تكره الصفات والخصائص الفظّة القاسية لحياة العمل كلّها .

لسوء الحظّ كان أندريوشا متفوقاً في دراسته ، الأمر الذي حمل أبوه على أن يجعل منه معلّماً مساعداً في مدرسته الدّاخلية .

لكنه خصّص له مرتّباً على الطريقة الألمانية تماماً ، وحدّد له عشر روبلات شهرياً ، كان يجبره على التوقيع باستلامها .

علّمني النفس يا أمي الطيّبة : فلقد ترعرع ابنك على الأرض الروسية ـ لكن ليس وسط عامّة الناس ، بل بتأثير رجال الأعمال الألمان المشرعة قرونهم كقرون الثيران ، الذين تدير أياديهم رحى الطاحون . بالقرب كانت تترامى أبلوموفكا ، حيث هناك عيد أبدي دائم ! فالناس هناك يرمون العمل عن كاهلهم ، كما يُرمى النيّر ؛ فالسيّد النبيل هناك ، لا يستيقظ من الفجر ، ولا يجوب المعامل متنقلاً بالقرب من الدّواليب واللّوالب الملطّخة بالقطران والزّيت .

وفي فيرخليوفا ذاتها ، غالباً ما كان الصبيّ يتردّد إلى القصر ، الذي يبقى خاوياً مغلقاً طيلة القسم الأكبر من السنة ، فيرى فيه القاعات والأروقة الطويلة ، والصور القائمة على الجدران ، لكنّ الصور تلك لم تكن تتميّز بالفظاظة ، ولا بالأيدي الكبيرة الخشنة ، ـ بل كان يرى فيها أعيناً فاترة الهمّة ، وشعراً كساه الغبار ، ووجوهاً بيضاء ناعمة ، وصدوراً ممتلئة ، وأيدي ناعمة عليها عروق زرق ، تظهر من تحت

أكمام مهتزّة متماوجة ، وهي تمسك باعتزاز مقبض السيف ؛ يرى عدداً من الأجيال الرّافلة بالنعّم والديباج والمخمل والثياب المزركشة .

ففي وجوههم يستعرض تاريخ العهود المجيدة ، والمعارك والأسماء العظيمة ؛ يقرأ هناك قصص العهد الغابر ، ليس على غرار ما كان والده يرويه له للسّرة المائة ، وهو يبصق لفافات التبغ ، عن الحياة في سكسونيا ، التي تتراوح آفاقها بين السّلفت والبطاطا ، والسوق والحاكورة.

وفجأة ، كان هذا القصر يغصّ بالناس مرّة كلّ ثلاث سنوات ، فيضجّ بالحياة والأعياد وحفلات الرقص . وفي الأروقة الطويلة ، كانت الأنوار تتلألأ ليلاً .

كان يتوافد إليه الأمير والأميرة وأسرتهما : كان الأمير عجوزاً أشيب . ذا وجه كامد نحيل . عيناه ذابلتان جاحظتان ، جبهته كبيرة صلعاء ، على كتفيه نجوم ثلاث ، يحمل علبة نشوق ذهبيّة وعصا طويلة ذات قبضة من اليافوت ، ينتعل حذاء أملس ناعماً ؛ أما الأميرة فامرأة ذات جمال أخّاذ ، تبدو من قدّها وقوامها كأنّ أحداً قط ، حتى الأمير نفسه ، لم يقترب منها أبداً ، ولم يعانقها أو يقبّلها ، مع أنّه كان لديها خمسة أطفال .

كانت تبدو أكثر سموّاً ورفعة من ذاك العالم ، الذي كانت تتردّد إليه مرّة كلّ ثلاث سنوات ؛ فلم تكن تكلّم أحداً ، ولا تذهب إلى أي مكان ، بل كانت تجلس في غرفتها الخضراء مع ثلاث عجائز ،

وتذهب عبر الحديقة تحت رواق مسقوف ، سيراً على الأقدام إلى الكنيسة ، وتجلس على الكرسيّ وراء الستائر .

بالمقابل ، إذا استثنينا الأمير والأميرة ، فقد كان يعمّ البيت عالم كامل من البهجة والحيويّة ، حيث كان أندريوشا يشاهد فجأة ، بعينيه الطفوليتين ـ الخضراوين ثلاثة أو أربعة عوالم مختلفة ، وكان ذهنه الثاقب يراقب بلهفة وبدون وعي ، نماذج هذا الحشد المتنوّع ، الذي كان يبدو له بمثابة ظواهر مبرقشة لحفلة تنكّريّة .

هنا ، كان يتواجد الأميران بطرس وميشيل ، حيث بدأ الأولّ منهما فوراً ، يعلّم أندريوشا كيفية إعطاء إشارة الإجتماع ليلاً في سلاح الفرسان والمشاة ، ويشرح له نوعية سيوف ومهامز الخيّالة في أفواج سلاح الفرسان ، وألوان الخيول في كلّ فوج ، ويرشده إلى الجهة ، التي يجب أن يلتحق بها حتماً ، بعد الدراسة ، والتي تمنحه العزّة والفخار .

ما ان تعرّف الآخر ، ميشيل على أندريوشا ، حتى بدأ يفعل ملاعيب مدهشة بقبضتي يديه ، فيصيب أندريوشا تارة في أنفه ، وأخرى في بطنه ، ثمّ قال بأن ما يفعله هو ملاكمة انكليزية .

بعد ثلاثة أيّام ، تمكن أندريوشا ، بالاستناد فقط ، إلى نضارته المكتسبة من القرية ، وبمساعدة يديه المفتولتين ، أن يصيب أنف الأمير بالطريقة الانكليزية والروسية ، دون أن يكون قد تدرّب سابقاً ، فاكتسب حظوةً لدى الأميرين .

كان هناك أيضاً أميرتان ، تبلغان من العمر احدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة ، طويلتان ، هيفاوان ، أنيقتان ، لا تتبادلان الكلام والتحيّة مع أحد ، تخشيان الرجال .

كانت مربيتهما الآنسة أرنستين تتردّد إلى والدة أندريوشا لتتناول القهوة عندها . لقد علّمتها كيف تجعّد شعر أندريوشا . كانت تأخذ رأسه أحياناً بيديها فتضعه على ركبتيها ، وتجعّد شعره ، ثم تمسك بعدها وجنتيه بيديها البيضاوين وتقبّلهما بلطف لا مثيل له .

كان هناك أيضاً الألماني ، الذي يصنع علب النشوق والأزرار ، ومعلّم الموسيقى الذي يشرب الخمر من الأحد إلى الأحد ، ومجموعة كاملة من الخادمات ، وكان هناك أيضاً قطيع من الكلاب والكلبات .

كان ذلك كلّه يملأ البيت والقرية بالضجّة والجلبة ، وبالأصوات والموسيقى .

كانت أبلوموفكا من جهة ، وقصر الأمير الذي يضجّ بالحياة الأرستقراطية الرحبة من جهة أخرى ، يمتزجان مع العنصر الألماني ، فلم يصبح أندريي طالباً ألمانياً ، ولا إنساناً محدوداً ضيّق الأفق والتفكير .

كان والد أندريوشا مهندساً زراعياً ومعلماً . تلقى من أبيه المزارع دروساً عمليّة تطبيقية في علم الزراعة ، وتعلمّ التكنيك في المصانع الساكسونيّة .

لم يذهب أبعد من ذلك ، بل قرّر بعناد أن يرجع إلى الوراء

فعاد إلى والده . أعطاه أبوه مائة قطعة فضيّة وحقيبة سفر جديدة ، ثم منحه الحرّية الكاملة بأن يذهب إلى أي مكان يشاء .

منذ ذلك الوقت لم ير إيفان بغدانوفيتش أباه ولا وطنه . فقد أمضى ست سنوات متنقلاً بين سويسرا والنمسا . وها هو يعيش في روسيا منذ عشرين سنة راضياً بمصيره .

كان في الجامعة ، وقرّر بأن ابنه ينبغي أن يكون هناك أيضاً — فليس مهمّاً أن تكون الجامعة ألمانية ، ولا حاجة لأن تحدث الجامعة الروسية انقلاباً في حياة الابن ، أو أن تذهب به بعيداً عن الخط الذي رسمه الأب ذهنياً في حياة الإبن .

فعل هذا بكلّ بساطة : فقد ورث طريق حياته عن جدّه وتابعه دون أن يحيد عنه ، ثم رسمه وحدّده لأبنائه ، وحتى لأحفاده ، دون أن يفترض أن أحلام وحكايات الأم ومخدع القصر الأميري يمكن أن تحوّل خط حياته الألماني الضيّق إلى طريق فسيح لم يحلم بها جدّه ، أو أبوه ، ولا حتى هو بالذات .

لم يكن بالمناسبة متشبثاً بأمر كهذا ، ولم يكن ليصرّ على رأيه ؛ كلّ ما في الأمر هو أنه لم يكن يعرف أن يرسم في ذهنه طريقاً آخر لابنه .

قلّما كان يهتم بذلك . فعندما عاد ابنه من الجامعة وأمضى ثلاثة أشهر في البيت ، قال له بأنْ لا فائدة ترجى من بقائه في فيرخليوفا ، إذ لا مجال للعمل فيها ، فحتى أبلوموف أرسل إلى بطرسبورغ ، وبالتالي فعليه أن يسافر هو أيضاً .

لكن الأب لم يسأل نفسه قط عن مبرّر سفر ابنه إلى بطرسبورغ ، ولماذا لايبقى في فيرخليوفا كي يساعده في إدارة أملاكه ؛ كلّ ما في الأمر هو أنه قد تذكر نفسه فقط عندما أرسله أبوه بعيداً عنه بمجرّد أنْ أنهى دراسته المقرّرة .

وها هو يرسل ابنه أيضاً بعيداً عنه — هكذا كانت العادة في ألمانيا . كانت الأم قد رحلت عن هذا العالم ، فلم يكن هنالك أحد يعارضه .

وفي يوم السفر ، أعطى إيفان بوغدانوفيتش ابنه ورقة من فئة المائة روبل .

ستمتطي صهوة الحصان حتى مركز الولاية — قال له الأب — . خذ من هناك ثلاثمائة وخمسين روبلاً من كالينكوف واترك الحصان عنده . وإذا لم تجده هناك ، فما عليك إلا أن تبيع الحصان . فالسوق الدورية ستحل قريباً ، وستقبض ثمنه أربعمائة روبلاً بكل سهولة . ستدفع أربعين روبلاً نفقات السفر حتى موسكو ، وخمسة وسبعين روبلاً منها إلى بطرسبورغ ؛ سيبقى معك ما يكفيك . تَصرَّفْ بعدها كما تشاء . لقد ساعدتني في أعمالي وخدمتني ، فتَوَفّرَ لديَّ مبلغ من المال ؛ لكن حذار أن تعتمد عليه قبل موتي . أما أنا فسأعيش على الأرجح عشرين سنة أخرى ، إلا إذا سقط فجأة حجر على رأسي . المصباح يتلألأ بسطوع ، والزيت فيه كثير ، فأنت متعلم جيداً : آفاق المستقبل كلها مفتوحة أمامك . يمكنك أن تصبح موظفاً أو تاجراً ، وحتى مؤلفاً — فأنا لا أعرف ما ستختار ، فذاك يتوقف على ميلك ورغبتك .

ـــ أجل ، سأفكر في الأمر ، إذ لا يجوز أن يقرر المرء فجأة ، ـــ قال أندريي .

ضحك الأب بشدة وبدأ يربت على كتف ابنه بطريقة قد لا يحتملها حتى الحصان ، بينما كان أندريي غير مبال .

ـــ وإذا لم تتوفر لديك الخبرة ، ولم تتمكن من اختيار وتحديد طريقك ـــ فعليك أن تعرّج على راينغولد : فهو سيعلمك . آه ! ـــ أضاف الأب وهو يرفع أصابعه إلى الأعلى ويهز رأسه ـــ إنّه . . . (كان يريد أن يمدحه ، لكنه لم يجد الكلمة) . أتينا معاً ـــ من ساكسونيا . لديه منزل من أربعة طوابق . سأعطيك عنوانه . . .

ـــ لا ، لا حاجة لذلك ، لا تعطني العنوان ، ـــ قال أندريي معترضاً ، ـــ سأذهب إليه بعد أن أكون قد امتلكت بيتاً من أربعة طوابق ، أما الآن فسأتدبّر أمري بدونه . . .

أخذ الأب يربّت على كتفه من جديد .

وثب أندريي وامتطى حصانه . كانت حقيبتان قد رُبطتا إلى السرج : وُضع في إحداها معطف مطري ، كما كان يرى فيها أيضاً حذاء سميك ، نعله مليء بالمسامير وبعض القمصان المصنوعة من قماش فيرخليوفا الكتاني ، وأشياء أخرى تمّ شراؤها ووضعها بإصرار من الأب ، بينما في الحقيبة الأخرى طقم أنيق من الجوخ الناعم ، ومعطف من الفراء ودزينة من القمصان الناعمة الرقيقة ، وحذاء فُصِّل في موسكو تكريماً لذكرى نصيحة أمه .

-- هيا ! -- قال الأب .

هيا ! -- قال الإبن .

-- جاهز ؟ -- سأل الأب .

-- جاهز ! -- أجاب الإبن .

نظر كل منهما إلى الآخر بصمت ، وكأنهما يقتحمان بعضهما بعضاً بنظراتهما .

في غضون ذلك ، تَجَمَّعَ بالقرب منهما حشد من الجيران الفضوليين وهم يتطلعون بأفواه فاغرة مترقّبين كيف سيودع مدير المدرسة ابنه المسافر إلى جهة نائية غريبة .

تصافح الأب والإبن ، ثم انطلق أندريي بخطى واسعة .

ياله من جرو : ولا قطرة دمع واحدة ! -- قال الجيران . -- انظروا ! غرابان يحطّان على السياج . انهما ينعقان له : على مهلك ! . .

-- ماذا ستفعل معه الغربان ! لقد كان يتسكع في الغابة وحيداً في الليالي بحثاً عن إيفان كوبالا : مثل هؤلاء لا تزعجهم هذه الأمور يا إخوتي . بيد أن أمراً كهذا لا يمكن أن يمر بدون عتاب بالنسبة للإنسان الروسي ! . . .

- وهذا العجوز الوقح ، ياله من صلب ! -- لاحظت إحدى الأمهات . -- كأنه قد رمى قطاً إلى الشارع : لا عناق ولا عويل !

- قف ، قف يا أندريي ! -- صاح العجوز .

أوقف أندريي حصانه .

-- آه ! تكلمت الغيرة على ما يبدو ! -- قال الحشد باستحسان .

-- ما الأمر ؟ -- سأل أندريي .

-- الحزام رخو يجب شدّه .

-- سأصلحه بنفسي ، حالما أصل إلى شامشيفكا . ليس من المستحسن إضاعة الوقت .

-- حسن ! -- قال الأب مُلَوِّحاً بيده .

-- حسن ! -- ردد الإبن وهو يهز برأسه ، ثم انحنى قليلاً لأنه كان يريد أن يهمز الحصان فقط .

-- يا لكم من كلاب ! حقاً كلاب غريبة ! -- قال الجيران .

بيد أن بُكاءً عالياً قد انطلق فجأةً وسط الحشد : إذ لم تستطع إحدى النسوة أن تتمالك نفسها .

-- يا نور عيني ! -- قالت المرأة وهي تمسح الدموع عن عينيها بطرف منديلها . -- يا لك من يتيم مسكين ! ليست لك أم تباركك . . . دعني أرسم لك إشارة الصليب على الأقل يا ولدي الجميل ! . . .

اقترب منها أندريي ، فقفز عن صهوة الجواد وراح يضم العجوز ثم همّ بعد ذلك بالرحيل -- لكنه بدأ يبكي فجأةً ، بينما راحت العجوز ترسم له إشارة الصليب وتقبله . بدا له أنه كان يسمع في كلماتها الحانية صوت أمه . فقد تراءى له طيفها الحنون برهة من الزمن .

راح يضم تلك المرأة العجوز بمزيد من الحنان ، ثم مسح دموعه بسرعة وامتطى صهوة الحصان . لكز أندريي الحصان من جنبيه واختفى

وسط سحابة من الغبار ، ثم تبعته على الفور من جانبي الطريق ثلاثة كلاب وهي تنبح بشدة .

— ٢ —

كان شتولتس من أتراب أبلوموف : فقد بلغ الثلاثين من عمره . عمل موظفاً ثم استقال ، وأخذ يدير أملاكه بعد أن حصل في حقيقة الأمر على البيت والاموال . أصبح مساهماً في إحدى الشركات ، التي تصدر البضائع إلى الخارج .

إنه في حركة دائمة : فإذا ما احتاجت الشركة لأن ترسل وكيلاً إلى بلجيكا أو انكلترا ، فإنها ترسله بالذات ؛ وإذا ما لزمها إبرام عقدٍ ما ، أو تنفيذ مشروع — فإنها تختاره شخصياً . زد على ذلك ، أن شتولتس يسافر ويقرأ كثيراً عندما يكون لديه متسع من الوقت .

جسده مكون من العظام والعضلات والأعصاب ، كحصان انكليزي أصيل . فهو نحيل ؛ يكاد وجهه أن يخلو من الوجنتين ، فهو مكون من العظم والعضل ، لا أثر للشحم عليه ؛ لون وجهه ضارب إلى السمرة ، لا أثر للتورد فيه . ورغم أن عينيه ضاربتان إلى الخضرة قليلاً ، فإنهما حيويتان معبرتان .

لاتوجد لديه حركات زائدة . فإذا ما جلس ، فإنه يجلس بهدوء ، وإذا ما عمل ، فإنه يحرك عضلات وجهه بالقدر الضروري فقط .

وكما أن تركيبه الجسدي يخلو من كل زائدة ، كذلك تصرفاته

الأخلاقية وسلوكه في الحياة . كان ينشد التوازن بين الجوانب العملية لطبعه ، وبين حاجاته الروحية . فهذان الجانبان من شخصيته كانا يسيران بالتوازي ، يتقاطعان ويتشابكان في الطريق، لكنهما لم يشتبكا مطلقاً في عقدة لا يمكن حلّها .

كان يسير بإصرار وحيويّة ، ويعيش وفق ميزانية محدّدة . كان يبذل كلّ ما في وسعه ، كي يمضي كلّ يوم ، وينفق كلّ روبل ، دون أن يفقد الرقابة مطلقاً على جهده الذي ينفقه .

كان يتحكم ، كما يبدو ، بأحزانه وأفراحه كما يتحكم بحركة يده وخطوات رجليه ، أو كما يتعامل مع الطقس الرديء والجيّد .

كان يفتح مظلته طالما المطر يهطل ، ويعاني ما دام الكرب مستمرّاً . لكنه لم يكن يتألّم بخنوع وذلّ ، بل بأسى واعتزاز . كان يتحمل معاناته بصبر ، لأنّه كان ينسب لنفسه بالذات سبب كلّ معاناة ، فلم يكن يعلّقها على مسمار غريب كما يعلّق الجلباب .

كان يستمتع بالفرح كما يستمتع المرء بزهرة يقطفها في الطريق ، قبل أن تذبل بيديه، ولم يكن يشرب الكأس مطلقاً حتى قطرة المرارة ، التي توجد في نهاية كلّ لذّة أو متعة .

النظرة البسيطة المباشرة الحقيقية للحياة كانت قضيته الدائمة وشغله الشاغل . كان يدرك مشاق الحياة وصعوباتها كلها ، ويسير تدريجياً باتجاه حلّها . وكم كان فخوراً وسعيداً في كلّ مرّة يحدث له فيها أن يصادف اعوجاجاً على طريقه الحياتي ، ليواجهه بخطوة مستقيمة .

« إنه لمن الصعب والحكمة أن يعيش المرء ببساطة ! » ... كان يسرّ لنفسه غالباً . وبنظرة خاطفة كان يرى مكان الإعوجاج والإنحراف ، كما كان يرى أيضاً المكان الذي يبدأ فيه شريط الحياة بالإلتفاف في عقدة متشابكة غير قوية .

آكثر ما كان يخشاه الوهم ، ذاك الشريك ذو الوجهين : وجه الصديق ، ووجه العدو . فهو صديق عندما لا تصدّقه وتثق به ، وعدوّ عندما تنام مطمئناً تحت تأثير همساته الحلوة الناعمة .

كان يخشى كلّ خيال وحلم ، وإذا ما دخل في مجاله ، فإنه يدخله كما يدخل المرء مغارة كتب عليها : خلوتي ، مثواي ، استراحتي وهو يعرف الساعة والدقيقة التي سيخرج فيها من هناك .

لم يكن للوهم الغامض الخفيّ مكان في نفسه . فكلّ شيء لا يخضع لمحك التجربة والحقيقة العملية الواقعية ، كان ينظر إليه كنوع من خداع البصر ، أو كانعكاس للأشعة والألوان على شبكية العين ، أو كواقعة لم تبلغها بعد معطيات التجربة .

لم يكن من طينة أولئك الهواة الطيّبين ، الذين يحبون البحث في عالم العجائب والغرائب ، أو يغوصون في حقل الأوهام والألغاز والاكتشافات قبل ألف سنة من أوانها . كان يقف بإصرار على عتبة الأسرار ، دون أن يبدي ثقة الطفل أو شكّ الإنسان المتهور الطائش ، بل كان ينتظر ظهور القانون الذي يملك معه مفتاح الحلّ

كذلك أيضاً كان يتعامل مع قلبه بدقّة وحذر كما يتعامل مع

الوهم والخيال . كان لزاماً عليه هنا أن يعترف وهو يتعثر غالباً ، بأن مجال الأحاسيس الوجدانية لا يزال مجهولاً .

كان يشكر القدر بحرارة عندما يتيسرّ له في هذا المجال المجهول أن يميّز مقدّماً الكذب المصبوغ بلون الأرجوان عن الحقيقة الباردة . وإذا ما تعثر ، دون أن يسقط ، بفعل خداع مشوه بمهارة الأزهار ، فإنه لم يكن يتذمر . وإذا ما خفق قلبه بشدة واضطراب فقط ، فانه يكون مسروراً جدّاً عندما لا يقطر فؤاده دماً ؛ كما يكون أيضاً مسروراً جداً إذا لم يتصبب العرق البارد على جبينه ، وإذا لم يخيم بعدها الظلّ طويلاً على حياته .

كان يعتبر نفسه سعيداً ، لأنه استطاع أن يبقى واقفاً صامداً دون أن يسقط ، وهو يمتطي حصان الأحاسيس ، لأنه لم يفقد السمة الدقيقة التي تميّز عالم الأحاسيس عن عالم الخداع والعواطف ، عالم الحقيقة عن عالم الضلال . كان يعتبر نفسه سعيداً ، لأنه قفز إلى الخلف ولم يستقر على تربة رملية جافة صلبة متزحلقة ، على تربة من الشك والصغائر وفقدان الضمير .

لم يكن يفقد السيطرة على نفسه في غمرة اللهو والتسلية ، فقد كان يجد من القوة في نفسه ما يكفي لأن يندفع ويصبح حرّاً طليقاً عندما تبلغ الأمور حدّ الشطط . لم يكن الجمال يعميه مطلقاً . لذا فإنه لم ينس الإعتداد الرجولي ولم يتخلّ عنه ، فهو لم يكن عبداً ، « ولم يتمرّغ عند أقدام » الفاتنات ، مع إنه لم يشعر يوماً بفرح عارم ،

لم تكن لديه معبودة ، لذا فإنه كان يختزن في نفسه قوة الروح ومتانة الجسد . كان عفيفاً ، معتدّاً بنفسه . النضارة والقوة تنبعثان منه لدرجة أن النساء المنطلقات المتحرّرات ، كنّ يرتبكن أمامه .

كان يعرف قيمة هذه الصفات الثمينة النادرة وكان يقتصد فيها كثيراً ، لذا كانوا يعتبرونه أنانياً قاسياً فاقد الشعور .

فتماسكه عن الإندفاعات العاطفية ومهارته بعدم الخروج عن حدود ما هو طبيعي ، وشخصيته المستقله كانت محطّ لوم الآخرين . بيد أن الحسد والدهشة كانا يتبدّيان أحياناً ، لدى بعض منتقديه ، بينما كان البعض الآخر يتصرف كمن يلقي بنفسه ، وهو في أقصى السرعة : في مستنقع فيحطّم نفسه ويحطمّ الآخرين .

— العواطف ، الأشواق ، يستسيغها الناس جميعاً ، — كانوا يقولون من حوله ، — أما أنت فسجين أنانيتك : لا ندري من أجل مَنْ .

— أحفظ نفسي من أجل أحد ما — كان يقول متفكراً وكأنه ينظر إلى الأفق البعيد ، وهو يتابع التشكيك بعالم العواطف ، دون أن يبدي إعجابه بمظاهرها العاصفة الهيّاجة ، وبنتائجها المدمّرة ، بينما كان يرغب في أن يستشرف غاية الحياة ومسعى الإنسان من خلال منظور حياتي صارم لمعنى الواجب .

كان يزداد تشبثاً بعناده كلمّا جادلوه ، حتى أنه كان « يتجسّمد » في تعصّبه لآرائه . كان يقول « بأنّ رسالة الإنسان العادية هي أن يعيش فصول السنة الأربعة ، أي مراحل العمر الأربعة بدون هزّات وقفزات ،

وأن يعيش الحياة حتى آخر يوم دون أن يريق قطرة جهد عبثاً . فاشتعال النار الهادىء التدريجي خير من الحرائق المفاجئة ، مهما توهّج بريق الشعر فيها » . وفي الختام كان يضيف بأنه « سيكون سعيداً جداً لو تيسرّ له البرهان على ذلك من تجربته ، لكنه لا يأمل بتحقيق ذلك ، لأن هذا أمر في غاية الصعوبة » .

كان يسير بإصرار وعناد على الطريق الذي اختاره . لم يشاهده أحد متفكراً بأمرٍ ما بألم وعذاب ؛ فلم يعانِ ، على ما يبدو ، من آلام قلب مُضْنَى ، أو من ألم عاطفي ؛ ولم يفقد السيطرة على نفسه مطلقاً في الظروف الجديدة الصعبة المعقدة ، بل كان يتعامل معها كما لو كانت ظروفاً مألوفة سابقة ؛ كما لو أنه قد بعث من جديد ، فتعرّف على تلك الظروف والأماكن ؛ فأصبحت مألوفة بالنسبة له .

وإذا ما صادفته أية ظاهرة ؛ فإنه يتعامل معها فوراً بالأسلوب الذي تتطلبه ، فيختار لها المفتاح الضروري المناسب من بين كلّ المفاتيح المعلقة ؛ فيفتح أبوابها ويقدم الحلول المناسبة لها .

أكثر ما كان يتمسك به هو الإصرار على بلوغ الأهداف والغايات . كان ذلك يمثل بالنسبة له رمز الشخصية الناجحة . وكان يحترم كثيراً أولئك الناس ، الذين يتمسكون بمثل هذا الإصرار ، أيّاً كانت أهدافهم وغاياتهم . ... هؤلاء أناس جديرون ! هكذا كان يتحدث عنهم .

ينبغي أن نضيف ، أنّه كان يسير إلى هدفه متخطيّاً بجرأة كلّ العقبات . فلم يكن يتراجع عن تحقيقه إلاّ عندما يبرز على طريقه جدار أو هوّة لا يمكن تخطيها .

لكنه لم يكن من عداد اولئك الّذين يتسلّحون بذلك النوع من الجرأة ، الّتي تدفع صاحبها لأن يقفز عبر الهوّة ، أو يرمي بنفسه على الجدار خبط عشواء وهو مغمض العينين . فتراه يقيس الهوّة أو الجدار ويتأمّلهما مليّاً ، ثمّ يبتعد عنهما مهما قال الناس عنه ، إذا لم يعثر على الوسيلة المأمونة الّتي تمكّنه من تجاوز العقبة .

من أجل تكوين شخصية كهذه ، لا بدّ من التقاء تلك العناصر الّتي كوّنت شخصية شتولتس . فالشخصيات عندنا منذ قديم الزمن ، تتلوّن بأشكال مختلفة ، وتنظر حولها بتكاسل وبعين شبه مغمضة . ثم تضع أيديها على الآلة الاجتماعية وتدفعها بخمول على الطريق المعتاد ، متقفية آثار من سبقوها . لكنْ ، ها هي ذا الأعين تتفتح وتفيق من كبوتها ، فَيُسْمَعُ وقع خطوات واسعة رشيقة ، وأصوات تنبض بالحياة . . . فكم نحن بحاجة لظهور العديد من أمثال شتولتس بأسماء روسية !

كيف يمكن أن يكون مثل هذا الرجل قريباً من أبلوموف ، الذي تصرخ فيه كلّ أمارة وخطوة ، الذي يصرخ وجوده وكيانه كله بالإحتجاج ضد حياة شتولتس ؟ إنّها لمسألة محلولة على ما يبدو ، لأن التناقضات القصوى قد تكون سبباً للتعاطف كما كانوا يعتقدون سابقاً ، وإذا لم تكن كذلك ، فإنها لن تمنعه بحال من الأحوال من التقارب .

زد على ذلك أن عاملين قويّين كانا يجمعان فيما بينهما : الطفولة والمدرسة ، ناهيك عن الملاطفات الروسية الطيّبة الوفيرة ، الّتي كانت

تُغدَقُ بكثرة على الصبيّ الألماني من قبل أسرة أبلوموف ، والمكانة الكبيرة التي يحتلها شتولتس على الصعيدين الجسديّ والأخلاقي لدى أبلوموف ، وأخيراً وهذا هو الأهمّ ، الأساس النقيّ المشرق الطيّب ، الذي يكمن في طبيعة أبلوموف المليئة بالتعاطف والودّ تجاه كلّ شيء يستجيب لنداء قلبه البسيط الطيّب ، سريع التصديق أبداً .

فعندما ينظر المرء عرضاً أو عمداً إلى تلك النفس الطفولية الصافية ، حتى وإن كان متجهماً شرّيراً ، فإنه لا يستطيع أن يرفض التعاطف معها ، وإذا ما حالت الظروف أن تقرّب فيما بينهما ، فإنّ ذكرى طيّبة راسخة ستظلّ باقية في نفسه عنها .

غالباً ما كان أندريي يذهب لزيارة أبلوموف ، بعد أن ينصرف من العمل ، أو من لقاء مع عليّة الناس ، أو من سهرة أو حفلة راقصة ، فيجلس على أريكته الفسيحة ويفرّج همّه ويُطَمْئِن روحه القلقة المتعبة في مجرى حديث كسول ، كأن يحسّ دائماً بنفس الشعور من الطمأنينة ، الذي يشعر به المرء القادم من صالونات رائعة فسيحة إلى ملاذ متواضع خاص ، أو العائد من مفاتن طبيعة الجنوب إلى غابات البتولا ، التي كان يتنزّه فيها عندما كان لا يزال طفلاً .

— ٣ —

— مرحباً يا إيليا . كم أنا مسرور لرؤيتك ! كيف أحوالك ؟ هل صحتك بخير — سأل شتولتس .

— (متنهداً) آه ، يا أخ أندريي ، أحوالي سيئة ، — أيّة صحة !

ـــ هل أنت مريض ؟ ـــ سأل شتولتس باهتمام .

ـــ تغلّبت على شحّاذ العين : في الأسبوع الفائت فقط ، اختفى واحد من عيني اليمنى وها هو ذا الآن آخر يظهر .

بدأ شتولتس بالضحك .

ـــ فقط ؟ ـــ سأل شتولتس . ـــ لقد جلبته لنفسك من كثرة النوم .

ـــ تقول « فقط » : إنه يؤلمني بحرقته . ليتك سمعت ما قاله الطبيب . يقول « سافر إلى الخارج ، وإلاّ فإنّ أمورك الصحية ستسوء : قد تصيبك سكتة » .

ـــ وأنت ماذا قرّرت ؟

ـــ لن أسافر .

ـــ لماذا ؟

ـــ عفواً ! اسمع ، ما قاله لي : « عِش في أحد الأماكن الجبلية ، سافر إلى مصر أو أمريكا . . . »

ـــ ما وجه الغرابة هنا ؟ ـــ قال شتولتس ببرود أعصاب ـــ ستكون في مصر في غضون أسبوعين ، وفي أمريكا في غضون ثلاثة أسابيع .

ـــ أنت تقول هذا يا أخ أندريي ! أعرفك إنساناً عاقلاً ، لكنني أراك الآن قد فقدت عقلك . من ذا الذي يسافر إلى أمريكا ومصر ! الإنكليز : إنهم قوم خلقهم الله هكذا ؛ أضف ، إنهم لا يجدون في بلادهم متسّعاً للعيش . لكن من يسافر عندنا ؟ لا يسافر إلاّ إنسان بائس ، ملّ الحياة .

ـــ في الواقع ، لا أجد أيّ غرابة : استقل عربة ، أو باخرة ، وتنفس هواءً نقياً ، تفرّج على بلدان ومدن وعادات غريبة ، تفرّج على العجائب . . . آه منك ! قل لي أيّة مشاغل عندك ؟ ماذا يوجد في أبلوموفكا ؟

ـــ آه ! قال أبلوموف ملوّحاً بيده .

ـــ ماذا جرى ؟

ـــ الحياة تؤثّر !

ـــ الحمد لله ! ـــ قال شتولتس .

ـــ الحمد لله ، على أيّ شيء ! أجل ، كان بودّي أن أقول الحمد لله . لو أنّ الحياة سهلة بالنسبة لي ، لكنها تضايقني ، كما يضايق المعربدون ، المشاغبون في المدرسة تلميذاً وديعاً : تارةً بقرصونه تحت ذقنه ، وأخرى يضربونه على جبينه ثم يقذفونه بالرمل . . . لا طاقة لي !

ـــ إنك مسالم جداً ـــ ماذا جرى ؟ ـــ سأل شتولتس .

ـــ حلّت بي مصيبتان :

ـــ ما هما ؟

ـــ أفلست تماماً .

ـــ لكن كيف .

ـــ سأقرأ لك ما كتبه وكيل القرية . . . أين الرسالة ؟ زاخار ، زاخار ! عثر زاخار على الرسالة . تصفّحها شتولتس وبدأ يضحك ، ربّما بسبب أسلوبها .

ــ كم هو محتال وكيلك هذا ! صرف الفلاحين ، وأتى ليشتكي ! كان من الأفضل أن يعطيهم بطاقات هوية أوّلاً ، ثم يطلق سراحهم ــ ويمنحهم الحرّية .

ــ عفواً كيف يمكن ذلك ، ربمّا يرغب الجميع بعدها في هذا ــ قال أبلوموف معترضاً .

ــ فليكن ! ــ قال شتولتس بلا اكتراث ــ من يشعر بالمنفعة والقناعة في مكانه الراهن ، لن يرحل ، أمّا من كان غير مقتنع بفائدة بقائه حيث هو ، فسيرحل ، لأنه ليس من مصلحتك ، أيضاً ، أن يبقى : لماذا تريد استبقاءهم ؟

ــ ما شاء الله ! ــ قال إيليا إيليتش ــ الفلاحون في أبلوموفكا مسالمون ، قعيدو بيوتهم ، ما حاجتهم إلى التسكّع ؟

ــ هل تعلم ــ قال شتولتس مقاطعاً ــ أنه سيبني في فيرخليوفا مرفأ ، كما يفترض إنجاز طريق معبّد ، وهكذا لن تصبح أبلوموفكا بعيدة عن الطريق الرئيسي ، وفي المدينة سيبنى معرض وسوق . . .

ــ آه ، يا إلهي ! ــ أما كفانا ما لقينا من مشاكل ! فأبلوموفكا كانت تنعم بالهدوء والعزلة ، والآن معرض ، وطريق رئيسي ! سيعتاد الفلاحون على الذهاب إلى المدينة ، وسيتسكع التجار عندنا ــ لقد ضاع كل شيء !

يا للمصيبة !

بدأ شتولتس يضحك .

ـ هل هناك مصيبة أكبر من هذه ؟ ـ تابع أبلوموف ـ كان الفلاحون قانعين بما هم عليه ، لا يسمعون شيئاً ، قبيحاً كان أم جيّداً ، يقومون بأعمالهم كما ينبغي ، ولا يسعون إلى شيء آخر ؛ أما الآن فيسفسدون ! سيعتادون على الشاي والقهوة ، والبنطلونات المخملية ، والآلات الموسيقية ، والأحذية اللمّاعة . . . لن يبقى منهم نفع !

ـ أجل ، سيكون النفع قليلاً ، إذا أصبح الأمر هكذا ـ لاحظ شتولتس ـ وأنت لماذا لا تؤسس مدرسة في القرية . . .

ـ أليس الوقت مبكّراً ؟ ـ قال أبلوموف ـ التعليم ضارّ بالفلاّح : فإذا علّمته ، فإنه ، على الأرجح ، لن يحرث الأرض بعد . . .

ـ بالعكس ، سيقرأ الفلاحون عندئذ كل ما يتعلّق بطرق حراثة الأرض ، ـ يا لك من غريب الأطوار ! اسمعْ ، ينبغي عليك حقّاً أن تتواجد في القرية هذا العام .

ـ أجل ، لكن مخططي لم ينجز بعد . . . لاحظ أبلوموف بخجل .

ـ لا يلزمك الآن أي مخطط ! ـ قال شتولتس ـ سافر الآن إلى القرية فقط : وسترى هناك على الطبيعة ما يجب عمله . لقد مضى وقت طويل وأنت تعمل في هذا المخطط : أما آن أن يصبح جاهزاً ؟

ماذا كنت تفعل ؟

ـ آه ، يا أخي ! إنك تتحدث وكأن عملي محصور في أملاكي فقط . لقد حلّت بي مصيبة أخرى ، ألا تعلم ؟

ـ مصيبة ، ما هي ؟

يطردونني من الشقة .

– يطرودنك ، كيف ؟

– يقولون لي : انتقل ، هكذا بكل بساطة .

– وما الغرابة في هذا ؟

– كيف ؟ لقد أبليت ظهري وجنبيّ الإثنين وأنا أتقلّب متفكّراً بهذه الهموم ، فمصيبة القرية تقلقني ، وكذلك مصيبتي هذه ، هناك يجب عليّ أن أجري الحسابات ، وأنت تعرف كم هي مشكلة مسألة الحسابات هذه : إدْفَعْ هناك ، إدفَعْ هنا . . . الخ ، إضافة إلى هذا كله ، تأتي مصيبة الإنتقال من الشقة ! كم من النقود تنفق على ذلك ، يا إلهي لا أعرف أين تذهب ! أنظر ، فلا أرى قرشاً واحداً قد تبقّى . . .

– يا لك من شخص مدلّل : متى كان الإنتقال من الشقة مسألة صعبة ! –

قال شتولتس بدهشة . – بالمناسبة ، وعلى ذكر النقود : هل هي كثيرة لديك ؟ اعطني خمسمئة روبل : ينبغي أن أرسلها الآن ؛ غداً سآخذ من مكتبي . . .

– على مهلك ! تذكّرت . . . منذ مدة غير بعيدة جاءني من القرية ألف روبل ، بقي منها الآن . . . انتظر ، بقي منها . . .

أخذ أبلوموف يبحث في الأدراج . ها قد عثرت هنا على عشرة ، عشرين ، مئتي روبل . . . عثرت على عشرين أيضاً . كانت توجد هنا أيضاً قطع فضية زاخار ، زاخار !

قفز زاخار كالعادة من مضجعه ودخل الغرفة .

— أين القطعتان الفضيتان ؟ لقد وضعتهما البارحة . . .

— من أين جاءتك هاتان القطعتان الفضيتان يا إيليا إيلييتش ! فقد أخبرتك ، بأنه لم يكن هنا أيّ شيء . . .

— لم يكن أي شيء ! لقد بقي من ثمن البرتقال بعض النقود . . .

— إذن ، لقد أعطيتها لأحدٍ ما ، ثم نسيت ، — قال زاخار وهو يستدير تجاه الباب .

بدأ شتولتس بالضحك .

— آه منكم ، أيها الأبلوموفيون ! — قال شتولتس معاتباً — لا تعرفون كم من النقود في جيوبكم !

— ألَمْ تُعط ميخا أندرييتش بعض النقود ؟ قال زاخار مذكّراً .

— آه ، أجل ، لقد أخذ تارانتيف عشرة روبلات أيضاً ، — قال أبلوموف مخاطباً شتولتس بحيّوية ، — لقد نسيت .

— كيف تسمح لهذا الحيوان بالدخول لعندك ؟ — قال شتولتس ملاحظاً .

— ليت الأمر مجرد سماح ! — قال زاخار متدخلاً في الحديث — انه يتصرف ، كما لو أنه في بيته ، أو في خمّارة . لقد أخذ قميص سيّدي وسترته ، وذاك هو وجه الضيف ! منذ مدة ليست بعيدة ، حضر إلى هنا وقال : « اعطني البدلة لأرتديها ! » ليتك تضع له حدّاً يا أندريي إيفانيتش . . .

-- هذا ليس من شأنك ، يا زاخار . إذهَب إلى مضجعك ! -- قال أبلوموف بصرامة .

-- أعطني ورقة رسائل -- طلب شتولتس ، -- فأنا أريد أن أكتب رسالة .

-- لا يوجد ! لقد بحثنا منذ زمن بعيد ، فلم نعثر على شيء . -- أجاب زاخار من غرفة الإنتظار ، حتى أنه لم يدخل الغرفة .

-- أعطني ولو قصاصة من الورق ! قال شتولتس بإلحاح .

-- لا توجد عندي منذ زمن بعيد بطاقات معايدة أو زيادة .

فتّش أبلوموف على الطاولة : لكنه لم يعثر على شيء .

-- أعطني ولو بطاقة معايدة ، أو زيارة .

-- ماذا ألمّ بك ؟ -- علّق شتولتس بسخرية -- وأنت الذي تريد أن تعمل عملاً وتكتب خطة ، قل لي من فضلك . إلى أين تذهب ، وأين تتواجد ؟ من تزور ؟ .

-- أين أتواجد ! هه ! أين يمكن أن أتواجد ، لا أبرح البيت طبعاً : فالخطة تقلقني ، أضف إلى ذلك ، مشكلة الانتقال من الشقة أيضاً . . . شكراً لتارانتييف ، فهو يريد أن يسعى ويبحث لي عن . . .

-- هل يزورك أحدٌ ما ؟

-- يزورني . . . يزورني تارانتييف ، وألكسييف أيضاً . منذ زمن بعيد ، زارني الطبيب أيضاً . . . كما زارني بينكين ، سودبينسكي وفولكوف . . .

ـــ لا أرى كتباً عندك ــ قال شتولتس .

انظر ، يوجد كتاب هنا ! ــ علّق أبلوموف ، وهو يشير إلى كتاب على الطاولة .

ما هذا الكتاب ؟ ــ سأل شتولتس ، وهو يتصفحه . ــ « رحلة إلى افريقيا » . لقد اصفرّت الصفحة ، التي توقّفت عندها . وجرائد لا أرى . . . هل تقرأ الجرائد ؟ .

ــ كلا ، أحرف الصحف ناعمة دقيقة ، إنها تؤذي العينين . . . كما أنه ، لا حاجة لي بها : فإذا ما حدث شيء ما جديد ، فإن الدنيا كلّها ستطبّل به وتزمرّ .

ــ عفواً يا إيليا ! ــ قال شتولتس وهو يرمي أبلوموف بنظرة استغراب ــ أنت بالذات ، ماذا تفعل ؟ إنك ككتلة العجين ، تلتف وتنام .

ــ صحيح يا أندريي ، إنني ككتلة العجين . ــ علّق أبلوموف بأسى .

ــ هل يمكن أن يكون الإعتراف تبريراً ؟

ــ (متنهداً) كلا ، هذا مجرّد ردّ على كلماتك ؛ فأنا لا أبرّىء نفسي .

ــ يجب أنْ تخرج من هذا السبات ، من هذا الكابوس .

ــ جرّبت سابقاً ، لكنني لم أفلح ، أما الآن . . . فمن أجل أي شيء أحاول ؟

لا شيء يدفعني لهكذا محاولة ، فروحي هادئة مستكينة . وذهني ينام بهدوء وطمأنينة ! —

ختم كلامه بأسى لا يكاد يلحظ . — كفانا التحدث عن هذا . . . الأفضل أن تقول لي من أين أنت قادم ؟ .

— من كييف . بعد أسبوعين سأسافر إلى الخارج . سافر أنت أيضا

— حسناً ؛ من المحتمل . . . قرّر أبلوموف .

— اجلس إذن ، واكتب طلباً ، وقدِّمْه غداً . . .

— غداً ! — بدأ أبلوموف وقد أُخِذ على حين غرّة — لِمَ كل هذه العجلة ؛ كأنّ أحداً يطاردنا ! فلنفكّر أولاً ، ثم نتحدث بالموضوع بعدها ننتظر فرج الله ! لقد اتفقنا بأن أذهب إلى القرية أولاً وإلى الخارج . . . فيما بعد . . .

— لماذا فيما بعد ؟ ألم يأمرك الطبيب بالسفر ؟ ارم عنك ، قبل كل شيء ، الترهلّ ، وأزل الشحم عن جسدك ، وتخلص من عبء ثقل جسدكَ ، عندها ستنعش نفسك ويزول النعاس . يلزمك رياضة بدنية وروحية .

— لا يا أندريي . فكل هذا يتعبني : صحتي سيئة . من الأفضل أن تتركني هنا ، سافر وحدك . . .

أخذ شتولتس ينظر إلى أبلوموف الممدد في فراشه ، بينما راح أبلوموف ينظر إليه بالمقابل أيضاً .

هزّ شتولتس رأسه ، بينما تنهدّ أبلوموف .

— ألا يبدو لك ، أن حياتك كسل بكسل ؟ — سأل شتولتس .

— هذا صحيح : فحياتي كسل بكسل يا أندريي .

أخذ أندريي يفكر بالطريقة ، التي يمكن بواسطتها بعث الحياة فيه من جديد ، بينما راح ينظر إليه ، بصمت ، ثم ضحك فجأة .

— لماذا تلبس جورباً قطنياً وآخر خيطياً ؟ — لاحظ شتولتس فجأة وهو يشير إلى قدمي أبلوموف . — وقميصك ، ألا ترى أنه ملبوس بالمقلوب ؟

نظر أبلوموف إلى ساقيه ، ومن ثم إلى قميصه .

— في الواقع ، — اعترف أبلوموف بارتباك . لا يأتيني من زاخار هذا إلا الأذى ! فلن تصدّق ، كم أعاني بسببه ! ما إن أطلب منه شيئاً ، حتى تراه يجادل ويتملّص ويصبح غليظاً خشناً !

— إيليا ، إيليا ، آه منك ! — قال شتولتس — لا ، لن أدعك هكذا . بعد أسبوع لن تعرف نفسك . في المساء ، سأبلغك خطة تفصيلية ، عمّا أنا عازم على أن أفعله بك وبي ، أما الآن فارتدِ ملابسك. سأوقظك الآن . زاخار ! — صاح شتولتس — احضِرْ ملابس إيليا إيلييتش .

— عفوك ، إلى أين ؟ ما بك ؟ سيأتي الآن تارانتييف بصحبة ألكسييف ليتناولا معي طعام الغداء . كنا نريد بعدها أن . . .

— زاخار — قال شتولتس دون أن يأبه لما قاله أبلوموف . أحضرْ ملابسه .

ـ سمعاً وطاعة يا أندريي إيفانيتش ، لحظة واحدة فقط من فضلك ، لأنظف الحذاء ـ قال زاخار برغبة وانصياع .

ـ كيف ؟ الحذاء غير نظيف عندك ؟

ـ من حيث النظافة ، فالحذاء قد نُظِّف منذ الأسبوع الفائت ، لكن سيدي لم يخرج إلى أي مكان ، فاغبرّ من جديد . . .

ـ لا حاجة إذن احضره كما هو . احضر حقيبتي إلى غرفة الاستقبال ؛ فسأقيم عندكم بعض الوقت . سأغيّر ملابسي الآن ، وأنت كُنْ جاهزاً يا إيليا . سنتناول الغداء في مكانٍ ما أثناء السير ، بعدها سنذهب إلى بيتين ، أو ثلاثة ، و . . .

ـ ما لك هكذا . . . كيف نفعل هذا فجأة . . . مهلاً . . . اعطني فرصة للتفكير . فأنا لم أحلق ذقني بعد . . .

ـ عن أي تفكير تتحدث ، فلا حاجة لنا به . . . ستحلق ذقنك يا عزيزي : سأشرف على إعدادك وترتيبك بنفسي .

ـ إلى أي بيوت سنذهب ؟ ـ هتف أبلوموف بأسى ـ إلى أناس لا نعرفهم ؟ عمّ تفتّق ذهنك ! من الأفضل لي أن أذهب إلى إيفان غيراسيموفيتش ؛ فلم أكن عنده منذ ثلاثة أيام .

ـ من يكون إيفان غيراسيموفيتش هذا ؟

ـ ذلك الذي خدم معي سابقاً . . .

ـ آه ! هذا الموظف الأشيب : ماذا ستفعل هناك ؟ أية رغبة تدفعك لقتل الوقت مع هذا الأبله !

– كم تتحدث أحياناً عن الناس بقسوة يا أندريي . إنه إنسان طيّب .

– ماذا تفعل عنده ؟ عن أي شيء تتحدث إليه ؟ – سأل شتولتس .

– بيته مريح ومنظم . الغرف فيه صغيرة ، والأرائك عميقة ، تغوص فيها حتى رأسك ولا ترى بعدها أحداً . النوافذ مغطاة تماماً بأشجار اللبلاب والصبّار ، عصافير الكناري عنده أكثر من عشرة ؛ لديه ثلاثة كلاب ، لكن كم هي طيبّة وديعة ! الطعام عنده على الطاولة بشكل دائم . الصور المحفورة في بيته تمثل مشاهد عائلية . تجلس عنده ، فلا ترغب بمغادرة بيته . فالمرء يجلس عنده مرتاحاً ، بعيداً عن كل همّ ، لا يفكر بشيء ، لأنه يجلس بصحبة إنسان . . . صحيح أنه غير ذكي ، لا يمكن مناقشة الأفكار معه ، لكنه بالمقابل ، غير خبيث ، طيّب ، مضياف ، غير مدّعٍ ، لا يغتاب ولا يجرح أحداً !

– ماذا تفعلون ؟

– ماذا ؟ ما ان أصل لبيته ، حتى يجلس كل منا مقابل الآخر على الأريكة ، ثم يتمدد عليها ، وهو يدخن . . .

– وأنت ؟

– وأنا أدخن أيضاً . وأصغي إلى تغريد الكناري . بعدها تجلب مارفا السماوار .

– هه ! تارانتييف ، إيفان غيراسيميتش ! – قال شتولتس وهو يهزّ كتفيه . – هيّا . البس بسرعة ، – قال شتولتس وهو يستعجل

أبلوموف — أما بالنسبة لتارانتييف ، فقل له حالما يأتي — أضاف شتولتس مخاطباً زاخار — بأننا لن نتناول الغداء هنا ، وأن إيليا إيليتش لن يتغدّى في البيت طوال فصل الصيف ، أما في الخريف فستكون عنده مشاغل كثيرة ولن يتمكن من اللقاء به . . .

— لن أنسى ، سأبلغه ، سأبلغه كل شيء . — أجاب زاخار ، — وبالنسبة للغداء ماذا تأمرون ؟

— تناوله مع أحدٍ ما بالصحة والعافية .

— سمعاً يا سيّدي .

— خرج شتولتس بعد عشر دقائق مهندماً ، حليق الذقن ، مصفوف الشعر ، بينما كان أبلوموف يجلس على السرير ، سوداوي المزاج ، وهو يزرّر قميصه ، لكن الزر لم يكن يدخل في عروة القميص . أما زاخار فكان يجثو أمامه على إحدى ركبتيه ، يحمل حذاءً وسخاً ، كما لو أنه يحمل طبقاً من الطعام ، وهو يستعد ليلبسه إياه ، وينتظر اللحظة ، التي ينتهي فيها سيده من تبكيل قميصه .

— لم تَنْتَعِلْ حذائك بعد ! — قال شتولتس بدهشة . — هيا يا إيليا أسرع ، أسرع !

لم العجلة ؟ إلى أين ؟ — قال أبلوموف بكآبة — ما هو الشيء الذي لم أره هناك ؟ دعني ، فأنا لا أرغب بالذهاب . . .

— أسرع ، أسرع ! قال شتولتس مستعجلاً .

— ٤ —

على الرغم من أن الوقت لم يكن مبكراً . فقد تمكنا من المرور إلى بعض الأماكن لقضاء بعض الأشغال ، ثم اصطحب شتولتس معه إلى الغداء أحد أصحاب مناجم الذهب ، ورافقاه إلى منزله فيما بعد . لتناول الشاي ، حيث وجدا هناك حشداً كبيراً من الزوّار .

أما أبلوموف فقد تاب إلى رشده في زحمة الناس ، وتخلص فجأة من عزلته الخانقة . ثم عادا إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل .

استمر الأمر على هذه الحال ، يوماً آخر وثالث ، حيث انقضى الأسبوع بكامله ، دون أنْ يشعر به أحد .

كان أبلوموف يجادل ويعارض ، ويشكو ، لكنه كان مأخوذاً بتلك الجدّة ، التي كان يجدها في الأماكن التي يزورها .

ذات مرة ، بعد أن عاد متأخراً من مكانٍ ما ، اشتدت ثورة أبلوموف ، بشكل خاص ، ضد هذا النمط من الحياة والحركة .

— كنت أمضي أياماً بكاملها — بدأ أبلوموف حديثه — دون أن أخلع حذائي : أما الآن فكم أعاني من قدمي ! لا تعجبني حياتك البطرسبورغية هذه ! — تابع أبلوموف وهو يتكىء على الأريكة .

— ما هي الحياة . التي تعجبك ؟ — سأل شتولتس .

— لا تعجبني حياة كهذه .

— ما الأمر الذي لم يعجبك هنا على وجه التحديد ؟

— كل شيء ، الحركة ، الركض الدائم ، الذي يشبه السباق ، تلاعب الأهواء الرديئة الأبديّ ، وخاصة الجشع ، وتضارب المصالح ، والوشاية ، والنميمة ، والقال والقيل ، وتصيّد الآخرين ، وذلك التفحّص من أخمص القدمين حتى قمة الرأس ؛ فما إن أسمع أحاديثهم حتى يدور رأسي ، ويتلبّد ذهني حتى الخدر . يبدو للوهلة الأولى ، أن هؤلاء الناس أذكياء ، وقورون بمظهرهم لكن ما إن يسمعهم المرء يقولون : « فلان أخذ كذا ؛ وعلان قبض كذا » ، — « عفوك ، لقاء أي شيء ؟ » — يصرخ أحد ما ، « البارحة خسر فلان في القمار بالنادي ؛ بينما ربح ذاك ثلاثمائة ألفاً ! » ، حتى يصاب بالغثيان . ملل ، ملل ، ملل ! . . .

أين الإنسان هنا ؟ أين كماله وسلامته ؟ أين توارى ، وكيف بدّد مواهبه على أمور تافهة ؟

— يجب أن ينشغل العالم والمجتمع بأمرٍ ما — ، قال شتولتس — . لكل إنسان اهتماماته الخاصة به وإلاّ فالحياة . . .

— العالم ، المجتمع ! هل من الصواب ، أن ترسلني يا أندريي ، عمداً ، إلى هذا العالم والمجتمع ، كي تثبّط عزمي أكثر ، لأمتنع عن الذهاب إلى هناك . الحياة : أين الجمال في حياة كهذه ؟ عمّ أبحث هناك ؟ أأبحث عن اهتمامات العقل ، والقلب ؟ تبَصَّرْ جيداً ، أين المحور ، الذي يدور حوله كل هذا : لا وجود له ، لا وجود لأي شيء عميق جدّي ، يلامس الأحاسيس .

فأعضاء هذا العالم والمجتمع ، كلهم موتى ، كلهم أناس نائمون ، إنهم أسوأ مني ! ماذا يقدّمون في هذه الحياة ؟ صحيح أنهم لا يستلقون ، بل يتحركون جيئة وذهاباً كل يوم ، كالذباب ، لكن ما الفائدة من ذلك ؟ تدخل إلى الصالة ، فلا يقدر المرء إلا أن يندهش عندما يرى الضيوف جالسين على مقاعدهم ، حول الطاولة ، يلعبون الورق بهدوء وتفكير عميق . لا يسعني إلاّ أن أقول ، أي معنى لحياة كهذه ! ياله من نموذج رائع بالنسبة لمن يبحث عن معنى للحياة ! أليسوا أمواتاً ؟ ألا ينامون طيلة حياتهم وهم جالسون ؟ وهل أنا مخطىء أكثر منهم ، عندما ألزم الفراش في البيت ، دون أنْ أوجع رأسي بلعبهم ؟

— إنك تكرر الشيء نفسه ، فها أنت تتحدث عن هذا للمرة الألف — قال شتولتس معلقاً — .

— ألا يوجد لديك شيء تقوله أكثر جدّة ؟

— وشبيبتنا الرائعة . ماذا تفعل ؟ أليست نائمة أيضاً عندما تسير على غير هدى في شارع نيفسكي ، وعندما ترقص ؟ هكذا تَمْضي أيامهم في بطرسبورغ خاوية من أي معنى ! انظر ، كيف يرمقون كلّ من لا يلبس على شاكلتهم ، بنظرات ملؤها الزهو والخيلاء والاعتزاز بالنفس والازدراء ، فلا يعتبرونه من مصافهم . تتصوّر هؤلاء التعساء أيضاً أنهم ،أرفع من عامة الناس عندما يقولون : « نحن الذين نخدم ونقوم بواجبنا ، فما من أحد غيرنا يقوم بواجبه ؛ إنّنا نحتلّ

المقاعد الأمامية ، ونتواجد في الحفلات عند الأميرن ، حيث لا يسمح بالدخول إلاّ لنا . . . وعندما يلتقون مع بعضهم ، تراهم يسكرون ويتشاجرون ، كالوحوش تماماً ! هل هؤلاء أناس أحياء ، غير نيام ؟ ليس هذا حال الشبيبة فقط : انظر إلى الكبار البالغين . يجتمعون ، يطعمون بعضهم بعضاً ، لا حفاوة ، ولا طيب قلب ، ولا عواطف متبادلة ! يجتمعون وقت الغداء أو العشاء ، كما لو أنهم في الخدمة الوظيفية ، ببرود وبدون فرح أو مسرّة ، ويتباهون بطبّاخيهم وصالوناتهم ثم يسخر كلّ منهم من الآخر ، ويكيد له . في اليوم الثالث لم أكن أعرف ، إلى أين أنظر أثناء الغداء — ، ولا كيف أتخلّص ، عندما ابتدأ تشريح الغائبين والطعن بهم : « ذاك غبي ، وهذا سافل ، وآخر لص ، وثالث يبعث على السخرية » — ياله من تسميم حقيقي ! عندما يتكلّمون ، تراهم يرمقون بعضهم بعضاً بنظرات ، كأن أحدهم يقول للآخر : « ما ان تخرج من الباب فقط ، حتى ينالك ما ينالهم الآن » . . . . لماذا يلتقون مع بعضهم ، ما داموا هكذا ؟ لماذا يصافحون بعضهم بعضاً بحرارة ، فلا تشعر بالصدق في ضحكهم ، ولا بأي بصيص من العاطفة والمحبة في نفوسهم ! كلّ ما يسعون إليه ، هو التباهي والتفاخر . « كان عندي فلان وكنت عند علاّن » — هذا ما يتباهون به . . . أيّ حياة هذه ؟ لا أريد أن أعيش هكذا . ماذا أتعلّم هناك ، وماذا أستفيد ؟

— أتعرف يا إيليا ؟ — قال شتولتس — إنك تناقش الأمور كما

كان يناقشها القدماء تماماً : ففي الكتب القديمة تعثر على محاكمات كتلك التي تقول تماماً . بالمناسبة ، هذا أمر جيّد أيضاً : فأنت على الأقل تناقش ، ولا تنام . ماذا ستقول أيضاً ؟ تابع .

ماذا أتابع ؟ انظُرْ : فلن ترى وجهاً نضراً ، مفعماً بالحيوية والصحّة بين الحاضرين هنا .

ـ المناخ هكذا ـ قاطع شتولتس ـ فها هو ذا وجهك شاحب ممتقع أيضاً ، مع أنك مستلق دائماً ، لا تروح ولا تجيء .

ـ لا ألمح نظرة صافية هادئة عند أحد هنا ـ تابع أبلوموف ـ تراهم جميعاً وقد أصابتهم عدوى الهموم المقلقة ، والكآبة ، فكأنهم يبحثون عن أمر ما بكثير من الحزن والألم . فهم لا يريدون الخير والمنفعة لأحد ، تراهم يمتقعون عندما يسمعون بنجاح أحرزه صديق لهم . ترى أحدهم وقد استولى عليه شغل شاغل : كأَنْ يذهب غداً إلى دائرة رسمية ؛ فلديه هناك قضية لم تنته منذ خمس سنوات ، وطيلة هذه السنوات الخمس كانت تشغل رأسه فكرة واحدة ، وتستولي عليه رغبة واحدة : أن يصرع الآخر ، ويشيّد على سقوطه بناء سعادته ورفاهه . خمس سنوات ، يروح فيها ويجيء ، يجلس ويتنهد في غرفة الاستقبال ـ ذلك هو هدف حياته ومثله الأعلى ! بينما ترى آخر يتعذّب ، لأنه محتوم عليه أنْ يذهب كل يوم إلى الخدمة ويجلس حتى الساعة الخامسة ، ويتنهد بضيق ، لأنه لم يمنح مثل ذاك الهناء والغبطة . . .

ـ يا لك من فيلسوف يا إيليا ! ـ قال شتولتس ـ كل الناس يجدّون ويجهدون ، فأنت الوحيد الذي لا يحتاج شيئاً !

ـ فهذا السيد القمحي اللون ، ذو النظارات ـ تابع أبلوموف ـ ألحّ عليّ بالسؤال ، إنْ كنت قد قرأت خطاب أحد النواب ، ثم حملق عينيه بي ، عندما قلت له بأنني لا أقرأ الجرائد . وراح يتحدث عن لودفيك فيليب ، تماماً كما لو أنه يتحدث عن أبيه . استمرّ بعد ذلك ، في إزعاجي ، فبادرني السؤال قائلاً : ما هي الأسباب التي جعلت ، حسب رأيك ، سفير فرنسا يغادر روما ؟ كيف عزلت نفسك طيلة حياتك عن متابعة أخبار العالم اليومية ؟ لماذا أرسل محمد علي باشا ، هذا اليوم ، باخرة إلى القسطنطينية ؟ ثم راح يتحدث عن قناة تشقّ هناك ، وعن جيوش تُرْسَل إلى الشرق هنا ؛ يا إلهي لِمَ كل هذا الولع ! تراه يركض . يصرخ وهو ممتقع الوجه ، وكأن الجيوش أتت لمهاجمته . فهؤلاء الناس يناقشون ويتصورون الأمور كيفما اتفق ، بينما هم في الحقيقة في غاية الضجر والملل ـ فهذا لا يشغلهم في حقيقة الأمر ؛ فمن خلال هذا الصراخ ، يرى المرء بوضوح ، انهم في نوم عميق ! إنها أمور غريبة عنهم ، دخيلة عليهم ؛ فهذا ليس مجالهم ، إنهم متطفلون في هذا المجال . فلا عمل خاص بهم ، لذلك يراهم المرء مشتّتين في كلّ الإتجاهات ، لم يحدّدوا أيّ اتجاه لهم . فوراء هذه الشمولية يتوارى الفراغ والخواء ، ويختفي أيّ ميل أو تعاطف تجاه كل شيء ! لكن ، أن يختاروا طريقاً متواضعاً مليئاً بالعمل ليسيروا عليه ، أو يحفروا مجرى عميقاً ـ فهذا أمر مملّ متعب لا يقدرون عليه ؛ فشمولية المعرفة لن تساعدهم هناك ، ولن يستطيعوا عندها أن يذروا الرماد في عيون أحد .

– لكنّنا لم نتشتت ، أنا وأنت ، يا إيليا . أين طريقنا المتواضع ، المليء بالعمل ؟

– سأل شتولتس – .

ما كان من أبلوموف إلاّ أن صمت فجأة .

.. ما إن أنهي . . . مخططي . . . . . قال أبلوموف – حتى . . . . – ليكن الله في عونهم ! – أضاف بعدها بأسى . – فأنا لا أتناولهم ، ولا أبحث عن شيء ؛ كل ما في الأمر ، هو أنني لا أجد فقط في هذا كله حياة طبيعية . كلاّ ، ليست هذه هي الحياة . بل هي تشويه لمقياس الحياة ومثالها الأعلى ، الذي وضعته الطبيعة للإنسان هدفاً . . .

– ما هو مقياس الحياة ومثلها الأعلى هذا ؟

لم يستطع أبلوموف أن يجيب .

– قل لي ، ما هي الحياة ، التي رسمتها لنفسك ؟ – استمر شتولتس بتوجيه الأسئلة إليه .

– لقد رسمت .

– ماذا رسمت ؟ قل لي من فضلك ، كيف ؟

– كيف ؟ – قال أبلوموف وهو ينقلب على ظهره وينظر إلى السقف – ليتني ذهبت إلى القرية .

– ما الذي يمنعك ؟

– المخطط لم ينته بعد . حبذا لو لم أذهب وحدي ، بل بصحبة زوجة . . .

ــ آ ! هكذا إذن ! في حفظ الله . ماذا تنتظر ؟ فبعد ثلاث أو أربع سنوات ، لن تقبل بك امرأة

ــ (متنهداً) ما العمل ، هذا نصيب ! الظرف لا يسمح !

ــ عفواً ، هل نسيت أبلوموفكا ؟ ثلاثمئة نفس !

ــ وما الفائدة ؟ أين المدخل ، الذي سأعيش به هنا مع زوجتي ؟

ــ يا للغرابة ، ألا يكفي دخلك لشخصين !

ــ والأطفال ، الذين سيولدون ؟

ــ ينبغي أن تربي أولادك ، كي يعتمدوا على أنفسهم : اعرف كيف توجههم بحيث . . .

ــ لا ، لن يصبح النبلاء صناعيين ! ــ قاطع أبلوموف بجفاء . ــ حتى لو استثنينا الأطفال ، هل سنكون ، فقط ، اثنين معاً ؟ هذا مجرد كلام فقط ، لكنّ حقيقة الأمر ، شيء آخر ، فما أن يتزوّج المرء حتى يزحف إلى بيته بعض النسوة . انظر إلى أي أسرة فترى : إما قريبات أو مدبرات منزل ، وإذا لم يقمن بشكل دائم ، فإنهن يترددون كل يوم لشرب القهوة ، وتناول طعام الغداء . ــ كيف يمكن إطعام نزل كهذا ؟

ــ حسناً ، لو أنك مُنِحتَ ثلاثمئة ألف روبل أيضاً ، ماذا كنت ستفعل بها ؟ سأل شتولتس مدفوعاً ، بقوة ، بحب الإستطلاع .

ــ كنت أضعها مباشرة في البنك وأعيش من فائدتها المئوية .

ــ لكن معدّل الفائدة قليل هنا ؛ ألم يكن من الأفضل لك ، أن توظفها في مكان ما ، في شركة ، ولنقل في شركتنا ؟

ـ لا يا أندريي ، لن تستطيع أن تستدرجني .

ـ كيف ، أما تصدّقني وتثق بي ؟

ـ الأمر ليس هكذا ، فالمسألة ليست أن أثق بك أم لا . ففي أعمال كهذه ، يمكن أن يحدث كلّ شيء : فإذا أفلست الشركة أصبح بدون أي فلس . أمّا البنك فأمره مختلف .

ـ حسناً ، ماذا كنت ستفعل ؟

ـ كنت سأعيش بهدوء في منزلٍ جديد ، بُني حديثاً . . . ومن حولنا جيران طيّبون ، أنت مثلاً . . . لا ، فأنت لا تستقر في مكان واحد . . .

ـ هل كنت ستستقر إلى الأبد ؟ هل كنت ستقلع عن الذهاب إلى أي مكان ؟

ـ أجل !

ـ ما هو الغرض إذاً من سعي الناس لبناء السكك الحديدية ، والمعابر والممرّات ، إذا كان المثل الأعلى للحياة أنْ تستقر في مكانك بلا حركة ؟

ـ الناس كثر بدوننا ، ألا يكفي ما عندنا من مديري أعمال ، وموظفين وتجار ، ورحّالة فضوليين ، لا يستقرون في مكان ؟

ـ وأنت ، من تكون ؟

صمت أبلوموف .

ـ ضمن أيّ فئة ، أو طبقة من المجتمع تصنّف نفسك ؟

— سل زاخار ، — أجاب أبلوموف .

نفّذ شتولتس ، حرفياً ، رغبة أبلوموف .

زاخار ! — صاح شتولتس .

جاء زاخار بعينين ذابلتين يملأهما النعاس .

— من هذا المستلقي هنا ؟ — سأل شتولتس .

صحا زاخار فجأة ، ثم أخذ ينظر بريبة من طرف عينه ، إلى شتولتس ، ثم إلى أبلوموف .

— كيف من ؟ ألا تراه ؟

— لا — قال شتولتس .

— إنه السيد النبيل ، إيليا إيلييتش .

ضحك شتولتس بسخرية .

حسناً ، انصَرِفْ .

— السيّد النبيل ! — كرّر شتولتس ، ثم انفجر بالضحك .

— فلنقل جنتلمان — صحّح أبلوموف بأسى .

— لا ، لا ، فأنت سيّد نبيل ! — أضاف شتولتس وهو يضحك .

— وما الفرق ؟ — قال أبلوموف — الجنتلمان — كالسيّد النبيل .

— الجنتلمان هو السيّد ، الذي يلبس جواربه ويخلع حذاءه بنفسه — قال شتولتس محدّداً .

— أجل ، الإنكليزي يفعل هذا بنفسه ، لأن الخدم عندهم ليسوا كثراً ، أما الروسي . . .

— أكمِلْ رسم مثل حياتك الأعلى . . . أصدقاء طيّبون من حولنا ؛ ماذا أيضاً ؟ كيف كنت ستمضي أيامك ؟

كنت سأنهض صباحاً — تابع أبلوموف ، واضعاً يديه تحت رأسه وبدا وجهه مطمئناً هادئاً : فقد أصبح خياله في القرية . — الطقس رائع ، السماء زرقاء صافية ، لا أثر فيها للغيوم ، إحدى شرفات المنزل تطلّ من جهة الشرق ، حسب مخطّطي ، على حديقة وحقول ، بينما تطلّ الجهة الأخرى على القرية . وبانتظار أن تستيقظ زوجتي ، ألبس ردائي ، وأتمشى في الحديقة متنعّماً بنسيمات الصباح المنعشة وأجد البستانيّ هناك ، فنسقي الأزهار معاً ، ونشذّب الأغصان والأشجار . ثم نقطف باقة من الأزهار والورود لزوجتي وأذهب بعد ذلك لأستحمّ في النهر ، أو في حوض الاستحمام ، وأعود — فأجد زوجتي وهي تنتظرني على الشرفة في قميص فضفاض فتقول لي « الشاي جاهز » ثم تقبلني . يا لها من قبلة ! ياله من شاي فاخر ! ياله من كرسي مريح ! أجلس بالقرب من الطاولة ؛ فأجد عليها الخبز المجفّف ، والقشطة والزبدة . . .

— ماذا بعد ؟

ثم أرتدي سترةً ما فضفاضة وأمسك زوجتي من خصرها ، ونغوص في رواق طويل مظلم ، لا نهاية له ، ونحن نسير بهدوء وتأمل مستغرقين في التفكير . نحلم ، نحصي لحظات سعادتنا ، كما يحصي المرء نبضات قلبه ؛ نصغي إلى قلبينا وهما يخفقان ويهدآن ؛ نبحث

في الطبيعة عن الرقة والحنان . . . ثم نخرج من الرواق ، دون أن نشعر ، إلى النهر والحقل . . . فنرى النهر وقد فاق من نومه منذ لحظات ، والسنابل تتموّج بتأثير النسيمات ، التي تلامس رؤوسنا . . . ثم نجلس في قارب ، فتجدّف زوجتي محرّكة المجداف ببطء . . .

ـــ يا لك من شاعر ، يا إيليا ! ـــ قال شتولتس مقاطعاً .

ـــ أجل ، الشاعر تخلقه الحياة . لأن الحياة هي الشعر . كم يشوّهها الناس على هواهم ! يمكن الذهاب بعدها إلى المستنبتات الزجاجية ـــ تابع أبلوموف شارباً حتى الثمالة من السعادة التي صوّرها لنفسه .

استمد أبلوموف من الخيال ، اللوحات والصور الجاهزة ، التي رسمها منذ زمن بعيد ، لذلك كان يتحدث بحماس ودونما توقف .

بعد ذلك نتفقد أشجار الخوخ . وكرم العنب ـــ قال أبلوموف متابعاً حديثه ـــ ونطلب إحضار ما لذّ وطاب منها إلى الطاولة ، ثم نعود ونتناول افطاراً خفيفاً وننتظر الضيوف ـــ أوْ كَأَنْ نتلقّى رسالة موجهة إلى زوجتي من إحدى السيدات ، من ماريا بتروفنا ، على سبيل المثال ، مع كتاب ودفاتر ، أو أناناساً أرْسِل لنا بصفة هدية .

وينضج عندنا في المستنبتات الزجاجية ، بطيخ أحمر رائع ، فنرسله إلى صديق طيب لوجبة الغداء في اليوم التالي ، ثم نتوجه إلى هذا الصديق لزيارته . . . وفي هذه الآونة يجري العمل في مطبخنا على قدم وساق ؛ الطباخ يروح ويجيء في مئزره الأبيض كالثلج معتمراً قلنسوته ، فيضع حلّة ويرفع أخرى ، يحرّك العجينة هناك ، ويبدأ يقلّبها هنا ، ثمّ

يصبّ الماء . . . ويسمع وقع الكاكين بقوة . . . وهي تفرم الخضراوات . . . بينما يعدّون البوظة هنا . . . ما أمتع أن يدخل المرء إلى المطبخ قبل الغداء ، فيرفع غطاء طنجرة ، ويشمّ الرائحة الزكية ، ويشاهد كيف يعدّون الفطائر ، ويصنعون القشطة . بعدها أستلقي في متكئي ، فتقرأ الزوجة شيئاً ما جديداً بصوت مسموع ؛ فنتوقف ونتجادل . . . ويأتي الضيوف ، أنت وزوجتك على سبيل المثال .

— هه ، أتريد أن تزوّجني أيضاً ؛ ؟

— حتماً ! ويأتي صديقان ، أو ثلاثة أصدقاء أيضاً ، أي نفس الوجوه ، التي تتردّد إلينا . ثم نبدأ حديث البارحة الذي لم ينته ونتبادل النكات ، أو يرين صمت معبّر ، وتفكير عميق — ليس من جرّاء القلق ، بل بسبب وفرة الرغبات المتحقّقة ؛ إنه تأمّل المتعة والسعادة . . . فلن تسمع أحداً يرغي ويزبد وهو يجرّح الغائبين ، ولن تلاحظ نظرة وعيد توجّه إليك ، كأنْ يقول صاحبها لك ، ما إنْ تخرج ، حتى ينالك ما ينال الآخرين من قَدْح وذم . ولن تذوق الملح إلا مع من تحبّ ومع من هم في غاية الطيب والجودة . وستجد في أعين محدّثيك التعاطف ، وفي النكتة ضحكاً صادقاً ، لا شريراً — فكل شيء سيكون صميمياً ! فكل ما تلحظه في العيون ، وتسمعه في الأحاديث ، هو في القلب حقيقة ! وبعد الغداء ، نتناول القهوة على الشرفة . . .

— إنك تصوّر لي نفس اللوحة ، التي عاشها الأجداد والآباء .

كلا ، ليست نفسها — ردّ أبلوموف بطريقة تعبّر عن الاستياء —

أين وجه الشبه ؟ هل قلت ، ان زوجتي تجلس لاعداد المربيات وأنواع الفطر ؟ هل تضرب الخادمات على وجوههن ؟ هل تمسك صنّارتها وتحيك شيئاً ، فأنت لم تسمع ما قلته إذن : دفاتر ، كتب ، بيانو ، وأثاث رائع .

— وأنت بالذات ماذا كنت ستفعل ؟

كنت سأمتنع عن قراءة جرائد السنة الماضية ، وعن استخدام تلك العربات التي تخلو من مسحة جمالية ، ولتوقفت عن تناول الحساء بالشعيرية وأكل الإوز ، ولأرسلت طبّاخي كي يتعلّم إعداد الطعام في المطبخ الإنكليزي ، أو في منزل سفير .

— وماذا بعد ؟

بعدها ، أرسل عربة مع سماوار وحلويات بمجرّد أن يحلّ القيظ إلى أحراش البتولا أو إلى أحد الحقول الخضراء ، فنفرش السجّاد على الأرض الخضراء ، ونتنعّم بتناول حساء الخضراوات البارد والبفتيك ، ونستمتع برؤية الفلاحين وهم عائدون من الحقول ، والمناجل على أكتافهم ؛ ثم نرى الحشائش المجففة وأكداساً من سنابل القمح قد حجبت العربة كلها والحصان أيضاً ، بينما يُلمَح من الأعلى ، من بين الأكداس قبعة فلاح ورأس صبيّ ؛ ويُلْمَح هناك أيضاً حشد من النسوة وهنّ حافيات مع مناجلهنّ ، يتحدثن بصوت عال . . . ثم يشاهدْنَ فجأة أسيادهن ، فيصمتن ويحنين رؤوسهن تحيةً وإجلالاً . ترى إحداهنّ وقد لوّحت الشمس عنقها ومرفقيها المشمّرين ، تتفادى

نظرات سيدها اللطيفة ، على الرغم من إحساسها العميق بالسعادة . . .
من أجل ألاّ تراها زوجة سيّدها وهي تبادله النظرات
استرسل كل من أبلوموف وشتولتس بالضحك .

يصبح الجوّ رطباً في الحقل — ختم أبلوموف حديثه — ويخيّم الظلام ؛ أما الضباب فيغطي بكثافة حقول الجودار ، بينما تضرب الخيول الأرض بحوافرها : ويحين وقت الذهاب إلى البيت . الأضواء تغمر البيت ، بينما يسمع وقع السكاكين في المطبخ ؛ حيث يُحضَّر الفطر . والشرحات وبقية المأكولات . . . الموسيقى تصدح . . . — راح أبلوموف يغنّي الكلمات الأولى من أغنية إيطالية . . . أيتها العذراء الطاهرة ! . . . أيتها العذراء الطاهرة ! إنني لا أستطيع أن أتّخذ موقف اللامبالاة ، عندما أتذكّر هذه الأغنية — قال أبلوموف وهو يدندن مطلع هذه الأغنية العاطفية ، — كم تُفَرِّج هذه المرأة عن القلب ! كم هي حزينة هذه الأصوات ! . . . ما من أحد يعرف شيئاً عما يدور حولها . . . إنها وحيدة . . . الغموض يكتنفها . . . يستودع القمر سرّها . . .

— هل تحب هذه الأغنية الأوبرالية المنفردة ؟ إنني في غاية السرور : فأولغا إيلينيسكايا تؤدّيها بشكل رائع . سأعرّفك عليها — يا لجمال صوتها ، وعذوبة غنائها ! إنها إنسانة ساحرة ! بالمناسبة ، لا بدّ من الإعتراف ، بأنّ حكمي عليها مشبوب بالعاطفة : فأنا أشعر بالضعف تجاهها . . . ومع ذلك لا أريدك أن تنشغل عن الموضوع ، — قال شتولتس مضيفاً — تابع حديثك !

– وماذا أيضاً ؟ – أضاف أبلوموف – يبدو أنني قد أنهيت حديثي . . . يفترق الضيوف ، حيث يذهب كل منهم إلى جناحه ومنزله ؛ وفي الغد تراهم يمارسون أعمالاً مختلفة : فمنهم من يصطاد بالصنّارة ، وآخر بالبندقية ، بينما يجلس البعض منهم في البيت . . .

– هكذا دون أن يمسك شيئاً بيديه ؟ – سأل شتولتس .

– ما الذي تريده ؟ إنه يمسك على الأرجح منديل جيب . ألا تريد أن تعيش هكذا ؟ – سأل أبلوموف – آه ؟ أليست هذه هي الحياة ؟

– أتستطيع أن تعيش هكذا حياة طيلة العمر ؟ سأل شتولتس .

– حتى يشيب الشعر ، وإلى اللحّد . هذه هي الحياة !

– كلا ، فهذه ليست الحياة !

– كيف ! ما الذي ينقصها ؟ فكِّرْ جيداً ، فالحياة التي وصفتها خالية من الوجوه الشاحبة المعذبّة ، ومن الهموم ، فلن تسمع فيها سؤالاً واضحاً عن بورصة الأسواق المالية ، ولا عن الأسهم والخطب ، ولا عن استقبالٍ لدى وزير ، ولا حديثاً عن الرتب والمناصب والنقود . فكلّ الأحاديثٍ فيها صميمية ، وجدانية من القلب ، وإلى القلب ! فلن يحتاج المرء فيها أبداً ، لأن ينتقل من شقة إلى أخرى – فهذا وحده كافٍ ليعطيها قصب السبق ! أليست هذه هي الحياة المنشودة ؟

– هذه ليست هي الحياة ! – كرّر شتولتس بعناد .

– إذن ، ما هذه حسب وجهة نظرك ؟

— هذه . . . . (فكّر شتولتس ، وهو يبحث عن كلمة يصف بها هذه الحياة) . إنها نوع . . . نوع من الأبلوموفية ، — قال شتولتس أخيراً .

— أبلوموفية ! — لفظ إيليا إيليتش الكلمة ببطء ، مستغرباً هذه الكلمة ، وهو يجزّئها إلى مقاطع — أب — لو — مو ف — يّة ! .

أخذ ينظر إلى شتولتس باستغراب وإمعان .

— أين مثل الحياة الأعلى ، في رأيك ؟ وما هو الأمر الذي لا تسميه أبلوموفية ؟ — سأل أبلوموف ، بحياد ، وبلا حماس . — ألا يسعى الجميع لبلوغ ما أحلم به ؟ — ثم أضاف وهو يتجرّأ أكثر فأكثر — أليس هدف ركضك وهمومك ، ومشاغلك وحروبك وتجارتك وسياستك ، تحقيق الطمأنينة والهدوء والسعي لبلوغ هذا الهدف العظيم ؟

— إن خيالك ومثلك الأعلى هو من النوع الأبلوموفي أيضاً — قال شتولتس معترضاً .

— كل الناس يبحثون عن الراحة والطمأنينة والهدوء — أجاب أبلوموف مدافعاً عن وجهة نظره .

— ليس كل الناس ، حتى أنت نفسك لم يكن ذلك هو الهدف الذي كنت تبحث عنه في الحياة منذ عشر سنوات .

— عمّ كنت أبحث ؟ سأل أبلوموف بارتباك متذكراً الماضي . . .

— تَذَكَّرْ ، وتَفَكَّرْ . أين كتبك وترجماتك ؟

— لقد أخفاها زاخار في مكانٍ ما . إنها مرمية في أحد أركان هذا المنزل .

— في أحد أركان المنزل ! — قال شتولتس معاتباً . — أجل ، لقد أصبحت أفكارك وأحلامك مرمية في أحد أركان هذا المنزل ، (فأنت ، الذي كنت تقول (« بأنني سأعمل ما دمت أملك ذرة من الجهد والقوة ، لأن روسيا بحاجة إلى عقول وأيد لاستثمار ثرواتها التي لا تنضب ؛ العمل واجب من أجل ان يرتاح المرء بمتعة أكبر ، أما الراحة فتعني أن يعيش المرء الجانب الآخر من الحياة ، الجانب الإبداعي الفني ، أيْ حياة الفنانين والشعراء » . ألمْ يرمِ زاخار بهذه الأفكار كلها في أحد أركان المنزل ؟ ألا تذكر ، بأنك كنت تريد بعد قراءة كتبك تلك ، أنْ تجوب أصقاع العالم كلها ، من أجل أن تحبّ بلدك أكثر وتتعرف عليه بشكل أفضل ؟ « الحياة كلها عبارة عن فكر وعمل — هذا ما كنت تؤكده في ذلك الوقت ، — فالعمل حتى وإنْ كانت نتيجته مجهولة ، غامضة ، فيجب أن يستمر بلا انقطاع . كي يموت المرء وهو مقتنع بأنه فعل كلّ ما يستطيع » . أليس هذا ما كنت تقوله ؟ في أي ركن رميت بهذه الأفكار ؟

— أجل . . . أجل . . . . — قال أبلوموف ، وهو يتابع ، بقلق ، كل كلمة قالها شتولتس ، — أذكر ، بأنني قلت . . . لكنه يبدو . . . . — قال أبلوموف بشكل متقطع ، وقد استذكر الماضي فجأة ، — أجل ، لقد كنّا يا أندريي عازمين في البداية ، أن نجوب أوروبا طولاً وعرضاً ، وأن نجتاز سويسرا مشياً على الأقدام ، وندفىء أقدامنا على بركان فيزوف . كدنا أن نفقد عقولنا آنذاك ! يا لها من حماقات !

ــ حماقات ! ــ كرّر شتولتس معاتباً . ــ ألست أنت الذي كنت تقول والدموع تطفر من عينيك ، وأنت تنظر إلى صورة مريم العذراء المحفورة على يد رافاييل ، وإلى لوحة الليل لكوروجيو ، وإلى لوحات أبولون بيلفيد يرسكي : « يا إلهي ! ألن يسمح الدهر لي مرّة بأن أقف مشدوهاً وأنا أنظر إلى اللوحات الأصلية لميكيل آنجلو ويتسيان وأن تطأ قدماي أرض روما ؟ أيعقل أن تمضي العمر وأنت ترى أشجار السرو والنارنج في المستنبتات الزجاجية ، دون أن تراها في موطنها الأصلي ؟ كيف استغنيت عن تنشّق هواء إيطاليا ، والتمتع بسمائها الزرقاء الصافية ! » . كم من الألعاب النارية المدهشة ، التي لم ترها ! حماقات آه!

ــ أجل ، أجل ، أذكر ! ــ قال أبلوموف وهو يتذكر الماضي لقد أمسكتني ، أيضاً ، بيدي وقلت : « عهداً ، بأننا سنرى كلّ هذا . . . »

ــ أذكر ــ تابع شتولتس ، كيف جلبت لي ، ذات مرّة ، ترجمة من سيي هديّةً لي في عيد التسمية ؛ لا تزال الترجمة محفوظة عندي بالكامل . أتذكر كيف انفردت مع أستاذ الرياضيات ، وأنت تريد أن تعرف سبب دراستك للدائرة والمربعات ؟ أذكر كيف بدأت تتعلّم الإنكليزية . . . لكنك لم تتعلمها ! وعندما وضعت خطة سفرنا المشترك إلى الخارج ، أذكرُ أنني ناديتك كي نتفق معاً للقيام بزيارة خاطفة إلى الجامعات الألمانية ، فقفزت وعانقتني ، ثم مددت لي يدك مرَحِّباً وأنت تقول لي : « إنني سأرافقك إلى أيّ مكان تذهب إليه » .

— هذه كانت كلماتك . لقد كنت دائماً ممثلاً . أليس كذلك يا إيليا ؟ لقد ذهبت مرتين إلى الخارج ، بعد اتفاقنا الحكيم ذاك ، وجلست بوداعة على مقاعد الدراسة الجامعية في بون ويسن وإرلانغن ؛ ثم تعرفت على أوروبا فيما بعد ، فعرفتها كما أعرف أملاكي . لنفترض رغم ذلك كله أن السفر خارج الحدود هو نوع من الرفاه لا يقدر كل الناس عليه ، وغير مضطرين للقيام به ؛ لكن هل هذا ينطبق على روسيا ؟ لقد رأيت روسيا وحببتها في الطول والعرض . إنني أعمل ، أكدح

— سيأتي اليوم الذي تتوقف فيه عن العمل . علق أبلوموف .

— لن أتوقف عن العمل أبداً . من أجل أي شيء أتوقف ؟

— ستتوقف عندما تضاعف رؤوس أموالك .

— لن أتوقف ، حتى ولو ازدادت رؤوس أموالي أربع مرات .

— وما نفع الجهد ، إذا لم يكن هدف حياتك تأمين نفسك إلى الأبد ، كي تخلد فيما بعد إلى الهدوء والراحة ؟ — قال أبلوموف .

— يا لها من أبلوموفية ريفية ! — قال شتولتس .

— فالجهد الذي تبذله ، يرمي إلى احتلال مكان مرموق في المجتمع . كي تنعم فيما بعد ، دون القيام بأي عمل ، براحة حقيقية . . .

— يا لها من أبلوموفية بطرسبورغية ! — قال شتولتس معترضاً .

— متى ستهنأ بعيشك إذن ؟ — اعترض أبلوموف بأسى على ملاحظات شتولتس . — لماذا تتعذب طوال الدهر ؟

— من أجل العمل بالذات ، لا من أجل شيء آخر . فالعمل هو

شكل الحياة ومضمونها وعنصرها وهدفها ؛ هذا ما يمثله بالنسبة لي على الأقل . فإذا ما انتفى العمل من الحياة : كيف تصبح الحياة نفسها ؟ سأحاول أنْ أبعث فيك الحياة ، ربما للمرة الأخيرة . فإذا تابعت الجلوس هنا مع تارانتيف وألكسييف ، فإنك ستضيع نهائياً ، وستصبح عبئاً على نفسك بالذات . إذا لم يكن الآن ، فلن يكون أبداً ! — ختم شتولتس كلامه .

كان أبلوموف يصغي وهو ينظر إليه بعينين قلقتين . كان صديقه قد وضع أمامه مرآة ، فارتعد خوفاً ، لأنّه رأى نفسه على حقيقتها .

— (متنهداً) لا توبّخني يا أندريي ، فمن الأفضل حقيقة أن تساعدني ! .

إنني أتعذّب بسبب هذا ، فلو شاهدتني وسمعتني اليوم فقط ، وأنا أحفر قبري بيدي وأندب نفسي ، لأحجمت عن توجيه كلمات اللوم لي . فأنا أعرف كل شيء ، وأدرك كل شيء ، لكنني أفتقد القوة والإرادة تماماً . أعطني إرادة مثل إرادتك ، وعقلاً مثل عقلك ، وخذني عندها حيثما تشاء . فربّما أسير وراءك ، لكنني لن أبرح مكاني لوحدي . إنك تقول الحقيقة : « إذا لم يكن الآن ، فلن يكون أبداً » . فإذا انقضت سنة أخرى على حالتي هذه — سيكون الوقت بعدها قد أصبح متأخراً ! .

— هل أنت إيليا حقاً ، — قال أندريي — أذكرك عندما كنت صبياً نحيفاً ، تضجّ حيويةً وأنت تروح كل يوم إلى الحديقة . . هل

نسيت الأختين ، هل نسيت مؤلفات روسو ، شيللر ، غوته ، وبايرون .
التي كنت تحملها إليهما لتأخذ منهما بالمقابل روايات كوتن وجان ليز...
وأنت تتباهى أمامهما ، وكذلك رغبة في جذب انتباههما . . .

— انتفض أبلوموف بسرور .

— كيف تذكر هذا كله يا أندريي ؟ كيف لا أذكر ! كنت أحلم معهما ، وأمنيّ نفسي بالآمال الواعدة . كنت أرسم الخطط وأطورها ، كنت أضع الأفكار ... والمشاعر أيضاً ، خفية عنك كي لا تسخر مني . لقد مات كل شيء ، ولن يتكرر ذلك أبداً ! أين اختفى هذا كله — بسبب أي شيء تلاشى ؟ ذلك ما لا أستطيع إدراكه ! فلم تعصف بحياتي الزوابع ولا الهزات ، ولم أفقد شيئاً ، ولم يثقل كاهلي شيء : فضميري مرتاح ، صافٍ كالزجاج الشفاف ، فلم تتعرّض مشاعري وعواطفي لهزة عنيفة . الله وحده يعلم لماذا ضاع كل شيء !

ثمّ تنهدّ .

— أتعرف يا أندريي ، إنه لم تضطرم في حياتي قط ، نار منقذة ولا مدمرّة ؟ فلم تكن حياتي تشبه الصباح ، الذي يصطبغ تدريجياً ، بخضاب الحمرة ، الصباح الذي يتحول تدريجياً إلى نهار ، كما هو عند الآخرين ، ثم يضطرم ويجيش ، ويتحرك كل شيء في وضحه ، ويخفت ويشحب ويخبو بعد ذلك تدريجياً ، بشكل طبيعي عند المساء . كلاّ لم تكن حياتي هكذا ، فقد ابتدأت هامدة خامدة . إنه لأمر يدعو للغرابة ، أن تجري الأمور على هذا النحو ! فمنذ اللحظة الأولى ، التي

وعيت فيها ، شعرت انني أنطفىء . بدأت أنطفىء وأنا أدوّن الوثائق في الدائرة أثناء الخدمة الوظيفية ؛ أخذت أنطفىء بعد ذلك وأنا أستنبط الحقائق من بطون الكتب ، دون أن أعرف استخدامها في الحياة . كنت أنطفىء وأنا أسمع أصدقائي وهم يتناقشون ، ويمارسون النميمة والسخرية من الآخرين ، بدأت أنطفىء وأنا أسمع أصدقائي يثرثرون ويجترّون كلاماً فارغاً لا معنى له ، بدأت أنطفىء وأنا أرى ذلك النوع من الصداقة ، التي تقتصر على اجتماعات ولقاءات خالية من أي هدف أو معنى . خالية من أيّ تعاطف ؛ أجل كنت أنطفىء وأبدّد قواي وأنا أذرع شارع نيفسكي جيئة وذهاباً بأسى وخمول ، كنت أنطفىء وأنا أحضر الأمسيات وحفلات الاستقبال ، حيث كنت أُقابَل بالترحاب كعريس محتمل ، لقد انطفأت وبددّت حياتي وذهني على صغائر الحياة وتوافهها وأنا أتنقل من المدينة إلى القرية ، ومن القرية إلى جورورخوفا ، محدّداً الربيع بنقل المحار والسرطان البحري ؛ والخريف والشتاء بأيام الاستلقاء والنوم ، والصيف بالنزهات ، والحياة كلّها بنوم هادىء كسول . . . وحتى عزّة النفس والكرامة ، كيف كنت أفهمها ؟ هل كنت أفهمها من خلال بدلة أخيطها عند خياط شهير ؟ أم من خلال زيارة بيت معروف ؟ أو من خلال مصافحة أمير ذائع الصيت ؟ فالكرامة هي ملح الحياة ! لكن ، أين ذهبت ؟ أحد أمرين ، فإما أنني لم أفهم هذه الحياة ، أو أنها لا تستحق الجهد والتعب ، فالخير لم أره ولم أعرفه ولم يدلّني أحد عليه . فأنت ظهرت في حياتي كالكوكب المذنّب ،

ساطعاً ، سريعاً ، لكنك اختفيت بسرعة ، فنسيت بعدها كل شيء وانطفأت همتي . . .

لم يجب شتولتس باستخفاف ساخر على حديث أبلوموف . كان يصغي إليه وهو صامت عابس .

— لقد قلت لي منذ زمن بعيد ، أنّ وجهي قد فقد نضارته . وأصبح متغضّناً ، — تابع أبلوموف كلامه ، — أجل ، إنني مترهّل ، هرم ، كالثوب البالي ، ليس بسبب المناخ ، ولا العمل ، بل بسبب النور ، الذي بقي حبيساً بداخلي طوال اثني عشر عاماً وهو يبحث عن مخرج ، لكنه لم يستطع أن ينعم بالحريّة وينفلت إليها ، فَحَرَقَ سجنه ، ثم انطفأ . هكذا أمضيت اثني عشر عاماً يا عزيزي أندريي ، على هذا النحو : فلم تعد لديّ الرغبة لأن أستيقظ بعد الآن .

— لماذا لم تنطلق ، وتفرّ إلى مكان ما ، وأنت تهلك بصمت ؟ سأل شتولتس بلهفة .

— إلى أين ؟

— إلى أين ؟ حبّذا لو ذهبت مع فلاّحيك إلى الفولغا : فهناك حركة كبيرة ، حيث يوجد هدف ، وعمل ومصالح . لو كنت مكانك لذهبت إلى سيبيريا .

— إنك تُورد أموراً كثيرة صعبة ! — لاحظ أبلوموف بكآبة — أتظن أنني الوحيد الذي يتصرّف هكذا . ؟ هناك غيري أيضاً : ميخايلوف بتروف ، سيمينوف ، ألكسييف وستيبانوف . . . إنك لن تستطيع إحصاءهم : فهم يشكلون فيلقاً بكامله !

كان شتولتس ما يزال خاضعاً لتأثير هذا الاعتراف وهو صامت . ثم تنهد بعد ذلك .

— أجل لقد جرت مياه كثيرة ! — قال شتولتس — لن أدعك على هذه الصورة ، سأخرجك من هنا ، وسأذهب بك أولاً إلى الخارج ، ومن ثمّ إلى القرية : فستنحف بعض الشيء ، ويزول اكتئابك ، ثم نبحث هناك عن عمل ما . . .

— أجل ، فلنغادر هذا المكان إلى جهة ما !—أفلتت هذه العبارة من أبلوموف .

— غداً سنبدأ السعي لتأمين جواز السفر ، وبعدها سنستعد للسفر . . . لن أتركك ، أتسمعني يا إيليا ؟

— كلّ شيء عندك يُحَلّ في الغد ! فأنت تستعجل الأمور كثيراً — قال أبلوموف معترضاً ، كأنك هابط من السماء .

— أتُريد أن نؤجل إلى الغد ما نستطيع أن نفعله اليوم ؟ يا للنشاط !— أضاف شتولتس — فخلال أسبوعين سنكون في مكان بعيد جداً . . .

— ما بالك يا أخي ، خلال أسبوعين ، هكذا فجأة ! . . . أعطنا وقتاً لنفكّر ونستعد كما ينبغي . . . فسنحتاج إلى عربة ما . . . ربما يلزمنا ثلاثة أشهر من الوقت .

— ابتكَرَ ذريعة ! سنسافر حتى ليوبك على الحدود ، إما بواسطة عربة البريد أو باخرة ، فهذا يتوقف على الواسطة ، التي ستؤمن لنا راحة أكثر : ستتوفر هناك سكك حديدية في أماكن عدّة .

— والشقة ، وزاخار ، وأبلوموفكا ؟ يجب أن نتصرّف ، — قال أبلوموف مدافعاً عن وجهة نظره .

— إنها الأبلوموفية ، الأبلوموفية ! — قال شتولتس ، وهو يضحك ، ثم أخذ الشمعة ومضى لينام بعد أن تمنى لأبلوموف ليلة هانئة — الآن وإلاّ فلا — تذكّرْ ! — أضاف شتولتس مخاطباً أبلوموف ، ثم أغلق الباب وراءه .

— ٥ —

« الآن وإلاّ فلا ! » — بدا وقع هذه الكلمات رهيباً مخيفاً على مسمع أبلوموف ، بمجرد أن استيقظ صباحاً .

نهض من فراشه وأخذ يتمشى في الحجرة ، ثم ألقى نظرة على غرفة الاستقبال ، فوجد شتولتس جالساً وهو يكتب .

— زاخار ! صاح أبلوموف .

لم تُسْمَع قفزة من مضجع زاخار — فهو لم يأت : لأن شتولتس أرسله إلى البريد .

اقترب أبلوموف من طاولته المكسوة بالغبار ، ثم جلس وتناول ريشة وغمسها في المحبرة ، لكنه وجدها خالية من الحبر تماماً . أخذ يبحث عن ورقة ، فلم يعثر عليها أيضاً .

استغرق في التفكير وراح يحرك إصبعه بصورة آلية على الغبار ، ثم نظر إلى ما كتبه فوجد ما يلي : أبلوموفية .

مسح أبلوموف بسرعة ما كتبه . لقد صادف هذه الكلمة في حلمه ، حيث رآها مكتوبة بالأضواء على الجدران .

عندما عاد زاخار ، ووجد سيده واقفاً على قدميه ، رماه بنظره مريبة ، مبدياً استغرابه ، لأنه وجده خارج سريره . ففي نظرة الاستغراب تلك ، كان يمكن للمرء أن يقرأ بوضوح : « أبلوموفية ! »

« لقد خمّن إيليا ايلييتش الكلمة الوحيدة ، التي كانت تُستَشفّ من نظرة زاخار ، لكن أية كلمة . . . إنها كلمة لاذعة ! . . . » .
أخذ زاخار المشط وفرشاة الشعر والمنشفة كعادته واقترب ليمشّط شعر إيليا إيلييتش .

ــ اذهب إلى الشيطان ! ــ قال أبلوموف بغيظ ، ثم أخذ من يده فرشاة الشعر ، بينما سقط المشط من يد زاخار على الأرض .

ــ ألن تستلقي ثانية يا سيدي ؟ ــ سأل زاخار .

ــ أجلب لي حبراً وورقة ، ــ أجاب أبلوموف .

راح أبلوموف يمعن التفكير بتلك الكلمات : « الآن وإلاّ فلا ! » .

أدرك أبلوموف وهو ينصت إلى هذا النداء الرهيب ، نداء العقل والقوة والإرادة ، أن بقية ضئيلة من الإرادة لا تزال باقية لديه ، لا يعرف إلى أين يذهب بها وأين يوظفها .

بعد تفكير مضنٍ ، التقط ريشة ، وأخرج من إحدى الزوايا كتاباً ، فقد كان يريد خلال ساعة واحدة أن يقرأ ويكتب كل ما لم

يقرأه ويكتبه ، ويحسم كل شيء لم يستطع إقراره في غضون عشر سنوات .

ماذا ينبغي عليه أن يفعل الآن ؟ أيمضي قدماً إلى الأمام أم يبقى مكانه ؟ فهذا السؤال الأبلوموفي بالنسبة له ، أصعب وأعمق من تساؤل هاملت . السير إلى الأمام معناه أن يخلع فجأة رداءه الفضفاض ، ليس عن أكتافه فحسب ؛ بل وعن روحه وعقله أيضاً ؛ وأنْ يزيل الغبار وخيوط العنكبوت ؛ بل العنكبوت ذاته عن الجدران ، والغشاوة عن عينيه .

ما هي الخطوة الأولى ، التي يجب القيام بها على هذه الطريق ؟ من أي شيء أبدأ ؟ لا أعرف ، لا أستطيع . . . كلا . . . لكن شتولتس موجود معي ؛ سيقول لي الآن ما يتوجب عليّ عمله .

ماذا سيقول ؟ « سيقول لي ، بأننا سنضع تعليمات تفصيلية خلال أسبوع لوكيل أعمالنا ، الذي سنرسله إلى قرية أبلوموفكا ليعيد تنظيم أملاكي وترتيبها ، على أن نوافيه بمخطط الأبنية الجديدة ، التي ستقام هناك ، وسيطلب شتولتس مني بأن أسلّم الشقة ، التي أسكنها ، وأن أستلم جواز السفر ، ثم نسافر بعدها إلى الخارج لمدة نصف عام ، وأن أزيل الشحم الذي تكدّس على بدني ، وأتخلّص من عبئه المقيت ، وأنعش روحي بتنشّق الهواء النقي ، الذي كنت أحلم باستنشاقه يوماً ما مع صديقي ، وأنْ أعيش بدون رداء فضفاض ، وبدون زاخار وتارانتييف ، وأن ألبس جواربي وأخلع حذائي لوحدي ، دونما

مساعدة من أحد ، وأن أنام في الليل فقط ، وأسافر إلى حيث يسافر الجميع مستخدماً القطارات والبواخر ، وبعدها . . . بعدها — . . . أستقرّ في أبلوموفكا ، وأتعرّف على الزرع والمحصول ، وأقف على الأسباب ، التي تجعل بعض الفلاحين أغنياء ، والبعض الآخر فقراء ؛ وأذهب إلى الحقل ، وأشارك في الانتخابات ، وأزور المصانع والطواحين والمرفأ ، وأقرأ في الوقت نفسه الجرائد ، والكتب وأهتم بالأسباب التي دفعت الإنكليز لإرسال باخرة إلى الشرق . . . »

ذلك ما سيقوله لي ! هذا ما يعنيه السير إلى الأمام . . . وهكذا طيلة الحياة ! وداعاً ، يا مثال الحياة الشاعري ! فهذه ورشة حدادة أكثر من كونها حياة ؛ فكلها لهيب ، وقرقعة ، وثرثرة ، وضجة . . . أين الحياة فيها ؟ متى سيستطيع المرء العيش على هذا المنوال ؟ أليس من الأفضل أن أبقى كما أنا ؟ البقاء يعني أن ألبس القميص بالمقلوب ، وأسمع وقع أقدام زاخار وهو يقفز من مضجعه ، وأتغدّى مع تارانتييف وأقلّص تفكيري بكل شيء ، وأظلّ عاجزاً عن أن أكمل قراءة كتاب الأسفار إلى أفريقيا ، وأهرم في الشقة عند إشبيينة تارانتييف . « الآن ، وإلاّ فلا ! » « أن نكون أو لا نكون ! » . نهض أبلوموف قليلاً من كرسيه ، لكن قدمه لم تقع مباشرة في خفه ، فعاد وجلس من جديد .

سافر شتولتس بعد أسبوعين إلى انكلترا بعد أن أخذ من أبلوموف عهداً بأن يوافيه مباشرة إلى باريس ، فقد كان جواز سفر إيليا إيليييتش جاهزاً . حتى انه أوصى على معطف سفر ، واشترى سيدارة جديدة ، أرأيتم كيف تحركت الأمور !

اشترى أبلوموف بطانية ، وصدرية من الصوف ، وحقيبة سفر ، وكان يريد أن يشتري كيساً للمؤونة ، لكن عشرة رجال قالوا ، بأن المؤونة لا تنتقل إلى الخارج .

كان زاخار يروح ويجيء وهو يتردّد على الصنّاع والمخازن — والعرق يتصبّب منه ، ومع انه احتفظ لنفسه بكثير من القطع المعدنية ، التي جاءته من الصرافة في المخازن ، إلاّ أنه كان يلعن أندريي إيفانوفيتش وكل من ساهم في ابتكار هذا السفر .

— ماذا سيفعل لوحده هناك ؟ — كان زاخار يقول في المخازن — فالفتيات هناك ، هنّ اللواتي يخدمن السادة . أتستطيع الفتاة أن تنزع الحذاء ؟ كيف ستمسك بساقيه العاريتين وهي تلبسه الجوارب ؟ . . .

استغرق زاخار في الضحك ، لدرجة أن فوديه قد برزا من الجانبين ، ثم هزّ برأسه . لم يتكاسل أبلوموف ، فقد دوّن كل ما سيأخذه معه ، وما سيبقيه في البيت . فالأثاث والأغراض الأخرى ، عهد بها إلى تارانتييف كي ينقلها إلى الشقة الجديدة العائدة لإشبينته ؛ والكائنة في ناحية فيبورغ ، وأن يضعها تحت القفل في حجرات ثلاث . ويحرسها لحين عودته من الخارج .

كانت ردود فعل معارف أبلوموف تجاه عزمه على السفر مختلفة : فالبعض كان ينظر للأمر بشيء من الريبة وعدم التصديق ، بينما كان البعض الآخر ينظر بكثير من السخرية ، أما الفريق الثالث فكان ينظر للأمر بشيء من الخوف ، لقد كانوا جميعاً يقولون : « إنه مسافر ، تصوّروا ، أبلوموف تحرّك من مكانه ! » .

لكن أبلوموف لم يسافر ، لا بعد شهر ولا ثلاثة ، ففي المساء السابق لسفره تورّمت شفتاه . « لسعتني ذبابة ، فأصبح متعذراً عليّ السفر في البحر وشفتي متورمة ! »ـ قال أبلوموف وأخذ ينتظر موعد السفينة الأخرى . أقبل شهر آب ، بينما مضى على وجود شتولتس في باريس زمن طويل ، وهو يكتب لأبلوموف رسائل عديده مليئة بالغيظ ، لكنه لم يتلقّ جواباً .

ما السبب يا ترى ؟ على الأرجح ، إنه لم يجد حبراً ولا ورقة . أو لربما بسبب أسلوب أبلوموف في الكتابة ، حيث تتكرّر فيه كلمتان : الذي ، وإنّ ، أو لربمّا كان إيليا إيليتش يصارع نفسه وهو تحت وطأة النداء الرهيب أن نكون أو لا نكون ، فاختار المقطع الأخير ، ووضع يديه تحت رأسه ، واسترسل في نوم عميق ، يصعب على زاخار أن يحرّره منه .

لكنّ المحبرة مليئة بالحبر ، وأوراق الرسائل موجودة على الطاولة أيضاً ، زد على ذلك أنها مُعَنْوَنَةٌ بخط يده .

كتب بضع صفحات . قَلّما أورد فيها كلمة الذي ، فقد كان أسلوبه ينساب بعذوبة ، حتى أنه كان في كثير من الأماكن معبّراً فصيحاً . يذكر بالأيام الخوالي ، التي كان يحلم فيها مع شتولتس بحياة مليئة بالعمل والنشاط ، وبالأسفار .

أصبح أبلوموف يستيقظ في الساعة السابعه صباحاً ، يقرأ ، ويحمل الكتب إلى مكان ما . لم يعد وجهه خاملاً ، مُتْعَباً ، قلقاً ، حتى

انّه صبح متورّداً ، وظهر في عينيه بريق ، ينمّ عن الجرأة أو الاعتداد بالنفس على أقل تقدير . لم يَعُدْ أبلوموف يلبس رداءه الفضفاض : فقد أخذه تارانتييف مع سائر الحاجيات الأخرى إلى الشقة الجديدة العائدة لإشبينته .

أصبح أبلوموف يجلس وهو يمسك كتاباً بيديه ، أو يكتب وهو يرتدي معطفاً ؛ وقد وضع على رقبته شال رقيق جميل ، بينما تتدلّى ربطة عنق من تحت ياقة قميصه البيضاء كالثلج . صار يخرج في صدريته ، التي خيطت بشكل رائع ، وبقبعته الأنيقة . . .

فتراه فرحاً يدندن نغماً . . . ما سبب هذا كله ؟ ها هو ذا يجلس بالقرب من نافذة منزله الكائن في الضاحية (فقد أصبح يعيش في منزل يبعد عدّة فراسخ عن المدينة) ، وبالقرب منه توجد باقة من الأزهار . فهو يدوّن شيئاً ما بسرعة ، بينما ينظر بلا انقطاع ، عبر أغصان الأشجار ، إلى الطريق ، ثم يعود ثانية إلى الكتابة بنشاط .

فجأة ، يُسْمَع صرير الرمال على الطريق تحت وقع خطى رشيقة ، فيرمي أبلوموف القلم ، ويمسك باقة الزهر ويهرع إلى النافذة .

— أولغا سيرغييفنا ؟ إنني قادم على جناح السرعة ! — قال أبلوموف ، ثم خطف سيدارته وراح يركض لملاقاتها ، فمدّ يده لامرأة رائعة الجمال واختفى معها في الغابة ، تحت ظلال أشجار الشوح الضخمة . . .

خرج زاخار من خلف إحدى زوايا المنزل ، وراح يتتبّعه بنظره . ثم أغلق باب الحجرة ومضى إلى المطبخ .

— لقد ذهب ! — قال زاخار مخاطباً أنيسيا .

— هل سيتناول طعام الغداء ؟

— من أين لي أن أعرف ؟ — أجاب زاخار بخمول .

لم يطرأ على زاخار أي تغيير ، فما زال على حاله : فودان كبيران ، لحية غير حليقة ، الصدرية الرمادية الممزقة ذاتها ، لكنه أصبح متزوجاً بأنيسيا ، إما بسبب خلافه مع إشبينته ، أو لمجرد الإعتقاد بأن الرجل يجب أن يتزوج ؛ لقد تزوّج ، لكنه خلافاً للمثل الشائع ، لم يتغير .

سبق لشتولتس أن عرّف أبلوموف على أولغا وعمتّها . فعندما اصطحب معه أبلوموف للمرة الأولى إلى منزل عمة أولغا ، صادفوا ضيوفاً هناك . شعر أبلوموف بشيء من الحرج ، وكان مرتبكاً كعادته . « من المستحسن نزع القفازات ، فالدفء يعمّ الحجرة — فكّر أبلوموف — آه كم نسيت التعامل مع الأشياء ! » .

جلس شتولتس بالقرب من أولغا ، التي كانت تجلس وحدها ، تحت المصباح ، بعيدة عن طاولة الشاي ، وهي تسند ظهرها إلى الكرسي ، فلم تكن تعير إلاّ قليلاً من اهتمامها ، لما يجري من حولها .

سُرَّتْ كثيراً لرؤية شتولتس ، على الرغم من أن عينيها لم تزدادا بريقاً ، ووجنتيها لم تتوردا ، لكن اشراقةً هادئة شاملة غطّت وجهها كلّه ، وبرزت الابتسامة على شفتيها .

كانت تسميّه صديقاً ، وكانت تحبّه وترتاح إليه ، لأنه كان يضحكها دائماً بدعابته ويبعد الضجر عنها ، لكنها كانت تخشاه قليلاً ، لأنها كانت تشعر في أعماقها بأنها طفلة أمامه .

وعندما كان يتولد في ذهنها تساؤل أو حيرة ، فإنها لم تكن مطمئنة للوثوق به فوراً : كان يسبقها بمراحل ، ويتفوّق عليها معرفة وخبرة ، لذلك كان إحساسها يتألم ويعاني من عدم النضج ومن المسافة الشاسعة ، التي تفصل بين ذهنيهما وعمريهما .

كان شتولتس يتنعمّ برؤيتها أيضاً ، دونما غرض أو طمع في نفسه ، كان يُسَرّ لرؤيتها كمخلوق رائع ، ولنضارة ذهنها ورقة مشاعرها . فلم تكن في نظره أكثر من طفلة رائعة واعدة بآمال كبيرة .

بيد أن شتولتس كان يتحدث إليها برغبة وطيب خاطر أكثر من سائر النساء الأخريات ، لأنها كانت تسير ، على الرغم من عدم اكتمال وعيها ونضجها ، على طريق الحياة الطبيعي ، البسيط ، بسريرتها الطيبة الصافية السليمة الفطرية ، البعيدة عن كل ضروب المكر والتحايل ، دون أن تخفي أفكارها . ومشاعرها ، وإرادتها ، حتى بالنسبة لأصغر الأشياء وأقلها شأناً ، حتى بالنسبة لحركة عينيها وشفتيها ويديها .

ربما بسبب هذا كله ، كانت تسير على هذا الطريق بخطى واثقة ، لكنها كانت تسمع أحياناً ، بالقرب منها خطوات أخرى أكثر وثوقاً « لصديقٍ » تمنحه ثقتها ، وتَزِنُ خطواتها بالقياس إليه .

مهما يكن من أمر ، فإن المرء قلّما يصادف فتاة بمثل بساطة وعفوية وحرّية نظرتها وكلماتها وسلوكها . فلن يقرأ في عينيها أبداً : « سأزمّ شفتي الآن قليلاً وأستغرق في التفكير قائلة : إنني جميلة هكذا ! سأنظر إلى الجهة الأخرى ، وأبدي هلعي ، ثم أصرخ قليلاً ،

ليهرع الجميع إليّ على الفور . سأجلس إلى البيانو وأمدّ نهاية رجلي قليلاً . . . » .

فلا تدلّع ولا تصنع ، ولا دلال ، ولا خداع ، ولا تبهرج ، ولا تعمّد ! بسبب هذا ، كان شتولتس هو الوحيد تقريباً ، الذي يقدّرها ، بسبب هذا لم تُخْفِ ضجرها عندما تبدأ رقصة بولونية ، وهي جالسة لوحدها ؛ بسبب هذا كان ألطف الشباب يحتارون بما سيقولونه لها . . .

البعض كان يعتبرها ساذجة ، قصيرة النظر ، سطحية ، لأنهم لم يستطيعوا أن يأخذوا منها مواعظ وحكماً عن الحياة ، أو الحب ، ولا ردوداً سريعة ، جريئة ، غير متوقعة ، ولا آراء وأحكام قاطعة عن الموسيقى والأدب : كانت تتكلّم قليلاً ، وإذا ما تكلّمت فعلى طريقتها الخاصة ، فقد كان يتجنّبها « الفرسان » الأذكياء والجريئون بينما كان يعتبرها الهادئون من الشباب ذكيةً جداً ، وكانوا يخشونها . كان شتولتس هو الوحيد ، الذي يتحدّث إليها بلا انقطاع ويضحكها .

كانت تحب الموسيقى ، لكنها غالباً ما كانت تغني في الخفاء ، أو على مسمع من شتولتس ، أو أمام إحدى صديقاتها في المدرسة الداخلية ؛ لكنها كانت تغنيّ ، حسب ما قاله شتولتس بطريقة تفوق في جمال أدائها ، أيّ مغنية على الإطلاق .

ما إنْ جلس شتولتس بالقرب منها ، حتى أخذ ضحكها الرنان ، الصادق ، المثير يملأ الصالة كلها ، فما إن يسمعه المرء ، حتى يسترسل بالضحك حتماً ، دون أن يعرف السبب .

لكنّ شتولتس لم يكن يهدف إلى إضحاكها طوال الوقت : فما أن تمضي نصف ساعة حتّى تبدأ بالاستماع إليه بفضول ، بينما كانت تنقل نظراتها بفضول مضاعف إلى أبلوموف ، الذي كان يستولي عليه الحرج ، لدرجة أنه كان يتمنى لو أن الأرض تنشق وتبلعه .

« ماذا يتحدّثان عنّي ؟ » — كان أبلوموف يفكر وهو ينظر إليهما بارتياب . كان يريد أن ينصرف ، لكن عمّة أولغا دعته إلى الطاولة وأجلسته بالقرب منها ، تحت مرمى النيران المتقاطعة لنظرات المتحدثيّن جميعاً .

التفت إلى شتولتس بهلع ، لكنه كان قد انصرف ، ثم نظر إلى أولغا فالتقى نظرتها المليئة بالفضول ، الموجّهة إليه .

« إنها ما تزال ترمقني بنظراتها ! » — فكر أبلوموف وهو يبحث عن منديله بارتباك .

حتى انه مسح وجهه بالمنديل ، وهو يتساءل . إنْ كان أنفه وسخاً ، ثمّ تحسّس ربطة عنقه ليتأكد إنْ كانت قد انفكت : لأن هذا يحدث معه أحياناً ؛ كلا فكل شيء ، يبدو على ما يرام ، لكنها ما تزال ترمقني بنظراتها !

لكنّ شخصاً ناوله فنجاناً من الشاي وصينية عليها سكاكر . أراد أن يضع حدّاً لارتباكه ، وأن يصبح منطلقاً ، فخطف في انطلاقته تلك ، كومة كبيرة من الخبز المجفف ، والبسكويت والحلويات ، لدرجة أن الطفلة ، التي كانت تجلس بالقرب منه أغربت بالضحك . أما الآخرون فنظروا إلى تلك الكومة بكثير من الفضول .

« يا إلهي . إنها ما تزال ترمقني بنظراتها ! — فكّر أبلوموف — ماذا سأفعل بهذه الكومة ؟ » رأى ، دون أن يلتفت ، كيف نهضت أولغا من مكانها ومضت إلى جهة أخرى . فاطمأنّ قلبه وانفرج همّه .

أما الطفلة فركّزت نظرها عليه منتظرة ما سيفعله بهذه الكومة من السكاكر .

« سألتهمها بأسرع ما يمكن » ، — فكر أبلوموف ، وبدأ يلتهم البسكويت بخفة ، ولحسن حظّه فقد ذابت قطع البسكويت بسرعة في فمه .

بقيت قطعتان من الخبز المجفف فقط ؛ أخذ يتنهّد بحرّية وقرّر أن يلقي نظرة على المكان الذي ذهبت إليه أولغا . . . يا إلهي ! إنها تقف عند التمثال النصفي مستندة على قاعدته ، وهي تنظر إليّ . لقد انصرفت من الركن الذي كانت تجلس فيه على ما يبدو ، من أجل أن تتابع النظر إليه بشكل أكثر حرّية وسهولة : فقد لاحظت ارتباكه عندما تناول كومة السكاكر .

أثناء العشاء ، كانت أولغا تجلس في الطرف الآخر من الطاولة ، تتحدث وتأكل ، حيث بدت وكأنها غير مهتمة به إطلاقاً . لكن أبلوموف ما كاد يلتفت ناحيتها ، وكله أمل بأنها لا تنظر إليه ، حتى التقى نظرتها ، المليئة بالفضول ، والطيّبة في الوقت نفسه . . .

بعد العشاء مباشرة ، أسرع أبلوموف لوداع عمة أولغا ، التي دعته إلى الغداء في اليوم التالي ، ورجته بأن يبلغ شتولتس دعوتها أيضاً .

انحنى إيليا إيليتش مودّعاً ، ثم عبر القاعة كلها ، دون أن يرفع نظره . ها هو ذا البيانو ومن بعده الستائر ، فالباب .

نظر ، فوجد أولغا جالسة أمام البيانو وهي تنظر إليه بفضول كبير . بدا له ، أنها كانت تبتسم .

« من المؤكد » أن أندريي قد روى لها البارحة ، أنني لبست في وقت ما جورباً ، كل فردة فيه تختلف عن الأخرى وارتديت قميصي بالمقلوب ! » — فكّر أبلوموف ثم مضى إلى البيت منحرف المزاج من هذا الإفتراض ، وممتعضاً أيضاً من الدعوة إلى الغداء ، التي ردّ عليها بانحناءة ، أي بالموافقة .

منذ هذه اللحظة لم تبرح نظرة أولغا الملحّة مخيّلة أبلوموف . فقد تمدّد على ظهره وأرخى جسده في محاولة يائسة للنوم ، واتّخذ جسده مختلف الأوضاع وأكثرها راحة وكسلاً ، لكن هذا كله كان عبثاً ، فلم يستطع النوم . فقد بدا له رداؤه مقيتاً ، كما بدا له زاخار غبياً لا يحتمل ، أما الغبار والعنكبوت فلم يطق تصوّرهما .

أمر بنزع بعض اللوحات الرديئة ، التي فرضها عليه أحد أنصار الفنانين الفقراء ؛ ثم أصلح بنفسه الستارة ، التي لم ترفع منذ زمن بعيد ، ونادى أنيسيا وأمرها بأن تنظف النوافذ وتزيل العنكبوت ، ثمّ تمدّد بعد ذلك على جنبه وفكّر ساعة من الزمن بأولغا .

انصبّ اهتمامه في البداية على مظهرها الخارجي ، وهو يرسم في مخيلته صورتها المحببّة إليه ، ويستحضر طيفها .

لم تكن أولغا جميلة بالمعنى الصارم للكلمة . أي أن بشرتها لم تكن ناصعة البياض ولم يكن التورّد واضحاً على وجنتيها ، كما لم تكن عيناها متألقتين بأشعة الضياء الداخلي ، لم يكن المرجان يعلو شفتيها ، ولا الجمان يملأ فمها . لم تكن أيديها منمنمة كأيدي الطفل ، الذي لم يتجاوز الخامسة من العمر ، والذي تشبه أصابعه حبّات العنب .

لكن ، إذا ما حوّلها المرء إلى تمثال ، فإنها يمكن أن تصلح نموذجاً رائعاً للرشاقة والتناسق . فحجم الرأس يتناسب بدقة مع قامتها الطويلة بعض الشيء ، وشكل الوجه البيضوي ومقاييسه تتلاءم مع حجم الرأس ؛ كل هذا بدوره ينسجم مع الكتفين اللذين يتلاءمان مع قامتها الرائعة . . .

لا بد لكل من يصادفها وإنْ كان شارد الذهن ، من أنْ يتوقّفَ لحظةً أمام هذا التكوين الرائع المبتكر بعناية وبدقة .

الأنف يكوّن خطاً رشيقاً متناسقاً لا يكاد يُلْحَظ انحناؤه ، الشفتان رقيقتان مزمومتان في الأغلب : كعلامة على تفكير مُركَّز باستمرار على أمرٍ ما ، بينما ينعكس حضور تفكيرها الناطق أيضاً ، ويتلألأ في نظرة ثاقبة نشطة دائماً ، لا تُفَوِّت شيئاً ، منبعثة من عينين شهلاوين ، سماويتين . الحاجبان يضفيان جمالاً خاصاً على العينين : فشكلهما ليس مقوّساً ، كما لا يدوّرا العينين بخيطين رفيعين منتوفين بأصابع اليد ، — كلا ، فهما عبارة عن شريطين أشقرين أزغبين متماثلين ومستقيمين تقريباً : فأحد الشريطين أعلى من الآخر قليلاً ، مكوّناً بسبب ذلك ثنية فوق الحاجب تنمّ بعض الشيء عن فكرة تستقرّ هناك.

فأولغا هيفاء رشيقة ، تسير ورأسها مائل إلى الأمام قليلاً ، عنقها طويل رقيق ينمّ عن الإعتزاز بالنفس ، بينما يتحرّك جسدها كلّه بانسجام رائع وتسير بخفة ورشاقة لا مثيل لهما . . .

« لماذا كانت تنظر إليّ البارحة بإمعان شديد ، — تفكّر أبلوموف — فأندريي أقسم بأنه لم يحدّثها عن الجوارب والقميص ، بل حدّثها عن صداقتنا وكيف ترعرعنا وتعلّمنا معاً ، — أي أنه كان يتحدث عن كلّ ما هو جيدّ . في أثناء ذلك ، أخبرها شتولتس أيضاً ، بأن أبلوموف ليس سعيداً ، فهو يقتل كل ما هو خيّر إيجابي في نفسه ، بسبب انعدام نشاطه وحركته وفاعليته ، أخبرها كيف تخبو حياته وكيف . . . » .

« لماذا كانت تبتسم ؟ — استمرّ أبلوموف بالتفكير — فإذا كان قلبها رقيقاً بعض الشيء ، فينبغي أن يهدأ ويحزن إشفاقاً ، أما أن . . . كفاني تفكيراً ! الله معها ! سألبّي اليوم دعوتهم إلى الغداء ، ولن أكررّها بعد ذلك ، وستنقطع ساقاي عن الذهاب إليهم) . »

تتالت الأيام وظل يتردّد إلى هناك بساقيه ويديه ورأسه .

ذات يوم ، في صباح رائع نقل تارانتييف أثاث أبلوموف كله إلى منزل إشبينته ، الكائن في زقاق ، في ناحية فيبورغ ، بينما أمضى أبلوموف ثلاثة أيام ، لم يعشها من قبل : بدون سرير وأريكة ، وكان يتناول الغداء عند عمّة أولغا .

اتضح ، فجأة ، وجود شقّة ، فارغة ، مقابل منزل إيلينسكايا ، فاستأجرها أبلوموف بالمراسلة وأصبح يعيش هناك . فهو مع أولغا

من الصباح حتى المساء ، يقرأ معها ، يرسل إليها الأزهار ، يتنزّه في البحيرة وعلى الهضاب . . . نعم إنه أبلوموف ، الذي يفعل ذلك كله .

لا تستغربوا ، كل شيء يمكن أن يحدث في هذا العالم ! لكن كيف أمكن حدوث ذلك كله ؟ إليكم الجواب .

عندما كان يتناول الغداء بصحبة شتولتس عند عمتها ، عانى أبلوموف نفس النوع من العذاب ، الذي عاناه في زيارته السابقة ، فكان يمضغ الطعام ونظرتها مركّزة عليه ، كان يتحدث وهو يعلم ويشعر بأن تلك النظرة مسلطة عليه تلذعه كالشمس ، تؤرّقه ، تثير أعصابه وتحرّك دمه . أتيح له بصعوبة فائقة ، وهو على الشرفة أن ينسحب عن تلك النظرة الملحاحة الصامتة ، لحظة واحدة ، بسبب دخان سيجارة .

وفجأة ظهرت أولغا أمامه على عتبة الشرفة ، فقدّم لها كرسياً ، وجلست بالقرب منه .

— صحيح أنك تعاني من الضجر كثيراً ؟ — سألته أولغا .

— صحيح ، — أجاب أبلوموف ، — لكن ليس كثيراً . . . فلديّ أعمال .

— حدّثني أندريي إيفانيتش ، بأنك تكتب خطةً ما ، أليس كذلك ؟

— أجل ، إنني عازم على السفر إلى القرية لأعيش هناك ، لذلك أستعد قليلاً .

— وهل ستسافر إلى الخارج ؟

— أجل ، من كلّ بد ، بمجرد أنْ يتأهّب أندريي إيفانيتش .

— أمُسافِرٌ عن طيب خاطر ؟ — سألت أولغا .

— أجل ، عن طيب خاطر

نظر إليها ، فشاهد ابتسامة تنتشر وتغطي وجهها كله ، فتضيء عينيها ، وتنسكب فوق وجنتيها ، لكنها لا تطال شفتيها فقط ، فهما مزمومتان كالعادة . كانت تنقصه العزيمة ليكذب بهدوء وراحة .

— إنني كسول . . . قليلاً . . . . — قال أبلوموف ، — لَكِنْ . . .

أصبح حزيناً مكتئباً ، لأنها استطاعت أنْ تنتزع منه ، بسهولة فائقة ، وهي صامته تقريباً اعترافه بالكسل . « من تكون بالنسبة لي ؟ لماذا أخشاها ؟ » — تفكّر أبلوموف .

— كسول ! . — اعترضت أولغا بدهاء يكاد يكون ملحوظاً . — هل يُعْقَل هذا أنْ يكون ؟ رجل كسول — أنا لا أفهم ذلك . « ما هو الأمر غير المفهوم ؟ — تفكّر أبلوموف ، — إدراك الأمر في منتهى البساطة » — فأنا أجلس في البيت أغلب الأوقات ، لهذا السبب فإن أندريي يعتقد ، بأني . . .

— لكِنْ يبدو أنك تكتب وتقرأ كثيراً ، — قالت أولغا ، — هل قرأت ؟ . . .

ثم نظرت إليه بإمعان شديد .

— كلا ، لم أقرأ ! — أفلت منه فجأة ، خشية أنْ تفكّر بامتحانه .

— ما بك ؟ سألت أولغا وهي تضحك . ثم أخذ يضحك هو أيضاً

— لقد اعتقدت ، بأنك تريدين أن تسأليني عن رواية ٍ ما : فأنا لا أقرأ الروايات .

— لم تحزر ، كنت أريد أن أسألك عن الأسفار و « الرحلات » ...

نظر إليها بانتباه ، كان وجهها كله يضحك ، أما شفتاها فلا . . .

« آه ، هكذا إذن ! . . . يجب أن يكون المرء معها حذراً . . . » — فكّر أبلوموف .

— ماذا تقرأ ؟ — سألت أولغا بفضول .

— أكثر ما أحب قراءته ، الأسفار .

— إلى أفريقيا ؟ — سألت بهدوء ودهاء .

— احمرّ أبلوموف خجلاً ، وهو يعتقد بحق ، أنها كانت على علم ودراية ، ليس بما يقرأ فحسب ، بل وبالكيفية التي يقرأ بها .

— هل أنت موسيقي ؟ — سألته كي تخرجه من ارتباكه .

اقترب شتولتس في هذه اللحظة .

— إيليا ! قلت لأولغا سيرغييفنا ، بأنك تحب الموسيقى بشغف ، ورجوتها أن تطلب منك غناء شيء ٍ ما . . . العذراء الطاهرة .

— لماذا تفتري عليّ ؟ — أجاب أبلوموف — فأنا لا أحب الموسيقى بشغف ، على الإطلاق . . .

— كيف ؟ — قال شتولتس معترضاً — يبدو أنه قد استاء ! فأنا أقدّمه كإنسان مخلص أمين ، بينما يأتي ليخيّب نفسه !

— إنني أعتذر عن دور المولع : فهو دور صعب ، مشكوك فيه !

ــ أي نوع من الموسيقى يعجبك أكثر ؟ ــ سألت اولغا .

ــ من الصعب الإجابة على هذا السؤال ! كل الأنواع ! ففي بعض الأحيان أنصت بارتياح إلى صوت رتيب أجشّ أو إلى لحنٍ ما انطبع في ذاكرتي ، بينما أخرج في مرّة أخرى من منتصف حفلة الأوبرا ؛ مايربير «١» يثيرني ؛ حتى أغنية صادرة من زورق تثيرني أيضاً : فهذا كله يتعلق بالمزاج ! في بعض الأحيان يصمّ المرء أذنيه عن موزارت . . .

ــ إذاً ، أنت تحبّ الموسيقى حقيقة .

ــ أولغا سيرغيفنا ، غنّ شيئاً ما ــ رجا شتولتس .

ــ هل المسيو أبلوموف الآن ، في مزاجٍ يضطرّه لأن يصمّ أذنيه ؟ ــ قالت أولغا موجهّة حديثها إلى أبلوموف .

ــ ينبغي أن أقول بعض الإطراء الآن، لكنني لا أستطيع ، ولو أنني كنت أستطيع ، لما تردّدتُ ،

أجاب أبلوموف .

ــ لماذا لا تستطيع ؟ .

ــ قد يتّضح بأنّ غناءك رديء ! سيصبح الأمر عندها محرجاً بالنسبة لي . . . ــ لاحظ أبلوموف بسذاجة

ــ كما حدث البارحة مع السكاكر . . . ــ أفلت منها فجأة .

---

(١) مايربير (١٧٩١ ــ ١٨٦٤) موسيقار عاش في ايطاليا وألمانيا وفرنسا (المترجم) .

ثم احمرّت خجلاً لأنها تفوّهت بذلك ، نادمةً على ما بدر منها .
اعذرني — إنّي مذنبة ! . . . — قالت أولغا . لم يتوقع أبلوموف مطلقاً حدوث ذلك ، فبدا عليه الذهول .

— ياله من غدر شرير ! قال أبلوموف بصوت خافت .

— كلا ، أقسم لك أنّ الأمر ليس متعمّداً ، فالأمر مجرد انتقام بسيط لأنك لم تجد كلمة إطراء لي .

— ربما سأجدها عندما سأسمعك .

— أتريد أن أغنّي ؟ — سألت أولغا .

— كلا ، لست أنا الذي أريد ، بل هو — أجاب أبلوموف وهو يشير إلى شتولتس .

— وأنت ؟

هزّ أبلوموف رأسه مجيباً بالنفي على سؤالها :

لا أستطيع أن أرغب بما لا أعرفه .

— يا لك من فظّ يا إيليا ! — قال شتولتس ملاحظاً — هل أدركت معنى أنّ يستلقي المرء في المنزل ويلبس جواربه . . .

— عفواً يا أندريي — قاطع أبلوموف بحيوية ، دون أن يمكنّه من إتمام كلامه ، — فليس عليّ أسهل من أن أقول : « آه ! سأكون في غاية السرور والسعادة ، فأنت تغنيّن ، طبعاً بشكل رائع . . . — تابع أبلوموف موجهاً حديثه لأولغا . — فهذا يمنعني . . . الخ . لكنْ . هل هذا ضروري ؟

– لكنك ، كنت تستطيع على أقل تقدير أنْ تبدي رغبتك بأن أغني . . . ولو من باب الفضول .

– لا أجرؤ ، – أجاب أبلوموف – فأنت لست فنّانة . . .

– حسن ، سأغني لك – قالت أولغا مخاطبة شتولتس .

– إيليا ، استعد لتقديم الإطراء .

كان الليل قد خيّم في هذه الأثناء ، فأُشعِل المصباح ، الذي كان نوره كضوء القمر يتخلّل تعريشة شجر اللّبلاب . كان الظلام يخفي ملامح وجه وهيئة أولغا ، وكأنه يلقي عليها ستاراً رقيقاً ؛ كان وجهها في الظلام : حيث لم يكن يُسمَعْ إلاّ صوت ناعم رخيم فقط ، لكنه قوي ، تصاحبه رعشة عصبية من الانفعال .

غنّت الكثير من الأغاني العاطفية والمقاطع الأوبراليه . بناء على طلب شتولتس ؛ كان الألم الممزوج بإحساس غير واضح بالسعادة يتجلّى في بعضها ، بينما كان السرور بادياً في بعضها الآخر ، لكن خيطاً من الحزن كان يكمن في هذه النبرات .

القلب يخفق ، والأعصاب ترتعش ، والعيون تلتمع وتمتلىء بالدموع بفعل سحر هذا الصوت الصافي القوي الرائع ، ومن جرّاء تأثير الكلمات والأنغام . ففي اللحظة الواحدة ، كان المرء يرغب الموت . وعدم الإستيقاظ من تأثير هذه النبرات الرائعة ، لكن القلب في الوقت نفسه سرعان ما كان يتعطش إلى الحياة

تهيّج أبلوموف ، وخارت قواه ؛ كان يحبس دموعه بصعوبة

فائقة ، وأكثر ما عاناه من صعوبة : أيضاً ، هو أنه كان يخنق صيحة فرح ، كانت جاهزة لتنطلق من أعماق نفسه . فمنذ زمن بعيد ، لم يشعر بمثل هذا النشاط ، وبمثل هذه القوة المستعدّة للتضحية ، المنبعثة من أعماقه .

حتى أنه كان مستعداً في هذه اللحظة للسفر إلى الخارج ، لو أنّ ترتيبات السفر كان منجزة ، ولو أن المسألة كانت تقتصر على أنْ يستقل واسطة نقل ليسافر .

وفي النهاية ، غنّت أولغا أغنية العذراء الطاهرة : فالإنشراح ، والأفكار ، التي كانت تندفع في مخيّلته كالبرق ، والإرتعاش ، الذي كان يسري في جسده كالإبر ، — أنهك أبلوموف وأعياه .

— ألست مسروراً اليوم منّي ؟ — سألت أولغا شتولتس ، فجأة ، بعد أنْ توقّفتْ عن الغناء .

— اسألي أبلوموف لنرى ما سيقول ؟ — قال شتولتس .

— آه ! — أفلتت من أبلوموف .

أمسك أبلوموف يد أولغا فجأةً ، وتركها على الفور ، ثم ارتبك بشدّة .

— اعذريني — . تمتم أبلوموف .

— أتسمعني ؟ — قال له شتولتس . — أستحلفك بوجدانك يا إيليا ، منذ كم من الوقت لم يحدث هذا معك ؟

— كان يمكن أن يحدث هذا معه ، صباح هذا اليوم ، لو أنّ

صوتاً رتيباً أجشّ كان ينبعث بالقرب من النافذة . . . قالت أولغا وهي تتدخل في الحديث بدماثة وبلطف زائد ، مما زاد من تأثير تهكمّها .

نظر إليها أبلوموف بعتاب .

– النوافذ عنده في هذه الآونة ليست مفتوحة : فلا يستطيع أن يسمع ما يجري في الخارج ، – أضاف شتولتس .

– نظر أبلوموف إلى شتولتس بعتاب .

أمسك شتولتس بيد أولغا . . .

– لا أعرف أن أصف مدى شعوري تجاه هذا الأداء الرّائع ، فلقد غنيّت اليوم ، كما لم تغنّ ِ أبداً ، يا أولغا سيرغييفنا ؛ أستطيع القول على الأقل بأنني لم أسمع منذ زمن بعيد مثل هذا الغناء العذب الرائع . ذلك هو إطرائي ! – قال شتولتس وهو يقبّل كلّ إصبع من أصابع يدها .

انصرف شتولتس . أراد أبلوموف أن ينصرف أيضاً ، لكن شتولتس وأولغا منعاه من ذلك .

– لديّ عمل – قال شتولتس ملاحظاً ، – أما أنت فليس لديك ما تفعله ، فإذا ذهبت فإنك تذهب لتستلقي . . . ما زال الوقت مبكراً . . .

– أندريي ! أندريي ! ، – قال أبلوموف بصوت متوسّل . – كلا ، فأنا لا أستطيع أنْ أبقى اليوم ، إني ذاهب ! – أضاف أبلوموف ثم انصرف .

لم ينم طوال الليل . كان يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً حزيناً

متفكّراً ؛ ومع مطلع الفجر خرج من البيت ، وأخذ يتسكع على ضفة نهر النيفا .

وفي الشوارع ، ولا أحد يعلم إلا الله بما كان يشعر ويفكر .

بعد ثلاثة أيام ، كان هناك من جديد . وعندما جلس الضيوف في المساء يلعبون الورق ، وجد أبلوموف نفسه على انفراد مع أولغا ، بالقرب من البيانو . كانت عمتها تشعر بألم في رأسها ، لذلك كانت تجلس في حجرتها وتنشق الكحول .

— أتريد بأن أريك مجموعة الصور والرسوم ، التي جلبها لي أندريي إيفانيتش من أوديسا ؟ سألت أولغا . — ألَمْ يطلعك عليها ؟ .

— يبدو أنك تحاولين تسليتي ، شعوراً منك بواجب المضيفة ، أليس كذلك ؟ — سأل أبلوموف — عبثاً !

— لماذا تقول عبثاً ! ما أريده هو أن لا تكون ضجراً ، أن تشعر هنا كما في منزلك بالحرية والراحة وعدم الإرتباك ، وألاّ تذهب ... لتستلقي .

« يا لها من إنسانة شريرة ساخرة ! » — تفكر أبلوموف وهو يستمتع ، رغم إرادته ، بكل حركة من حركاتها .

— أتريدين بأن لا أكون ضجراً ، أتصرف بحرية وراحة وبعدم ارتباك ؟ قال أبلوموف مكرّراً .

— أجل ، — أجابت أولغا وهي تنظر إليه كالبارحة ، لكنها كانت تنظر إليه اليوم أيضاً ، بمزيد من الفضول والشفقة .

— من أجل أن أكون كذلك ، عليك أولاً ، ألاّ تنظري إليّ كما تفعلين الآن ، وكما كنت تنظرين البارحة . . .

تضاعف الفضول في عينيها .

ـ فبسبب نظرتك هذه ، أشعر بالحرج الشديد . . . أين قبعتي ؟ . .

ـ لماذا تشعر بالحرج ؟ سألت أولغا برقّة ، وقد غاب الفضول من عينيها وأصبحت نظرتها رقيقة لطيفة فقط .

ـ لا أعرف ، لكنه يبدو لي ، أنك تريدين بنظرتك هذه ، أن تعرفي عنّي كل ما لا أريد أن يعرفه الآخرون وخاصة أنت . . .

ـ لماذا ، فأنت صديق أندريي إيفانيتش ، وأندريي إيفانيتش صديقي ، إذن . . .

ـ إذن لا داعي لأن تعرفي عني كل ما يعرفه عني أندريي إيفانيتش ، ـ أتمم أبلوموف .

ـ تقول لا داعي ، لكن توجد إمكانية . . .

ـ بسبب صراحة صديقي ـ وهذه خدمة سيئة من جانبه ! . .

ـ هل توجد لديك أسرار ؟ ـ سألت أولغا . ربما توجد جرائم ؟ ـ أضافت أولغا ، ثم ابتعدت عنه ضاحكة .

ـ ربما ، أجاب أبلوموف متنهداً .

ـ أجل ، إنها لجريمة كبيرة ، أن تلبس جورباً ، كل فردة منه من نوع مختلف ـ قالت بحياء وبصوت خافت . خطف أبلوموف قبعته .

ـ لا طاقة لي ! أنت التي تريدينني ألا أكون مرتبكاً ! لن أحبّ أندريي بعد الآن . . أليس هو الذي أخبرك بهذا ؟ .

ـ لقد أضحكني اليوم كثيراً عندما قصّ لي ذلك ، ـ أضافت

أولغا ، — فهو يضحكني دائماً . اعذرني ، سأتوقف عن ذلك ، وسأحاول أن أنظر إليك بطريقة أخرى .

ثم اتخذت بدهاء هيئة جديّة .

— حسناً ، لن أنظر إليك بعد الآن كالبارحة ، هذا أولاً . ماذا عليّ أنْ أفعل ثانياً كي لا تكون ضجراً ؟ .

نظر أبلوموف إلى عينيها الشهلاوين اللطيفتين الرائعتين .

— ها أنت تنظر إليّ الآن ، بطريقةٍ ما غريبة . — قالت أولغا .

في الحقيقة ، كان يبدو وكأنه ينظر إليها ليس بعينيه ، بل بتفكيره ، فإرادته كلها كانت منجذبة نحوها كالمغناطيس ، لكنه كان ينظر إليها رغماً عنه ، فلم يكن يستطيع ألاّ ينظر إليها .

« يا إلهي ، كم هي رائعة ! لا أعتقد بوجود أمثالها على وجه البسيطة ! — تفكر أبلوموف وهو ينظر إليها بعينين مذعورتين تقريباً . بياضها ، بريق عينيها الساحر ، الذي يجب أن يكون إفصاحاً وتعبيراً عن روحها ! ابتسامتها يمكن أن تقرأ ككتاب ؛ أسنانها الرائعة ، ورأسها . . . الذي يتمايل فوق كتفيها ، برقّة وعذوبة ، كما تتمايل الزهرة تماماً ، فينسم العبق . . . » .

« أجل ، سأحصل على شيء منها — تفكّر أبلوموف ، — شيء ما منها ينتقل إليّ . فقد بدأ قلبي يضطرم ويخفق . . . إنني أشعر بوجود شيء جديد . يبدو أنه لم يكن موجوداً من قبل . . . يا إلهي ، أيّة عادة تغمرني وأنا أنظر إليها ! حتى التنفس أصبح صعباً عليّ » .

كانت هذه الأفكار تداعب مخيلته وهو ما يزال يمعن النظر إليها بنعيم ونكران للذات ، كما لو أنه ينظر إلى أفق بعيد لا نهاية له ، وإلى هوّة لا قرار لها .

— مسيو أبلوموف ، أنت الذي تنظر إليّ الآن ، بطريقة غير عادية ! — قالت أولغا ، وهي تحوّل طرفها عنه بحياء ، لكن فضولها تغلّب على خجلها ، ولم تُحوِّل نظرها عن وجهه . . . لكنه لم يكن يسمع شيئاً قط .

في حقيقة الأمر كان ما زال ينظر إليها ، دون أن يسمع كلماتها ، وهو يستكشف بصمت ما يجري بداخله ، يستكشف ما يجري في رأسه أيضاً ، حيث وجد أنّ شيئاً ما هناك يضطرب ، ويتحرك بسرعة . لم يكن يستطيع اقتناص أفكاره والإمساك بها : فهي ترفرف كأسراب الطيور تماماً ، وكأنها مريضة في الجانب الأيسر ، من جهة القلب .

— لا تنظر إليّ بمثل هذه الغرابة ، . قالت أولغا ، — أصبح وضعي مرتبكاً أيضاً . . . فأنت تريد حقيقة ، أن تأخذ شيئاً ما من نفسي . . .

— ماذا أستطيع أن أكتسب منك ؟ — سأل أبلوموف بصورة غريزية .

— توجد لديّ أيضاً خطط بدأتها ولم أكملها — أجابت أولغا .

— صحا أبلوموف بسبب هذا التلميح إلى خطته ، التي لم تنته .

— غريب ! — لاحظ أبلوموف — أنت شريرة ، لكنّ نظرتك تنمّ عن طيب . فليس عبثاً من قال بأنّ النساء لا يجوز تصديقهن :

فهنّ يكذبن عمداً وعفواً ، بنظرتهنّ وابتسامتهنّ وباحمرار وجههن ، وحتى بإغماءتهن . . .

لم تسمح لانطباعه بأنْ يتعزّز ، فأخذت القبعة منه وجلست على الكرسيّ .

— لن أعود إلى ذلك ، لن أعود — كرّرت أولغا بحيوية — آه ! اعذرني ، لساني لا يطاق ! لكنني ، أقسم لك ، أنها لم تكن سخرية — قالتها بطريقة تشبه الغناء .

كانت المشاعر ترتعش وهي تنطق هذه العبارة .

هدأ أبلوموف .

— آه من هذا الأندريي ! — . . . — نطق أبلوموف بعتاب .

— قل لي ما ينبغي عليّ عمله ، ثانياً ، كي لا تضجر ، — سألت أولغا .

— غنِّ ، — قال أبلوموف .

— ها أنا ذا قد حصلت على الإطراء ، الذي كنت أنتظره ، — قالت وقد خفق قلبها فرحاً وسروراً — هل تعرف . — تابعت بعدها بحيوية — بأنك لو لم تقل لي هذا « الإطراء » ، لما نمت الليل كله ، على الأرجح ، وربما كنت قد بكيت .

— لماذا ؟ — سأل أبلوموف بدهشة .

أخذت أولغا تفكر .

— لا أعرف ، — قالت بعد ذلك .

— لأنك مرهفة الإحساس ، عزيزة النفس .

— أجل ، بسبب ذلك طبعاً ، قالت وهي تفكر وتلعب بإحدى يديها بمفاتيح البيانو ، — لكن عزة النفس تُصادَفُ كثيراً في كل مكان . فأندريي إيفانيتش يقول ، بأنها هي المحرك الوحيد تقريباً ، الذي يتحكّم بالإرادة . يجب أن لا يكون عندك شيء من هذا القبيل ، على ما أعتقد ، فأنت بسبب هذا

لم تكمل حديثها .

ماذا ؟ — سأل أبلوموف .

— لا شيء ، — كتمت أولغا ما كانت تريد أن تقوله . — إنني أحب أندريي إيفانيتش ، — تابعت أولغا ، ليس لأنه يضحكني فحسب ، فهو يقول أحياناً ، عن نفسه ، بأنه يبكي ، وليس لأنه يحبني فقط بل على ما يبدو ، لأنه . . . يحبني أكثر من الآخرين : أرأيت أين تكمن رقّة الإحساس !

— أتحبين أندريي ، سألها أبلوموف وألقى عليها نظرة فاحصة متوترة .

— أجل ، بالطبع ، فما دام يحبني أكثر من الآخرين ، فإنني أحبه بالطبع . أجابت أولغا بجدّيّة .

كان أبلوموف ينظر إليها بصمت ، بينما كانت تجيبه بنظرة بسيطة صامتة .

— إنه يحبّ أيضاً ، آنا فاسيلييفنا وزينايبدا ميخايلفنا — تابعت

أولغا ... لكن ليس بنفس الطريقة التي يحبني بها ، — فهو يجلس معهن ساعتين من الوقت ، ولا يضحكهن ، ولا يتحدث إليهن من الصميم ؛ إنه يحدثهن عن الأعمال والمسرح ، والأخبار الجديدة ، بينما يتحدث إلي كأخت . . . لا ، إنه يتحدث إلي كما لو أنه يتحدث مع ابنته . — أضافت أولغا بسرعة : — تراه يشتم أحياناً ، إذا ما تعثر علي فجأة ، فهم أمرٍ ما ، أو الإستجابة لفكرةٍ معينة أو إذا ما خالفته بالرأي . لكنني أحبه أكثر ، عندما يمتنع عن الشتيمة . رقة الإحساس ! — أضافت أولغا وهي تمعن بالتفكير — لا أعرف ما الذي جاء بها إلى غنائي ؟ منذ زمن بعيد ، وهو يروي على مسامعي كثيراً من الأشياء الجميلة ، أما أنت فلم تكن تريد حتى سماعي ، وقد أُرغِمْتَ على ذلك تقريباً . لو أنك انصرفت بعد هذا ، دون أن تقول لي كلمة واحدة ، ولولا أنني لاحظت على وجهك بعض الإنفعالات . . . لكنت قد مرضت . . .أجل ، تلك هي رقة الإحساس وعزة النفس ،

— اختتمت حديثها بحزم .

— هل لاحظت شيئاً ما على وجهي — سأل أبلوموف .

— لاحظت الدموع ، على الرغم من إخفائك لها ، فهذه سمة سيئة لدى الرجال — فهم يخجلون من قلوبهم . هذه أيضاً عزة النفس ، لكنها متكلفة . من الأفضل أن يخجلوا أحياناً ، من عقولهم : فهي غالباً ما تخطىء . حتى أندريي إيفانيتش يخجل من قلبه أيضاً . لقد قلت له ذلك ، فوافقني الرأي وأنت !

كيف لا أوافقك الرأي ، وأنا أنظر إليك .

- إطراء أيضاً ! يا له من إطراء . . .

تعذّر عليها إيجاد الكلمة .

— مبتذل ! — أكمل أبلوموف ، دون أن يحوّل نظره عنها .

أكّدت بابتسامتها معنى الكلمة

— ذلك ما كنت أخشاه ، عندما امتنعت عن الطلب منك بأن تغنّي . . . ماذا كنت أستطيع أنْ أقول وأنا لم أسمعك من قبل ؟ مع أنه كان ينبغي في مثل تلك الحالة قول شيء ما . أولغا ، من الصعب أن يكون المرء ذكياً وصادقاً في آن واحد — خاصة بما يتعلق بالمشاعر التي تتولد تحت تأثير ما حدث آنذاك .

— في الحقيقة ، لقد غنّيت وقتها ، كما لم أُغَنِّ من قبل مطلقاً . . . لا تطلب مني بأن أغنّي ، فلن أغنّي بعد الآن بمثل تلك الطريقة . . . تَمَهّلْ ، سأغنّي أغنية واحدة . . . — قالت أولغا وقد اضطرم وجهها والتمعت عيناها . جلست على الكرسي ثم أخذت تعزف بقوة وبدأت تغنّي .

يا إلهي ، أي شيء كان يُسْمَع في غنائها ! الآمال ، الخوف المبهم من الأهوال ، الأهوال نفسها ، هبّات السعادة — كل هذا كان يسمع في صوتها ، لا في الأغنية .

غنّت طويلاً ، وبين الحين والآخر كانت تنظر إليه متسائلة ببراءة الطفولة : « ألا يكفي ؟ » كلا ، غَنِّ أيضاً أغنية أخرى ، — فتستأنف الغناء من جديد .

توردت وجنتاها وأذناها من الإضطراب ، كان يتلألأ على وجهها أحياناً ، بريق عواطفها وإحساساتها التملبية ، وكان يبرق شعاع الوجد الناضج ، كأنها كانت تعيش بقلبها مرحلة بعيدة مقبلة من الحياة ، ثم انطفأ فجأة من جديد ، هذا الشعاع الخاطف ، وأخذ صوتها يصدح بطلاوة وحيوية ورنين عالٍ .

كان أبلوموف يشعر في داخله بمثل هذا النوع من الحياة ؛ فقد بدا له ، أنه يعيش ويشعر بهذا كله — ليس لساعة أو ساعتين ، بل لسنوات بكاملها . . .

كان المظهر الخارجي لكلّ منهما هادئاً ساكناً ، لكنهما كانا يشعران باضطرام نار داخلية ، ويحسّان برعشة متشابهة ، فالدموع بادية في العينين ، يثيرها إحساس داخلي واحد . فأعراض تلك المشاعر كلها ، التي ينبغي أن تتألق ، على ما يبدو ، في وقتٍ ما في نفسها الفتيّة الشابّة ، ما تزال خاضعة الآن ، لتلميحات وقتيّة عابرة ، ولاندفاعات قوى الحياة النائمة .

أنهت غناءها الطويل العذب الرنّان ، الذي غاب صوتها فيه . توقفت فجأة ووضعت يديها على ركبتيها ، ثم نظرت إلى أبلوموف متأثّرة منفعلة ، وهي تتساءل : من يكون يا ترى ؟

كان الإرتياح النابع من سعادة منبعثة من أعماق روحه ، بادياً على وجهه ، وكانت نظرته المتملئة بالدموع ، مركّزة عليها .

كانت الآن ، في وضع مشابه له ، فأمسكت بيده ، بصورة عفوية .

— ما بك ؟ — سألته أولغا — كم يبدو وجهك منفعلاً ! بسبب ماذا ؟

لكنها كانت تعرف السبب ، الذي جعل وجهه منفعلاً هكذا ، فقد تملّكها شعور داخلي متواضع من السعادة بالنصر ، وهي تتمتع برؤية وجهه المنفعل ، لأنها كانت ترى فيه تعبيراً عن قوتها وتأثيرها .

انظرْ إلى المرآة . . تابعت أولغا مبتسمة ، وهي تشير إلى وجهه المنعكس في المرآة ، — العينان تبرقان ، يا إلهي ، الدموع فيهما ! كم تتأثر بالموسيقى ! . . .

تركت يده على الفور ، وقد تغيّر وجهها . التقت نظرتها مع نظرته ، المركّزة عليها : فنظرته تلك ، كانت ساكنة ، مجنونة تقريباً ، فلم يكن أبلوموف هو الذي ينظر من خلالها ، بل الشوق والوجد .

أدركت أولغا ، بأن الكلمة ، التي أفلتت منه ، دون أن يستطيع التحكّم بها ، كانت حقيقة .

صحا أبلوموف ، فأخذ قبعته ثم غادر الغرفة راكضاً دون أن يلقي نظرة إلى الخلف . لم ترافقه بنظرة فضولية كالسابق ، بل ظلت واقفة مدّة طويلة ، بلا حراك ، بالقرب من البيانو كالتمثال ، وهي تنظر إلى الأسفل بإصرار ، لكن صدرها فقط كان يرتفع وينخفض بشدة.

— ٦ —

وسط الإستلقاء الكسول في وضعيات خاملة ، ووسط النوم العميق وانفعالات تأثير هذا الوضع كان أبلوموف يحلم بالمرأة ، دائماً ، كزوجة في المقام الأول ، كما كان يحلم بها أحياناً ، كخليلة .

ففي أحلامه عنها ، كانت تبرز في مخيلته صورة المرأة الطويلة الهيفاء ، الرشيقة ، الجالسة بلا اكتراث وسط دغل من أشجار اللبلاب ، وقد شبكت يديها على صدرها . نظرتها هادئة لكنّها متشامخة ، تسير بخفة ورشاقة بين الأشجار ، وعلى الرمل ، بخصرها المتمايل ورأسها الجميل المنسجم كل الإنسجام مع كتفيها ؛ تعبير وجهها متأمّل باحث - المرأة المثال ، النموذج ، التي تعتبر تجسيداً للحياة كلها ، المليئة بالنعم والهدوء الشامل .

في البداية ، كانت تظهر له في الحلم مع الأزهار ، عند مذبح الكنيسه ، ثم أخذت تظهر له بعدها ، بالقرب من المخدع الزوجي ، بعينيها المطرقتين خجلاً ، وفي النهاية أصبحت تتراءى له في الحلم كأمّ وسط مجموعة من الأطفال .

كانت تتراءى له في الحلم ، والإبتسامة على شفتيها ، لكنها لم تكن ابتسامة شهوانية ، بل ابتسامة ملؤها العطف نحوه ، كزوج ، ومتسامحة مع الآخرين ؛ كانت تتراءى له ، وعيناها طافحتان ليس بالرغبات ، بل بالعطف والشفقة نحوه ، لكن نظرتها كانت خجولة ، لا بل صارمة إزاء الآخرين .

لم يكن يرغب في أن يرى الإرتعاش والإضطراب بادياً عليها ، ولا الأحلام الملتهبة ، ولا الدموع المفاجئة ، ولا التعب والإنهاك ، كما لم يكن يرغب أيضاً برؤية تحولها الشديد نحو العواطف والإنفعالات ، فلا يجوز أن يمتقع لونها ، أو يُغْمَى عليها ، أو أن تعاني لواعج وعواطف قوية

– فلدى هذا النوع من النساء المضطربات شوقاً ، عشّاق ومعجبون –
كان أبلوموف يقول ، –...

إنهن يسببّن هموماً ومشاغل كثيرة : أطباء ، ماء ، وكثرة من النزوات المتنوعة . فمع مثل هذا النوع من النساء لا يمكن النوم بهدوء وطمأنينة !

وبالقرب من هذه الصديقة الأبيّة – الخجولة الهادئة ، ينام الإنسان بلا مبالاة . فهو ينام وكله ثقة ، بأنه سيرى عندما يستيقظ نفس النظرة الحانية الوديعة . وبعد عشرين وثلاثين سنة ، سيرى في نظرتها الدافئة ، وفي عينيها نفس الشعاع الوديع ، المتألق عاطفة وحنوّاً . ويبقى الأمر هكذا حتى نهاية العمر !

« أليس الهدف الخفي لكل رجل وامرأة ، أن يجد كل منهما في الآخر ، وجهاً هادئاً مطمئناً ، ومجرى أبدياً منتظماً من المشاعر لا يتغيّر ؟ ذلك هو مقياس الحبّ ، فما إنْ يُخْرَق هذا المقياس أو يتغيّر ، أو يجري تعديل عليه ، حتى يعاني الناس من جرّاء ذلك . هكذا يتّضح بأنّ مثلي الأعلى ينبغي أن يكون مثلاً عاماً ، أليس كذلك ؟ – تفكّر أبلوموف . – ألا يعتبر هذا ذروة توضيح وصياغة العلاقات المتبادلة بين الجنسين ؟ » .

أنْ نمنح الشوق نهايةً قانونيةً محدّدة ، ونحدّد من أجل الخير العام ، نظام مجراه كما نحدّد مجرى النهر ، فتلك مسألة إنسانية عامة ، تمثّل قمة التقدم ، القمة التي يتسلّق إليها أولئك الذين يحيدون عن ذلك

من أمثال جورج ساند . ومن أجل حل تلك المسألة ، لا حاجة لهيجان ولا لفتور ، بل لخفقانٍ دائم منتظم لقلب هادىء سعيد ، وبالتالي لحياة دائمة مفعمة بالحب ، ولنسغٍ دائم للحياة ، ولصحة أخلاقية مستديمة .

توجد أمثلة على مثل هذا الخير ، لكنها نادرة ، يشار إليها كظواهر شاذة . فالمرء يجب أن يربّى من أجل هذا . لكن ألا يستطيع المرء أن يسير لتحقيق ذلك عن وعي ؟

الشوق ! إنه لأمر رائع أن يسمع المرء عنه في القصائد ، ويراه على المسرح ، حيث يتمشى الممثلون وسكاكينهم تحت معاطفهم ، ثم يذهب القاتلون والمقتولون بعد ذلك سويّة ، لتناول طعام العشاء . . .

حبّذا لو تنتهي الأشواق على هذا النحو ، وإلاّ فلن يبقى بعدها إلاّ الدّخان والنتانة ، أما السعادة فلن نعثر على أثر لها ! أما الذكريات فلن يبقى منها إلاّ الخزي ونتف الشعر فقط .

وأخيراً ، إذا ما داهمت المرء مصيبة الشوق ، فسيكون شأنه كمن يجد نفسه على طريق جبلية صعبة لا تطاق ، تسقط عليها الخيول ، ويفقد الراكبون العزم على متابعة السير فيها ، فيصعب على الإنسان أن ينجو من هذا المكان الخطر

أجل ، يجب كبح جماح الشوق والحدّ منه وإغراقه في الزواج . . .

لا بدّ أنه كان سيهرب مذعوراً من المرأة ، إذا ما سلّطت عليه عينيها فجأة . أو ألقت نفسها على كتفيه وهي تئنّ مغمضة العينين . ثم تصحو بعدها وتطوّق عنقه بذراعيها . . . فهذا سيكون بالنسبة له

بمثابة لعب بالنار ، وانفجار برميل من البارود ؛ وبعدها ماذا سيكون ؟ صمم ، عمى ، وشعر محروق !

تعالوا نرى من تكون أولغا كامرأة !

انقضى زمن طويل ، بعد أن أفلت منه اعترافه أمامها ، دون أن يلتقيا على انفراد . كان يختبىء كتلميذ المدرسة بمجرد أن يشاهد أولغا . لقد تغيّرت معه ، لكنها لم تهرب منه ، فلم تكن فاترة ، بل أصبحت أكثر تفكيراً وتأملاً .

كانت آسفة ، على ما يبدو ، لأن ما حدث قد منعها من تعذيب أبلوموف بنظرتها الفضولية المسلطة عليه ، ومن تجريحه بلطف ، بتهكّمها من استلقائه وكسله وارتباكه . . .

روح كانت تثور في داخلها الفكاهة ، لكنها كانت فكاهة وسخرية الأم ، التي لا تستطيع إلا أن تضحك وهي تنظر إلى الملبس المضحك لابنها . لقد سافر شتولتس ، فشعرت بالضجر لسفره ، ولم يبق أحدٌ تغنّي له ، فالبيانو لم تعد تستعمله ، بكلمة واحدة ، لقد كبّلتهما القيود ، وكان وضع كلّ منهما حرجاً .

كم سارت الأمور بشكل رائع فيما مضى ! كيف تعرّفا على بعضهما بمنتهى البساطة ! كم كانا يلتقيان بمنتهى الحرّية ! كان أبلوموف أكثر بساطة وطيباً من شتولتس ، مع أنه لم يكن يضحكها كما كان يفعل شتولتس ، لكنه كان يضحكها بتصرفاته ؛ وسرعان ما كان يغفر لها سخريتها منه .

قبل سفره ، كان شتولتس قد أوصاها بأبلوموف . ورجاها بأن تهتم به ، وبألا تدعه يلازم البيت مستلقياً . تبلور في رأسها الجميل الذكيّ ، مخطط تفصيلي ، يرسم الوسائل والسبل ، التي تجعل أبلوموف يقلع عن النوم بعد الغداء ، ليس هذا فحسب ، بل يمنعه حتى من الإستلقاء على الأريكة نهاراً : فتأخذ منه عهداً بذلك .

كانت تحلم ، كيف « ستأمره بقراءة الكتب » ، التي تركها شتولتس ، وكيف ستطلب منه ، بعد ذلك ، أن يقرأ يومياً ، الجرائد ويروي لها الأخبار . وأن يكتب الرسائل إلى القرية ، ويكمل مخطط تنظيم أملاكه . ويستعد للسفر إلى الخارج ، — بكلمة واحدة ، إنه لن يستطيع النوم من كثرة المشاغل . التي ستكلفه بها ، فهي ستدلّه على الهدف ، وسترغمه على أنْ يحبّ كل شيء كان قد أقلع عن حبّه . ولن يعرفه شتولتس عند عودته .

هذه المعجزة كلّها ستصنعها أولغا . الخجولة ، الصامتة ، التي لم يطعها أحد حتى الآن ، والتي لم تبدأ الحياة بعد ! إنها المتسبّبة بهذا التحوّل !

ها هي قد بدأت : فما أن بدأت الغناء فقط ، حتى تغيّر أبلوموف تماماً ، فلم يَعُدْ هو ذاك . . .

سيعيش . ويعمل . ويبارك الحياة ويباركها . أنْ تُعيد الإنسان إلى الحياة ، لأمر يستحق التمجيد . تماماً كما يستحق الطبيب الذي ينقذ حياة شخص مريض ميؤوس منه ، التمجيد ! فماذا يستحق إنسان ينقذ من الناحية المعنوية ذهناً هالكاً وروحاً ؟ . .

حتّى انها ارتعشت من هذا الإحساس البهيج الباعث على الفخار ، واعتبرت هذا الأمر مهمة محدّدة لها ، فجعلت منه ، في الخيال ، سكرتيراً وأمين مكتبة لها .

وفجأة بدا لها أن كل شيء سيفشل ! فلم تكن تعرف ماذا ينبغي أن تتصرّف ، لذا فقد كانت تصمت ، عندما تلتقي بأبلوموف .

كان أبلوموف يتألم لأنه أهان أولغا ، وكان ينتظر نظراتها الخاطفة ، ويرتعش بمجرّد أنْ يراها ، ويحيد عن طريقها .

في هذه الأثناء ، انتقل أبلوموف إلى منزل صيفي ، وظل أياماً ثلاثة يذهب وحيداً إلى الهضاب والغابة ، أو إلى القرية ويجلس عند بوابات الفلاحين ، ممعناً النظر ، كيف يركض الأولاد وكيف تسبح البطّات في البركة .

بالقرب من المنزل الصيفي ، كانت توجد بحيرة ، وحديقة كبيرة . كان يخشى الذهاب إلى هناك ، كي لا يصادف أولغا وحدها .

« لقد دفعتني ليفلت مني الكلام » -- تفكّر أبلوموف ، حتى دون أنْ يسائل نفسه إنْ كانت الحقيقة ، هي الّتي أفلتت منه في واقع الأمر ، أم أنّ الأمر قد حدث نتيجة تأثير لحظي للموسيقى على الأعصاب .

فالشعور بالإرتباك والحرج والخجل ، أو « بالعار » كما كان يعبّر عنه ، لما بدر منه ، كان يعيقه عن إدراك ذلك الإنفعال ، ويجعله عاجزاً بوجه عام ، عن تحديد : من هي أولغا بالنسبة له ؟ فلم يكن يحلّل ما أُضيف إلى قلبه من إحساس جديد لم يكن موجوداً من قبل . فمشاعره كلها كانت تختلط في كومة واحده من الإحساس بالخجل .

وعندما كان طيفها يبرز أمامه . للحظات ، كانت ترتسم في مخيلته صورة الهدوء الرائع وتجسيد الحياة الهانئة السعيدة ، ومثله الأعلى عنها : كان ذلك المثل الأعلى الرائع شبيهاً بالضبط بأولغا ! كانت الصورتان تتشابهان وتتّحدان في صورة واحدة .

ـــ آه . ماذا فعلت ! لقد أفسدت كل شيء ! ـــ كان أبلوموف يقول . ـــ شكراً لله ، لأنّ شتولتس قد سافر : وإلاّ لكانت قد أخبرته بكل شيء . ولتمنّيت عندئذ بأنْ تنشقّ الأرض فتبتلعني ! والحب والدموع ، هل يجب أن تظهر أماراتها على وجهي ؟ فعمّة أولغا لم تعد ترسل في طلبي ، أو توجّه لي الدعوة لزيارتها : بالتأكيد ، أن أولغا قد قالت . . . يا إلهي ! . .

هكذا كان أبلوموف يفكّر وهو يغوص في عمق الحديقة أكثر فأكثر . وفي الممر الجانبي .

كانت أولغا حائرة فقط ، كيف ستلتقي معه ، وكيف سيمر هذا الحدث : هل ستقابله بالصمت ، وكأنّ شيئاً لم يكن . أم أنه ينبغي عليها أنْ تقول له شيئاً ما ؟

لكن . ماذا تقول ؟ أتتّخذ هيئة صارمة ، وتنظر إليه بتعالٍ أو حتى لا تنظر إليه إطلاقاً ، أم تكتفي . بأَنْ تشير بتكبّر وبرود إلى أنها « لم تكن تتوقّع منه . مطلقاً . مثل هذا السلوك والتصرف : فمن يظنّها حتى يسمح لنفسه بمثل هذه الجرأة من الكلام . الذي تجاوز

كل حدّ ! . . . . » . هكذا أجابت صونيا أحد الضباط ، وهي تؤدّي رقصة بولونية ، مع أنها بذلت كل جهدها ، كي تخلب عقله .

« ما هو وجه الجرأة هنا ؟ -- تساءلت أولغا -- إذا كان ذلك هو شعوره ، حقيقةً ، فلماذا لا يفصح عنه ؟ . . . لكن ، كيف حدث هذا فجأة ، فلم يمْضِ على تعارفهما إلاّ مدة قصيرة . . .فلا يمكن لشخصٍ آخر أن يقول هذا لامرأة لم يرها إلا مرتين أو ثلاث ، وما من أحدٍ يمكن أن يشعر ، بمثل هذه السرعة بالحب . فهذا لا يقدر عليه إلا أبلوموف . . . . » .

لكنها تذكرت ما سمعته وقرأته ، بأنّ الحب يبرز في بعض الأحيان فجأة .

« كان ذلك انفعالاً ، نزوة . فلا بد أنْ يكون الخجل قد استولى عليه الآن . بيد أنّ تصرّفه لم يكن تجاوزاً للأصول . لكنْ مَن المذنب؟ — فكّرت أولغا -- إنه أندريي إيفانيتش بالطبع ، لأنه أرغمها على أن تغنّي » .

لكنّ أبلوموف لم يكن يرغب في البداية بالإستماع إليها — وكانت حزينة لهذا السبب ، لذلك . . . حاولت . . . لقد تورّد وجهها بشدة ، واحمرّت خجلاً — أجل . لقد حاوَلَتْ ، بكلِّ ما أوتيتْ من قوة ، بأنْ تحرّكَهُ وتثير لواعجه .

لقد قال شتولتس عنه بأنّه خامل ، غير مبال ، لا شيء يشغله ويثير اهتمامه ، وأن كل شيء قد انطفأ في داخله . . . فأرادت أن

ترى ، إنْ كان كل شيء قد انطفأ فيه ، لذلك غنّت ، وغنّت . . . كما لم تغنِّ أبداً . . .

« يا إلهي ! أنا المذنبة إذن : سأطلب الصفح منه . . . لكن على أي شيء ؟ — تساءلت فيما بعد . — ماذا سأقول له : إنني مذنبة يا مسيو أبلوموف ، لقد أغريتك . . . يا له من عار ! هذا ليس صحيحاً ! — قالت أولغا وتهيّجت وهي تضرب الأرض بقدميها — من يجرؤ على مثل هذا التفكير ؟ . . . هل كنت أعرف ما سيحصل ؟ لكن لو لم يحدث هذا كله ، لو لم يفلت منه الكلام . . . ماذا كان سيحدث عندئذ ؟ . . . تساءلت أولغا — لا أعرف . . . » — تفكّرت أولغا .

منذ ذلك اليوم أصبحت تشعر بطريقةٍ ما : أنّ قلبها قد أصابه بعض التغيير . . . فلا بد أن تكون متأثرة جداً . . . حتى أنها بدأت تشعر بارتفاع في حرارتها ، فقد ظهر على وجنتيها بقعتان ورديتان

— إنه تهيّج . . . حمّى بسيطة . — قال الطبيب .

« لماذا فعل أبلوموف هذا ؟ يجب أن ألقّنه درساً ، كي لا يتكرّر هذا ثانية في المستقبل ! سأرجو عمتي أنْ ترفض استقباله في البيت : يجب أن لا ينسى . . . كم كان جسوراً ! » —

— كانت أولغا تفكّر ، وهي تتنزّه في الحديقة . وكانت عيناها مضطرمتين . . .

سُمِع فجأة وقع أقدام أحدٍ ما .

« لا بد أنّ أحداً ما آتٍ . . . » — تفكّر أبلوموف .

التقيا وجهاً لوجه .

ـــ أولغا سيرغييفنا ! ـــ قال أبلوموف ، وهو يرتجف كأوراق الحور .

ـــ إيليا إيلييتش ! ـــ أجابته بحياء ، وتوقف الإثنان .

ـــ مرحباً ـــ قال أبلوموف .

ـــ مرحباً ـــ قالت أولغا .

ـــ إلى أين أنت ذاهبة ؟

ـــ هكذا ، دونما تحديد . . . ـــ أجابت دون أن ترفع عينيها .

ـــ هل أزعجك ؟

ـــ آه ، مطلقاً . . . . ـــ أجابته أولغا ، ثم نظرت إليه بسرعة وفضول .

ـــ هل أستطيع مرافقتك ؟ ـــ سأل أبلوموف فجأة ، ثم رماها بنظرة ثاقبة .

أخذا يسيران بصمت على الطريق . لم يضطرب قلب أبلوموف في حياته يوماً ، لا من مسطرة المعلم ، ولا من تقطيب حاجبي مدير المدرسة ، كما اضطرب وخفق قلبه الآن . كان يرغب أن يقول شيئاً ما فأخذ يغالب نفسه ، لكن الكلمات أعيته ، فقلبه كان يخفق بشدة كما لو أنه أمام مصيبة .

ـــ ألم تتلقَّ رسالة من أندريي إيفانيتش ؟ ـــ سألت أولغا .

ـــ تلقيت ، ـــ أجاب أبلوموف .

ـــ ماذا يكتب ؟

— يدعوني إلى باريس .

— وأنت ؟

— سأسافر .

— متى ؟

— إنْ لم يكن . . . غداً . . . فخلال مدة قريبة .

— لمَ كلّ هذه السرعة ؟ — سألت أولغا .

صمت أبلوموف .

— هل المنزل الريفي لا يعجبك ، أو . . . .قل لي ، لماذا أنت عازم على السفر ؟

(يا له من جسور ! — يريد أن يسافر أيضاً ! (فكرت أولغا .

— أشعر لسببٍ ما ، ببعض الحرج ، كأنّ شيئاً يحرقني — همس أبلوموف ، دون أنْ ينظر إليها .

صمتت أولغا ، ثم قطفت غصناً من الليلاك وشمّته ، فحجبت وجهها وأنفها .

— تَنَشّقْ هذه الرائحة العطرة !— قالت أولغا . ثم حجبت أنفه أيضاً .

— ها هو ذا السوسن ! مهّلي ، سأقطف منه — قال أبلوموف — وهو يسرع إليه — فرائحته أزكى : وعبق الحقول يَفوح منه أكثر . أما الليلاك فينمو بالقرب من المنازل ، فأغصانه تتعرش على النوافذ ورائحته مفرطة في شدتها . لا يزال الندى عالقاً على السوسن ، فهو لم يجف بعد .

حمل إليها بضع باقات من السوسن .

-- هل تحب الخزام ؟ -- سألت أولغا .

-- كلا : رائحته قوية جداً ؟ فأنا لا أحب الخزام ولا الورود . إنني لا أحب الورود بوجه عام ؛ ففي الحقل يمكن أن يشعر المرء بشيء من جمالها ، أما في الغرفة فكم تتطلب من الجهد والإهتمام . . . فهي تتناثر وتسقط . . .

-- أتحب أن تكون الغرف نظيفة ؟ -- سألت أولغا بدهاء ، وهي تنظر إليه . -- هل تكره الأوساخ ؟

-- أجل ، لكن المشكلة تكمن في الشخص الذي عندي . . . غمغم أبلوموف . « آه ، يا لها من شريرة ! » -- أسرّ لنفسه .

-- هل ستسافر إلى باريس مباشرة ؟ -- سألت أولغا .

-- أجل ؛ فشتولتس ينتظرني منذ مدة طويلة .

-- احمل لي رسالةً إليه ؛ سأكتبها ؛ -- قالت أولغا .

-- اعطني الرسالة اليوم ، فسأسافر إلى المدينة غداً .

-- غداً ؟ -- سألت أولغا -- لمَ هذه السرعة ؟ كأنّ أحداً ما يطاردك .

-- أجل ، فهناك شيء يطاردني . . . .

-- ما هو ؟

-- الخجل . . . همس أبلوموف .

ـــ الخجل ! . . . كرّرت أولغا بصورة غريزية . « سأقول له الآن : مسيو أبلوموف لم أكن أنتظر هذا منك مطلقاً . . . » ـــ .

ـــ أجل ، يا أولغا سيرغييفنا ، ـــ تغلّب على نفسه في نهاية المطاف ، ـــ إنك ، على ما أعتقد ، مندهشة . . . مستاءة . . .

« لقد آن الأوان ، . . ها هي اللحظة الحقيقية المناسبة قد جاءت . ـــ فقلبها كان يخفق بشدة . يا إلهي ، لا أستطيع ! » .

حاول أنْ ينظر إلى وجهها . ليرى من تكون ، لكنها كانت تشمّ الخزام والليلاك ولم تكن تعرف ماذا حلّ بها . . . وما ينبغي أنْ تقوله وتفعله .

« آه ، ليتك الآن ، يا صونيا ، تبتكرين شيئاً ما ، فكم أنا بلهاء ! لا أعرف شيئاً . . . كم أشعر بالعذاب ! » ـــ فكّرت أولغا .

ـــ لقد نسيت تماماً . . . ـــ قالت أولغا .

ـــ صدّقيني ، أنّ هذا كان عفواً ، رغم إرادتي . . فلم أستطع أنْ أتمالك نفسي . . . ـــ بدأ أبلوموف حديثه وقد تشجّع قليلاً ـــ فما من شيء كان يمكن أن يمنعني ، آنئذ ، عن قول ذلك ؛ فلم يكن قصف الرعد ، ولا سقوط حجرٍ عليّ ، ليمنعني عن النطق بما قلت . لم تكن قوة في الأرض تستطيع أنّ تمنعني عن ذلك . . . بالله عليك ، لا تظني أنني كنت أريد أن . . . كنت أريد بعد دقيقة ، والله يشهد على ذلك ، بأن أسحب كلمتي الطائشة . . .

كانت تسير وهي مطرقة رأسها ، تشمّ الأزهار .

– انس هذا – تابع أبلوموف . – انس ، خاصة ، أن هذا لم يكن حقيقة . . .

– لم يكن حقيقة ؟ – كرّرت أولغا فجأة . فانتصبت قامتها وسقطت الأزهار من يديها .

انفتحت عيناها فجأة ، واتّسعتا ، ثم أخذتا تبرقان من شدة الدهشة . . .

– كيف لم يكن حقيقة ؟ – كرّرت أولغا من جديد .

– أجل ، بالله عليك ، لا تغضبي مني ، وانسَ هذا . أؤكد لك . بأن هذا لم يكن إلاّ نزوة عابرة فقط . . . بفعل تأثير الموسيقى .

– بفعل تأثير الموسيقى فقط ! . . .

تغيّر وجهها ، فاختفت البقعتان الورديتان . وذبلت عيناها .

« هكذا ، كأنّ شيئاً لم يكن ! لقد سحب كلمته الطائشة ، فلا داعي للغضب إذن ! – لقد سُوّي كل شيء ، واستتبّ الأمر الآن . . . فيمكننا أنْ نتحدث ، ونمزح كالسابق . . . » تفكّرت أولغا ثم قطفت بعصبيّة ، غصناً من شجرة كانت تمر بالقرب منها ، وانتزعت بشفتيها ورقة منه ، ثم رمت الغصن والورقة فوراً ، على الأرض .

– هل أنت غاضبة منّي ؟ هل نسيت ؟ – قال أبلوموف ، وهو يميل نحوها .

– ماذا ؟ عن أي شيء تسأل ؟ – أجابت أولغا باضطراب وأسى ، وهي تحوّل وجهها عنه . لقد نسيت كل شيء . . . فأنا سريعة النسيان !

صمت أبلوموف ، ولم يكن يعرف ما يفعل . فقد لاحظ حزنها المفاجىء ، ولم يعرف السبب . « يا إلهي ! – فكّرت أولغا – كل شيء عاد إلى طبيعته ؛ فكأنّ هذا المشهد لم يكن . شكراً لله ! آه ، يا إلهي ، ما هذا آه ، صونيا ! كم أنت محظوظة ، سعيدة ! »

– سأذهب إلى البيت – قالت أولغا فجأة – وهي تعجّل الخطى وتنعطف في ممر آخر .

– أليس الذهاب من هنا أقرب ، – لاحظ أبلوموف . « إني مغفّل – قال مخاطباً نفسه بأسى ، – لم يكن ضرورياً توضيح هذا كله ! لقد أصبحَتْ مستاءة منيّ أكثر .

لم يكن ينبغي أنْ أذ كّرها بذلك كله : «كان يمكن أن يمرّ الأمر بعفوية ، فتنسى من تلقاء نفسها . لم يبقَ أمامي الآن إلاّ أن أطلب منها المعذرة » .

« لا بدّ أنّ الأسى الذي ألمّ بي الآن – فكرّت أولغا – ناجم ، لأنني لم أقل له : مسيو أبلوموف ، لم أكن أتوقع منك مطلقاً أن تسمح لنفسك . . . لكنه أبلغني . . . بأنّ ذلك لم يكن حقيقة ! أعتقد . بأنه لم يقل الحقيقة ! ألَمْ يكن جريئاً ؟ » .

– هل نسيت حقيقةً ؟ – سأل أبلوموف بصوت خافت .

– نسيت ، نسيت كل شيء ! قالت بسرعة وهي تسير مسرعة إلى البيت .

– اعطني يدك ، علامة ، على أنك لم تغضبي منيّ .

مدّت له يدها ، دون أن تنظر إليه . وما ان لامس طرف أصابعها ، حتى سحبت يدها إلى الوراء فوراً .

— كلا . إنك غاضبة ! — قال أبلوموف متنهداً . — كيف يمكنني أن أؤكد لك ، بأنّ ذلك كان نزوة ، وأنني لم أستطع أن أتمالك نفسي وقتها ؟ . . . كلا لن أسمع ، بالطبع بعد الآن غناءك . . .

لا تؤكد لي ذلك ، مطلقاً : فلا حاجة لتأكيداتك . . . — قالت أولغا بحيويّة . — فلن أغنّي بعد الآن !

— حسناً ، سأصمت ، لكن بالله عليك لا تنصرفي بهذه الطريقة ، وإلا فإنني سأشعر بعبء ثقيل يؤلم نفسي . . . .

انصرفت بهدوء ، وهي تستمع إلى كلماته بمزيد من التوتر .

— إذا كان صحيحاً ، أنك كنت ستبكين ، لو لم تسمعي تأوهاتي وأنت تغنّين . فإنّ انصرافك الآن بهذه الطريقة دون أن تبتسمي وتمدّي لي يدك بمودة ، سيجعلني . . . أمرض وستعتلّ صحتي فركبتاي ترتجفان ، ولا أستطيع أن أقف إلاّ بجهد جهيد . رحماك يا أولغا سيرغييفنا !

— لماذا ؟ سألت أولغا فجأة . وهي تنظر إليه .

— لا أعرف . لقد زال خجلي الآن : فلم أعد أخجل من كلمتي . يبدو لي أن فيها . . .

أخذ قلبه يخفق من جديد ، وبدا له أنّ شيئاً جديداً في قلبه

لم يكن موجوداً من قبل ، قد ظهر . فأصبحت نظرتها اللطيفة ، المستطلعة تحرق قلبه من جديد .

التفتت إليه بمنتهى الرشاقة والكياسة . وراحت تنتظر ردّه بقلق كبير .

— ماذا يوجد فيها ؟ — سألت أولغا بنفاذ صبر .

— لا ، إنني أخشى أن أبوح : فستغضبين من جديد .

— تكلّم ! — قالت بصورة آمرة .

صمت أبلوموف .

— تتملّكني الرغبة بالبكاء . وأنا أنظر إليك . . . أترين بأنه لا توجد لديّ عزّة نفس ، فأنا لا أخجل من قلبي . . .

— لماذا ترغب بالبكاء ؟ — سألت أولغا . وقد ظهرت على وجنتيها بقعتان ورديتان .

— صوتك يتردد في نفسي طوال الوقت . . . فأنا أشعر من جديد . . .

— بماذا تشعر ؟ — قالت أولغا وهي تنتظر جوابه باهتمام زائد .

اقتربا من مدخل المنزل .

— أشعر . . . قال أبلوموف بسرعة ، ثمّ توقّف .

أخذت تصعد درجات السلم ببطء ، وجهد .

— . أشعر بتأثير نفس الموسيقى . . . أشعر بذات . . . الإضطراب . . . وبذات . . . اعذريني ، اعذريني — أقسم ، بأنني لا أستطيع أن أسيطر على نفسي . . .

— مسيو أبلوموف . . . — بدأت أولغا حديثها بصرامة وجدّية .
فتنوّر وجهها فجأة بعد ذلك بشعاع ابتسامة : — إنني لست غاضبة ، فلقد غفرت كل شيء . — أضافت برقّة ، — لكن في المستقبل . . .

ثم مدّت إليه يدها إلى الوراء دون أن تنظر إليه وتلتفت نحوه ، فأمسك بها بسرعة البرق وقبلها من راحة يدها . فضغطت على شفتيه ببطء ، ثم خفقت بلمح البصر الباب الزجاجي ، بينما ظلّ أبلوموف واقفاً كما لو أنه قد تسمّر مكانه .

— ٧ —

بقي طويلاً يتتبعها وقد اتسعت عيناه وانفغر فمه ، ثم أخذ بصره يهيم عبر الأغصان . . .

مرّ بالقرب منه غرباء ، ومرّ فوقه طائر . سألته إحدى الفلاحات المارّات ، إنْ كان يريد ثماراً ، لكنه بقي مذهلاً .

سلك من جديد . نفس ذلك الممرّ ، وأخذ يسير ببطء حتى وصل إلى منتصفه ، فالتقط الحزام ، الذي رمته أولغا ، وغصن الليلاك ، الذي قطفته ورمته بأسى .

« لماذا فعلت هذا ؟ » أصبح يتخيّل ويتذكّر . . .

— كم أنا مغفل ، كم أنا مغفل ! — قال أبلوموف فجأة وبصوت عال ، وهو يخطف بيده الحزام وغصن الليلاك ، ثم اندفع يركض في الممرّ . — لقد طلبت منها الصفح ، لكنها . . .

آه ، هل هذا صحيح ؟ . . . يا لها من فكرة !

وصل إلى البيت سعيداً ، متألقاً . « كالبدر في قبة السماء » حسب تعبير مربيته ، فجلس على طرف الأريكة ، وكتب بسرعة على الغبار ، الذي يكسو الطاوله بأحرف كبيرة : « أولغا » .

ــ آه من هذا الغبار ! ــ لاحظ أبلوموف وقد صحا من ذهوله . ــ زاخار ! زاخار ! ــ ظلّ يصرخ طويلاً ، لأنّ زاخار كان يجلس مع سائقي العربات عند البوابة .

ــ أسرعْ ! ــ قالت أنيسيا بهمس متوعدّ وهي تشدّ زاخار بكمّه . ــ سيدي النبيل يناديك منذ مدة .

ــ زاخار ، انظُرْ ما هذا ؟ ــ قال إيليا إيلييتش بلطف وطيب ، فلم يكن الآن في وضع يستطيع فيه أن يغضب . ــ أتريد أن تُحدِث الفوضى وتترك الغبار وأعشاش العنكبوت هناك أيضاً ؟ لا ، عذراً ، فلن أسمح بذلك ! أولغا سيرغيفنا تطاردني بالقول : إنك« تحب الأوساخ والغبار » .

ــ أجل . من السهل عليهم أن يقولوا هذا : فلديهم خمسة من الخدم ، لاحظ زاخار وهو يتّجه نحو الباب .

ــ إلى أين ؟ تعال نَظِّفْ : الجلوس هنا مستحيل ، فالمرء لا يستطيع أن يسند مرفقيه . . . فهذا شيء شنيع ، هذا . . . أبلوموفية !

تبرّم زاخار ، ثم ألقى على سيّده نظرة جانبية .

« هه ! ــ يا له من مخترع ! لقد ابتكر كلمة جديدة ! ــ فكّر زاخار »

- هيّا ، نظِّفْ ، لماذا تقف ؟

- ماذا أنظف ، لقد نظفّت اليوم ! - أجاب زاخار بعناد .

- من أين جاء الغبار . إذا كنت قد نظّفت ؟ انظر ، ها هو ذا الغبار في كل مكان ! نَظِّفْ فوراً ! ولا تُبْقِ أثراً له !

- لقد نظّفت - أصرّ زاخار - لن أنظف للمرّة العاشرة ! فالغبار يأتي من الشارع باستمرار . . . فهنا حقل ، والمنزل ريفي : لذا ، فالغبار كثير في الشارع .

- زاخار تروفيميتش ، - بدأت أنيسيا ، التي أطلّت ، فجأة ، من الغرفة المجاورة ، إنّ شغلك عبث بعبث . فأنت تكنس أرض الغرفة أولاً . بعدها تكنس الطاولات ؛ فالغبار سيتجمّع من جديد . . . لو أنك تقوم قبل ذلك . . .

- هل أتيت إلى هنا لتعلمّيني ؟ - زمجر زاخار بغضب . - اذهبي من حيث أتيت !

- أيجوز أن تكنس أرض الغرفة أولاً ، ثم تكنس الطاولات بعدها ؛ أين تعلمّت هذا ؟ . . . لهذا السبب يغضب سيّدي . . .

- كفى ، كفى ، كفى ! صاح زاخار ، ثم دفع صدرها بمرفقه .

ضحكت ثم توارت . أشار أبلوموف إليه بيده كي ينصرف ، ثم اتكأ إيليا إيلييتش على الوسادة وتمدّد . فوضع يده على قلبه وراح يصغي إلى دقّاته .

« هذا مضرّ - أسرّ أبلوموف لنفسه . - ما العمل ؟ إذا استشرت الطبيب ، فسيرسلني ، على الأرجح ، إلى الحبشة ! » .

قبل زواج زاخار من أنيسيا ، كان كلٌّ منهما يعمل في المجال المحدّد له ، دون أن يتدخل أي منهما في شؤون الآخر . فأنيسيا كانت تعرف السوق والمطبخ وتشارك في تنظيف الغرف مرّة واحدة في العام ، عندما كان يتمّ غسل الأرض .

لكن ، بعد زواجها ، أصبحت إمكانية التدخل لتأمين راحة سيّدها ، متيسرة لها أكثر . أصبحت تساعد زاخار في عمله . فبدت الغرف أكثر نظافة وترتيباً . بوجه عام كانت تقوم ببعض مهام زوجها عن طيب خاطر ، بينما كانت تقوم بتنفيذ البعض الآخر منها ، لأن زاخار قد فرض ذلك عليها فرضاً ، بطريقة استبدادية .

— هيّا ، نَفّضي السجّادة ، — كان زاخار يزمجر بصورة آمرة . . وكان يأمرها بتنظيف زوايا الغرف ، أو بنقل الأواني والأغراض الأخرى إلى المطبخ .

هكذا أصبح زاخار يرفل بهذه النعمة : فالغرف أصبحت نظيفة ، وسيّده لم يؤنّبه أو يوجه إليه « كلمات مؤسفة » ، وصار زاخار لا يعمل شيئاً . لكن هذه النعمة لم تدم طويلاً . إليكم السبب .

ما إنْ أصبحت أنيسيا تشارك في ترتيب وتنظيف غرف سيّدها ، حتى بدا كلّ شيء يفعله زاخار حماقة . فكل خطوة يخطوها ، كانت تبدو في غير مكانها ، مما أثار حفيظة زاخار . فهو الذي أمضى خمسين عاماً من حياته ، وكلّه ثقة ، بأنّ كلّ ما يفعله ، لا يمكن أن يُنْجَزَ على نحو أفضل .

في غضون أسبوعين ، برهنت له أنيسيا أن كل ما يقوم به هو خطأ بخطأ ، زد على ذلك أنها أصبحت تعامله الآن بتسامح مهين ، فتغفر له هفواته ، كما يجري التعامل مع الأطفال والمغفلين ، كما أنها كانت تضحك ساخرة ، عندما تنظر إليه .

— زاخار تروفيميتش . — كانت أنيسيا تقول له بلطف ، — من العبث أن تغلق المدخنة أولاً ثم تفتح الكوى بعد ذلك : فأنت تدخل البرد إلى الغرفة من جديد .

— ما العمل حسب رأيك ؟ كان زاخار يسألها بفظاظة الزوج — متى يجب أن أفتحها ؟

— أشْعِلْ النار وانتظر حتى تستطيل ألسنتها وتسخن المدفأة من جديد — كانت تجيبه أنيسيا بهدوء .

— يا لك من حمقاء ! — كان زاخار يقول — إنني أتصرف منذ عشرين سنة على هذا النحو ، وتريدين أن أغيّر أسلوبي من أجلك . . .

كان زاخار يضع كلّ شيء على ظهر الخزانة : الشاي — السكر — الليمون ، العملة الفضية المعدنية ، دهان الأحذية ، الفرشاة والصابون .

ذات مرّة ، جاء زاخار فوجد الصابون على المغسلة ، ودهان الأحذية والفرشاة على النافذة في المطبخ ، والسكر والشاي في أحد الأدراج .

— أنت التي فعلت ذلك كله حسب مزاجك ، أليس كذلك ، — سأل متوعداً — : فأنا الذي وضعت كل شيء قصداً في مكان واحد ، كي تكون الحاجيات في متناول اليد ، فلماذا تبعثرين الأشياء في أماكن مختلفة ؟

– كي لا يتأثر الشاي برائحة الصابون – أجابت أنيسيا بوداعة .

في مرّة أخرى ، دلّته أنيسيا على ثقبين أو ثلاثة ، كان العثّ قد أحدثها في سترة سيّده ، فأوصته بأن ينفض الثياب وينظفها حتماً مرّة واحدة كل أسبوع .

– اعطني الثياب لأنفضها وأنظّفها – ختمت حديثها بلطف .

انتزع منها زاخار السترة ، التي كانت قد أخذتها لتنظّفها ، ووضعها في مكانها المعتاد .

ذات مرّة ، بينما كان زاخار يرغي ويزبد كعادته وهو يغتاب سيّده بسبب ما يلاقيه منه من توبيخ وتأنيب على قلة النظافة وكثرة الصراصير مبرّئاً نفسه من المسؤولية بحجة أنه ، أي زاخار ، ليس هو « الذي خلقها » ، أخذت أنيسيا تنظف بصمت ظهر الخزانة ورفوفها ، فأزالت قطع وفتات الخبز الأسود ، المرميّة على الرفوف منذ عهد بعيد . ثم مسحت الخزانة وغسلت الآنية ، فلم تعد الصراصير موجودة تقريباً .

في إحدى المرات أيضاً ، كان زاخار يحمل صينيّة عليها فناجين وأقداح ، فاختلّ توازن زاخار وكسر كأسين ، فبدأ كعادته يسبّ ويشتم ، حتى أنه همّ بأن يرمي الصينية وما عليها على الأرض . اقتربت منه أنيسيا وأخذت الصينية من يديه . ثم وضعت عليها أقداحاً أخرى وعلبة السكر والخبز . وهكذا وضعت كل الأغراض ، دون أن يهتزّ فنجان واحد . ثم بدأت تعلّمه كيفية حمل الصينية بيد واحدة ، وكيفية

إمساكها بيد أخرى . فطافت الغرفه مرتين أو ثلاث ، وهي تدوّر الصينية تارة إلى اليمين وأخرى إلى اليسار ، دون أن تهتزّ أو تتحرك ملعقة واحدة عليها . فاتّضح لزاخار فجأة ، بأن أنيسيا أذكى منه !

خطف زاخار الصينية منها . فأسقط الأقداح ، ومنذ ذلك الوقت لم يستطع أن يغفر لها .

— أرأيت ماذا فعلت ! — أضافت أنيسيا بهدوء .

نظر إليها بغطرسة غبيّة حمقاء ، فضحكت وسخرت منه .

— آه ، يا لك من امرأة وقحة ، تريدين أن تتفاخري بذكائك ! ألم يكن عندنا في أبلوموفكا ، مثل هذا البيت ؟ كان البيت كله بمن فيه يعتمد عليّ : فكلّ من كان فيه يعرف ذلك . . . ثم تأتين بعد ذلك كله . . . آه منك ! . .

- إنني أريد الخير لك — بدأت أنيسيا الكلام .

— كفى — كفى ، كفى ! — قال زاخار بصوت أجش ، وهو يهدّدها بحركة من مرفقه باتجاه صدرها . — امضِ من هنا ، إلى المطبخ . . . اهتمي بعملك النسائي فقط !

ضحكت بسخرية ثم انصرفت ، بينما كان يتابعها بنظره خلسةً .

لقد جُرِحَ كبرياؤه ، فأخذ يتعامل مع زوجته بتجهم . وعندما كان إيليا إيليتش يسأل عن غرضٍ ما ، لم يتم العثور عليه ، كأن يكون قد انكسر ، أو عندما كانت الفوضى تسود المنزل ، بوجه عام ، حيث كان فوق رأس زاخار خطر مصحوب « بكلمات مؤسفه » ،

عندها كان زاخار بغمز أنيسيا بعينه ، ويومىء إليها برأسه كي تذهب إلى غرفة سيّده وهو يشير إليها بإصبعه ، قائلا بهمس آمر : « اذهبي إلى سيّدي : انظري ماذا يريد هناك ! » .

كانت أنيسيا تدخل فيزول الخطر بتفسير بسيط . وبمجرد أن تبدأ « الكلمات المؤسفة » في حديث أبلوموف ، كان زاخار نفسه ، يقترح بأن ينادي أنيسيا .

هكذا كان يمكن أنْ يتعطّل ، من جديد ، كل شيء في المنزل ، لولا أنيسيا : فقد أصبحت تحسب نفسها على منزل أبلوموف ، كما أخذت ، بغير قصد تشارك زوجها بكل شيء يتعلق بمنزل إيليا إيليتش . فعينها الانثوية ويدها المهتمة ، كانت ترتّب كل شيء في الحجرات المهملة .

ما إنْ يخرج زاخار إلى مكانٍ ما ، حتى تزيل أنيسيا الغبار عن الطاولات والأرائك وتفتح النوافذ . وتصلح وضع الستائر ، وتضع الأحذية المرمية في وسط الغرفة مكانها ، وترفع البنطلونات المعلقة على الكراسي المخصصة للإستقبال وترتّبها في الخزانة ، وترتّب كل الملابس ، وحتى الأوراق ، وأقلام الرصاص والسكاكين وأقلام الحبر ، فتضع كل شيء مكانه ، وترتّب الفراش المدعوك ، وتصلح وضع الوسادات — كل هذا تقوم به على ثلاث دفعات ، ثم تلقي نظرة سريعة على الغرفة كلها ، فتحرّك أحد الكراسي ، وتدفع أحد الأدراج نصف المفتوحة ، ثم تخطف المناشف من على الطاولة وتنخطف بسرعة إلى المطبخ ، بمجرّد أنْ تسمع صرير حذاء زاخار .

كانت امرأة حيوية رشيقة . في السابعة والأربعين من العمر ، ذات ابتسامة ، فيها كثير من العناية والإهتمام ، تتحرك عيناها بحيوية في كل الإتجاهات ، رقبتها قوية وصدرها عامر ، لها يدان حمراوان قويتان ، لا تكلاّن أبداً .

لم يكن لها وجه ، بالمرّة ، تقريباً : فلم يكن يُلْحَظ فيه إلاّ الأنف ، مع أنه لم يكن كبيراً ، لكنه يبدو وكأنه قد انفصل عن الوجه ، أو أُضيف إليه بطريقة غير منسجمة ، زد على ذلك أن الجزء الأسفل منه كان منجذباً إلى الأعلى ، حيث لم يكن الوجه يُلْحَظ بسبب ذلك . كان وجهها باهتاً ، مغلّفاً ، حيث يمكن أن تحصل على مفهوم واضح ، منذ زمن بعيد ، عن الأنف ، أما الوجه فلم يكن يلحظهُ المرء كلياً .

يوجد في العالم كثير من الأزواج ، على غرار زاخار . ففي بعض الأحيان ، يستمع دبلوماسي إلى نصيحة زوجته بلا اكتراث ، فيهز كتفيه ، ثم يعمل ، سراً ، بنصيحتها .

وأحياناً يجيب أحد المدراء على ثرثرة زوجته حول مسألة هامة ، بتكبّر واستخفاف ، بينما تراه في الغد ينقل هذه الثرثرة ، باهتمام ، إلى الوزير .

فهؤلاء السادة يتصرّفون مع زوجاتهم بوجوم أو بدون اهتمام ، فلا يخاطبوهن إلاّ من رؤوس شفاههم ، فليست زوجاتهم في نظرهم ، إلا مجرد نسوة تابعات لهن ، كما يعتقد زاخار ، أو كائنات للتسلية والترفيه من عناء ومتاعب الحياة الجدية .

إنه وقت الظهيرة ، أشعة الشمس الدافئة ، تلفح منذ بعض الوقت طرقات ومسالك الحديقة . فكل الناس جالسون في الظل . المربيات ، فقط ، هنّ اللواتي كنّ يمشين بمهابة مع أطفالهنّ مجموعات مجموعات ، ويجلسن على العشب ، تحت أشعة شمس الظهيرة .

كان أبلوموف ما يزال مستلقياً على الأريكة ، متأرجحاً بين الشك واليقين ، يصدقّ تارة ، ويرفض أخرى معنى ومدلول حديثه الصباحي مع أولغا .

— إنها تحبّني ، فلواعج الحب نحوي ، تتحرك في داخلها . هل ذلك ممكن ؟ لكنها تحلم وتفكّر بي ، فمن أجلي ، غنّت بشغف لا يوصف ، كما أثارت الموسيقى في كلّ منّا عدوى التعاطف والود .

استيقظ الاعتزاز في نفسه ، وبدأت الحياة تشرق في داخله ، فقد سيطر عليه بُعْدُها الساحر ، وألوانها الزاهية المتنوعة ، وأشعة الضياء ، التي أثارت في نفسه مشاعر رائعة . تخيّل نفسه ، أنه موجود في الخارج ، بصحبة أولغا في سويسرا على البحيرات . وفي إيطاليا وهو يتمتع ، بصحبتها ، برؤية معالم روما وآثارها ، ويتنزه في الجندول ، ثم وجد نفسه بعد ذلك وسط زحام الناس في باريس ولندن وبعدها . . . بعدها وجد نفسه في جنته على الأرض في أبلوموفكا .

إنها آية في الجمال ، بتلعثمها اللطيف المحبّب في الكلام ، بوجهها الأبيض الرائع وعنقها اللطيف الساحر . . .

لم ير الفلاحون يوماً ، جمالاً كجمالها ؛ إنهم يسجدون أمام هذا

الملاك . فهي تمشي برشاقة وخفة على العشب ، عندما تسير معه تحت ظلال أشجار التبولا : إنها تغنّي له . . .

إنه يشعر بالحياة ، بمجراها الهادىء ، وبخرير مياهها العذبة ، بالرذاذ المتناثر . . . فقد استغرق في التفكير والتأمل بهذه الأماني الرائعة ، الباعثة على الإرتياح ، وبهذه السعادة ، التي لا توصف ، و

وفجأة اكفهر وجهه .

— كلا ، هذا لا يمكن أن يكون ! — قال أبلوموف بصوت مسموع ، ثم نهض وبدأ يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً . — كيف يمكن أنْ تحبّ إنساناً مضحكاً مثلي ، يبعث على الشفقة ؛ فنظرتي نائمة ، تبعث على الملل ، ووجنتاي مترهّلتان . . . إنها تسخر منّي لا أكثر . . .

توقف أمام المرآة وراح يمعن النظر في وجهه طويلاً ، وقد تملّكه ، في البداية شعور بالنقمة وعدم الاستحسان ، ثم انفرجت أساريره بعد ذلك ، حتى انه ابتسم .

— يبدو أنيّ تحسّنت وأصبحت أكثر نضارة ، عما كنت عليه في المدينة — قال أبلوموف — فلم تعد عيناي ذابلتين . . . كما اختفى شحاذ العين ، الذي كان يظهر في المدينة . . . لا بدّ أن هذا كله قد حدث بسبب الهواء هنا ، فأنا أسير كثيراً وأمتنع عن شرب النبيذ كلياً ، ولا أتمدّد . . . لم يعد من الضروري أن أسافر إلى مصر .

شخصٌ قادم من طرف ماريا ميخايلوفنا ، عمة أولغا ، يحمل إليك دعوتها للغداء .

ــ إنني قادم ، قادم ! ــ قال أبلوموف .

انصرف الشخص .

أصبح أبلوموف فرحاً ، نشيطاً . الطبيعة كانت صافية . الناس كلهم طيبّون ، يستمتعون بالحياة ؛ السعادة بادية على وجوه الجميع ، ما عدا زاخار ، فوجهه متجهم ، ينظر طوال الوقت إلى سيّده خلسة ، بينما تضحك أنيسيا من الأعماق . « سأقتني كلباً أو قطاً ــ قرّر أبلوموف . . . من الأفضل أن أقتني قطاً : فالقطط لطيفة وديعة ، تموء بعذوبة » .

أسرع أبلوموف قاصداً منزل أولغا .

« لكن . . . أولغا تحبني ! ــ قال أبلوموف وهو يسير أثناء الطريق ــ إنها مخلوقة شابّة ، نضرة رائعة ! فخيالها الآن منفتح على على أكثر جوانب الحياة شاعرية وجمالاً : لا بدّ أنها تحلم بشبّان رشيقين ، طوال القامة ، أقوياء في أجسادهم ، الجرأة بادية على وجوههم ابتسامتهم تحمل معنى الاعتزاز والإباء ، عيونهم فيها بريق يتلألأ في نظرتهم ويصل بسهولة ويسر إلى قلوبهم ، صوتهم حيوي رنّان، كما لو أنه ينبعث من وتر معدني . . . لنفترض ، أن أولغا ليست فتاة عادية ، لا يمكن أن تدغدغ قلبها الشوارب ، ولا يستهوي سمعها صليل السيوف ، لكنها ، حتى في هذه الحالة ، لا بد أن تحلم بأناس من طراز آخر . . . فينبغي أن تحلم بشاب متقد الذهن ، على سبيل المثال ، تستكين المرأة أمامه ، وتحني رأسها اعترافاً بقوّة عقله وذكائه ، تحلم بشاب يحترمه وينحني العالم بأسره إجلالاً له . . . يمكن أن تحلم بفنّان شهير . . . أمّا

أن تحلم بي ، فأمر يصعب تصديقه ، فمن أكون ؟ أبلوموف — لا شيء أكثر .

أما بالنسبة لشتولتس : فالأمر مختلف : فهو يملك العقل ، والقوة ، والقدرة على التحكم بنفسه ، وبمصيره وبالتأثير على الآخرين . إنه يجيد التصرف مع كل من يلتقي بهم ، يملك الموهبة والمقدرة على فعل كل شيء ، فهو يرنّ كالآلة الموسيقية . . . أما أنا ؟ . . . لا أستطيع أن أتصرف حتى مع زاخار . . . ولا مع نفسي أيضاً . . . أنا — أبلوموف ! يا إلهي ! إنها تحب شتولتس ! — فكّر أبلوموف وقد سيطر عليه الرّعب ، — لقد قالت ، بأنها تحبه كصديق ؛ هذا كذب ، ربما قالت هذا عن غير وعي . . . فالصداقة لا يمكن أن تقوم بين رجل وامرأة » .

أخذت خطواته تتباطأ ، وتتباطأ ، وتتباطأ ، وقد استولت عليه الشكوك .

« ما معنى مداعبتها لي ؟ . . . فإذا كانت تريد فقط . . . » .

توقّف تماماً وتجمّد لحظة .

« قد يكون الأمر مجرّد مكر ، ومؤامرة . . . كيف لي أن أقول ، بأنها تحبني ؟ إنها لم تقل ذلك : فهذا ليس إلاّ وسوسةً شيطانية مبعثها الشعور بعزة النفس ! إنها تحبّ أندريي ! لكن ، هل يمكن ذلك ؟ . . . لا ، هذا لا يمكن : فهي ، فهي . . . يا إلهي كم هي رائعة ! » — قال أبلوموف باغتباط وقد رأى ، فجأة ، أولغا وهي تخفّ لملاقاته.

مدّت له أولغا يدها وهي تبتسم بسرور .

« كلا ، إنها ليست مخادعة ، — قرّر أبلوموف ، — فالنساء المخادعات تستعصي عليهن مثل هذه النظرة الوديعة اللطيفة ، وهذا الضحك الصادق . . . إنهن يتصنّعن كل شيء . . . لكن . . . أولغا لم تقل ، رغم ذلك ، إنها تحبني ! — فكّر أبلوموف ، وقد تملّكه الرعب فجأة ، وهو يستوضح الأمر ، في نفسه . . . — لمَ هذه الكآبة ؟ . . . يا إلهي ! في أيّ حفرة وقعت ! »

— ماذا بيديك ؟ — سألت أولغا .

— غصن .

— ما هذا الغصن ؟

— كما ترين : غصن ليلاك .

— أين حصلت عليه ؟ فلا يوجد ليلاك هنا . أين كنت تسير ؟

— هذا هو الغصن ، الذي كنت قد قطفته ورميته منذ مدّة .

— لماذا التقطته ؟

— يعجبني ، لأنك . . . رميته بأسى .

— يعجبك أن أكون حزينة — يا لها من مفاجأة ! لماذا ؟

— لن أقول .

— قل لي ، من فضلك ، أرجوك . . .

— ولا بأي حال .

— أتوسل إليك .

هز رأسه مبدياً إشارة النفي .

— وإذا ما غنيت ؟

— عندها . . . قد أقول . . .

— هل الموسيقى فقط ، هي التي تؤثر فيك ، — قالت وهي تقطب حاجبيها . . هذا صحيح إذن ؟

— أجل ، لكن الموسيقى التي تؤثر بي ، هي تلك الصادرة عنك . . .

— حسناً ، سأغني . . . أغنية العذراء الطاهرة . . . — قالت بنغمة ساحرة ثم توقفت .

— هيا ، تكلم الآن ، — قالت أولغا .

غالب نفسه لبعض الوقت .

— كلا ، كلا ، — ختم أبلوموف حديثه بشكل أكثر حزماً مما مضى . — لن أقول . . . مطلقاً !

قد يكون الأمر غير صحيح ، مجرّد تصور ؟ . — لا ، لن أقول مطلقاً !

— ما الأمر ؟ لا بد أن المسألة بالغة الأهمية ، — قالت أولغا وقد وجهت تفكيرها بهذا المنحى ، بينما ركّزَتْ عليه نظرة ثاقبة .

أخذ وجهها ، بعد ذلك يمتلىء تدريجياً بالوعي ، فقد كان شعاع من التفكير والحدس يتخلل كل قسمة من قسماته . وفجأة استنار وجهها بالوعي . . . تماماً كالشمس ، التي تخرج أحياناً من وراء غيمة فتضيء تدريجياً أحد الأغصان فتتبعه بآخر ثم تضيء السقف ،

وفجأة تغمر بأشعتها المشهد كله . لقد أدركت ما كان أبلوموف يفكر به .

كلا ، كلا ، فلساني لا يطاوعني . . . — قال أبلوموف مؤكداً . — لا تسأليني .

— أنا لا أسألك ، — أجابت بلا مبالاة .

— كيف ؟ فقد كنت الآن . . .

— لنذهب إلى البيت — قالت أولغا بجدّية ، دون أن تستمع إليه ، — ها هي عمتي تنتظر .

ثم سارت إلى الأمام ، فتركته مع عمتها ثم مضت مباشرة إلى غرفتها .

— ٨ —

كان اليوم كله إحباطاً تدريجياً بالنسبة لأبلوموف ، فقد أمضاه مع عمة أولغا . كانت امرأة حادّة الذكاء ، لبقة ، أنيقة ، رائعة الهندام حيث يراها المرء دائماً في فستان جديد من الحرير ، يناسبها بشكل رائع ، وقد طرّزت ياقته بتخريمات وزركشات ، غاية في الجمال والأناقة ، قلنسوتها مصنوعة أيضاً بذوق رفيع وبعناية كبيرة وأشرطتها تلائم وجهها الخمسيني ، الذي ما زال نضراً . على قلنسوتها يتعلّق منظار ذهبي .

حركاتها والأوضاع التي تتخذها تنمّ عن حسن ووقار . فهي تتزيّن بشال رائع ثمين أحسنت اختياره ، تجلس على الأريكة بعظمة ومهابة . فلا يراها المرء أبداً تمارس عملاً : فالإنحناء والحياطة والإهتمام

بصغائر الأمور المنزليّة لا تناسب وجهها وهيئتها الوقورة . حتى أوامرها لخدمها وخادماتها كانت تمنحها لهجة متعالية ، غير مكترثة ، فهي توجهّها باقتضاب وجفاء .

كانت تقرأ أحياناً . لكنها لم تكن تمارس الكتابة . بيد أنها كانت تتحدث بطلاقة . وبالمناسبة ، فإن أحاديثها غالباً ما كانت تتم بالفرنسية ، بيد أنها سرعان ما لاحظت أنّ أبلوموف لم يكن يتقن الفرنسية تماماً . فأخذت منذ اليوم الثاني تتحدث بالروسية .

لم تكن تستخدم الخيال في حديثها أو تتحذلق ، فقد كانت ميزة صارمة تسيطر عليها لم يتجاوزها ذهنها إطلاقاً . يبدو بجلاء ، أن العاطفة والمشاعر ، دون أن نستثني الحبّ طبعاً ، كانت تتخلل في الماضي كما تتخلل الآن حياتها ، إنْ لم يكن في الحقيقة ، فبالكلام ، وذلك على قدم المساواة مع السمات والعناصر الأخرى . وتساهم في مختلف شؤونها الحياتية . بينما يتخلل كل شيء آخر حياتها بقدر ما يبقى في نفسها من متّسع لم يشغله الحب .

أكثر ما يثير اهتمام هذه المرأة هو أنْ تستمتعَ بالحياة ، وتسيطر على نفسها وتوازن بين أفكارها وعزيمتها ، وبين عزيمتها وقدرتها على التنفيذ . يستحيل على المرء أنْ يباغتها ، فتراها مستعدّةً ، يقظةً دائماً ، فمهما حاول المرء أن يتربّصها ، يراها دائماً قد وجّهت إليه نظرة لملاقاته .

فالحصافة والحذر تسبقان كلّ فكرة تخطر في ذهنها ، وكلّ كلمة تتفوّه بها ، وكل حركة تبادر عنها .

إنها لا تفصح أبداً أمام أيٍّ كان عن مكنونات قلبها ، ولا تبوح بأسرارها لأحد ؛ فلا يرى المرء بالقرب منها صديقة طيّبة ، أو عجوزاً يمكن أنْ تتهامس معها لدى تناول فنجان من القهوة . لم تكن تجلس مع أحد على انفراد إلا مع البارون فون لانغافاغن فقط ؛ ففي المساء كانت تجلس معه أحياناً حتى منتصف الليل ، لكنها كانت تجلس معه دائماً تقريباً بحضور أولغا ؛ وغالباً ما كانا يصمتان ، لكنّ صمتهما كان يبدو بطريقةٍ ما معبّراً وذكياً ، كأنهما يعرفان أمراً ما ، لا يعرفه الآخرون .

كانا على ما يبدو ، يحبّان أن يكونا معاً — ذلك هو الإستنتاج الوحيد ، الذي يمكن أن يستخلصه المرء وهو ينظر إليهما ؛ فهي تتصرف معه ، كما تتصرف مع الآخرين تماماً : بلطف ، وبطيب ، بدقة وهدوء . كانت الألسنة الشريرة تستخدم لقاءاتهما تلك ، لتلمح إلى صداقةٍ ما قديمة انعقدت بينهما ، وإلى سفرهما سويّةً إلى الخارج ؛ لكنْ لم يظهر في علاقاتها معه أيّ أثر خاص مميّزٍ من الحب الدفين ، لأنّه لم يظهر على السطح مطلقاً .

يجدر القول ، بأن البارون كان وصياً على أملاك أولغا غير الكبيرة ، التي أصبحت بطريقةٍ ما مرهونة .

كان البارون يتابع القضية ، أي أنه كان يرغم أحد الموظفين على كتابة المذكرات ، ثم يقرأها مستعيناً بنظارته ويوقّع عليها ، ويرسل الموظف نفسه ليأخذها إلى الدوائر . ومن خلال صلاته وعلاقاته كانت

القضية تسير على طريق الحل . فقد كان يأمل بنهاية عاجلة ناجحة سعيدة . لقد وضع هذا كله حداً للألسنة الشريرة . فقد اعتاد الناس أن ينظروا إلى البارون وهو في منزل عمة أولغا كأحد الأقرباء .

كان يقارب الخمسين من العمر ، لكنه كان نضراً جداً ، بيد أنه كان يصبغ شاربيه ويعرج قليلاً . كان مبالغاً في أدبه ولطفه ، فلم يكن يدخّن مطلقاً في حضرة السيدات ولم يَضَعْ يوماً رجلاً فوق رجل بوجودهن ، وكان ينتقد بصرامة الشباب الذين يسمحون لأنفسهم ، بأن يتمددوا بوجود الناس ، على الكراسي ، ثم يرفعون ركبهم وأحذيتهم حتى مستوى الأنف . كان يجلس دائماً في الغرفة ، وهو يلبس قفازاً ، وكان ينزعه فقط ، عندما يجلس ليتناول طعام الغداء .

كان هندامه في منتهى الذوق والأناقة ، وكان يحمل في عروة بدلته كثيراً من الميداليات . كان يستقل العربة دائماً ، ويهتم بالأحصنة : فقد كان يطوف حولها ، ويتفحّص عدّتها ، وحتى حوافرها ، قبل أن يصعد إلى العربة ، وكان يخرج أحياناً منديلاً يمسح به ظهر الأحصنة وجوانبها كي يتأكد من شدة نظافتها .

كان يستقبل معارفه بابتسامة ملؤها اللطف والاحترام ، بينما كان يستقبل الناس الذين لا يعرفهم بفتور في البداية ، ثم ما يلبث هذا الفتور أن يُسْتَبْدَل بابتسامة ، بمجرد أنْ يُقَدَّم له الشخص ويتمّ التعارف عليه ، ابتسامة يمكن أن يعوّل عليها دائماً هذا الشخص الجديد .

كان يناقش كل شيء : يتحدث عن الفضيلة والغلاء ، عن العلوم

وعن العالم بنفس الدرجة من الوضوح . يعبر عن رأيه بجمل واضحة كاملة ، كما لو أنه يتكلم مواعظ جاهزة مدونة في سِفْر ، تَمَّ الإفصاح عنها لهداية الناس في هذا العالم .

كانت علاقات أولغا بعمتّها ، حتى الآن ، بسيطة ومريحة جداً : فلم يتجاوزا قط في حبّهما وودهّما حدود الإعتدال ، ولم تبرز بينهما يوماً ، ظلال من السخط والتبرّم .

أسباب ذلك تعود في جزء منها إلى طبيعة ماريا ميخايلوفنا ، عمة أولغا ، بينما يعود الجزء الآخر ، إلى انتفاء أيّ سبب يدفع إحداهنّ لأنْ تتصرّف بشكل مغاير . فلم يخطر ببال العمة ، يوماً ، أن تطالب أولغا ، بشيءٍ يعارض بحدّة رغباتها ، كما لم يخطر بذهن أولغا ، حتى ولا في الحلم ، بأن تمتنع عن تنفيذ رغبات عمتها ، أو تعرض عن اتّباع نصيحتها .

بأي شيء كانت تتبدّى هذه الرغبات ؟ كانت تتبدّى في اختيار الفستان وتسريحة الشعر ،أوفيماإذاكانتا ستذهبان ، على سبيل المثال إلى المسرح الفرنسي ، أم إلى دار الأوبرا .

كانت أولغا تطيع عمتها ، عندما يتعلق الأمر بإبداء رغبة أو بتوجيه نصيحة ، ليس أكثر . — أما عمتها فكانت توجّهُ النصيحة ، دائماً ، باعتدال ملحوظ ، بقدر ما تسمح حقوق العمّة ، دون أن تتجاوز ذلك أبداً .

فهذه العلاقات كانت عديمة الملامح لدرجة ، أنه يستحيل على المرء

أن يقرّر ، إنْ كان في طبع العمة ادّعاءات أو ملاحظات ما على طاعة أولغا وملاطفتها لها ، أو إنْ كان في طبع أولغا نوع من الانصياع ، لعمتها والحنان نحوها .

بيد أن المرء يستطيع أنْ يميّز ، منذ أول مرّة ، يراهما فيها معاً ، بأنهما عمّة وأبنة أخّ ، لا أمّاً وابنة .

— إنني ذاهبة إلى المخزن : ألا يلزمك شيء ما ؟ كانت العمة تسأل .

— أجل يا عمّتي ، يجب أن أبدل فستاني الليلكي . — كانت أولغا تقول ، ثم تذهبان معاً ؛ أو كأنْ تقول ، لا يا عمّتي ، لقد كنت في المخزن منذ مدّة قريبة .

تُمْسِك العمة وجنتي أولغا بإصبعين من كل يد ، وتطبع على جبينها قبلة ، بينما تقوم أولغا بتقبيل يد عمتها ، التي تغادر المنزل .

— هل سنأخذ تلك الفيلا من جديد ؟ تقول العمة ، بأسلوب لا يفهم منه الإستفهام ولا التوكيد ، بل تلفظ ذلك بأسلوب ، يبدو للسامع من خلاله ، وكأنها تحاكم الأمر في نفسها ، دون أنْ تتوصل إلى قرار .

— أجل ، فالمكان هناك جميل جداً ، — كانت أولغا تقول .

ثم تستأجران الفيلا .

وقد تقول أولغا :

— آه يا عمّتي ، ألم تضجري من الغابة والرمال ؟ أليس من الأفضل أنْ نبحث عن فيلا في مكان آخر ؟

— سنرى ، — كانت العمة تقول — أتذهبين يا أولينكا إلى المسرح ؟ — فقد أخذت هذه المسرحية شهرة واسعة .

— بكل سرور ، كانت أولغا تقول ، دونما رغبة سريعة في استرضائها ، وبأسلوب لا ينمّ عن الانصياع .

في بعض الأحيان كانتا تتجادلان قليلاً .

— العفو يا عزيزتي ، أتعتقدين أن الوشاح الأخضر يلائم وجهك ؟ — خذي وشاحاً بنفسجياً .

— آه يا عمتي ! إنني أستخدم الوشاح الليلكي للمرة السادسة — سأتعوّد عليه في نهاية المطاف .

— خذي الوشاح البنفسجي الغامق إذن .

— وهل يعجبك ؟

تبدأ العمة تهزّ برأسها ببطء وهي تمعن النظر إليها .

— كما تشائين ، يا عزيزتي ، لو كنت مكانك لأخذت الوشاح الليلكي أو البنفسجي الغامق .

— لا يا عمتي ، أفضّل أن آخذ هذا الوشاح — كانت أولغا تقول بدماثة ولطف ، ثم تأخذ ما ترغبه . لم تكن أولغا تلتمس النصائح من عمتها ، بوصفها شخصاً يتمتع بالنفوذ ، يكون حكمه بمثابة قانون تلتزم به ، بل بوصفها امرأة أكثر خبرة منها ، شأنها في ذلك شأن أي امرأة أخرى خبرت الحياة .

— هل قرأت هذا الكتاب يا عمتي ؟ كيف ترينه ؟ — تسأل أولغا .

ـ آه ، ياله من كتاب شنيع ! ـ تقول العمة وهي تضع الكتاب بعيداً ، لكنها لم تخبئه كما لم تتخذ أية اجراءات تمنع أولغا من قراءته .

لم يخطر ببال أولغا ، يوماً ، بأن تقرأه . وإذا ما استعصى عليها السؤال نفسه ، فإنهما كانتا توجّهانه إلى البارون لانغفاغن أو إلى شتولتس عندما يكون موجوداً ، للإستفسار عنه ، حيث كانت قراءة الكتاب أو عدم قراءته تتوقّفان على جوابهما .

ـ عزيزتي أولغا ! ـ كانت العمة تقول أحياناً : ـ لقد رويت لي البارحة قصة سخيفة تتعلق بالشاب الذي يقترب منك غالباً ، عند منطقة زافادسكي .

كانت العمة تكتفي بذلك . ويبقى بعد ذلك موضوع التحدث أو عدم التحدث إلى الشاب ، من شأن أولغا وحدها .

لم يثر ظهور أبلوموف أية تساؤلات ، ولا أي اهتمام خاص في نفس العمة والبارون ، ولا حتى في نفس شتولتس . فالأخير كان يريد أن يعرّف صديقه على منزل يسود فيه التأدب ، على منزل لا يُقْتَرَح فيه النوم بعد الغداء فحسب ، بل يعتبر فيه وضع ساق فوق أخرى ، أمراً مستهجناً ، على منزل تتطلب فيه العادة بأن يكون المرء دائماً ، حسن الهندام ، يعرف ماذا يقول ، ـ باختصار كان يريد أن يُعرّفَه على منزل يعتبر فيه النوم والكسل من الأمور غير المستحبة ، حيث يجد فيه دائماً حديثاً عصرياً حيوياً .

كان شتولتس يعتقد أيضاً ، بأنه إذا ما دخلت حياة أبلوموف

الراكدة الكسولة ، امرأة شابة ذكية ، حيوية لطيفة ، فإنّ هذا سيُعتَبَر بالنسبة له كمن يُدْخِل مصباحاً إلى غرفة مظلمة قاتمة يُنير الضوء كلّ زواياها المعتمة ، ويُحدِث نوعاً من الدفء فيها ، فتصبح الغرفة مشرقة بهيجة .

تلك هي النتيجة ، التي حصل عليها من خلال التعارف الذي انعقد بين صديقه وأولغا . لكنه لم يكن يتصوّر يوماً بأن علاقة مشبوبة بالعاطفة ، قد نشأت منذ زمن بعيد ، بين أولغا وأبلوموف .

كان إيليا إيلييتش يجلس ساعتين ، بوقار ، مع عمة أولغا ، دون أن يضع مطلقاً ساقاً فوق الأخرى وهو يتحدث بتهذيب عن كل شيء ، حتى أنه دفع المقعد نحوها مرتين ، لتسند ساقيها عليه .

في هذه الأثناء قَدِم البارون إلى المنزل فابتسم باحترام ، ثم صافح أبلوموف بدماثة ولطف .

أصبح إيليا إيلييتش يتصرّف بتهذيب أكثر ، كما كان الثلاثة في غاية السرور والارتياح بالنسبة للعلاقة التي انعقدت فيما بينهم .

كانت العمة تنظر لأحاديث أبلوموف ونزهاته مع أولغا . . . أو يستحسن القول ، بأنها لم تكن تنظر إليها بأي نوع من الريبة والشك .

لكن التنزّه مع شاب آخر مغامر كان يمكن أن تنظر إليه بشكل آخر : وحتى في هذه الحالة ، فإن العمة لم تكن لتقول شيئاً مطلقاً ، بل كانت بلباقتها المعهودة ، ستتبع بطريقة ما نظاماً آخر : كأنْ ترافقهما مرّة أو مرتين ، أو أنْ ترسل بصحبتهما شخصاً ثالثاً ، حيث ستتوقّف النزهات ، عندئذ ، بشكل تلقائي .

لكن ، ألا يعتبر التنزه مع « المسيو أبلوموف » والجلوس معه في أحد أركان الصالة الكبيرة ، وعلى الشرفة . . . ألا يعتبر أمراً طبيعياً ؟ فقد بلغ من العمر ما يناهز الثلاثين : فلن يُحدِّثها عن أمور تافهة فارغة ، ولن يعطيها الكتب . . . فهذا لا يمكن أن يخطر على بال أحد .

زد على ذلك ، أن العمة سمعت شتولتس وهو يطلب من أولغا قبيل سفره ، بألاّ تَدَع أبلوموف ينام ، وأن تستبدّ به وتعذّبه وتكلّفه بمهام مختلفة — باختصار عليها أنْ تتدبرّ أمره . فقد رجاها بألاّ تدع أبلوموف يغيب عن نظرها ، وأن تكرّر دعوته لمنزلها ، وتصحبه في نزهاتها وأسفارها ، وأن تجعله يتحرك بكل الوسائل والسبل ، في حالة عدوله عن السفر إلى الخارج .

لم تكن أولغا تظهر ، ما دام أبلوموف جالساً مع عمتها ، وكان الزمن يجري ببطء . أصبح أبلوموف يشعر من جديد بتقلبات البرودة والحرارة ، كما أصبح يدرك الآن ، سبب تغيّر أولغا هذا . لقد كان هذا التغيّر بالنسبة له ، لسبب ما أكثر صعوبة من السابق .

كان يشعر بالخوف والخجل فقط ، بسبب هفوته السابقة ، أما الآن فأصبح ينتابه الإنقباض والحرج والبرد والحزن ، تماماً كالشعور الذي ينتاب المرء في طقس ممطر شديد الرطوبة . لقد جعلها تفهم بأنه قد خمّن حبها له ، ولربما جاء تخمينه هذا في وقت غير مناسب .

كان هذا في حقيقة الأمر إساءةً ، يصعب إصلاحها . وحتى لو كان تخمينه في محلّه ووقته المناسبين ، فإن اللّباقة المناسبة كانت تنقصه ! إنه ، ببساطة ، حدس طائش .

لقد استطاع أن يجفل الشعور ، الذي كان يقرع ، بحياء ، قلب فتاة شابة ، ويحطّ بحذر وخفة عليه ، تماماً كالعصفور ، الذي يحّط على غصن ، فيطير هارباً لدى سماع أي صوت غريب أو أية خشخشة تصدر من هنا وهناك .

كان ينتظر بقلبٍ توّقفَ عن الخفقان ، اللحظة التي تخرج فيها أولغا إلى الغداء ، ليرى ما ستقوله ، وكيف ستنظر إليه . . .

هاهي قد خرجت ، وقد تملّكه العجب ، وهو ينظر إليها ، لأنه لم يتعرف عليها إلاّ بشيء من الجهد ، فقد تغيّر وجهها ، وحتّى صوتها .

فابتسامتها الفتية ، البسيطة ، الطفولية تقريباً ، لم تظهر مطلقاً ، على شفتيها ، كما أنها لم تتطلّع ، ولا مرّة واحدة ، بعينيها الواسعتين المفتوحتين ، إلى أحد ، كما كانت تتطلّع سابقاً ، عندما كان يرتسم فيهما تساءل أو حيرة ، وكأنّها لم تعد تجد ما تسأل عنه أو تريد معرفته ، كأنها لم تعد تجد شيئاً يثير إعجابها !

لم تكن نظرتها تلاحقه وتهتم به كالسابق . كانت تنظر إليه كما ينظر المرء إلى شخص تعرّف عليه وخَبِرَهُ منذ زمن بعيد ، إلى شخص لا يعني بالنسبة إليها أكثر مما يعني البارون ؛ كانت تبدو باختصار ، كما لو أنه لم يرها منذ سنة ، فتبدّلت ونضجت في مجراها .

لم تكن حزينة متجهمة كالأمس ، فقد كانت تمزح ، حتّى أنها كانت تضحك وتجيب بشكلٍ تفصيلي ، على كل الأسئلة التي لم تكن تجيب عليها سابقاً .

بدا واضحاً ، بأنها قد قررت أنْ تُجبِر نفسها على فعل ما يفعله الآخرون ، وعلى ما لم تكن تفعله بالأمس .

فلم تكن الحرية وعدم التكلف ، اللذان كانا يسمحان لها بقول كل شيء يخطر في ذهنها ، موجودين . أين اختفى كل هذا فجأة ؟

اقترب منها أبلوموف بعد الغداء ، يسألها إنْ كانت ستذهب للنزهة . لكنها لم تجبه بشيء ، بل توجّهت إلى عمتها تسألها :

— هل سنذهب للقيام بنزهة ؟

— شريطة ألا نذهب بعيداً — قالت العمّة . — اطلبي إحضار مظلتي .

ثم ذهب الجميع . كانوا يسيرون بتراخٍ ، وينظرون إلى الأفق البعيد ، إلى بطرسبورغ ، فوصلوا حتى الغابة ، ثم عادوا أدراجهم إلى الشرفة .

— يبدو أنه ليست لديك رغبة بأن تغني اليوم ؟ إني أخشى أن أطلب ذلك ، سأل أبلوموف مترقّباً ، إنْ كان هذا القسر سينتهي ، وإنْ كانت البهجة ستعود إليها ، أو إذا كان سيظهر له ولو بكلمة ، أو بابتسامة ، أو بأغنية ، شعاع الصدق والبساطة والصراحة .

— يا للقيظ ! — لاحظت العمة .

— لا بأس ، سأحاول — قالت أولغا ثم غنّت أغنية .

كان يسمع هو لا يصدق أذنيه .

إنها ليست هي : أين نبرتها السابقة ، المشبوبة بالعاطفة ؟

كانت تغنّي بصفاء وبانتظام ، كما تغني كلّ الفتيات ، اللواتي يُطلَب منهنّ الغناء أمام حشد من الناس : بدون حماس وعاطفة . لقد أخرجت روحها بعيداً عن الأغنية ، فلم يشعر المستمع بأية رعشة أو خلجة .

هل تتحايل أو تتصنع ، أم أنها غاضبة ؟ يستحيل على المرء أن يخمّن شيئاً : فهي تنظر برقة ولطف وتتحدث بحرّية ، لكنها تتحدّث أيضاً ، كما تغنّي ، كالجميع . . . ماذا جرى ؟

وبدون أن ينتظر الشاي ، أخذ أبلوموف قبعته ، ثم انحنى مودّعاً .

- تَفَضَلْ بزيارتنا غالباً - قالت العمة - إذا كان لا يضجرك هذا ، فنحن في أيام العمل ، دائماً ، لوحدنا ، أما في أيام الآحاد ، فيوجد عندنا دائماً أحدٌ ما - فلن تشعر بالضجر .

نهض البارون باحترام ثم انحنى .

أما أولغا فقد أومأت برأسها تحيّةً له ، كما يومىء المرء لأحد معارفه الطيبين ، وعندما انصرف ، ذهبت إلى النافذة وأخذت تنظر إلى الأفق البعيد ، وهي تسمع ، بعدم اكتراث ، خطوات أبلوموف المبتعدة .

فهاتان الساعتان ، والأيام الثلاثة ، أو الأربعة التالية ، والأسابيع ، التي أعقبت ذلك أيضاً ، أحدثت فيها تأثيراً عميقاً ، ودفعتها بعيداً إلى الأمام . فالنساء وحدهنّ فقط ، قادرات على مثل هذه السرعة من ازدهار واستعادة القوى ، وعلى استنهاض وإنعاش كلّ جوانب النفس

كانت تبدو وكأنها قد استمتعت ، لساعات ، لا لأيام ، إلى سلسلة محاضرات عن الحياة . فكل ساعة من التجربة وكلّ حادثة ، مهما كانت بسيطة ، كانت تمرّ أمام أنف الرجل ، كالطير ، كان يجري التقاطها ، بسرعة ، من قبل الفتاة ، بطريقة لا يمكن تفسيرها : فقد كانت تتتبّع طيرانه في الأفق البعيد ، حيث كان خطّ طيرانه المتعرّج يبقى في ذاكرتها ، كعلامة ودرس ودليل لا يمكن إزالته .

وهناك ، في المكان الذي يتطلّب فيه الأمر من الرجل نصب عمود لقياس المسافة — فإنّ أولغا كانت تكتفي لتحديد ذلك ، بهبوب الريح ، وبالحفيف الخافت ، الذي تحدثه ، والذي لا يكاد يلامس السمع .

تحت تأثير أية أسباب ، أصبح وجه الفتاة ، فجأة ، مليئاً بالأفكار الصارمة ، بعد أن كان في الأسبوع الفائت عديم الاكتراث ، ساذجاً إلى حدّ السخرية ؟ ما هي هذه الأفكار ؟ حول أيّ شيء تدور ؟ يبدو أنّ فلسفة الرجل التأملية وخبرته ، ونظام الحياة كله ومنطقها ، يكمن في هذه الأفكار !

فابن عمها ، الذي تركها وهي ما تزال طفلة صغيرة ، أنهى دورته وعلومه ووضع الرتب على كتفيه ، أسرع راكضاً نحوها ، بمجرّد أنْ رآها ، عازماً كالسابق بأن يربّت على كتفيها ، ويمسكها بيدها ، ويقفز معها فوق الكراسي والأرائك . . . بيد أنه قد شعر فجأة، وهو يمعن النظر في وجهها ، بشيء من الخوف ، فابتعد عنها مرتبكاً بعد أنْ أدرك بأنه ما يزال صبيّاً ، في الوقت الذي أصبحت فيه امرأة ناضجة .

من أين هذا كله ؟ ماذا جرى ؟ ما هذه الدراما ؟ ما هذا الحدث الكبير ؟ هل جرى حدثٌ ما ، تعرفه المدينة كلها ؟

لا أحد يعرف شيئاً ، لا الأم أو العم ، لا العمة أو المربيّة ، ولا حتّى الوصيفة . حدث هذا منذ زمن بعيد : فقد رقصت المازوركا (رقصة بولونية) وبعض الرقصات الأخرى لكنها شعرت بألم في رأسها : فهي لم تنم الليل كله . . .

بعدها ، مرّ كل شيء بسلام ، لكنّ شيئاً جديداً ارتسم على وجهها : أصبحت تنظر بطريقةٍ تختلف عمّا مضى ، فلم تعد تضحك بصوت عالٍ ، أو تتحدث « عن الحياة في المدرسة الداخلية » . . . فقد أنهت دورتها أيضاً وعلومها .

وفي اليوم الثاني والثالث ، لم يتعرّف أبلوموف على أولغا ، إلاّ بشيء من الصعوبة . كان ينظر إليها بشيء من الخشية والوجل ، شأنه في ذلك شأن ابن عمها ، أما هي فكانت تنظر إليه بعفوية ، بيد أنّ ذاك الفضول السابق قد اختفى من نظرتها ، كما لم تكن تنظر إليه ببشاشة ولطف ، بل بنفس الطريقة ، التي تنظر من خلالها إلى الآخرين .

« ماذا جرى لها ؟ ماذا تفكّر الآن ، وبِمَ تشعر ؟ — ضاع أبلوموف وسط هذه التساؤلات -- أقسم إنني لا أفهم شيئاً ! » .

من أين له أن يدرك ، بأنّ ما جرى لها ، يشبه تماماً ما يجري لرجل في الخامسة والعشرين من عمره ، بمساعدة خمسة وعشرين أستاذاً ومكتبة ، وبعد قسط كبير من العناء في هذا العالم ، وحتّى بفضل ضياع

بعض الشذى الوجداني للنفس وفقدان طراوة الأفكار وشعر الرأس في بعض الأحيان ، أي من أين له أن يدرك بأنها قد دخلت مرحلة الوعي ، وقد تمّ دخولها هذا بمنتهى السهولة وبثمن بسيط .

— كلاّ . هذا أمر متعب ومضجر ! — ختم أبلوموف سلسلة أفكاره . — سأنتقل إلى ناحية فيبورغ وسأعمل ، وأقرأ ، كما سأسافر إلى أبلوموفكا . . . لوحدي ! — أضاف بعد ذلك بأسى عميق . — سأسافر بدونها ! وداعاً ، يا جنّتي ، يا مثل حياتي المشرق الهادىء !

لم يذهب إليها ، لا في اليوم الرابع ولا الخامس ؛ لم يقرأ ولم يكتب ، كان يمضي ليتنزّه ، فيخرج ويسير على الطريق المغبرّة ، إذ كان عليه أن يصعد الجبل ، إذا ما أراد السير مسافة أبعد .

« تتملكني الرغبة بأن أجرّ قدماي سيراً في هذا القيظ ! » — أسرّ أبلوموف لنفسه ، ثم تثاءب وعاد أدراجه ، فاستلقى على الأريكة ونام نوماً عميقاً مزعجاً ، كما كان ينام سابقاً في شارع غوروخف ، في غرفته المكسوة بالغبار ، ذات الستائر المسدلة .

كانت أحلامه مزعجة مضطربة . استيقظ من نومه ، فوجد أمامه طاولة عليها حساء من الخضراوات والسمك ، ولحم وافر . كان زاخار واقفاً ينظر من خلال النافذة ، والنعاس قد سيطر عليه ، بينما كانت أنيسيا في الغرفة الأخرى تحدث جلبة وهي تغسل الصحون .

تناول أبلوموف غداءه ، ثم جلس إلى النافذه . كان ضجراً ، لدرجة غير معقولة ، لكونه وحيداً ! فهو ، من جديد ، لا يريد شيئاً ، ولا تحدوه الرغبة للذهاب إلى أي مكان !

— انظر يا سيدي ، لقد جلبنا قطّة من عند جيراننا : هل تنظرون إلى هذا الأمر باستحسان ؟ — قالت أنيسيا ، وهي تبغي الترويح عنه ، ثم وضعت القطّة على ركبتيه .

بدأ يمرّر يده ، برفق ، على القطة ، لكن الضجر لم يفارقه !

— زاخار ! — قال أبلوموف .

— نعم يا سيدي ، ماذا تأمر ؟ — أجاب زاخار بخمول .

— ربّما سأنتقل إلى المدينة .

— إلى المدينة ؟ لا توجد شقة .

— سأنتقل إلى ناحية فيبورغ .

— وما النفع من ذلك ، هل سنمضي وقتاً بالإنتقال من منزل ريفي إلى آخر ؟ — أجاب زاخار — من هو الشخص الذي تتوق لرؤيته هناك ، هل تتوق لرؤية ميخا أندرييتش ؟

— إنني لا أشعر بالراحة هنا

— أتريد أن تنقل الأثاث مرّة أخرى ؟ يا إلهي ! لقد أنهكنا التعب تماماً حتى وصلنا إلى هنا ؛ فلم أعثر حتى الآن ، رغم بحثي الطويل ، على فنجانين ومكنسة .

التزم أبلوموف الصمت . انصرف زاخار ثم عاد على التو ، وهو يجرّ خلفه حقيبة وكيس سفر .

— أين سأضع هذه الأغراض ؟ أليس من الأفضل بيعها ؟ — قال زاخار وهو يدفع الحقيبة برجله .

— هل جننت ؟ سأسافر إلى الخارج قريباً جداً ، — قال أبلوموف معترضاً .

— إلى الخارج ! — قال زاخار ثم أخذ يضحك فجأة . — بمثل هذه البساطة تسافر إلى الخارج !

— وما الغرابة في ذلك ! — سأسافر ؛ هذا هو قراري الأخير جواز سفري جاهز ؛ — قال أبلوموف .

— من سيساعدك هناك على خلع حذائك — لاحظ زاخار بسخرية — الفتيات ؟ لن تستطيع أن تفعل شيئاً هناك بدوني !

أخذ زاخار يضحك من جديد ، فأصبح فوداه ، وحاجباه يمتدّان ويتسّعان في كل الاتجاهات .

— إنك لا تتفوّه إلاّ بالكلام الفارغ السخيف ! احملْ هذه الأغراض وانصرفْ ! — أجاب أبلوموف بأسى . ما إن استيقظ أبلوموف في اليوم التالي ، في الساعة العاشرة صباحاً ، حتى أخبره زاخار ، وهو يقدّم له الشاي ، بأنه التقى الآنسة ، عندما كان يذهب إلى دكّان بيع الخبز .

— أية آنسة ؟ — سأل أبلوموف .

— أية آنسة ؟ الآنسة أولغا سيرغييفنا إيلييسكايا .

— (بنفاذ صبر) ماذا قالت ؟

— طلبت إبلاغك التحيّة وسألت عن صحتك . وعمّا تفعل .

— ماذا قلت لها ؟

ـ قلت بأنك بخير ، لكنك تعاني من أمرٍ ما

ـ لماذا تضيف من عندك محاكمات سخيفة ؟ ـ لاحظ أبلوموف .ـ وما أدراك بما أعاني ؟ ماذا أيضاً ؟

ـ سألَتْ أين تناولت الغداء البارحة .

ـ ماذا قلت ؟ . . . .

ـ قلت بأنك تناولت غداءك وعشاءك في البيت .

« هل يتعشّى ؟ » ـ سألت الآنسة . لقد قلت بأنك أكلت فرّوجين فقط . . .

ـ مغفل ! ـ قال أبلوموف مشدّداً على المقاطع .

ـ هل ما قلته غير صحيح ؟ ـ قال زاخار ـ أستطيع أن أريك العظام . . .

ـ حقاً ، إنك مغفل ! ـ كرّر أبلوموف ـ وماذا فعلت أولغا ؟

ـ ضحكت . « لماذا يقلّل طعامه ؟ » ـ أضافت بعدها .

ـ يا لك من مغفّل ! ـ قال أبلوموف مؤكّداً ـ لم ينقصك إلاّ أنْ تقول لها بأنك تلبسني القميص بالمقلوب .

ـ لَمْ تسألني ، لذلك لم أقل .

ـ ماذا سألتك أيضاً ؟

ـ سألت عمّا تفعله في هذه الأيام .

ـ ماذا أجبت ؟

ـ قلت بأنك لا تفعل شيئاً ، وإنك مستلقٍ طوال الوقت .

— آه ! . . . قال أبلوموف بأسى شديد ، وهو يهدّده بقبضة يده — اخرج ! — أضاف متوعّداً . — سيكون عقابك شديداً ، إذا ما تجرّأت في يوم من الأيام على التفوّه بمثل هذه الحماقات عنّي ! يا لك من شخص كريه مقيت !

— أتريدني بأن أكذب ، وأنا في سن الشيخوخة ؟ — قال زاخار مدافعاً عن نفسه .

اخرج ! — كرّر إيليا إيلييتش .

اعتاد زاخار على الشتيمة ، لكن الأمر الذي لم يُطِقْه ، هو أن يوجه سيّده له « كلمات مؤسفة » .

— قلت لها ، بأنك عازم على الإنتقال إلى ناحية فيبورغ — ختم زاخار كلامه .

— اخرج ! صاح أبلوموف بصيغة آمرة .

انصرف زاخار ثم أطلق زفرة ارتجّت من شدتّها غرفة الانتظار ، أما أبلوموف فأخذ يشرب الشاي .

لم يشرب إيليا إيلييتش الشاي حتى النهاية ، كما لم يأكل من الكمية الهائلة من الخبز والبسكويت والسكاكر إلا قطعة واحدة ، خشية من لسان زاخار . ثم دخّن سيجارة وجلس إلى الطاولة ، ففتح كتاباً ما وقع تحت يده ، فقرأ صفحة ، وأراد أن يقلب الصفحة الأخرى ، فوجد أنّ الكتاب لم تنفصل أوراقه بعد عن بعضها .

بدأ أبلوموف يشق الأوراق باصبعه ، فنجم عن ذلك مزق في

أطراف بعضها ، وزوائد في أطراف بعضها الآخر ، أما الكتاب فكان يخصّ شتولتس الذي يقيم نظاماً صارماً مملاً ، وخاصة فيما يتعلق بالكتب . فالأوراق وأقلام الرصاص ، وكل الأشياء الصغيرة الأخرى ، يجب أن تبقى كما وضعها تماماً .

كان عليه أن يأخذ سكين العاج ، لكنه لم يكن يقتنيها ؛ كان يمكنه بالطبع أن يطلب سكيّن مائدة ، لكنّ أبلوموف فضّل أن يضع الكتاب مكانه ويتجه إلى الأريكة ؛ فكل ما كان يريده ، هو أن يستند بيده على الوسادة ثم يتكىء بعد ذلك ، لكن زاخار دخل الغرفة في تلك اللحظة .

ـ طلبت منّي الآنسة بأن أبلغك يا سيّدي كي توافيها إلى . . . كيف يسمّى . . . آه لقد نسيت ! . . . قال زاخار .

ـ لماذا لم تقل ذلك من قبل ، منذ ساعتين ؟ ـ سأل أبلوموف بعجلة .

ـ لأنك أمرتني بأن أنصرف ، فلم تدعني أكمل كلامي . . . ـ قال زاخار معترضاً .

ـ إنك تقتلني يا زاخار بتصرفاتك ! ـ قال أبلوموف بحماس .

ـ « إنه لا يتخلّى عن عادته مطلقاً ! فكّر زاخار معرّضاً خده الأيسر إلى سيّده ، وهو يتطلع إلى الجدار » .

ـ إلى أين يجب أن أذهب ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ إلى . . . إلى . . . كيف يسمّى ، أجل ، إلى الحديقة ، على ما أذكر . . .

ـ إلى الحديقة العامة ؟ ـ سأل أبلوموف .

– أجل ، إلى الحديقة العامة ، هكذا قالت بالضبط ، « فليوافني إلى الحديقة العامة كي نتنزه ، إذا طاب له ذلك ؛ سأكون هناك » . . .

– هات ملابسي !

جاب أبلوموف الحديقة العامة كلها وهو يحدّق النظر بجنائن الأزهار والتعاريش ، لكنه لم يعثر على أولغا . ثم مضى في ذلك الممرّ ، حيث كانا يسيران فيما مضى ، فوجدها هناك جالسة على مقعد خشبي ، بالقرب من ذلك المكان ، الذي قطفت ورمت فيه ذاك الغصن .

– اعتقدت بأنك لن تأتي – قالت له بدعابة .

– مضى عليّ وقت طويل وأنا أبحث عنك . فلقد جبت الحديقة كلها – أجاب أبلوموف .

– كنت أعرف بأنك ستبحث عني . لذلك جلست هنا في هذا الممرّ قصداً : فلقد كنت على يقين بأنك ستمرّ فيه حتماً .

كان يريد أن يسألها : « لماذا فكّرت بذلك ؟ » لكنه نظر إليها ولم يسألها .

كان وجهها مختلفاً ، فلم يعد ذلك الوجه ، الذي كان ينظر إليه . وهما يتنزهان سويّة هنا ، لم يعد ذلك الوجه ، الذي كان يعرفه ، عندما رآها في المرة الأخيرة ، التي عانى بعدها كثيراً من القلق والاضطراب . كانت بشاشتها تبدو متحفّظة أيضاً ، وكان تعبير وجهها كله مركّزاً ، محدّداً . فقد أدرك بأنه من المستحيل بالنسبة له . أن يطرح عليها أسئلة ساذجة وأن يفضي إليها بتلميحات وهواجس خاصة ، لأن نظرتها الطفولية المرحة قد اختفت .

بقي كثير من الكلام لم يتممه ، كلام يمكن التطرق إليه عبر تساؤلات مبطّنة . لكنّ كلاً منهما أدرك ما يجول في خاطر الآخر ، دونما إفصاح بالكلمات ، دونما تفسيرات ، بطريقة لا يعرف كنهها إلا الله ، لكن العودة إلى ذلك ، كانت ضرباً من المستحيل .

— لماذا لم نرك منذ مدة طويلة ؟ سألت أولغا .

ظل أبلوموف صامتاً . كان يريد بطريقة ما ، غير مباشرة ، أن يجعلها تدرك بأن البهجة الكامنة في علاقاتهما قد اختفت ، وأن التحفظ ، الذي تحيط نفسها به يزعجه ، فقد أصبحت في نظره كالسحابة المتكوّرة على نفسها ، فهو لا يعرف كيف يجب أن يكون ولا كيف يتصرف معها .

لكنه شعر بأن أي تلميح بهذا الاتجاه ، سيثير في نفسها نظرات الدهشة والإستغراب ، وسيولد الفتور في تعاملها ، ولربما ستختفي نهائياً تلك الشرارة من العاطفة ، التي أخمدها منذ البداية ، بسبب قلّة حيطته .

يجب إضرام العاطفة فيها من جديد بهدوء وحذر ، لكنه لم يكن يعرف ، مطلقاً ، كيف يمكنه تحقيق ذلك .

كان يدرك ، بشكل غامض بأنها قد نضجت بما فيه الكفاية ، وربما أكثر منه ، مما يجعل إعادة تلك الثقة الطفولية الآن ، أمراً متعذراً . وأن السعادة الضائعة والثقة الراسخة قد أصبحتا على الضفة الأخرى ، التي يجب بلوغها .

لكن ، كيف يمكنه تحقيق ذلك ، وهل يعبر إلى الضفة الأخرى وحيداً .

كانت أولغا تدرك بوضوح أكثر منه ما يجري في داخله ، لذلك كانت الكفة تميل لصالحها ، كانت تنظر جهاراً إلى نفسه فترى كيف كان الشعور يتولد في قاعها ، وكيف كان يتفاعل ثم يظهر على السطح ؛ كانت ترى بأن المكر الأنثوي ، والتحايل والدلال ، تعتبر أموراً لا حاجة لاستخدامها ، لأنها لم تكن تواجه صراعاً .

حتى أنها كانت ترى ، على الرغم من صغر سنها وفتوتها ، بأن الدور الأول الرئيسي في هذه العاطفة يعود إليها ، كانت تنتظر منه ، تأثراً وانطباعاً عميقين ، انصياعاً شغوفاً ، كسولاً ، وانسجاماً أبدياً مع كل نبضة من نبضات قلبها ، لكنها لم تكن تنتظر منه أية بادرة تنم عن إرادة فاعلة ، أو تفكير خلاق نشيط .

كانت تفرض سيطرتها عليه بسرعة خاطفة ، فكم كان يعجبها دور النجمة الدليلية التي تغمر بأشعتها بحيرة راكدة تنعكس عليه . لقد أحرزت ، بأشكال متنوعة ، قصب السبق في هذه المبارزة .

ففي هذه الكوميديا أو المأساة ، كان بطلا المسرحية أولغا وأبلوموف يتحليان دائماً تقريباً ، تبعاً للظروف بمزاج واحد . كانا معذبا أو معذبة ، وضحايا .

فأولغا ، شأنها شأن أية امرأة تلعب الدور الرئيسي ، أي دور المعذبة ، كانت أقل إصراراً من النساء الأخريات على لعب هذا الدور كما ينبغي ، لكنها لم تستطع أن تحرم نفسها المتعة والسرور بأن تعذبه قليلاً ، كانت دفقات العاطفة وأشعتها ، تلتمع أحياناً ، كالبرق ،

على حين غرة . كالنزوة العابرة المفاجئة ، لكن أولغا ما تلبث بعدها أن تحصر تفكيرها فجأة ، فتنكفىء على نفسها ، بيد أنها كانت تدفعه غالباً ، إلى الأمام ، وهي تدرك بأنه لن يبادر لاتخاذ أية خطوة من تلقاء نفسه ، وسيبقى في المكان ، الذي تركته فيه ، بلا حركة .

- هل كنت مشغولاً ، ؟ سألت أولغا وهي تطرز قطعة من القماش ، كانت تمسكها بيديها .

« كم كان بودّي أن أقول انني كنت مشغولاً ، لكن زاخار هذا أفسد كل شيء ! » - أسرّ أبلوموف لنفسه وهو يطلق زفرة .

- كنت أقرأ شيئاً ما - أجاب بعدم اكتراث .

- هل كنت تقرأ رواية ؟ سألت أولغا ثم نظرت إليه لترى الملامح ، التي سيتخذها وجهه ، وهو يكذب .

- كلا ، إنني لا أقرأ الروايات تقريباً - أجاب أبلوموف بهدوء ملحوظ - كنت أقرأ « تاريخ الإكتشافات والإختراعات » .

« الحمد لله ، لأنني تمكّنت ، اليوم ، من قلب الصفحة التي كنت قد توقفت عندها ؟ » - تفكر أبلوموف .

- باللغة الروسية ؟ - سألت أولغا .

- كلا ، بالإنكليزية .

- وهل تقرأ بالإنكليزية ؟

- بصعوبة ، لكني أقرأ - وأنت ، ألم تذهبي إلى مكان ما في المدينة ؟ - سأل أبلوموف بقصد أن يُغيّر موضوع الحديث عن الكتب .

— كلا ، لم أغادر المنزل . فأنا أعمل دائماً هنا ، في هذا الممر .

— تعملين دائماً هنا ؟

— نعم ، فهذا الممر يعجبني كثيراً ، فأنا شاكرة لك ، لأنك أرشدتني إليه : ما من أحد تقريباً يمرّ هنا . . .

— إنني لم أدلّك عليه ، —قال أبلوموف مقاطعاً ، أتذكرين ؟ لقد التقينا صدفة فيه .

— أجل ، هذه هي الحقيقة .

ثم التزما الصمت .

— هل اختفى شحاذ العين منك تماماً ؟ — سألت أولغا وهي تنظر إلى عينه اليمنى .

احمرّ خجلاً .

—شكرا لله ، لقد اختفى الآن ، — قال أبلوموف .

— اغسل عينك بالنبيذ عندما تحكّك ، — تابعت أولغا ، — فسيختفي شحاذ العين ، هذا ما علمتني إيّاه مربيتي .

« لماذا تتحدث عن شحّاذ العين ؟ » — أسرّ أبلوموف لنفسه .

— كما ينبغي ألاّ تتناول العشاء ، — أضافت بجدّيّة .

« زاخار ! » — تملّكه الغيظ الشديد ، وهو يتذكر زاخار .

— يكفي أنْ تتناول عشاءً دسماً ، — تابعت أولغا دون أن ترفع عينيها عن قطعة القماش التي كانت تطرزها . — وأنْ تستلقي ، أياماً ثلاثة ، على ظهرك خاصة ، حتى يظهر شحاذ العين حتماً .

« مُ . . . غ . . . فل ! » كان هذا النداء الموجه إلى زاخار ، يضجّ في أعماق أبلوموف .

— ماذا تعملين ؟ — سأل أبلوموف بقصد أنْ يغيّر موضوع الحديث .

— هدية للبارون — قالت أولغا وهي تفتح قطعة القماش الملفوفة ، ثم أرته الزخارف . هل هي جميلة ؟

— أجل ، جميلة جداً ، فالزخرف في غاية الدقة والروعة . هل هذا غصن ليلاك ؟

— أجل — ... — أجابت بعدم اكتراث — لقد اخترت الرسم اعتباطاً . كيفما اتفق . . . . ثم احمرّت قليلاً ، ولفّت بسرعة قطعة القماش .

« لكن الأمر سيكون مضجراً حقاً ، إذا ما استمرّ الوضع على هذا النحو ، وإذا استحال عليّ أنْ أحصل منها على شيء . لو كان شخص آخر مكاني ، شتولتس على سبيل المثال ، لَسَمع منها كل ما يريد ، أما أنا فلا أعرف كيف يمكن تحقيق ذلك » ، — أسرّ أبلوموف لنفسه .

تجهّم وأخذ ينظر حوله بشرود . نظرت أولغا إليه ، ثم وضعت قطعة القماش في السلة .

— فلنذهب حتى الدغلة ، — قالت أولغا وهي تعطيه السلة ليحملها ، ثم فتحت مظلتها ، ورتّبت فستانها ، وسارت .

— ما هو سبب عدم سرورك ؟ — سألت أولغا .

— لا أعرف يا أولغا سيرغييفنا . لماذا يجب أن أكون سعيداً مسروراً ؟ وكيف ؟

— اعمَلْ ، وخالط الناس أكثر .

— تقولين اعمل ! يستطيع المرء أنْ يعمل ، عندما يوجد لديه هدف . لكن ما هو هدفي ؟ لا يوجد لديّ هدف .

.. الهدف — هو أنْ تحيا .

— عندما لا يعرف المرء الهدف ، الذي يحيا من أجله ، فإنه يمضي الأيام يوماً بعد يوم بطريقة ما ، دونما هدف ؛ فهو يشعر بالسرور عندما ينقضي النهار ويأتي الليل ، وفي الحلم يلاحقه سؤال رتيب مضجر يقول ، لماذا عشت هذا اليوم ، ومن أجل أية غاية سأعيش غداً .

كانت تصغي إليه بصمت وهي ترمقه بنظرة صارمة ؛ كانت القسوة كامنة في حاجبيها المقطّبين ، كما كان الشك تارة والاستخفاف تارة أخرى ، يزحفان على شفتيها . . .

— لماذا تعيش ! — كررت أولغا — هل يمكنُ اعتبار أي كائن كان ، غير ضروري ؟

— يمكن . وجودي مثلاً ، — قال أبلوموف .

— ألا تعرف هدف حياتك حتى الآن ؟ سألت أولغا وهي تتوقّف — إنني لا أصدّق : فأنت تفتري على نفسك ، وإلاّ لما استحقيت الحياة .

— لقد ضاعت الفرصة منّي ولا أجد في المستقبل شيئاً .

أطلق أبلوموف زفرةً ، بينما ابتسمت أولغا .

ـ لا تجد شيئاً ؟ ـ ردّدت أولغا متسائلة ، لكنها ردّدت السؤال بحيويّة وضحك وكأنها لا تصدّقه ، وهي تتوقّع ، بأنّ أمراً ما ينتظره في المستقبل .

ـ اضحكي ، ـ تابع أبلوموف ـ لكن حقيقة الأمر هكذا !

كانت تتابع سيرها بهدوء ، وهي تميل رأسها .

ـ لأجل ماذا ، لأجل من سأعيش ؟ ـ قال أبلوموف وهو يسير وراءها ـ عمّ أبحث ، وعلى أيّ شيء سأصبّ تفكيري وجهدي ؟ لقد سقطت زهرة الحياة ، فلم يبق إلا الأشواك .

كانا يسيران ببطء ؛ كانت تستمع إليه بشرود ، ثم قطفت غصن ليلاك ، كانت تمرّ بالقرب منه ، فأعطته لأبلوموف ، دون أنْ تنظر إليه .

ـ ما هذا ؟ ـ سأل أبلوموف وقد استولت عليه الحيرة .

ـ إنك ترى ـ غصن .

ـ ما هذا الغصن ؟ ـ قال أبلوموف ، وهو ينظر إليها بملء عينيه ؛

ـ غصن ليلاك .

ـ أعرف ذلك . . . لكن ماذا يعني ؟

ـ زهرة الحياة و . . .

ـ توقّف أبلوموف ، وكذلك فعلت أولغا .

ـ و ؟ . . . كرّر أبلوموف متسائلاً .

– وحزني ، – قالت أولغا وهي ترميه بنظرة مركّزة ، وابتسامتها تقول بأنها تعرف ما يفعل .

انقشعت السحابة التي كانت تلفّها بالغموض . فأصبحت نظرتها ناطقة واضحة .

فكأنها قد فتحت الكتاب عمداً على الصفحة المعروفة وسمحت له بقراءة ما ينشده .

– أصبح بالإمكان أنْ أجدّد الأمل إذن . . . قال أبلوموف فجأة ، وقد غمرته البهجة وأصبح متهيّجاً .

– هذا كل شيء ! لكن . . .

صمتت أولغا .

انتعش أبلوموف فجأة . لاحظت أولغا بدورها التغيّر الذي طرأ عليه :

فوجهه المكفهر الخامل قد أشرق ، وعيناه اتّسعتا ، ووجنتاه أصبحتا متوردتين ؛ أخذت الأفكار ترتسم على محيّاه ؛ كما امتلأت عيناه بالشوق والإرادة . كما قرأت أولغا بوضوح أيضاً ، من خلال هذا التغيّر الصامت ، الذي طرأ على وجهه ، بأنّ هدف الحياة قد برز فجأة أمام أبلوموف .

– الحياة ، الحياة تنفتح أمامي من جديد – قال أبلوموف كما لو أنه يهذي – ها هي ذا تشرق في عينيك وابتسامتك ، ها هي تشرق في هذا الغصن ، في العذراء الطاهرة . . . فالسعادة كلها ماثلة هنا . . .

أخذت تهزّ برأسها .

– لا ، ليس هذا كل ما أريد قوله . . . إنه النصف فقط .

– النصف الأفضل .

– ربّما – قالت أولغا .

– أين النصف الآخر ؟ ماذا يوجد أيضاً ؟

– ابحَثْ بنفسك .

– لماذا ؟

– كي لا تفقد النصف الأوّل ، – قالت أولغا ثم أعطته يدها وسارا باتجاه البيت .

كان ينظر إليها خلسة بكثير من الإعجاب ، كان ينظر إلى رأسها وقامتها الممشوقة ، وخصلات شعرها ، كما كان يعصر بيده غصن الليلاك .

كل هذا لي ! – كان يؤكّد متأملاً ، وهو لا يصدق نفسه .

– هل ستنتقل إلى ناحية فيبورغ ؟ – سألته أولغا ، وهو يهمّ بالإنصراف إلى البيت .

ضحك أبلوموف حتى أنه لم يَنْعَتْ زاخار بمغفّل .

– ٩ –

لم تطرأ على أولغا ، منذ ذلك الحين ، أية تبدلات مفاجئة . كانت معتدلة ، هادئة في تعاملها مع عمتها ومع الآخرين ، لكنها لم تحس بالحياة وتشعر بها ، إلاّ مع أبلوموف . فلم تعد تسأل أحداً عمّا يجب

أنْ تفعله ، وعن الأسلوب الذي ينبغي أن تتصرّف من خلاله ، كما لم تعد تستعين ، ذهنياً ، بهيبة ونفوذ شخصية صونيا المتخيلة .

وبقدر ما كانت تنفتح أمامها أوجه الحياة ، أي المشاعر والعواطف ، فإنها كانت تراقب ظواهر الحياة بحدّة ثاقبة ، وتصغي بعناية ، لصوت غريزتها ، وتدقّق بعض ملاحظاتها السابقة ، التي تجمّعتْ لديها ، كما كانت تسير بحذر وهي تجسّ بحذر الأرض ، التي ينبغي أن تسير عليها .

لم يكن هنالك أحد تسأله أو تستفسر منه عن شيء . هل تسأل عمتها ؟ فعمتها كانت تتملّص بمنتهى السهولة والخفة ، من الإجابة على أسئلتها ، حيث لم يتيسّر لأولغا يوماً ، بأنْ تحصل على أية فائدة ، من دور عمتها ، أو على أية عِظَةٍ يمكن أنْ تحفظها الذاكرة . كان يمكن أنْ تسأل شتولتس ، لكنه غير موجود .

أتسأل أبلوموف ؟ كيف يمكن ذلك ، وهي التي ينبغي عليها أنْ تبعث فيه الحياة .

كانت حياتها هادئة لا يشعر بها أحد ، لدرجة أنها كانت تعيش في جوّها الجديد ، دون أنْ تثير انتباه أيٍّ كان ، بعيدة عن الإنفعالات والإنزعاج . كانت تفعل كل ما كانت تقوم به سابقاً ، لكنّ تصرفاتها تلك كانت تأخذ طابعاً آخر .

كانت تذهب لمشاهدة المسرح الفرنسي ، لكن مضمون المسرحية كان على صلةٍ ما بحياتها ؛ كانت تقرأ الكتب ، بيد أن الكتاب الذي تقرأه كان يتضمّن حتماً ، سطوراً من إشراقة ذهنها ، فتتلألأ هنا وهناك

نار عواطفها . وتدوّن فيه الكلمات التي قيلت البارحة . فكأنّ الكاتب يصغي باهتمام إلى نبضات قلبها .

كانت الغابة تضمّ الأشجار ذاتها ، لكن معنى خاصاً كان يتجلّى في ضجيجها وصخبها .

كان هنالك توافق حيّ يستقر في العلاقة القائمة بين الأشجار وبينها . كان يبدو لها أنّ العصافير لا تزقزق فحسب ، بل تتكلم فيما بينها ؛ فكلّ ما حولها كان يتكلم ، وينسجم مع مزاجها ؛ كان يبدو لها وكأنها تسمع زفرات الأزهار وهي تتفتّح .

كانت حياتها تتبدّى في الأحلام أيضاً : كانت أحلامها مليئة بالخيالات والصور ، التي كانت تتحدث إليها بصوت مسموع في بعض الأحيان . كانت تسمع منها بعض الحكايات ، لكنها كانت غامضة مبهمة ، لدرجة أنها لم تكن تفهمها . كانت تحاول أنْ تتحدث معها وتسألها عن بعض الأمور ، كما كانت تتكلم أيضاً شيئاً ما غير مفهوم . وفي الصباح كانت كاتيا فقط ، هي التي تقول لها بأنها كانت تهذي .

كانت تتذكّر تنبؤات شتولتس : كان يقول لها غالباً بأنها لم تبدأ الحياة بعد . وكم كانت تغضب بشدة ، لأنّه كان يعتبرها طفلة ، في الوقت الذي بلغت فيه آنذاك ، سن العشرين . لكنها أدركت الآن ، بأنه كان محقاً ، وأنها لم تبدأ حياتها إلاّ الآن .

ـ عندما تستيقظ قواك كلها في جسدك ، عندها ستتألّق الحياة

من حولك وسترين كل مالا تراه عيناك الآن ، وتسمعين ما لم تسمعيه من قبل : ستصدح موسيقى أعصابك ، وستسمعين ضجّة الوسط الذي تعيشين فيه ، وستصغين إلى نموّ الأعشاب . انتظري ، ولا تستعجلي ، فسيأتي هذا كله ! — كان يمنّيها بالأمل .

ها قد أتى ذلك كلّه . « لا بدّ أنْ تكون القوى قد تفتّحتْ ، والجسد قد استيقظ . . . » كانت تُرَدّدِ كلماته ، وهي تصغي بعناية إلى رعشات قلبها التي لم تحس بها من قبل ، وتمعن النظر ، بانتباه وخجل إلى كل قوة جديدة من قواها المستيقظة .

لم تستغرق في تخيلاتها ، ولم تستسلم لارتعاش أوراق الأشجار المفاجىء ، ولا للأحلام والهمسات الليلية الخفية ، عندما كان يتراءى لها كأن أحداً ينحني فوق أذنها ليلاً ، ويقول لها شيئاً ما مبهماً غامضاً .

-- إنها الأعصاب ! — كانت تردّد أحياناً وسط الابتسامات ، وعبر الدموع ، وهي تغالب الخوف وتعاني من وطأة الصراع الناشب بين أعصابها ، التي لم تتمرس بعد ، وبين قواها المستيقظه ، فتنهض من الفراش وتشرب كأساً من الماء ، وتفتح النافذة ، وتمسح وجهها بمنديل ، وتصحو من أحلام المنام واليقظة .

أما أبلوموف فقد كان طيف أولغا ، بكماله وروعته ، وهي تمسك غصن الليلاك بيدها ، هو أول ما يداعب مخيلته ، بمجرد أنْ يستيقظ من النوم . كان ينام وهو يفكر بها ، كان يتنزه ويقرأ وهي لا تبارح مخيلته .

كان يدخل معها ذهنياً ، ليلاً ونهاراً ، بأحاديث لا تنتهي أبداً . كان يضيف إلى « تاريخ الاكتشافات والإختراعات » بعض الإكتشافات الجديدة عن مظهر أولغا الخارجي ومزاجها ، وكان يتخيّلها في مناسبات شتى ، كَأَنْ يلتقيها صدفةً ، أو يرسل إليها كتاباً أو يقدّم لها مفاجأة .

وفي المنزل ، كان يتابع الحديث الذي بدأه أثناء لقائه مع أولغا ، لدرجة أنّ زاخار كان يدخل أحياناً ، عليه فيبادره أبلوموف بنبرة ليّنة لطيفة للغاية ، كالتي كان يخاطب بها أولغا ذهنياً ، فيقول له : « أيها الشيطان الأقرع ، ها أنت قد أعطيتني من جديد ، حذائي الذي لم تنظّفْه منذ زمن بعيد : انتبه : كي لا أتخلّص منك . . . » .

بيد أنه قد تخلّى عن حالة عدم الاكتراث ، منذ تلك اللحظة ، التي غنّت له فيها . فلم يعد يعيش بنفس الطريقة التي كان يحياها من قبل ، عندما كان الأمر سيّان عنده ، سواء أكان مستلقياً على ظهره وهو ينظر إلى الجدار ، أو مضطجعاً وألكسي يجلس بالقرب منه ، أو جالساً عند إيفان غيراسيموفيتش في الظل وهو لا ينتظر أحداً أو شيئاً ، لا في الليل ولا في النهار .

أما الآن ، فقد أصبحت هيئته تتغير في كل ساعة من ساعات النهار والليل ، فتراه فرحاً متألّقاً ، عندما يمضي ساعة بوجود أولغا ، كامداً متجهّماً ، إذا كانت بعيدة عنه ، حيث يمرّ الوقت بغيابها ، وهو يعاني طبعاً ، الكثير من الضجر والخمول .

كلّ هذا كان ينعكس على كيانه : فلم تكن التخيلات والتخمينات

والتوقعات والتنبؤات تفارق مخيلته يوماً ، لا بل دقيقة ، وهو يتساءل : أيراها أم لا ؟ ماذا سيقول وماذا سيفعل ؟ كيف تنظر إليه ، ما هي المهمة التي ستكلفه بها ،عمّ ستسأل ، وهل ستكون راضيه منه أم لا ؟ فقد أصبحت هذه التخيلات والتساؤلات مركز اهتمامه وشغله الشاغل في الحياة .

« آه ، ليتني أتذوّق حلاوة هذا الحبّ فقط ، دون أنْ أشعر بمرارته وعذابه ! — كان أبلوموف يسرّ لنفسه — كلا ، فالحياة صعبة ، قاسية ، يشعر المرء بمرارتها أينما توجه وكيفما سار ! كم هي زاخرة بالجديد والحركة والمشاغل ! فالحبّ — مدرسة الحياة القاسية الصعبه ! » .

قرأ عدة كتب ، كانت أولغا قد طلبت منه بأن يحدّثها عن مضمونها ، وراحت تصغي إليه باهتمام منقطع النظير ، كما كتب بضع رسائل إلى القرية وغيّر ناظر أملاكه ، ودخل في علاقات مع أحد جيرانه بواسطة شتولتس . حتى انه كان سيسافر إلى القرية ، لو أنه وجد فراق أولغا ممكناً .

أقلع عن تناول طعام العشاء ، كما أنه لا يعرف منذ أسبوعين ، ماذا يعني الاستلقاء والنوم نهاراً .

كان قد طاف في غضون أسبوعين أو ثلاثة ، بصحبة أولغا وعمتها والبارون ، جميع ضواحي بطرسبورغ ، وشاهدوا جميع الحفلات الموسيقية في الضواحي ، وحضروا الأعياد والإحتفالات الكبيرة كما تحدثوا عن سفر إلى فنلندا وايمارتا .

ما كان أبلوموف ليذهب أبعد من الحديقة ، لو كان الأمر متوقفاً عليه ، لكنّ أولغا هي التي كانت تقترح وتبتّ بكل شيء ، لكنه كان يكتفي بالرد على دعوتها للذهاب إلى مكان ما ، بالقول ، بأن الموضوع قد تقرّر أمره كما أعتقد . وعندها كانت ابتسامات أولغا وضحكاتها تستمر بلا انقطاع . وعلى مسافة خمسة فراسخ من المنزل الصيفي ، لم تبق رابية صغيرة في كل الاتجاهات المحيطة المجاورة ، إلا وصعدها أبلوموف عدة مرات .

في غضون ذلك ، كانت عواطفهما تنمو ، وتتطور وتتبدّى بأجلى الصور وأبهاها . فأولغا كانت تتألق وتزداد بهجة كلما ازدادت العواطف رسوخاً . فامتلأت عيناها بالبريق ، واتّسمت حركاتها بالكياسة والرشاقة ، وأصبح صدرها عامراً يتحرك بإيقاع منتظم .

- لقد تحسنت كثيراً هنا يا أولغا ، - كانت عمتها تقول لها وكان البارون يفصح بابتسامة عن نفس الإطراء والمديح .

كانت أولغا تسند رأسها على كتف عمتها وقد احمرّت خجلاً ، بينما كانت الأخيرة تداعب وجنتيها بلطف .

- أولغا ، أولغا - نادى أبلوموف ذات مرة بحذر ، وبصوت يكاد يشبه الهمس تقريباً ، وهو يقف في أسفل الرابية التي كان عليه أن يصعد إلى قمتها بتكليف من أولغا ، كي ينطلقا بعدها في نزهة .

لم يلق جواباً . نظر أبلوموف إلى الساعة .

- أولغا سيرغييفنا ! - تابع أبلوموف بعدها بصوت مسموع . استمر الصمت .

كانت أولغا تجلس على قمة الرابية صامتة . تحبس ضحكاتها ، وهي تستمع إلى ندائه . كانت تريد أنْ ترغمه على الصعود إلى القمة .

— أولغا سيرغييفنا ! — صاح أبلوموف . وهو يتلمّس طريقه بين الشجيرات متطلعاً إلى الأعلى ، حتى تسلّق نصف المسافة . « لقد حدّدتْ لي الخامسة والنصف موعداً للقائنا » — أسرّ لنفسه .

لم تستطع أنْ تمنع نفسها من الضحك .

— أولغا ، أولغا ! آه منك ، أنت هناك إذن ! — قال أبلوموف ثم صعد إلى قمة الرابية .

— آه ! إنك تختبئين هنا إذن ! — ثم جلس بالقرب منها . إنك تعذبين نفسك أيضاً ، في الوقت الذي تعذّبينني فيه .

— من أين أنت ؟ أقادمٌ من البيت مباشرة ؟ — سألت أولغا .

— كلا . عرّجت عليكم ، فقالوا لي أنك خرجت .

— ماذا فعلت اليوم ؟ — سألت أولغا .

— اليوم

— هل تشاجرت مع زاخار ؟ — أكملت كلامها .

ضحك أبلوموف ، وكأن ما قالته أمر مستحيل الوقوع .

— كلا ، كنت أقرأ « مسرحية » . اسمعي يا أولغا . . .

بيد أنه لم يقل شيئاً ، بل جلس بالقرب منها فقط ، واستغرق في تأمّل منظرها الجانبي . ورأسها وحركات يدها إلى الأمام والخلف وهي

تدسّ إبرتها في قطعة القماش ، التي تطرّزها ثمّ تسحبها إلى الخلف . كان نظره مُسَدَّداً عليها كالعدسة ، فلم يكن يقادر على تحويله .

كان جامداً لا يتحرك ، لكن نظره فقط هو الذي كان ينتقل إلى اليمين تارة ، وإلى اليسار والأسفل تارة أخرى ، تبعاً لحركة يدها . في أعماقه ، كان يجري عمل نشط : فدورته الدموية تسارعت ونبضات قلبه تضاعفت — كان يجري ذلك كله بدرجة من الشدّة ، لدرجة أنه كان يتنفس بصعوبة وبطء ، كما يتنفس المحكومون قبل الإعدام ، وكما يتنفس السعداء أيضاً في لحظة النشوة العارمة .

كان كالأبكم ، لا يقدر حتى على الحركة ، لكن عينيه المخضلتين بالحنان والرقة ، كانتا مسلطتين عليها بطريقة لا تقاوم .

وبين الحين والآخر ، كانت ترميه بنظرة نفّاذة ، فتقرأ أفكاره السهلة البسيطة ، المرتسمة على وجهه ثم تقول متفكّرة : « يا إلهي كم هو محب ! كم هو لطيف ، كم هو لطيف » ! ، وكانت تتمتع وتتباهى برؤية هذا الإنسان ، الصريع تحت أقدامها ، الأسير لها !

لقد ولّت إلى غير رجعة لحظة التلميحات الرمزية والإبتسامات الخطيرة وأغصان الليلاك . فغدا الحبّ أكثر قسوة وصرامة ، وأصبح يتحوّل إلى نوعٍ ما من الواجب ؛ وبرزت الحقوق المتبادلة . أصبح الطرفان أكثر انفتاحاً : فسوء التفاهم والريبة قد اختفيا ، أو تراجعا أمام المسائل الأكثر إيجابية ووضوحاً .

كانت توخزه دائماً بسخريتها السهلة المثيرة ، بسبب تلك السنوات ،

التي قتلها بالخمول والكسل ، وتصدر حكماً قاسياً بحقه ، وتؤنبه على خموله بأسلوب أكثر عمقاً وتأثيراً من شتولتس ، ثم تنتقل بعدها ، على ضوء التقارب الحاصل بينهما ، من التهكم والسخرية من كيان أبلوموف الخامل الضعيف ، إلى إبداء إرادتها ، بشكل مستبد ، فتذكره بجرأة متناهية ، بهدف الحياة وواجباتها ، وتطالبه بصرامة متناهية ، ببذل المزيد من الحركة ، وتحثه على التفكير بشكل مستمر ، وتشغله تارةً بمسألة حياتية دقيقة معروفة لديها ، أو تتوجه إليه بسؤال عن مسألةٍ ما مبهمة ، منيعة عليها تارة أخرى .

كان يكدّ ويتعب رأسه ، ويتحايل كي لا يسقط في عينيها من جهة ، وليساعدها على حلّ وتوضيح معضلة ما ، كي يوضّح ببطولة ، كنهها .

كان تكتيكها الأنثوي كله مشبعاً بالعاطفة الرقيقة ، كما كانت محاولات ذهنها الرامية إلى معرفة كل شيء ، تضجّ بالشوق والهوى .

لكنه كان ينوء غالباً تحت وطأة ما تكلفه به ، فيتمدد عند قدميها واضعاً يده فوق قلبه ليسمع دقاته ، دون أنْ يرفع نظرته الجامدة المندهشة بالإعجاب ، عنها .

« كم يحبني ! » — كانت تؤكد لنفسها في تلك اللحظات ، وهي تمتع نفسها بالنظر إليه .

وإذا ما لاحظت ، أحياناً ، السمات الكامنة في نفس أبلوموف سابقاً ، التي تعرف كيف تكشف بعمق عن أغوارها ، كَأَنْ تلاحظ

بعض التعب ، والكسل والخمول مهما كان بسيطاً ، فإنها كانت تنهال عليه باللوم ، الذي يمتزج في بعض الأحيان ، بمرارة الندم والخوف من الخطأ .

وما إن يبدأ بالتثاؤب ، في بعض الأحيان ، ويفتح فمه ، حتى ترميه بنظرة مندهشة : فيغلق فمه على الفور ، لدرجة أنّ أسنانه تصطك على بعضها من شدة السرعة . حتى أنها كانت تتابع أيّ أثر للخمول والكسل على وجهه مهما بدا ضئيلاً . لم تكن تسأله عما يفعله فقط ، بل عما سيفعله أيضاً .

وما ان يلاحظ بأنّ أولغا قد تعبت من جراء تعبه وأصبحت بسبب ذلك عديمة الاكتراث ، غير مبالية ، فاترة الهمة ، حتى يستيقظ فيه النشاط بتأثير ذلك ، بشكل أقوى بكثير من تأثير اللوم والتأنيب . عندئذ تنبعث فيه حمّى الحياة والقوة والنشاط ، ويتوارى الخمول ، وتتدفق فيه العاطفة من جديد ، صاخبةً قوية رقراقة .

بيد أنّ هذه الإهتمامات والمشاغل كلها ، لم تتجاوز بعد النطاق السحري للحب ؛ فقد كان نشاطه سلبياً منفعلاً : إنه لا ينام ، بل يقرأ ، ويفكّر في بعض الأحيان برسم مخطّط لحياته ؛ يسير كثيراً ، ويسافر كثيراً . أما اتجاهه وخط سيره المستقبلي ، ومعنى الحياة نفسها ، والعمل ، فكلها أمور لا تزال بعد في إطار النوايا .

— أي حياة ونشاط يريد أندريي أيضاً ؟ — كان أبلوموف يقول ، وهو يحملق عينيه بعد الغداء ، كي لا ينام . — هل هذه حياة ؟ أليس

الحبّ خدمة وظيفية ؟ ليته يجرّب ! فأنا أسير كل يوم خمسة فراسخ على الأقدام ! فقد نمت البارحة في المدينة ، في نزْل رديء بملابسي ، فلم أخلع إلا حذائي فقط ، ولم يكن زاخار بصحبتي — كل هذا بسبب ما تكلفني به !

كم كان يلاقي من العذاب عندما كانت أولغا تطرح عليه مسألة خاصة وتطلب منه ، حلاً مُرْضياً ، كما تطلب من أي أستاذ ؛ كان هذا يحدث معها غالباً ؛ ليس من باب التدقيق في الشكليات ، بل بدافع الرغبة في معرفة حقيقة الأمر . حتى أنها غالباً ما كانت تنسى غاياتها بالنسبة لأبلوموف وتنشغل بالمسألة نفسها .

— لماذا لا يعلّمونك هذا كله ؟ — كانت أولغا تقول متفكّرة والأسى قد تملكها ، كما كانت تصغي بلهفة ، من حينٍ لآخر ، إلى حديثٍ عن أمرٍ ما ، اعتاد الناس أنْ يعتبروه غير ضروري بالنسبة للمرأة :

ذات مرة ، توجهت إليه فجأة بأسئلة تتعلق بعلم الفلك ، وكان يملك عن عدم الحيطة حداً ، جعله يستشهد بغيرشل ، الأمر الذي اضطره للسفر إلى المدينة ، كي يقرأ كتاباً بهذا الصدد ، ويروي مضمونه لها ، واستمرّ في ذلك إلى أنْ أشبعَ فضولها .

وفي مرة أخرى ، أفلت منه في حديثه مع البارون بسبب من عدم حيطته أيضاً ، كلمتان عن مدارس التصوير والرسم ، مما اضطره لأنْ يعمل أسبوعاً بكامله ، وهو يقرأ ويقصّ لها ما قرأه ، كما تطلّب الأمر

منه أيضاً ، أنْ يذهب بصحبتها إلى الإرميتاج : حيث كان ينبغي عليه أنْ يؤكّد هناك عملياً ما قرأه .

وإذا ما قال شيئاً ما جزافاً ، فإنها سرعان ما تلحّ عليه كي يصحّح معلوماته .

عندها كان ينبغي عليه أن يتنقل من مخزن لآخر ، طيلة أسبوع بكامله ، بحثاً عن رسوم محفورة على الخشب لأروع اللوحات .

كان البائس أبلوموف يعيد اللوحات الأصلية تارة ، ويتوجه إلى مخازن بيع الكتب بحثاً عن المنقوشات الخشبية تارة أخرى ؛ كان يمضي الليل كله ، في بعض الأحيان ، دون أنْ يغمض له جفن ، وهو يبحث ويقلّب الكتب ويقرأ كي يبدو في الصباح وكأنه يجيب بصورة عفوية على سؤال البارحة ، بمعلومات يستخرجها من أرشيف ذاكرته .

لم تكن أولغا تطرح عليه هذه الأسئلة من زاوية تشتت الأفكار الأنثوي ، ولا بإيحاء من نزوة عابرة تريد أنْ تتعرّف على هذه المسألة أو تلك ، بل كانت تفعل ذلك بإصرار وإلحاح ونفاذ صبر ، وفي حالة صمت أبلوموف فإنها كانت تعذّبه بنظرتها الفاحصة المستمرة . كم كان أبلوموف يخشى هذه النظرة ويرتعد منها !

— ما بالك لا تقول شيئاً ، لماذا تصمت ؟ — سألت أولغا . — فصمتك يبعث على الإعتقاد بأنك ضجر .

— آه ! نطق أبلوموف ، كما لو أنه قد عاد إلى رشده . — كم أحبك !

— أحقاً تقول ؟ لكنه لا يبدو عليك ذلك ، — قالت أولغا .

— أصحيح أنك لا تشعرين بما يجري في داخلي ؟ — بدأ أبلوموف — أتدرين بأنه يصعب عليّ حتى الحديث . أعطني يدك ، لتتأكدي بأنّه يوجد هنا شيء ما ثقيل كالحجر تماماً ، يمنعني عن الكلام ، كما لو ان مصيبة كبيرة قد حلت بي . وأغرب ما في الأمر . هو أنني أشعر في حزني وسعادتي بالشيء ذاته . إنني أعاني من الضيق وأحسّ بالألم عندما أتنفس ، وتتملكني الرغبة بالبكاء ! فإذا ما بكيت ، فإنني أشعر بنفس الإرتياح ، الذي يشعر به المرء الواقع في مصيبة ، بعد أنْ يبكي ...

نظرت إليه بصمت ، كأنها تتفحص كلماته لتتأكد من صحتها ، وتقارنها بما ارتسم على وجهه من مشاعر وانعكاسات ، ثم ابتسمت وقالت : نتيجةُ التدقيق مُرْضية . كان بريق السعادة يغمر وجهها ، السعادة الهادئة ، التي لا يعكر صفوها شيء . كان واضحاً ، بأنها لم تكن تشعر بضيق يعكّر صفوها ، فقد كان قلبها هادئاً مطمئناً مرتاحاً ، يشبه حال الطبيعة في هذا الصباح الهادىء .

— ماذا جرى لي ؟ — قال أبلوموف متفكراً وكأنه يسائل نفسه .

— أأقول لك ؟

— أجل .

— أنت . . . عاشق .

— طبعاً ، — أكّد أبلوموف ، وهو يسحب يدها بعيداً عن قطعة القماش ، التي تطرزها ، لكنه لم يقبّلْها ، بل وضع أصابعها على شفتيه

فقط ، وهو يضطرم شوقاً ، كأنه قَصَدَ على ما يبدو ، بأنْ يبقيها هكذا ، مدةً طويلة .

حاولت أن تسحب يدها بهدوء ، لكنه كان يمسكها بشدة .

— كفى ، افلتْ يدي ! — قالت أولغا .

— وأنت ؟ — سأل أبلوموف . — ألست . . . عاشقة .

— عاشقة ، كلا . . . فأنا لا أحب التعبير هكذا : إني أحبك ! — قالت أولغا ثم نظرت إليه طويلاً ، وكأنها تتفحص نفسها لتتأكّد فيما كانت تحبه حقيقة .

— أحب ! — نطق أبلوموف — لكن المرء يمكن أنْ يحب أمه ، وأباه ، ومربيته ، وحتى كلبه : كل هذا يمكن أنْ يندرج في إطار مفهوم جامع شامل : « أحِب » ، كأنْ أقول : أحِبُ . . .

— ردائي ؟ — قالت أولغا وهي تضحك . — قل لي بالمناسبة ، أين رداؤك ؟

— أي رداء ؟ لم يكن عندي رداء .

نظرت إليه وهي تبتسم معاتبة .

— تتحدثين عن ردائي القديم ! — قال أبلوموف . — وروحي تكاد أن تتلاشى ، وأنا أنتظر بفارغ الصبر ، كي أسمع كيف تتأجج مشاعرك ، وما هي التسمية التي تطلقينها على هذه الإنفعالات العاطفية ، سامحك الله يا أولغا ! أجل ، إني مغرم بك ، وأقول أنه لا يوجد حب

حقيقي بدون هذا : فنحن نستخدم كلمة « أحب » بالنسبة للأب والأم ، والمربية ، أما كلمة مغرم فلا نستخدمها في هذا السياق . . .

ــ لا أعرف ، ــ قالت متأملة ، وكأنها تتحرّى نفسها ، لعلها تصل إلى تحديد ما يجري في داخلها . ــ لا أعرف ، إنْ كنت مغرمة بك ، فإذا كان الجواب لا ، فربما لأنّ اللحظة لم تَحِنْ بعد ، لكنّ شيئاً واحداً أعرفه بالتأكيد ، هو أنني لم أحب أبي وأمي ومربيتي بالطريقة التي أحبك بها . . .

ــ ما هو الفرق ؟ تشعرين بشيء ما خاص ! . . . ــ قال أبلوموف وهو يبذل الجهد للحصول على شيء ما .

ــ أتريد أنْ تعرف ؟ ــ سألت أولغا بدهاء .

ــ أجل ، أجل ، أجل ! ألا تشعرين بالحاجة لأنْ تفصحي عما تشعرين به ؟

ــ لماذا تريد أنْ تعرف ؟

ــ كي أعيش كل دقيقة منتشياً بما سأسمعه ، كي أعيش اليوم ، الليل كله ، غداً ــ وحتى اللقاء المقبل ، بنشوة ذلك . فأنا أعيش بهذا ولهذا فقط .

ــ عليك أن تجدّد ذخيرة حبك ! هنا يمكن الفرق بين المغرم والمحب . فأنا . . .

ــ أكملي ، أنت ؟ . . . كان ينتظر بفارغ الصبر .

ــ أنا أحب بطريقة أخرى ، ــ قالت وهي تسند ظهرها إلى المقعد

وتتابع بعينيها الغيوم التي تسوقها الرياح . — أشعر بالملل بغيابك ، أشعر بالأسى ، عندما أفارقك مدة غير طويلة ، وبالألم عندما أفارقك مدة طويلة . تأكدت وإلى الأبد بأنك تحبني ، — فأنا سعيدة ! لا تُرَدِّدْ على مسامعي أبداً ، إنْ شئت ، بأنك تحبني . فأنا لا أعرف أنْ أحبَّ أكثر وأفضل .

« كأنّ هذه الكلمات . . . كلمات كارديليا (١) ! » — تفكر أبلوموف وهو ينظر إلى أولغا بغرابة . . .

— عندما ستموت . . . تابعت أولغا وهي تتعثر في الكلام : — سألبس ثوب الحداد الأبدي ، ولن أبتسم بعدها في حياتي أبداً . وإذا ما أحببت امرأة غيري — فلن أتذمّر أو أشتم ، بل سأتمنى لك السعادة . . . فالحب بالنسبة لي يساوي . . . الحياة ، والحياة . . . . كانت تبحث عن تعبير .

— ما هي الحياة برأيك ؟ — سأل أبلوموف .

— الحياة واجب ، وبالتالي فإن الحب واجب أيضاً . منحه الله لي ، — أكملت أولغا وهي ترفع عينيها إلى السماء ، — فالله قد أمر بالحب .

— كرديليا ! — نطق أبلوموف بصوت مسموع . — فعمرها

---

(١) كارديليا — الابنة الصغرى للملك لير ، في مأساة شكسبير « الملك لير » ، التي تعتبر تجسيداً للحب الصادق ، المنزه عن أي طمع ، ومثالا للاخلاص والشعور العميق بالواجب .

أيضاً إحدى وعشرين سنة ! ذلك هو الحب في رأيك إذن ! — أضاف أبلوموف متفكراً .

— أجل ، يبدو لي ، أنّ الله قد وهبني من القوة ما يجعلني أحب طيلة حياتي . . .

« من ذا الذي أوحى لها بذلك ! — فكر أبلوموف وهو ينظر إليها بإجلال — لا بد أنها قد توصلت عن طريق التجربة والعذاب والنار والدخان إلى هذا الفهم الواضح البسيط للحياة والحب » .

— هل توجد أفراح وأشواق حية ؟ — قال أبلوموف .

— لا أعرف — قالت أولغا . — فأنا لم أحس بذلك من قبل ولا أدرك ماذا تعني .

— كيف يمكنني أنْ أدرك الآن !

— ربما سأحس بهذا مع الزمن ، وربما سأحس بنفس الانفعالات العاطفية التي تشعر بها أنت ، ربما سأنظر إليك أثناء لقائنا وأنا لا أصدّق عينيّ من شدة الفرح بأنك أمامي . . . لا بد أنْ يكون هذا مضحكاً جداً ! — أضافت أولغا بمرح — كم هي معبّرة عيناك في بعض الأحيان : أعتقد أنّ عمّتي قد لاحظت ذلك .

— كيف تشعرين بالسعادة في الحب ، ما دمت لا تحسين بنفس الأفراح الحية ، التي أشعر بها ؟
— سأل أبلوموف .

كيف ؟ ها هو ذا مبعث سعادتي ! قالت وهي تشير إليه ،

وإلى نفسها ، وإلى خلوتهما — أليست هذه سعادة ، وهل كنت يوماً سعيدة هكذا ؟ فلم أكن لأجلس هنا وحيدة بين هذه الأشجار ، فيما مضى ربع ساعة من الزمن ، بدون كتاب أو موسيقى . كنت أشعر بالضجر عندما أتحدث مع رجل آخر غير أندريي إيفانيتش ، كنت أفكر طول الوقت كيف يمكنني أنْ أبقى وحيدة . . . أما الآن . . . فوجودنا معاً ، حتى ولو كنا صامتين ، هو مبعث سرور لي !

طافت بعينيها كل ما حولها — الأشجار والأعشاب ثم استقرت نظرتها عليه ، فابتسمت ومدّت له يدها .

— ألن يكون ألمي كبيراً عندما ستنصرف ؟ — أضافت أولغا — ألَنْ أسرع بالنوم كي أتخلص من عناء بُعْدِك عني في الليل ؟ ألن أنتظر بفارغ الصبر لقاءك صباحاً ؟ ألن . . .

كان وجه أبلوموف يزداد تألقاً مع كلّ تساؤل كانت تطرحه أولغا ، كما كانت نظرته تمتلىء بريقاً .

— أجل أجل — كرر أبلوموف . إني أنتظر الصباح أيضاً بنفاذ الصبر ، فالليل سيكون مضجراً بالنسبة لي . سأذهب إليك غداً وأبحث عنك كي أسمع صدى اسمك مرة أخرى ، وأتعرّف من الناس عن أية معلومة أو تفصيل يتعلق بك وأحسد كل من رآك قبلي . . . إننا نفكر وننتظر ونعيش ونعلّق الآمال بوتيرة واحدة ونمط واحد . أعتذر لك يا أولغا عن شكوكي : فأنا على ثقة بأنك تحبينني ، كما لم تحبي أباك وعمتك و

ــ وكلبك ، ــ قالت أولغا ثم ضحكت .

ــ ثِقْ بي كما أثق بك ، ــ ختمت أولغا كلامها ، ــ لا تَدَعِ الريبة تستولي عليك ، لا تعكِّرْ صفو سعادتنا هذه بشكوك فارغة ، لأنّ الشك ينهي السعادة .

إني باقية على عهدي ، ثابتة على حبك . لا حاجة للتذكير بأنني لا أزال شابة بعد ، فهذا ما أعرفه . لكن . . . هل تعرف ، ــ قالت أولغا بصوت ملؤه الثقة ، ــ بأنني قد تأملت وخبرت كثيراً منذ أَنْ تعرّفت بك ، كما لو أنني قد قرأت كتاباً كبيراً . . . فلا تشك . . .

ــ لا أستطيع أنْ أمتنع عن الشك ، ــ قال أبلوموف مقاطعاً ، ــ لا تطالبيني بذلك فأنا الآن بوجودك متأكد ، واثق بكل شيء : بنظرتك ، بصوتك ؛ كل شيء فيك يتحدث عن ذلك . إنك تنظرين إليّ كما لو أنك تتكلمين : فلا حاجة لي بالكلمات ، إني أعرف قراءة نظراتك . لكن عندما تغيبين عني ، تبدأ لعبة الشك والتساؤل تؤرقني ، فأشعر عندها بالحاجة لأنْ أركض إليك ثانية ، لأنظر إليك من جديد ، فبدون هذا لا أستطيع أنْ أصدّق . ما السبب ؟

ــ لكني أثق بك : لماذا ؟ ــ سألت أولغا .

ــ وهل بوسعك إلاّ أنْ تثقي ! فأمامك مجنون ، صريع حبك ! إنك ترين صورتك في عينيّ ، على ما أعتقد ، كما ترينها في المرآة . زد على ذلك . . .

إنك ما تزالين في العشرين من العمر ، انظري إلى نفسك . هل يستطيع أي رجل يصادفك أنْ يتهرّب من دفع ضريبة

الإعجاب والدهشة . . . ولو بنظرته ؟ أما أنْ يتعرّف عليك ، ويستمع وينظر إليك طويلاً ، ويحبك — فإنه سيصبح مجنوناً بلا ريب ! أما أنت فتبدين هادئة ، غير مبالية ، فإذا ما مرّ يوم لم أسمع منك فيه كلمة (أحب . . .) ، فإن الألم والعذاب يبدآن هنا . . .

ثم أشار إلى قلبه .

— أحبك ، أحبك ، أحبك — هذه ذخيرة لك لثلاثة أيام ! — قالت أولغا وهي تنهض .

— انك تمزحين ، أما أنا ففي غاية الجد ! — قال أبلوموف ملاحظاً ، وقد أطلق زفرة من أعماقه ، وهما ينزلان الهضبة .

هكذا كانت النغمة ذاتها تتردد بينهما في أشكالها المتنوعة . فلقاءاتهما وأحاديثهما كانت تُكَوّنُ أغنية واحدة ، وألحاناً واحدة وضياءً واحداً يتألق بسطوع ، وينعكس ويتكسّر مكوناً أشعة وردية خضراء ، أشعة شاحبة تهتز في الوسط المحيط بهما . فكل يوم وساعة كانت تجلب لهما أنغاماً وأشعة جديدة ، لكن الضياء كان يبقى ذاته دونما تغيير . والنغمة تصدح بنفس الوتيرة .

كانا يصغيان معاً إلى هذه الألحان ثم يتلقفانها ويؤلفان أغنية على إيقاعها ، حيث يسمع كل منهما ما يعتمل في داخل الآخر ، دون أنْ يظنّا بأنّ ألحاناً أخرى ستصدح غداً ، وأنّ أشعةً أخرى ستظهر غداً ، فينسيان في اليوم التالي . بأنّ غناء البارحة كان مختلفاً عما هو اليوم .

كانت عواطفها . التي يفيض بها قلبها . انعكاساً لما يتألق في مخيلتها في اللحظة الراهنة ، إذ كانت تؤمن بأن طبيعتها مفطورة على ذلك .

كانت تحرص على الظهور في عيني صديقها بأبهى حلة . وهي تتمايل في غنج ودلال بريء عفوي . كان يثق أكثر منها بهذه الألحان الساحرة ، وبهذا الضياء الفاتن ، ويحرص على المثول أمامها مبدياً عواطفه ولواعج قلبه كلها ، ويكشف لها عن ألق نار الوجد التي تلتهم روحه .

لم يكذبا أمام بعضهما ولا على نفسيهما : فقد كانا يبوحان بما يعتمل في قلبيهما ، فصوت أبلوموف كان يمرّ عبر مخيلته .

لم يكن أبلوموف في حقيقة الأمر بحاجة لأنْ يتأكد إن كانت أولغا ستبقى مخلصة في وفائها وحبها لشخصية كرديليا ، أم أنها ستسلك طريقاً أخرى جديدة وتتحوّل لاتباع مسلك آخر ، فكل ما كان يهمّه ويريحه هو أنْ تبقى مطابقة لصورتها ، التي تعيش في قلبه .

لم تكن أولغا تستفهم أيضاً ، فيما إذا كان صديقها المولع بها ، سيلتقط قفازها ، إذا ما رمته أمام ليث ، فكل ما تبغيه هو أنْ يبقى مخلصاً لمثال الرجل ، الذي بُعِثَ إلى الحياة بفضل جهودها ، وأنْ تضطرم فيه نار النشاط بتأثير أشعة نظراتها وسحر ابتسامتها . وأنْ يظلّ يراها هدف حياته . لذلك . كانت تنعكس في صورة كارديليا ، التي تلوح أحياناً . وفي أشواق أبلوموف المتأججة ، لحظة واحدة فقط ، وزفرة حب واحدة عابرة . وصحوة واحدة ، وزخرف نزوانيّ واحد . وغداً ، غداً ، سيتألّق ضياء آخر . ربّما سيكون بنفس روعة ضياء اليوم ، لكنه على كل حال ، سيكون ضياءً آخر . . .

كان أبلوموف في نفس الوضع ، الذي يتابع فيه المرء بعينيه غروب الشمس في فصل الصيف ، وهو يستمتع ببقايا أشعتها الوردية ، فلا يحوّل نظره عن خيوط أشعتها تلك ، ولا يلتفت إلى الخلف ، حيث يخيّم الليل ، بل يفكر فقط بعودة الدفء والضياء غداً .

كان مستلقياً على ظهره وهو يستمتع بالبقايا الأخيرة للقاء البارحة . (أحبك . . . أحبك ، أحبك)، —كانت تتردّد في مسامعه بطلاوة تفوق في روعتها وعذوبتها أحسن أغنية سمعها من أولغا ، وكانت بقايا أشعة نظرتّها العميقة الثاقبة ما تزال تغمره . كان يستنبط منها الأفكار ويحدّد مقدار حبّها له ، وهو مستغرق في تأملاته وأحلامه . . .

استيقظ أبلوموف في صباح اليوم التالي شاحباً جهماً ، آثار القلق بادية على وجهه ، جبينه مليء بالتجاعيد ، عيناه خاليتان من البريق والرغبات . فكبرياؤه ونظرته الحيوية الفرحة ، وسرعة حركات الإنسان المشغول الواعية المعتدلة ، قد اختفت تماماً .

كان يتناول الشاي بخمول ، لم يلمس بيده كتاباً ، ولم يجلس إلى الطاولة ، بل أشعل سيجارة بسرور ثم جلس على الأريكة . كان معتاداً على أنْ يستلقي سابقاً في مثل هذه الظروف ، لكنه أقلع الآن عن تلك العادة ، حتى انّ الوسادة لم تجذبه إليها ، بيد أنه أسند مرفقيه عليها ، كعلامة تدل على ميوله السابقه .

كان جهماً ، يطلق بين الحين والآخر زفرة ، ثم هز كتفيه فجأة

وأخذ يهز رأسه . كان يعتمل في داخله شيءٌ ما بقوة ، لكنه لم يكن الحب . كانت صورة أولغا ماثلة أمامه ، لكنها كانت تبدو وكأنها تبتعد عنه ، في الضباب ، وقد فارقها البريق فبدت غريبة عنه ؛ كان ينظر إليها بألم ويتأوّه .

. (فلتعش بإرادة الله ، لا كما يريد المرء – مبدأ حكيم ، لكنه ...) ، ثم استغرق في التفكير .

« أجل ، يستحيل على المرء أنْ يعيش كما يريد ، – فهذا أمر جلي ، – بدأ يتكلم في داخله صوتٌ ما حزين متمرد ، – فالعقل الإنساني ، يسقط في فوضى التناقضات ، التي لا يستطيع حلها ، مهما بلغ من العمق والجرأة ! فالمرء يتمنى البارحة شيئاً ، فيحصل اليوم ، على ما كان قد تمناه بشغف ، بعد أنْ تخور قواه ، ثم يحمرّ بعد غد خجلاً ، لأنه تمنّى ذلك ، ويلعن الحياة لأنّ رغبته قد تحققت ، – تلك هي النتيجة ، التي يحصل عليها المرء من جرّاء مواجهته الحياة بجرأة واستقلاليّة ، من جرّاء التصرّف على هواه . يجب أنْ يسير المرء متلمّساً طريقه ، وأنْ يغمض عينيه كثيراً دون أنْ يهذي بالسعادة ، أو يجرؤ على التذمر عندما تفلت منه ، – تلكم هي الحياة ! مَنْ ذا الذي قال بأنّ السعادة متعة ؟ المجانين ! الحياة تعني الواجب – هكذا تقول أولغا . – والواجب يكون صعباً . فأداء الواجب . . . » ثم أطلق زفرة .

– لن ألتقي أولغا بعد الآن . . . يا إلهي ! لقد فتحت عينيّ ودلّتني على الواجب ، – قال أبلوموف وهو ينظر إلى السماء ، – من أين لي

أن أجد القوة ؟ نفترق إذن ! فما زالت الإمكانية موجودة الآن ، ولو بكثير من الألم ، لكنني سألعن نفسي بعد ذلك وأنا أقول :

لماذا لم نفترق ؟ لكنه سيصل من طرفها ، الآن ، أحدٌ ما ، فقد كانت تريد أنْ ترسل . . . فهي لا تتوقع . . .

ما السبب ؟ أي ريح هبّت فجأة على أبلوموف ؟ أي غيوم حملت إليه ؟ لماذا يتصرف على هذا النحو ؟ يبدو أنه كان يسبر البارحة نفس أولغا ، فوجد فيها عالماً مشرقاً وحظاً حسناً ، كأنه قد قرأ طالعه وطالعها . ماذا جرى ؟

لا بد أنه قد تعشى ونام على ظهره ، فتراجع مزاجه الشاعري المتفائل أمام أوهامه ومخاوفه .

يحدث غالباً أنْ ينام المرء صيفاً ، في أمسية هادئة خالية من الغيوم ، النجوم تتلألأ في السماء الصافية ، وهو يفكر كم سيكون الحقل جميلاً غداً ، وقد اكتسى بألوان الصباح الزاهية ! كم سيكون ممتعاً أنْ يتوغل المرء في أعماق الغابة ليتقي حرارة الشمس ! . . . ثم يصحو فجأة على صوت المطر ، فيرى الغيوم الرمادية الحزينة ، فيشعر بالبرد والرطوبة ...

كان أبلوموف كعادته ، يستمع منذ البارحة إلى نبضات قلبه ، فيتحسسه بيده ليتأكد إنْ كان قد ازداد تصلباً ، ثم يغوص في نهاية المطاف ، بتحليل سعادته ، فيقع فجأة على قطرة من المرارة ، فيتسمم .

كان تأثير السم سريعاً وقوياً . استرجع في ذهنه حياته كلها : فالأسى والندم على حياته السابقة ، عاد يلامس قلبه . ثم تصوّر ما يمكن أنْ

يكون عليه وضعه الآن ، لو أنه تابع سيره إلى الأمام بحيوية ونشاط ، ثم انتقل إلى التساؤل عما هو عليه الآن ، وكيف يمكن لأولغا أنْ تحبه ، ومن أجل أي شيء ؟

« أليس هذا خطأ ؟ » مرّت الفكرة في ذهنه ، فجأة ، كالبرق ، بيد أن هذا البرق أصاب قلبه فحطّمه . « خطأ ! أجل . . . تلك هي الحقيقة ! ! » — تردّدت في ذهنه هذه القناعة .

« أحبك ، أحبك ، أحبك ، » ، — تردّدت في ذاكرته ، فجأة ، هذه الكلمات من جديد ، فابتدأ قلبه يضطرم ، لكنه ما لبث أنْ خمد فجأة . ماذا يعني أنْ تكرر أولغا كلمة « أحبك » مرات ثلاث ؟ لا بد أنّ هذا ناجم عن خداع عينيها ، وهمسات قلبها المليء بالفضول ، فهذا ليس حباً ، بل مجرد هاجس بالحب فقط !

سيدوّي هذا الصوت في وقت من الأوقات . لكنه سيدوي بقوة تشبه قوة اللحن الموسيقي ، وسيرتعش العالم كله من شدته ! وستتعرّف العمة ، والبارون عليه ، وسيصل صدى هذا الصوت القوي إلى مسافات بعيدة ! لن ينساب بعد ذلك ذاك الشعور بهدوء ، كالجداول التي تتوارى في الأعشاب ، التي لا يكاد خرير مياهها يُسْمَع إلا بشيء من العناء .

إنها الآن تحب بنفس الطريقة التي تطرّز بها قطعة القماش : حيث تعمل ببطء وكسل ، وعندما ينتهي الزخرف تفتح قطعة القماش بتكاسل أكبر ، فتستمتع بالنظر إليها ، ثم تضعها وتنساها . أجل إنّ هذا مجرد استعداد للحب فقط ، مجرد تجربة ، أما هو فلا يعدو أنْ يكون مجرّد

شخص يصلح حقلاً لها ، وقعت عليه ، صدفة ، أول ما وقعت

إنها الصدفة التي ساقتهما وقربتهما من بعضهما . فلولا شتولتس ، لما كانت قد لاحظت وجوده أصلاً . فهو الذي دلّها عليه ، وأثار قلبها الفتي الرقيق بالعطف عليه ، فرثت لحاله وأشفقت على وضعه ، فدفعتها رقة إحساسها لأنْ تنفض عن روحه الخاملة غبار الكسل ، ثم تتركه بعد ذلك وشأنه . .

— هكذا إذن ! — قال أبلوموف بذعر وهو ينهض من السرير ويشعل بيده المرتجفة شمعة . — تلك هي الحقيقة ! — كانت جاهزة لتقبُّلِ الحب ، وكان قلبها مليئاً بالرقة والحنان ، فالتقاها صدفة ، وتعرّف عليها خطأً . . . فما إنْ يظهر شخص آخر ، حتى تستفيق مذعورة وقد أدركت خطأها ! كيف ستنظر عندئذ إليه ، كيف ستشيح بوجهها عنه . . . يا إلهي كم سيكون ذاك مرعباً ! إنني أسرق شيئاً غريباً عني ! إنني لص ! ماذا أفعل ، ماذا أفعل ؟ كيف عميت عن هذا كله ! يا إلهي !

نظر في المرآة فوجد وجهه شاحباً أصفر ، وعيناه ذابلتان . تذكّر أولئك الشبان السعداء ، الذين تأسر نظراتهم المتأملة الثاقبة القوية ، وتبرق عيونهم النديّة حيويةً ، كعينيّ أولغا ، وكلها ثقة بأن تُحقِّق النصر من خلال الإبتسامة ؛ تَذَكَّرَ الشبان السعداء بمشيتهم المليئة بالنشاط ، وبصوتهم الرنّان . فما إنْ يظهر أحدهم ، حتى تضطرم أولغا فجأة وتتورد ، فتنظر عندئذٍ إليه ، أي إلى أبلوموف ، و . . . تقهقه !

نظر في المرآة من جديد . « مثل هؤلاء لا يحبهم أحد ! » — قال أبلوموف .

استلقى بعدها ثم دفن وجهه بالوسادة . « وداعاً يا أولغا ، فلترافقك السعادة » —

ختم حديثه بهذه الكلمات

— زاخار ! — صاح أبلوموف صباحاً .

— إذا ما جاءنا شخص من طرف بيت إيلينسكايا يسأل عني ، فقل له بأنني قد غادرت المنزل إلى المدينة .

— سمعاً وطاعة .

« كلا . . . من الأفضل أنْ أكتب إليها رسالة — أسرّ أبلوموف لنفسه ، — وإلاّ فإنها ستنظر عندها لغيابي المفاجىء بكثير من الإستهجان . فالتوضيح ضروري » .

جلس إلى الطاولة وبدأ يكتب بسرعة ، وبلهفة ونشاط محموم ، على العكس تماماً من حالته عندما كان يكتب في مطلع أيار إلى صاحب الشقة . فلم تتجاور مطلقاً ، كلمتا الذي ، والتي ، مع بعضهما .

أولغا سيرغييفنا ! سيكون غريباً بالنسبة لك (كتب أبلوموف) أنْ تستلمي رسالتي هذه عوضاً عن مجيئي ، فلطالما كنا نلتقي غالباً : اقرئيها حتى النهاية ، وسترين ، أنه يستحيل عليّ أن أتصرّف بطريقة أخرى . كان ضرورياً أنْ أكتب رسالتي هذه منذ البداية : إذ كانت ستجنّبنا الكثير من وخز الضمير في المستقبل ، لكنه ليس متأخراً أنْ

أكتبها الآن . لقد أحببنا بعضنا فجأة ، وبسرعة ، كما لو كنّا مريضين ، وهذا ما منعني من أنْ أصحو لنفسي قبل الآن . زد على ذلك ، من ذا الذي يستطيع الإبتعاد عنك ، ما دام ينظر إليك ويسمعك ساعات بكاملها ؟ من أين لي أن أجد الذخيرة الكافية وقوة الإرادة الضرورية ، لأواجه لحاظ حبك ، وأتوقف عند كلّ منحدر ، كي لا أغرم بك أكثر ؟ ففي كل يوم كنت أقول لنفسي : « لن أذهب في حبي أبْعَد من ذلك ، سأتوقف : فهذا أمر يتعلق بي » ...

لكنني كنت أزداد ولعاً بك . وها قد حانت الآن لحظة الصراع ، التي أطلب فيها مساعدتك .

ففي هذا اليوم فقط ، في هذه الأمسية ، أدركت ، كيف انزلقت قدماي بسرعة : فقد تمكنت البارحة فقط من النظر برويّة أكثر إلى الهاوية ، التي أنا منساق إليها ، فقررت أن أتوقف .

إنّي أتحدّث عن نفسي فقط ، ليس من باب الأنانية ، بل لأنك ستطيرين عالياً ، كالملاك الطاهر ، وأنا لا أعرف إنْ كنت ستلقين عليّ نظرة ، عندما سأكون ممدّداً في قاع تلك الهاوية . اسمعي ، سأقول لك ببساطة وبشكل مباشر ، دون أية تلميحات : انك لا تحبينني ولا تستطيعين أنْ تحبيني . فها هو قلبي قد بدأ بالخفقان منذ زمن بعيد : ولنفترّض أنه كان يخفق خطأ في غير محله ، إلاّ أنّ اضطرابه هذا قد علّمني بأنْ أميز بين خفقانه الطبيعي الصحيح ، وبين خفقانه العرضي المفاجىء .

ينبغي عليّ أن أعرف أين الحقيقة ، وأين الخطأ ، فهذا أمر ممكن بالنسبة لي ، لكنه مستحيل بالنسبة لك ، فالواجب يحتّم عليّ أنْ أحذّر كلّ من لم يتيسّر له بعد ، إدراك ذلك . وها أنا ذا أنبّهك : إنّك تائهة ، التفتي إلى نفسك !

ما دام حبنا لم يتجاوز بعد حدود البسمة المريحة ، وعبق غصن الليلاك ، والمشاركة العاطفية الخفية . والنظرة الخجولة ، فإنني لم أكن أثق به بل كنت أعتبره مجرد لعبة التخيلات وهمس الأحاسيس .

لكن العبث قد انقضى ، فأصبحت مريضاً بحبك ، وشعرت بأعراض الغرام ، أما أنت فأصبحت كثيرة التأمل ، جدّيّة ؛ لقد منحتني أوقات فراغك ، فبدأت أعصابك تتكلم ، بدأت تضطربين ، وعندها ، أعني الآن فقط ، انتابني الخوف وشعرت بأنّ الواجب يحتّم عليّ أن أتوقف وأقول ماذا يعني ذلك كله .

قلت لك بأنني أحبك ، وأجبتني بالشيء ذاته — لكن هل تحسّين بعدم الإنسجام في قولك هذا ؟ إنك لا تحسّين ، أليس كذلك ؟ ستحسّين بذلك في وقت متأخر ، عندما أكون قد أصبحت في الهاوية . انظري إليّ ، فكّري بحياتي وكياني : أيمكنك أنْ تحبي كائناً مثلي . أجيبي : هل تحبينني ؟ « أحبك ، أحبك ، أحبك ! » — قلت لي البارحة . « كلا ، كلا ، كلا ! » — أجيبك اليوم بإصرار .

إنك لا تحبينني ،لكنك لا تكذبين — هنا أسارع لأضيف — إنك لا تخدعينني ، فأنت لا تستطيعين أنْ تقولي نعم ، عندما تقولين في

أعماقك لا . إنما أريد أنْ أثبت لك فقط ، بأن كلمة أحبك ، التي تفوهت بها ، لا تعني حباً حقيقياً راهناً ، بل مستقبلياً ، فهي لا تعني أكثر من مجرد حاجة غير واعية لأن تحبّي ، أكثر من حاجة تتّقد بشكل متصنّع غير حقيقي ، دون أنْ تصدر نوراً ساطعاً ، بسبب عدم كفاية أو لنقل بسبب نقص الغذاء الحقيقي وغياب النار ، فتعبر عنها النساء أحياناً عندما يداعبن طفلاً ، أو يجاملْن امرأة أخرى ، حتى ان ذلك يتم التعبير عنه من خلال الدموع أو النوبات الهستيرية .

لذا كان يتوجب عليّ منذ البداية أنْ أقول لك بكل صراحة : « لقد أخطأت ، فلم تعثّري على من كنت تنتظرينه أو تحلمين به . انتظري فلا بدّ أن يأتي ، وعندها ستعودين إلى وعيك ، وستحزنين وستخجلين بعدها من خطيئتك ، بينما سيسبب لي حزنك وخجلك ذاك كثيراً من الألم » ، -- ذلك ما كنت سأقوله لك ، لو كنت أمتلك بطبعي ذهناً أكثر حدّةً واتّقاداً ، وروحاً أكثر نشاطاً ، أو لو كنت أكثر صراحة . . . لقد قلت ذلك ، لكنْ ، أتذكرين كيف : بخوف كي لا تصدقي ، كي لا يحدث هذا ؛ لقد قلت مقدّماً كل شيء يمكن أنْ يقوله الآخرون فيما بعد ، كي أهيّئك على عدم الإستماع إليهم أو تصديقهم ، بينما كنت أسارع للقائك وأنا أفكر : « إنني سعيد ما دام أحد لا يعرف متى سيأتي الشخص الآخر ، ذلك هو منطق الغرام والأشواق .

أما الآن ، فإنني أفكر بطريقة أخرى . ماذا سيحدث لي عندما

أزداد تعلّقاً بها ، عندما تصبح رؤيتها ضرورة بالنسبة لي لا أستطيع الإستغناء عنها ، عندما يصبح قلبي جريح حبها (فليس عبثاً أنني أشعر بتصلّب فيه) ؟ كيف سأفارقها عندئذ؟ هل أستطيع أنْ أتحمل ما يسببه ذلك من ألم ؟ سيصبح وضعي مزرياً ، فأنا الآنلا أستطيع أنْ أتصوّر ذلك إلا بالكثير الكثير من الخوف . لو كنت أكثر تجربة ، وأكبر سناً ، لباركت عندئذ سعادتي ولأعطيتك يدي إلى الأبد . لكن . . .

لماذا أكتب لك ؟ لماذا لم أذهب إليك لأقول بنفسي مباشرة ، بأن رغبتي في رؤياك تزداد يوماً بعد يوم . لكنه لا ينبغي أنْ نتقابل ؟ إنه يصعب عليّ ، لا بل يستحيل أنْ أقدر على قول هذا أمامك . احكمي بنفسك ! يحدث أحياناً ، انني أريد أنْ أقول شيئاً مشابهاً لهذا ، لكنني أقول شيئاً مغايراً تماماً . فلربما سيرتسم الحزن على محيّاك (إذا كنت حقيقة لا تضجرين أثناء لقائي بك) ، أو ربّما ستستائين مني بسبب التباسٍ منك في فهم مقاصدي الطيبة : فأنا لا أستطيع أنْ أتحمّل هذا ولا ذاك ، فأقول عندها ، من جديد ، شيئاً ما آخر غير الذي أريد ، فتطير مقاصدي في مهب الريح ، وتنتهي الأمور باتفاق على لقاء في اليوم التالي .

أما الآن ، فالأمر مختلف ، وأنا بعيد عنك : فعيناك الوديعتان ، ووجهك الجميل الطيب ليسا أمامي ؛ فالورق صبور صامت ، وأنا أكتب بهدوء (إنني أكذب) : إننا لن نلتقي بعد الآن (لا أكذب) .

شخص آخر مكاني كان يمكن أنْ يكتب بأنّ عينيه تترقرقان

بالدموع ، فأنا لا أتباهى أمامك ، ولا أزيّن نفسي في حزني ، لأنني لا أريد أنْ أزيد ألمي وأثير الأسى والحزن .

فالتباهي هذا يزيد من تعميق وترسيخ الجذور في تربة العاطفة . وأنا أريد أن أقتلع بذورها مني ومنك . كما انّ البكاء يليق بالغاوين الذين يبحثون عن إثارة لواعج النساء واستدراجهنّ ، من خلال تعابير وجمل منمقة ، كما يليق بالحالمين فاتري الهمة . أقول هذا وأنا أودّعك ، كما يودّع الناس صديقاً طيباً عزيزاً على قلوبهم يذهب في طريق بعيدة . لم أكن لأستطيع أنْ أقول ذلك ، لو أنني تأخرت أسابيع ثلاثة أو شهراً : فالحب وباء روحي يحقّق نجاحات يصعب تصديقها . إنني لا أشبه الآن أحداً ، فأنا لا أعدّ الساعات والدقائق ، ولا أعرف شروق الشمس وغروبها ، بل أقارن وأقول : رأيتها — لم أرها ، سأراها — لن أراها ، جاءت — لم تأتِ ، ستأتي . . . ان هذا كله يليق بالشبان الذين يتحمّلون بسهولة الاضطرابات العذبة القاسية ؛ أما أنا فيليق بي الهدوء .

صحيح أنّ الهدوء مضجر يبعث على النعاس ، لكنه مألوف بالنسبةلي فأنا لا أستطيع أنْ أواجه العواصف .

قد يستغرب كثيرون تصرفي هذا ، قائلين : لماذا يهرب ؟ وسيسخر آخرون مني : فأنا قد أخذت هذا كله بعين الحسبان وصمّمت على مواجهته ، فما دمت قد صممت ألاّ أراك ، فهذا يعني أنني صمّمت على مواجهة كل شيء .

إنني أعزّي نفسي قليلاً من كربتي العميقة هذه فأقول ، بأنّ

هذا الفصل القصير من حياتنا سيترك في نفسي وإلى الأبد ذكرى طيبة صادقة صافية ، ستكون معيناً يجنّب روحي العودة إلى غفوتها السابقة ، كما ستساعدك مادامت لم تجلب لك الضرر ، على حسن التصرّف في حبك العادي المستقبلي . وداعاً يا ملاكي ، طيري بسرعة ، كما يطير من غصن شجرة عصفور مذعور حطّ عليه خطأً . طيري مثله بفرح وخفة وحيوية من غصنك ، الذي وقعت عليه صدفةً ! » .

كان أبلوموف يكتب بإلهام وحماس . وكانت ريشته تطير عبر الصفحات ، أما عيناه فتشعّان بريقاً ، ووجنتاه متوردتان . وجد رسالته طويلة ككلِّ الرسائل الغرامية : فكم يكثر العاشقون الخائفون من الكلام .

« يا للغرابة ! لم أعد أشعر بالملل والتعب ! — فكر أبلوموف . . . فأنا سعيد تقريباً . . . ما سبب ذلك ؟ ربما يكون السبب لأنني تخلصت من أعباء روحي ، وسكبتها في رسالتي هذه » .

أعاد قراءة الرسالة ، ثم طواها وغلّفها .

— زاخار ! — قال أبلوموف — عندما يأتي الشخص الموعود ، أعطِه هذه الرسالة ليوصلها إلى الآنسة أولغا .

— حاضر . — قال زاخار .

شعر أبلوموف بشيء من الفرح حقاً . فقد تربّع على الأريكة ، حتى انه سأل ، إنْ كان يوجد شيء من الطعام ليتناول إفطاره . فقد التهم بيضتين ودخّن سيجارة . كان قلبه ورأسه عامرين بالفرح ؛

كان في نعيم . كان يتخيّل . كيف ستستلم أولغا رسالته ، وكم ستندهش وكيف سيصبح وجهها عندما ستقرأها . ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

كان يستمتع بآفاق هذا اليوم ، وبالجديد الذي طرأ على الوضع . . . كان يصغي وقلبه يكاد يتوقف عن الخفقان إلى قرع الباب ، ليستعلم إنْ كان الشخص قد أتى ، الشخص الذي سيحمل الرسالة إلى أولغا لتقرأها . . . كلا ، لا شيء من هذا القبيل ، فالهدوء يخيم في غرفة الانتظار .

« ماذا يمكن أن يعني هذا ؟ — فكر أبلوموف بقلق ، — لم يأتِ أحد : كيف يمكن ذلك ؟ . . . في هذه الآونة ، تراءى له صوت خفي يهمس له : « لماذا أنت قلق ؟ لا بد أنك تأمل ألاّ يأتي ، كي لا تنقطع العلاقات ، أليس كذلك ؟ » لكنه كان يُخْمِد ذلك الصوت .

بعد نصف ساعة ، استدعى زاخار من فناء الدار ، حيث كان يجلس مع الحوذي .

— ألم يأت أحد ؟ — سأل أبلوموف .

— لقد جاء — أجاب زاخار .

— ماذا قلت ؟

— قلت بأنك قد ذهبت إلى المدينة .

نظر أبلوموف إليه محملقاً .

— لماذا قلت هذا ؟ ماذا أمرتك بأن تقول عندما يأتي الشخص ؟

— لم يأت الرجل الذي حدثتني عنه ، بل جاءت الوصيفة ، — أجاب زاخار ببرودة أعصاب متناهية .

ـــ هل أعطيتها الرسالة ؟

ـــ كلا ، لأنك أمرتني في البداية أنْ أقول بأنك لست موجوداً في البيت ، على أنْ أُسلّم الرسالة في وقت لاحق . سأسلّمها عندما يأتي الرجل ، الذي تنتظره .

ـــ لا . لا ، هذا أمر لا يطاق . فأنت . . . قاتل ! أين الرسالة ؟ أعطِني إيّاها ! قال أبلوموف .

ناوله زاخار الرسالة ، التي كانت قد اتّسخت .

ـــ اغسل يديك ، انظر ! ـــ قال أبلوموف بعنف وهو يشير إلى البقعة .

ـــ يداي نظيفتان ، ـــ أجاب زاخار مشيحاً بوجهه جانباً .

ـــ أنيسيا ، أنيسيا ! ـــ صاح أبلوموف .

أطلّت أنيسيا من مصراع الباب المفضي إلى غرفة الإنتظار .

ـــ انظري ، ماذا يفعل زاخار ؟ ـــ قال أبلوموف شاكياً ، ـــ خذي الرسالة واعطها لمن سيأتي من طرف بيت إيلينسكايا ، سواء أكان رجلاً أم وصيفة ، واطلبي تسليمها للآنسة أولغا ، أتسمعين ؟

ـــ سمعاً وطاعة .

ما إن خرجت أنيسيا إلى غرفة الإنتظار حتى انتزع زاخار الرسالة منها .

ـــ اذهبي . اذهبي . ـــ صرخ زاخار . ـــ لا تتدخّلي في عمل الرجال . أنجزي عملك . الذي يتعلق بك كامرأة فقط !

سرعان ما جاءت الوصيفة راكضة من جديد . أخذ زاخار يفتح الباب . بينما اقتربت أنيسيا منها ، لكن زاخار نظر إليها بحنق .

— ماذا تفعلين هنا ؟ — سأل زاخار بصوت أجش .

— أتيت لأستمع إليك فقط وأنصت لما ستـ . . . .

— هيا ، هيا ، اذهبي ! — بدأ صوت زاخار يرعد . وهو يدفعها بمرفقه — اذهبي إلى هناك ! ضحكت ثم انصرفت . وأخذت تنظر من الغرفة الأخرى ، عبر ثقب الباب ، إنْ كان زاخار سيفعل ما أمرَ به سيده .

ما إن سمع إيليا إيليتش الضجة . حتى قفز بنفسه .

— ما بك يا كاتيا ؟ — سأل أبلوموف .

— أمرتني سيدتي أولغا بأنْ أستفهم إلى أين ذهبت ؟ وها أنت في البيت يا سيدي ، لم تذهب إلى أي مكان ! سأركض لأخبرها — قالت الوصيفة . ثم همّت بالإنصراف .

— إنني في البيت . فزاخار هذا يكذب دائماً ، — قال أبلوموف — خذي هذه الرسالة وسلّميها للآنسة أولغا .

— سمعاً وطاعة . سأسلّمها !

— أين هي سيدتك الآن ؟

— إنها تتمشّى ، وقد أمرتني بأن أبلغكم بأنّ تتفضل وتوافيها إلى الحديقة في الساعة الثانية ، إذا كنت قد أنهيت قراءة الكتاب .

انصرفت الوصيفة .

« كلا ، لن أذهب . . . لماذا أهيّج مشاعري ، عندما ينبغي أنْ ينتهي كل شيء ؟ . . . » ، — فكر أبلوموف وهو يتوجه إلى القرية .

شاهد من بعيد ، كيف كانت أولغا تصعد الهضبة وكاتيا تلحق بها ، شاهد كيف أعطتها الرسالة ، وكيف توقفت أولغا لحظة فنظرت إلى الرسالة وفكرت — ، ثم هزت برأسها لكاتيا ودخلت في ممشى الحديقة .

سلك أبلوموف طريقاً غير مباشر ، بالقرب من الهضبة ، ثم دخل ممشى الحديقة ذاته ، من الطرف الآخر ، وتابع سيره حتى منتصفه ، ثم جلس على العشب بين الشجيرات وراح ينتظر .

« ستمرّ من هنا ، — فكّر أبلوموف ، . . . سأنظر إليها فقط دون أنْ أدعها تلحظني ، لأرى كيف ستكون حالتها ، ثم أبتعد عنها إلى الأبد » .

كان ينتظر خطواتها بقلب يكاد يتوقف عن الخفقان ، لكنه لم يسمع شيئاً ، فقد كان الصمت يلفّ كل شيء . كانت الطبيعة تعيش حياة نشطة ؛ كان العمل البسيط غير المرئي يجري على قدم وساق من كل صوب ، في الوقت الذي كان كل شيء يبدو ، وكأنه في هدوء مهيب .

في غضون ذلك ، كان كل شيء يتحرك ويدب ويتململ في العشب ، فها هو النمل يدب في اتجاهات مختلفة بجد وعجلة ، فيتفرق مسرعاً حيث تبدو اللوحة مشابهة تماماً ، للصورة التي يراها المرء وهو

ينظر من علٍ إلى سوق مكتظّة بالناس، فيرى نفس المجموعات . ونفس الازدحام . ونفس الهرج الذي يقوم به الناس .

ها هي نحلة تدندن بالقرب من زهرة ثم تدخل في كمّها ، وها هي أعداد كبيرة من الذباب تلتصق بقطرة نسغ خرجت من شق في شجرة الزيزفون ؛ وها هو ذا عصفور في مكانٍ ما من الأيك يردّد منذ مدة نفس اللحن ، فلربما كان ينادي عصفوراً آخر .

وهناك فراشتان تحومان حول بعضهما في الجو بسرعة ، كما في رقصة الفالس ، ثم تسرعان بالقرب من جذوع الأشجار ، أما العشب فتفوح منه رائحة عبقة قوية ، ويحدث دونما انقطاع قرقعة . . .

« ما أكثر الجلبة هنا ! — فكر أبلوموف وهو يمعن النظر في هذه الململة والحركة ، ويصغي إلى هرج الطبيعة الناعم الدقيق ، — بينما يبدو كل شيء من الخارج وكأنه في هدوء وسكون ! . .)

لكنه لم يترام إلى مسامعه وقع خطوات . آه ! ، ها هي أخيراً — تنهد أبلوموف ، وهو يباعد الأغصان عن بعضها بهدوء — ها هي ، ها هي . . . ماذا تفعل ؟ إنها تبكي ! يا إلهي !

كانت أولغا تسير بهدوء وهي تمسح الدموع بمنديلها ، لكن ما إنْ تمسحها ، حتى تذرف دموعاً أخرى ، فتخجل من نفسها وتبلعها ؛ كانت تريد أنْ تخفي دموعها حتى عن الأشجار ، لكنها لم تستطع . لم ير أبلوموف من قبل قط . دموع أولغا . فهو لم يتوقع أنْ يرى

ذلك ، فكأنها كانت تحرقه بطريقة لم يشعر من جرائها بالحرارة ، بل بالدفء .

انطلق وراءها بسرعة .

— أولغا ، أولغا ! — هتف أبلوموف بصوت رقيق وهو يتبعها .

ارتعشت ، التفتت إلى الوراء ، ونظرت إليه بدهشة ، ثمّ حوّلت نظرها عنه وتابعت سيرها .

أصبح أبلوموف يسير بالقرب منها .

— تبكين ؟ — قال أبلوموف .

انهمرت الدموع من عينيها بغزارة أكثر . لم تستطع أن تحبسها ، فوضعت منديلها على وجهها ، وأجهشت في البكاء ثم جلست على أول مقعد صادفته .

—ماذا فعلت ! — همس أبلوموف بذعر ، وهو يمسك بيدها محاولاً أن يبعدها عن وجهها .

— اتركني ! — قالت أولغا — اذهب ! لماذا أنت هنا ؟ أعرف ، أنه لا ينبغي أنْ أبكي : على أي شيء ؟ أنت على حق : أجل ، فكل شيء يمكن أنْ يحدث .

— ماذا أفعل ، كي تتوقف هذه الدموع ؟ — سأل أبلوموف ، وهو يجثو أمامها على ركبتيه — تكلمي ، أصدري أوامرك : فأنا مستعد لكل شيء . . .

– لقد تصرفت بقصد أنْ أذرف الدموع ، أما إيقافها فليس رهن إرادتك . . . فلست قوياً إلى هذا الحد ! دعني وشأني ! – قالت أولغا وهي تضع المنديل على وجهها – .

نظر إليها وهو يوجه ، ذهنياً ، اللعنات إلى نفسه .

– يا لها من رسالة مشؤومة ! – قال أبلوموف بندامة .

فتحت أولغا سلتها . فأخرجت الرسالة وأعطتها له .

– خذ – قالت أولغا . – احملها معك ، كي لا أبكي أكثر كلما نظرت إليها .

دسها في جيبه بصمت وجلس بالقرب منها منكساً رأسه .

– ألن تنصفي مقاصدي ، على الأقل ، يا أولغا ؟ – قال أبلوموف بصوت خافت ، – فهذا إثبات يؤكد كم هي غالية عليّ سعادتك .

– أجل ، كم هي غالية ! – قالت أولغا وهي تتنهد . – لا يا إيليا إيليتش ، يبدو أنك حسدتني ، لأنني كنت سعيدة هادئة ، فأسرعت تعكر صفو سعادتي .

– أعكر صفو سعادتك ! ! إذن ، فأنت لم تقرئي رسالتي ، هل قرأتها ؟ سأعيد قراءتها .

– لم أكمل قراءتها ، لأن عيناي امتلأتا بالدموع : فأنا ما زلت حمقاء ! لكني تصورت التتمة : فلا تُعِدْ قراءتها ، كي لا أبكي أكثر

بدأت الدموع تطفر من جديد .

— أليس لهذا السبب — بدأ أبلوموف — أحرم نفسي منك ، مضحياً بكل شيء من أجل سعادتك المستقبلية ؟ أتظنين أنني أفعل هذا ببرود أعصاب ؟ أليس كل شيء في داخلي يبكي ؟ من أجل من أفعل هذا كله؟

— من أجل من ؟ — كررت أولغا ، وقد توقفت عن البكاء فجأة وهي تلتفت إليه . — كي تختبىء بعدها بين الشجيرات لترى إنْ كنت سأبكي وكيف — من أجل هذا فعلت ما فعلت !

لو كنت تريد حقاً ما كتبته في رسالتك ، لو كنت مقتنعاً بضرورة أنْ نفترق ، لكنت قد سافرت إلى الخارج دون أن تراني .

— يا لها من فكرة ! . . . بدأ أبلوموف الكلام ، لكنه لم يكمله ، لقد أدهشه هذا الإفتراض ، لأنه اتضح له ، فجأة ، بأنه افتراض صائب .

— أجل — أكدت أولغا ، — البارحة كنت تريد أن أقول لك : أحبك ، أما اليوم فأنت بحاجة لدموعي ، ولربما تريد أنْ تشاهدني وأنا أموت .

— أولغا لا تسيئي فهمي ! إني على استعداد ، الآن ، لأنْ أضحي بنصف عمري من أجل أنْ أسمع ضحكاتك ، من أجل ألاّ أرى دموعك . . .

— أجل ، قد يكون ذلك صحيحاً ، الآن ، بعد أنْ رأيت كيف تبكي امرأةٌ بسببك . . .

كلا ، — أضافت أولغا — ليس لديك قلب . تقول بأنك لا تريد أنْ ترى دموعي ؛ لو كنت تريد ذلك حقاً ، لما فعلت ما فعلت . . .

— وهل كنت أعرف ذلك ؟ — قال أبلوموف بصوت ممزوج بالتساؤل والتعجب ، وهو يضع راحتي يديه على صدره .

— للقلب منطقه عندما يحب — قالت أولغا معترضة — فهو يعرف ما يريد ، ويعرف سلفاً ما سيحدث . كنت البارحة في ظَرْفٍ يمنعني من المجيء إلى هنا ، فقد جاءنا ضيوف فجأة ، لكنني كنتُ أعرف بأنك كنت ستعاني من الانتظار ، ولربّما ستقلق في الليل . فأتيت ، لأنني لا أريد عذابك . . . أمّا أنت . . . فقد سررت لأنني أبكي ، انظرْ ، انظرْ ، واستمتعْ ! . . .

أخذت تبكي من جديد .

— لقد نمت نوماً سيئاً يا أولغا ، وانتابني الأرق في الليل . . .

— لا بد أنك شعرت بالأسف ، لأنني نمت جيداً ، ولأنني لم أتعذّب — أليس هذا صحيحاً ؟ — قاطعته أولغا — ربما كنت ستنام نوماً سيئاً ، لو أنني لم أبكِ اليوم .

— ماذا ينبغي أنْ أفعل الآن : أطلب المعذرة ؟ — قال أبلوموف برقّة مستكينة .

— الأطفال هم الذين يطلبون المعذرة ، كما يطلبها أيضاً من يدوس على قدم أحدٍ ما ، لكنّ المعذرة هنا لا تفيد شيئاً ، — قالت أولغا وهي تروّح وجهها بمنديل .

-- لكن قد يكون ما كتبته حقيقة يا أولغا . فقد تتأكد فكرتي ويتّضح بأنّ حبك خطأ ، أليس كذلك ؟ فإذا ما أحببت شخصاً آخر ، فإنك ستنظرين إليّ عندئذ ، وتحمرّين خجلاً . . .

— ما الغرابة ؟ — سألت أولغا ، وهي تلقي نظرة عميقة ثاقبة ساخرة ، لدرجة أنه لم يقو على مقاومتها ، فشعر بالإرتباك .

« إنها تريد أن تستخلص مني شيئاً ما ! — فكّر أبلوموف ، — اصمد يا إيليا إيليتش ! » .

— ما الغرابة ! — كرر أبلوموف غريزياً ، وهو ينظر إليها باضطراب ، دون أن يقدر على تخمين الفكرة التي تدور في ذهنها ، وهي تردّد عبارة « ما الغرابة » .

ألقت عليه نظرة ملؤها الثقة والوعي ، نظرة تنمّ عن استعادة سيطرتها على نفسها .

— إنك تخاف أن تسقط « في قاع الهاوية » — اعترضت أولغا ، وهي تنتقده بسخرية -- تخاف من الأذى الذي سيصيبك مستقبلاً ، عندما أكفّ عن حبك ! . . . تخاف أن يصبح وضعك مزرياً ، كما تكتب في رسالتك . . .

ما زال مستعصياً عليه إدراك ما تقول .

— سأكون مسرورة كما تقول عندما أحبّ شخصاً آخر :

هذا يعني أنني سأصبح سعيدة ! لكنك « تتنبأ لي بالسعادة في المستقبل ، وتعرب عن استعدادك للتضحية بكل شيء من أجلي ، حتى بحياتك ، أليس هذا ما تقوله ؟ »

نظر إليها بإمعان وقد اتّسعت وتألقت عيناه .

— ذلك هو منطقها إذن ! — أسرّ أبلوموف لنفسه — لم أتوقع بأنها ستعترف . . .

تفحصته بسخرية من قدميه حتى رأسه .

— أين هي السعادة ، التي كنت تتحدث عنها أثناء لقاءاتنا ؟ — تابعت أولغا — والأصباح والأمسيات التي قضيناها معاً ، وهذه الحديقة وحبي لك — ألا يستحق هذا كله أي تقدير أو تضحية أو مشقة ؟

« ليت الأرض تنشق وتبلعني ! » — فكّر أبلوموف ، وهو يعاني في داخله أشد العذاب ، بعد أن توضحت له فكرة أولغا تماماً .

— ماذا سيحدث عندما ستتعب من حبنا هذا — بدأت أولغا تساؤلاتها بحرارة — كما تعبت من الكتب والخدمة الوظيفية ومن الناس ؛ ماذا سيكون عندما ستغفو مع الزمن ، وأنت تجلس بالقرب مني . كما تغفو على الأريكة في منزلك ، دون أن يستطيع صوتي إيقاظك . ماذا سيكون عندما سيصبح رداؤك أغلى من أية امرأة أخرى ؟ . . .

— أولغا ، هذا لا يطاق ! — قاطعها أبلوموف بامتعاض ، وهو يبتعد عنها .

— لماذا لا يطاق ؟ — سألت أولغا — فأنت تقول بأنني « أخطأت وأنني سأحبّ شخصاً آخر » ، بينما أفكر في بعض الأحيان بأنك ستكفّ عن حبي في منتهى البساطة ؛ ماذا سيكون عندئذ ؟ كيف أستطيع أن

أبرّر عندئذ ما أفعله الآن ؟ . . . حتى أنني لا أنام أيضاً بسبب ذلك أحياناً ، لكني لا أتعبك بهواجس المستقبل ، لأنني أؤمن بالأفضل .

فالسعادة عندي تتغلب على الخوف . سأكون فخورة ، عندما ستتألق عيناك بسببي ، عندما ستبحث عني وأنت تصعد الهضاب ، عندما ستتخلى عن كسلك وتذهب إلى المدينة في القيظ من أجل كتاب أو باقة ورد تجلبها لي ؛ سأكون مسرورة عندما أجعلك تبتسم وتحب الحياة . . . إنني أنتظر وأبحث عن شيء واحد ، عن السعادة وأعتقد بأنني وجدتها . وإذا ما أخطأت . وإذا ما تأكد أنني سأبكي ندماً على خطيئتي ، فإنني أشعر هنا على أقل تقدير (ثم وضعت راحة يدها على قلبها) بأنني لست مذنبة في خطأي ، أي أنّ القدر لم يرد ذلك ، فتلك مشيئة الله . لكنني لا أخشى دموعي التي سأذرفها مستقبلاً ، لأنّ بكائي لن يكون عبثاً :

إذ أنّ ثمن دموعي تلك كان سعادة . . . فأنا سعيدة هكذا . . . أريد أنْ أقول كنت سعيدة ! . . . أضافت أولغا .

ـــ فلتهنأي بسعادتك من جديد ! ـــ قال أبلوموف متوسلاً .

ـــ أما أنت فلا ترى إلا مجرد الحزن فقط أمامك ، السعادة لا تهمك . . . هذا عدم كرم منك ، ـــ تابعت أولغا ، ـــ هذا ليس حباً ، هذا . . .

ـــ أنانية ! أكمل أبلوموف دون أن يتجرأ على النظر إلى أولغا ، أو يتحدث إليها ، أو يرجو المغفرة .

ـــ اذهب ، ــ قالت بصوت هادىء ــ إلى حيث كنت تريد الذهاب .

نظر إليها ، فرأى أن عينيها قد جفّتا . كانت تنظر بتأمل إلى الأسفل وتصنع بمظلتها رسوماً على الرمل .

ـــ تمَدّدْ على ظهرك من جديد ــ أضافت بعد ذلك ، ــ لا تخطىء ، « لا تسقط في الهاوية » .

ـــ لقد سمّمت نفسي وسمّمتك ، بدلاً من أنْ نكون سعيدين . . .
تمتم أبلوموف مبدياً أسفه .

ـــ اشربْ كفاس : فلن تتسمم ، ــ قالت أولغا ساخرة .

ـــ أولغا ! هذا ليس سخاءً منك ! بعد أن عاقبت نفسي . . .

ـــ أجل ، إنك تعاقب نفسك وتحكم عليها بالكلام فقط ، فتلقي بنفسك في الهاوية كما كتبت . . . وتهب نصف حياتك ، لكن ما إنْ يأتي الليل ، حتى يبرز الشك عندك : فتصبح رؤوفاً بنفسك ، حذراً ، شديد الحرص ، تستشف المستقبل البعيد ! . . .

« يا لها من حقيقة ! كم هي بسيطة ! » فكر أبلوموف ، لكنه خجل أنْ يقول ذلك بصوت مسموع . لماذا لم يوضحها لنفسه بدلاً من أنْ توضحها له امرأة في مقتبل العمر ؟ كم كان إدراكها سريعاً لها ! فمنذ فترة وجيزة ، كانت ما تزال تنظر إلى الأشياء بعين الطفل .

ـــ لم يبق لدينا شيء نتحدث عنه ، ــ ختمت أولغا كلامها وهي

تنهض – وداعاً يا إيليا إيليتش ، كُنْ هادئاً ، فسعادتك تكمن في ذلك .

– أولغا ! أستحلفك بالله ألاّ تتركيني ! لا تطرديني بعد أن أصبح من جديد ، كل شيء واضحاً لديّ الآن . . . قال أبلوموف وهو يمسك بيدها .

– ما حاجتك بي ؟ – فأنت تشكّ بحبي لك وتعتبره خطأ : فأنا لا أستطيع أن أبدّد شكوكك ، فلربما كان خطأً – لا أعرف . . .

أفلتَتَ يدها فرُفِعَت السكين فوقه من جديد .

– كيف لا تعرفين ؟ ألا تشعرين ؟ – سأل من جديد والشك بادٍ على وجهه –

هل ترتابين ؟

– أنا لا أرتاب بشيء ، لقد قلت لك البارحة ما أشعر به ، لكنني لا أعرف ماذا سيحصل بعد عام . هل يمكن أنْ يعيش المرء بعد سعادته الأولى ، سعادة أخرى ، ثم سعادة ثالثة مثلها ؟ – سألت أولغا وهي تنظر إليه بملء عينيها – تكلّمْ فأنت أكثر مني تجربةً .

لكنه لم يكن يرغب بأن يؤيدها في فكرتها هذه ، فبقي صامتاً ، يهز بإحدى يديه غصناً من شجرة الأكاسيا .

– كلا ، فالمرء يحب مرة واحدة فقط ! – ردّد أبلوموف كالتلميذ الذي يكرر عبارة حفظها عن ظهر قلب .

– إنني أؤمن بذلك كما ترى ، – أضافت أولغا – ربّما كنتُ سأكفّ عن حبك ، لو أنّ الأمر يُفْهَمُ على غير هذا النحو ، ربما كنت سأشعر بالعذاب من جرّاء خطأي . وكذلك أنت ، ربما كنا سنفترق ! . . . لا ، لا . . . المرء لا يحب مرتين ، أو ثلاث فأنا لا أريد أنْ أصدّق هذا !

تنفّس أبلوموف الصعداء . فكلمة ربما هذه أثارت روحه ، فانساق وراءها متفكراً . لكنه كان يشعر بالإرتياح ، مع كل خطوة يخطوها ؛ ففكرة الخطأ . التي ابتكرها في الليل الفائت ، بَدَتْ له بعيدة جداً في مجاهل المستقبل . . . « ليس الحب وحده هكذا ، بل الحياة كلها أيضاً . . . خطرت الفكرة في ذهنه فجأة – فإذا اعتبرنا كل حالة خطأ ، فإنني أتساءل متى سيكون الصواب ؟ ماذا جرى لي ؟ كأنني عميت . . . »

– أولغا ، – قال أبلوموف ، – وهو يلامس خصرها بإصبعين (توقفت أولغا) ، – أنت أكثر ذكاءً مني .

هزت برأسها :

– كلا ، إنني أكثر بساطة وجرأة . مِمَّ تخاف ؟ لا بد أنك كنت تمزح ، عندما قلت بأنني قد أكفّ عن حبك ، أليس كذلك ؟ – سألت أولغا بثقة متشامخة .

– إنني لا أخاف الآن ! – قال أبلوموف بحيويّة – فمعك لا أخاف المستقبل !

— هذه الكلمات — قرأتها منذ أمد غير بعيد . . . عند — اعترضت أولغا فجأة وهي تلتفت إليه ، — لكنها وردت هناك على لسان امرأة تخاطب رجلاً . . .

احمرّ أبلوموف خجلاً .

— (متوسلاً) أولغا ! ناشدتك الله بأنْ يبقى كل شيء كما كان في الأمس ، فلن أخشى العثرات بعد الآن .

ظلت أولغا صامتة .

— اتفقنا ؟ — سأل أبلوموف بحياء .

استمرت أولغا في صمتها .

— حسن . إذا كنت لا تريدين الكلام . اعطني علامةً ما — . . . غصن ليلاك . . .

— أغصان الليلاك . . . انتهت ، هلكت ! — أجابت أولغا . . .— انظُرْ ، لم يبق منها إلاّ الأغصان الذابلة !

— انتهت ، هلكت ! — كرر أبلوموف ، وهو ينظر إلى أشجار الليلاك . — والرسالة انتهت ! —

قال أبلوموف على حين غرة .

هزت رأسها بالنفي . كان أبلوموف يسير وراءها وهو يفكر بالرسالة ، وبسعادة الأمس ، وبأشجار الليلاك الذابلة .

« في الحقيقة ، ها هي أشجار الليلاك تذبل ! - فكر أبلوموف .— لماذا كتبت هذه الرسالة ؟ لماذا لم أنم الليل كله ، لماذا لم أكتبها في الصباح ؟

إنني أشعر الآن ، من جديد ، بالهدوء والطمأنينه . . . (تثاءب أبلوموف) . . . كم أشعر بالرغبة في النوم . لو لا الرسالة ، لما كانت قد بكت ، ولبقي كل شيء كما كان في الأمس ؛ لولا الرسالة ، لكنا قد جلسنا هنا في هذا الممشى ينظر كلٌ منّا إلى الآخر ، ونحن نتحدث عن السعادة ، ولكان اليوم والغد مثل البارحة . . . » ثم تثاءب ملء فمه .

تصوّر فجأة : ماذا كان سيحدث . لو أنّ الرسالة حققّت غرضها ، لو أن أولغا اقتنعت بفكرته وخافت كما خاف هو ، من العثرات والمخاطر المستقبلية البعيدة ، لو أنها امتثلت لخبرته وفطنته كما يسميها ، ووافقت على الفراق ، وعلى أن ينسى كلّ منهما الآخر ؟

أعوذ بالله ! كنّا سنودّع بعضنا ، ثم أنتقل إلى شقة أخرى في المدينة ! وتبدأ الليالي بعدها تمر ببطء ويخيمّ الملل ؛ فيصبح الغد مضجراً مقيتاً ، واليوم الذي يليه لا يحتمل ، وهكذا تمرّ الأيام ، كل يوم أكثر مللاً من سابقه ، فيبدو كل شيء شاحباً سقيماً . . .

— كيف يمكن احتمال ذلك ؟ إنه الموت بعينه ! إليكم ما كان سيحدث ! كان سيمرض . فهو لم يكن يريد الفراق ، ولن يتحمله ، كان سيأتي إليها متوسلاً أن يلتقيا من جديد : « لماذا كتبت الرسالة ؟ » تساءل أبلوموف .

— أولغا سيرغييفنا ! — قال أبلوموف .

— ماذا تريد ؟

— يجب أن أضيف لاعترافاتي السابقة ، اعترافاً ، واحداً أيضاً ...

– ما هو ؟

– لم تكن الرسالة ضرورية مطلقاً . . .

– هذا ليس صحيحاً ، كانت ضرورية – قالت أولغا بحزم .

التفتت إليه وضحكت عندما رأته وهو يحاول أن يطرد النعاس عن وجهه فجأة ، وقد اتسعت عيناه من الدهشة .

– ضرورية ؟ – كرر ببطء ، وهو يحدّق نظرته المليئة بالدهشة في ظهرها ، وتلك الدموع ماذا تعني ، هل تعني اللوم ؟ أيمكن أن تكون مكراً ؟ لكنّ أولغا ليست ماكرة : فقد رأى ذلك بوضوح .

فالنساء ضيقات الأفق ، هنّ اللواتي يقتنعن بالمكر فقط ويمارسنه ، فيثرن لنقص في عقولهن بواعث ومحركات الحياة اليومية ويستخدمنها لخدمة غاية في نفوسهن ، عن طريق المكر والتحايل ، ويَحِكْنَ سياستهن المنزلية كما يَحِكْنَ المطرزات ، دون أن يلاحظن ، كيف تستقر وتتوضع الاتجاهات الرئيسية للحياة من حولهن ، وإلى أين تتجه ، وأين تلتقي .

فالمكر كقطعة النقود الصغيرة ، لا تستطيع أن تشتري بها الكثير . يمكن لمن يتّبعه أنْ يتعيّش عليه ، كما يتعيشّ على قطعة النقود الصغيرة ساعة ، ساعتين ، فيحجب به هناك شيئاً ما ، ويضلّل ويحورّ شيئاً آخر هنا ، لكنه لا يستطيع استشراف المستقبل البعيد ، واستخلاص المغزى الحقيقي للأحداث الهامة الضخمة .

المكر قصير النظر : فهو يرى جيداً في حدود أنفه فقط . لكن

لا يستطيع أن يبصر بعيداً ، لذلك غالباً ما يقع في نفس المصيدة ، التي نصبها للآخرين . فأولغا ذكية ، استطاعت أنْ تحلّ مسألة اليوم بمنتهى السهولة والوضوح . فهي تستطيع أنْ تحلّ بنفس الطريقة كلّ مسألة تواجهها ! إنها تدرك على الفور المعنى المباشر للحدث ، فتعالجه بأسلوب ناجع قويم ، وتسلك طريقاً مباشرة للإقتراب منه .

بينما المكر كالفأر : يسلك طريقاً ملتوية ، يختبىء ويتوارى . . . لكنّ طبع أولغا مختلف تماماً .

— لماذا الرسالة ضرورية ؟ — سأل أبلوموف .

— لماذا ؟ كررت أولغا ، ثم التفتت نحوه ، بسرعة ، بوجه منفرج الأسارير ، مستمتعة بمقدرتها على إرباكه في كل خطوة تخطوها . لأنك ، — بدأت أولغا حديثها بتوقّف بين الكلمات — لم تنم الليل ، فكتبت كل شيء من أجلي ، فأنا أيضاً أنانية ! هذا أولاً . . .

— لماذا كنت تلومينني منذ قليل ، ما دمت توافقينني الآن الرأي ؟— قال أبلوموف مقاطعاً .

— لأنك اختلقت الآلام . فأنا لا أختلقها مثلك ، بل تحدث من تلقاء نفسها ، فأستمتع بزوالها ، أما أنت فتعمل على تهيئتها والإستمتاع بها مسبقاً . يا لك من شرير ! من أجل هذا وجّهت لك اللوم . أقول ذلك لأنّ الفكرة والعاطفة تعبثان في رسالتك . . . فأنت لم تمض هذا الليل والصباح على سجيتك ، بل كما يريد صديقك وأنا . . . — هذا ثانياً ، ثالثاً . . .

اقتربت منه كثيراً مما جعل الدم يتدفق إلى قلبه ورأسه بسرعة ، وبدأ يتنفس بصعوبة واضطراب . أما أولغا ، فكانت تنظر إلى عينيه مباشرة .

— ثالثاً ، لأنّ رسالتك هذه تعكس كالمرآة رقتك وحذرك واهتمامك بي ، وخوفك على سعادتي ، ووجدانك النقي الطاهر . . . لقد عكست رسالتك هذه كل السمات ، التي دلّتني عليها أندريي إيفانيتش ، السمات التي أحببتها فيك والتي جعلتني أنسى كسلك . . . وخمولك . . . فأنت لست أنانياً يا إيليا إيليتش ؛ إنك لم تكتب مطلقاً من أجل أن نفترق ، — فأنت لم تكن تريد ذلك ، بل لأنك كنت تخشى أنْ تخدعني . . . فالطهارة والنبل كانا يتكلمان في رسالتك ، فلو كُتِبَت الرسالة بطريقة أخرى ، تؤذي مشاعري . لما كنت قد بكيت — بدافع الكبرياء على الأقل ! أرأيت لماذا أحبك ، ولماذا لا أخاف الخطأ : فأنا لم أخطىء بك . . .

بدت أولغا مشرقة ، متألقة في عيني أبلوموف وهي تتكلم . كانت عيناها تشعّان ببريق الحب الساحر ، ببريق الوعي والثقة بالمقدرة ؛ فقد ظهرت بقعتان ورديتان على وجنتيها .

كان أبلوموف هو السبب في ظهورهما. فحركة قلبه الطاهر النقي هي التي أجّجت في أعماق نفسها هذه النار ، هذا البريق ، هذا الوَجْد .

— أولغا ! . . . إنك أفضل النساء قاطبة ، فأنت أحسن امرأة في العالم ! —

قال أبلوموف بإعجاب عظيم . ثم مَدّ يديه . وقد فقد اتزانه ومال نحوها .

– ناشدتك الله . . . أنْ تمنحيني قبلة واحدة ، عربوناً للسعادة ، التي لا أستطيع وصفها . – همس أبلوموف ، كما لو أنه في حلم .

رجعت على الفور خطوة واحدة إلى الوراء . وقد طار البريق والتورد من وجهها ؛ بينما أصبحت عيناها الوديعتان تنذران بالخطر .

– لن أسمح بهذا أبداً ، أبداً ! لا تقترب ! – قالت أولغا بخوف ، لا بل بذعر ، وقد سحبت يديها ، فأصبحت المظلة تفصل بينهما ، ثم وقفت متسمرّة . جامدة لا تتنفس ، في وضع ينذر بالخطر ، وهي تلقي نظرة غاضبة عليه .

هدأ أبلوموف فجأة : فلم تكن أولغا الوديعة هي التي تقف أمامه ، بل آلهةالكبرياءوالغضب المهانة ، بشفتيهاالمزمومتين ، والشرر يتطاير من عينيها.

– اعذريني ! . . . تمتم أبلوموف وهو مرتبك مسحوق .

ثم استدارت بهدوء ومضت في سيرها ، وهي تنظر شزراً وبارتياب عبر كتفها ، لترى حالته . أما أبلوموف فقد كان عدَماً : كان يسير متثاقلاً ، يجرّ ذيله كالكلب ، الذي أُشبع ضرباً بالأقدام .

كانت أولغا تسرع في سيرها ، لكنها حبست ابتسامتها وأخذت تسير متمهلة ، عندما شاهدت وجهه ، بيد أنها كانت ترتعش في بعض الأحيان . كانت البقعة الوردية تظهر على إحدى وجنتيها تارة ، وعلى الوجنة الثانية تارة أخرى .

كانت أسارير وجه أولغا تزداد انفراجاً ، كلما قطعت في سيرها مسافة أكثر ، وكانت وتيرة تنفسها تخفّ وتهدأ رويداً رويداً ، فاستعادت من جديد ، مشيتها المنتظمة . لقد أدركت كم هي مقدسة بالنسبة

لأبلوموف كلمة « أبداً » التي تلفظت بها ، فأخذ غضبها يهدأ رويداً رويداً ، ليحلّ مكانه الأسى والشفقة . ثم أخذت تتمهّل في سيرها أكثر فأكثر . . . كانت تريد أنْ تلطّف غضبها ، فابتكرت ذريعة للحديث .

« لقد أفسَدْتُ كلّ شيء ! ذلك خطأ حقيقي ! « أبداً ! »
يا إلهي ! ها هي أشجار الليلاك قد ذبلت فأصبحت باهتة — فكّر أبلوموف وهو ينظر إلى أشجار الليلاك المتدلّية ، — فالأمس أصبح باهتاً ، والرسالة أصبحت باهتة أيضاً ، وهذه اللحظة ، الأجمل في حياتي ، التي سمعت فيها لأول مرة ، امرأة تقول لي ، بصوت كأنّه آت من السماء ، بأنّ الخير والطيب يعيشان في داخلي ، هذه اللحظة الرائعة أصبحت باهتة أيضاً ! . . . »

نظر إلى أولغا ، فرآها واقفة تنتظره وقد غضّت بصرها .

— أعطني الرسالة ! . . . قالت بصوت خافت .

— لقد ذبلت فأصبحت باهتة ! — أجاب أبلوموف بأسى ، وهو يعطيها الرسالة .

اقتربت منه ، من جديد ، وهي تطرق رأسها أكثر ؛ أما أجفانها فكانت مسدلة تماماً . . . كانت ترتجف تقريباً . ناولها الرسالة ، لكنها لم ترفع رأسها ولم تبتعد .

— لقد أفزعتني ، — أضافت برقة .

— اعذريني يا أولغا ! — تمتم أبلوموف .

صمتت أولغا .

– كم هي مخيفة كلمة « أبداً ! . . . » – قال أبلوموف بأسى ، ثم تنهد .

– ستذبل ! – همست أولغا بصوت لا يكاد يُسْمَع وقد احمرت خجلاً ، ثم ألقت عليه نظرة خجولة رقيقة ، وأمسكت بكلتا يديه وضغطت عليهما بقوة ، ثم وضعتهما على قلبها .

– اسمع كيف يخفق ! – قالت أولغا – . لقد أفزعتني !

ثم استدارت دون أن تنظر إليه ، وانطلقت تركض على الطريق ، وهي ترفع فستانها قليلاً من الأمام .

– إلى أين أنت مسرعة هكذا ؟ إنني متعب ، فأنا لا أستطيع أنْ أتبعك . . .

دعني . إني أركض لأغنّي ، لأغنّي ! – كررت أولغا بإلحاح ، وقد تورّد وجهها . – فأنا أشعر بضيق في صدري ، وأحسّ بالألم !

بقي مكانه وراح يتابعها طويلاً بنظره كما يتابع ملاكاً طائراً .

« هل ستذبل هذه اللحظة وتصبح باهتة شاحبة ، » – فكر أبلوموف من جديد ، ها هو ذا الأمس قد أدبر ، فأدبر معه الليل بأشباحه وكوابيسه. أجل ! ستدبر هذه اللحظة أيضاً ، كما أدبرت وذبلت أشجار الليلاك . لكن الصباح كان ينبلج ، في الوقت الذي كان فيه الليل يدبر . . .

ماذا يعني هذا ؟ – قال أبلوموف بصوت مسموع ، – الحب

أيضاً . . الحب ؟ كنت أعتقد أن الحب كاليوم القائظ ، لا شيء يتحرك أو يتنفس فيه : لكنه لا يعرف الهدوء ، فهو يتحرك دونما توقف ، إلى الأمام ، إلى الأمام ... « كما هو شأن الحياة كلها » ، على حدّ تعبير شتولتس . فلم يولد بعد عيسى نافين ، الذي كان يمكن أن يخاطبه قائلاً : « توَقّفْ ولا تتحرك ! » . ماذا سيحدث غداً ؟ — سأل نفسه بقلق ، ثم توجه إلى البيت بتأمل وبتكاسل .

وبينما كان يمرّ بالقرب من نوافذ أولغا ، سمع كيف كان صدرها المتضايق يطمئنّ ويستريح على ألحان شوبرت ، كما لو أنها تنتحب من السعادة .

يا إلهي ! ما أجمل الحياة في هذا العالم !

— ١١ —

عثر أبلوموف في البيت على رسالة من شتولتس ، تبتدىء وتنتهي بهذه الكلمات : « إمّا الآن ، أو أبداً ! » كانت مليئة باللوم والتأنيب على جموده وقلة حركته ، تتضمن بعد ذلك دعوة للسفر إلى سويسرا حتماً ، حيث كان شتولتس يستعد للتوجه إليها ، ومنها إلى إيطاليا .

وفي حالة عدم الإستجابة لذلك ، فإن شتولتس يحثّ أبلوموف على الذهاب إلى القرية ، كي ينظّم أموره ويحرّك حياة الفلاحين المهملة ، ويدقّق ويحدد دخله ، ويشرف أثناء وجوده على بناء المنزل

الجديد . « تَذَكَّرْ اتفاقنا : إما الآن أو أبداً ! » ، — ختم شتولتس رسالته .

الآن ، الآن ، الآن ! — كرر أبلوموف — فأندريي لا يعرف شيئاً عن العواطف ، التي هبّت في حياتي وتأجّجت في أعماقي . ما هي الأعمال ، التي تشغل شتولتس الآن ؟ هل أستطيع أن أكون مشغولاً يوماً بشيء ، أكثر مما أنا منشغل به الآن ؟ ليت شتولتس يجرب ذلك ! يقرأ المرء عن الفرنسيين والإنكليز ، فيحسب أنهم يعملون باستمرار ، ولا يفكرون إلا بالعمل ! لكنهم يجوبون أوروبا كلها ، حتى أن بعضهم يسافر إلى آسيا وإفريقيا لمجرد النزهة فقط ، دون أنْ يكون لديهم عمل : فمنهم من يرسم ألبوماً أو ينقّب عن الآثار ، بينما يصطاد البعض الآخر السباع أو يمسك الأفاعي . أو تراهم يجلسون في منازلهم وهم يتنعّمون بالتكاسل والخمول ، فيتناولون طعام الإفطار ، ويتغدّون مع أصدقائهم ، ومع النساء — ذلك هو عملهم كله ! هل حُكِم عليّ بالأشغال الشاقة ؟ فأندريي يردّد باستمرار : « اعمَلْ ، اعمَلْ كالحصان ! » . من أجل أي شيء ؟ فأنا شبعان ، مكتسٍ .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد سألتني أولغا من جديد ، إنْ كنت قد عقدت العزم على السفر إلى أبلوموفكا . . .

بدأ يكتب ويقلّب الأمور ، حتّى أنه ذهب إلى المهندس المعماري . سرعان ما بسط على الطاولة الصغيرة مخطط البيت والحديقة . البيت عائلي فسيح ، له شرفتان .

« هنا أنا ، هنا أولغا ، هنا غرفة النوم ، هنا غرفة الأطفال . . . — فكر أبلوموف وهو يبتسم . والفلاحون ، الفلاحون . . . — طارت البسمة وتغضّن جبينه . — ها هو ذا جاري يكتب ويدخل في التفاصيل ، فيتحدث عن الحراثة والمحصول . . . يا له من ملل ! كما أنه يقترح بأنْ نقوم على نفقتنا المشتركه ، بشقّ طريق يصل قريتنا بالبلدة التجارية الكبيرة ، وبتشييد جسر فوق النهر ، كما يطلب ثلاثة آلاف روبل كي نعيد تنظيم أبلوموفكا وترتيبها من جديد . . . لكن ، كيف لي أنْ أعرف ، إنْ كان ذلك ضرورياً ؟ . . . هل سأحصل من هذا على فائدة ؟ هل يخدعني ؟ لنفترض أنه إنسان شريف : فشتولتس يعرفه ، لكن شتولتس يمكن أنْ ينخدع من قبل الآخرين أيضاً ، فأكون قد بدّدت نقودي ! ثلاثة آلاف — مبلغ كبير ! من أين أحصل عليها ؟ كلا ، إنه لأمر رهيب ! يكتب جاري أيضاً ، بأنْ أنقل بعض الفلاحين إلى الأراضي البور ، ويطلب رداً سريعاً — فكل شيء يجب أنْ يتمّ بسرعة حسب وجهة نظره . فهو سيتولّى إرسال الوثائق لرهن العقارات في المجلس البلدي . « أرسلْ لي توكيلاً ، واذهبْ إلى غرفة الزراعة للمصادقة عليه » — ذلك ما يريده ! لكنني لا أعرف أين تقع الغرفة المذكورة ، ولا كيف ومتى تفتح أبوابها » .

انقضى اسبوع آخر ولم يرسل له أبلوموف جواباً ، حتى أنّ أولغا سألته في هذه الأثناء ، إنْ كان قد ذهب إلى غرفة الزراعة . كما أرسل شتولتس منذ مدة قريبة رسالة له ، وأخرى لأولغا ، يسأل فيهما : « ماذا يفعل ؟ » .

تمكنت أولغا بالمناسبة ، أنْ تراقب نشاط صديقها من الناحية الظاهرية فقط ، وفي المجال المتيسر لديها . هل يبدو فرحاً ، هل يسافر إلى كل مكان عن طيب خاطر ، هل يتواجد في الساعة المتفق عليها في الغابة ، إلى أي حدٍّ يبدو عليه الإهتمام بأخبار المدينة وبالأحاديث العامة .

أكثر ما كانت تتحمس له ، هو أنْ تتأكد إن كانَ أبلوموف قد صرف نظره واهتمامه عن هدف الحياة الرئيسي ، أم لا . وعندما تسأله عن غرفة الزراعة ، فإنها تفعل ذلك فقط من أجل أنْ تخبر شتولتس فيما بعد ، شيئاً ما عن أحوال صديقها .

الصيف في ذروته : الشهر تموز والطقس رائع . أبلوموف لا يفارق أولغا تقريباً . في الأيام الصاحية لا يبرحان الحديقة ، وعندما يشتد القيظ في الظهيرة ، يغوصان في أعماق الغابة بين أشجار الصنوبر ، فيجلس عند قدميها ويقرأ لها ، بينما تطرز أولغا قطعة القماش خصيصاً له. الصيف حار . بيد أنّ سحابات عابرة تظهر أحياناً ، لكنها ما تلبث أنْ تنقشع .

وإذا ما رأى أحلاماً مزعجة ، وإذا ما قرعت قلبه الشكوك ، فإن أولغا تقف كالملاك لحراسته والإهتمام به ، فتنظر إلى وجهه بعينيها المتألقتين وتُخرج الشكوك والمخاوف من قلبه ، — فيعود من جديد ليصبح هادئاً ، وتتدفق العواطف من جديد أيضاً بسلاسة وانسياب ، لتعكس كالنهر زخارف السماء الجديدة .

أصبحت نظرة أولغا للحب و لكل شيء أكثر وضوحاً وتحديداً .
فهي تنظر إلى ما حولها بثقة أكبر من السابق ، دون أن ترتاب من المستقبل أو تخاف منه ؛ فتتفتّح جوانب ذهنها الوقاد وتتكشّف السمات الجديدة لطبعها . كانت سجيتها الشاعرية متعددة الجوانب تتبدّى بعمق تارة ، وبوضوح تدريجي طبيعي تارة أخرى . . .

كانت شخصية أولغا تتسم بنوع من الإصرار ، الذي لم يتغلب على أخطار المستقبل كلها فحسب ، بل وحتّى على كسل وخمول أبلوموف .
ما إن تصمّم عزيمتها على فعل شيء ، حتى يجري العمل على قدم وساق.
فالمرء يحس بذلك . وإذا لم يحس به ، فلا بد أن يرى ، أنّ هنالك شيئاً يشغلها . لاتتركه أو ترتبك أمامه ، بل تستمر في معالجته إلى أن تحصل عليه .

لم يستطع أبلوموف أن يدرك من أين لها مثل هذه القوة والحصافة في فهم ومعرفة ما ينبغي عمله و كيف ، إزاء أية مسألة تواجهها .
« سبب ذلك ، هو أنّ أحد حاجبيها مرتفع قليلاً إلى الأعلى ، حيث توجد فوقه ثنية دقيقة للغاية ، لاتكاد تلحظ . . . وهناك ، في هذه الثنية يستقر إصرارها »

ومهما بدا وجهها هادئاً متألقاً ، فان هذه الثنية لاتنبسط ، كما أنّ حاجبها لاينفرد بانتظام . لكن المرء لايلحظ أية قوة ظاهرة ، أو نزعات عنيفة أو تصرفات قاسية في شخصيتها . فالمثابرة في عزيمتها ، البادية في شخصيتها لايخرجانها قيد أنملة عن دائرة الرقة الأنثوية .

فهي لاتريد أن تكون لبوةً تجرح بكلامها القاسي عاشقاً أخرق ، أو تبهر بحدة ذهنها وتوقّده الناس كلهم ، ليتعالى من أحد الأركان هناك صوت يصرخ : « مرحى ! مرحى ! » .

حتى ان شخصيتها لاتخلو من الوجل ، وهي الصفة الملازمة لكثير من النساء : صحيح أنها لاترتعد عندما تشاهد جرذاً . ولا تفقد رشدها من صوتٍ أحدثه سقوط كرسي ، لكنها تخشى الذهاب أبعد من البيت ، وتحوّل طريقها عندما تشاهد فلاحاً يبدو لها مريباً . وتغلق النافذة في الليل . كي لايتسلل اللصوص . — فذلك كله يدخل في جوهر الطبيعة الأنثوية .

إنها بالغة الرقة والإحساس ، متعاطفة مع الآخرين ، رؤوفة بهم ! ليس صعباً إثارة الدموع في عينيها . فهي رقيقة في حبها ، تبدي في علاقاتها مع الآخرين اللطف والتعاطف والاهتمام الزائد — بكلمة واحدة ، إنها امرأة !

تلمع شرارة السخرية في حديثها أحياناً ، فيتلألأ ذهنها الوديع الطيب الوقاد ، وتبرز كياستها الفائقة ، فيستسلم المرء لها بسرور وطيب خاطر !

لكنها بالمقابل ، لاتخشى الريح الثاقبة ، فتخرج عند الغسق بثياب رقيقة دون أنْ تأبه بالبرد ! إنها تتألق صحة وعافية ، تأكل بشهية ، ولديها أطباق مفضلة تعرف كيف تحضرها .

كثيرات هنّ النساء ، اللواتي يعرفن ذلك كله ، لكنْ ما أكثر

النساء اللواتي لايعرفن ما ينبغي عمله في هذه الحالة أو تلك ، وإن كن يعرفن ، فسماعاً أو عن ظهر قلب ، لكنهن لايعرفن لماذا يتصرفن بهذه الطريقة ، لابتلك ، بل يكتفين بالقول ، بأن عماتهن وخالاتهن وبنات عماتهن وخالاتهن يفعلن هكذا . . .

حتى أن الكثيرات من النساء لايعرفن ماذا يردن ، وإذا ماقررن شيئاً ، فانهن يفعلن ذلك بفتور وتردد ، فيقلن في أعماقهن ، ربما يكون ذلك ضرورياً ، وربما يكون غير ضروري . لابد أن سبب ذلك يعود إلى أن حواجبهن مستقيمة ، لاتوجد فوقها ثنايا .

نشأت بين أبلوموف وأولغا علاقات خفية غير منظورة بالنسبة للآخرين . فكل نظرة وكلمة تبدر منهما أمام الآخرين ، مهما تكن بسيطة ، كانت تملك بالنسبة لهما معنى خاصاً . كانا يجدان في كل شيء إثارة للحب .

وعلى الرغم من الثقة بالنفس ، كانت أولغا تتهيج عندما تسمع حول الطاولة أحداً مايروي قصة حب شبيهة بقصتها ، وبما أن قصص الحب جميعاً متشابهة ، فقد كانت أولغا تتورد غالباً وتحمر خجلاً .

ولدى التلميح إلى ذلك أثناء تناول الشاي ، كان أبلوموف يخطف من شدة ارتباكه كمية كبيرة من الخبز المجفف والسكاكر ، بطريقة تجبر أياً كان على الضحك .

أصبحا حساسين حذرين . لم تكن أولغا تقول لعمتها أحياناً ، بأنها قد شاهدت أبلوموف ، أما الأخير فكان يعلن في البيت ، بأنه ذاهب إلى المدينة ، في الوقت الذي يذهب فيه إلى الحديقة .

بيد أنه ، مهما بدا ذهن أولغا صافياً ، ومهما بدت نظرتها واعية مدركة لما حولها ، ومهما تألقت عافية ونضارة ، فقد أصبحت تظهر عندها بعض الأعراض المَرَضية الجديدة . كان القلق ينتابها من حين لآخر ، فتقف متأملة ساهمة ، دون أن تجد تفسيراً لذلك .

كانت أولغا أحياناً تستند بكسل على كتف أبلوموف وتسير متأبطة ذراعه في ظهيرة يوم حار ، فتمشي غريزياً وقد أعياها التعب ، وهي صامتة باستمرار ، فتختفي حيويتها ، وتصبح نظرتها متعبة ، خاملة جامدة ، مركزة على نقطة واحدة ، في اتجاهٍ ما ، وكان الكسل يمنعها من أن تحوّلها لتتأمل شيئاً ما آخر .

أصبحت أولغا تشعر بشيء من الإنقباض النفسي ، كما بدأت تشعر بشيءٍ ما يثقل صدرها ويزعجها . كانت تنزع شالها عن كتفها ، لكن هذا لم يكن يساعدها أيضاً ، فهي ما تزال تحس بالضيق والتعب . فتتملكها الرغبة بأن تتمدد تحت شجرة وتستلقي ساعات بكاملها .

أُصيب أبلوموف بالذهول ، فأخذ يُرَوِّح وجهها بغصن ، لكنها أومأت إليه وهي تتألم ، بإشارة تنم عن نفاذ صبر ، كي يبعده عنها .

تنفست بعد ذلك فجأة ، ثم تلفتت بوعي إلى ما حولها ونظرت إليه ، فضغطت على يده وابتسمت ، ثم ظهرت الحيوية والبسمة من جديد ، وغدت تسيطر على نفسها ٥

ذات مرة ، في إحدى الأمسيات ، شعرت أولغا بوجه خاص ، بهذه الحالة المقلقة ، التي تنتاب المحبّين عادة ، فبدت في عيني أبلوموف بمظهر جديد .

كان الجو خانقاً حاراً ، الريح الدافئة تهبّ على الغابة محدثة صوتاً خافتاً ؛ السماء ملبدة بالغيوم الكثيفة . أصبح الجو مكفهراً عابساً قاتماً .

– سيهطل المطر ، – قال البارون ، ثم ذهب إلى البيت .

مضت العمة إلى غرفتها . ظلت أولغا تعزف طويلاً على البيانو ، لكنها توقفت عن العزف بعد ذلك .

– لا أستطيع متابعة العزف ، فاصبعي ترتجف ، كما أشعر ببعض الضيق – قالت أولغا لأبلوموف .

– هيا نقوم بنزهة في الحديقة .

سارا طويلاً في ممرات الحديقة يداً بيد ، وهما يلزمان الصمت . كانت يدها نديّة ناعمة .

كانت الأشجار والشجيرات تختلط وتمتزج في كتلة مظلمة داكنة ، المرء لا يستطيع أنْ يبصر شيئاً على بعد خطوتين ، فالممرات الرملية فقط ، كانت تتلوّى كخط متعرج ضارب إلى البياض .

أخذت أولغا تنظر بإمعان إلى الظلام ، ثم التصقت بأبلوموف . كانا يتجوّلان صامتين .

– إنني أشعر بالخوف ! – قالت أولغا وهي ترتعش ، عندما كانا يتلمّسان طريقهما في الممشى الضيق بين جداري الغابة الداكنين المظلمين .

– ما بك ؟ – سأل أبلوموف – لا تخافي يا أولغا ، فأنا معك .

– إنني أخاف منك أيضاً ! – قالت هامسة . – لكني أشعر بكيفيةٍ ما ، أنّ هذا الخوف جميل ! قلبي يكاد يتوقف عن الخفقان . أعطني يدك ، ضعها عليه ، لترى كيف ينبض .

كانت ترتعش وهي تتلفّت حولها .

.. ألا ترى ، ألا ترى ؟ — همست أولغا وهي ترتعش ، ثم أمسكت كتفيه بكلتا يديها وبشدة . . . ألا ترى أحداً يلوح في الظلام ؟ —

أخذت تلتصق به وهي تضغط عليه أكثر .

— لا يوجد أحد . . . — قال أبلوموف ، لكنّ بدنه كان يرتعش.

— اغمضْ عينيّ بسرعة . . . وبشدة ! — همست أولغا . . لكنني لم أعد أشعر الآن بشيء . . . إنها الأعصاب ، أضافت باضطراب ها قد لاح من جديد ! انظر ، من هذا ؟ فلنجلس على المقعد . . .— أخذ يتلمس بيده بحثاً عن مقعد ، فوجده وأجلسها عليه .

— لنذهب إلى البيت يا أولغا ، — حاول أبلوموف إقناعها ، — إنك منحرفة الصحة .

أسندت رأسها على كتفه .

كلا ، فالهواء هنا أكثر إنعاشاً ، — قالت أولغا ، — أشعر بضيق هنا ، عند القلب . كان نفسها يداعب وجنته بحرارة .

لمس رأسها بيده . . فكان ساخناً . كان صدرها يتنفس بصعوبة ، ثم يستريح قليلاً ، بعد زفرات عديدة .

— أليس من الأفضل أنْ نذهب إلى البيت ؟ — قال أبلوموف بقلق — يجب أنْ تتمددي وتستريحي . . .

— كلا ، كلا ، اتركني ، لا تحركني . . . — قالت أولغا بفتور

همة ، وبصوت لا يكاد يُسْمَع ، – أحس ّ أن ّ شيئاً يحترق هنا . . . –
كانت تشير إلى صدرها .
– يستحسن أنْ نذهب إلى البيت . . . – استحثها أبلوموف .
– كلا ، تَمَهّلْ . سينتهي كل شيء بسلام . . .
كانت تضغط على يده وتنظر عن كثب إلى عينيه أحياناً ، فتتأمله طويلاً وهي صامتة
بدأت تبكي بصوت خافت في البداية ، ثم أجهشت في البكاء بعد ذلك . ارتبك أبلوموف وهو لا يعرف كيف يتصرّف .
– ناشدتك الله أنْ نذهب إلى البيت يا أولغا ! – قال أبلوموف بكثير من القلق .
لا بأس ، – أجابت أولغا وهي تنشج في البكاء ، – دعني أبكي . . . فالنار تنطفىء عبر الدموع ، سأشعر بعدها بالراحة أكثر ، المسألة مسألة أعصاب . . .
كان يسمع في الظلام ، كيف كانت تتنفس بصعوبة ، وكان يحس بدموعها الحارة السخية تسيل على يده ، وهي تضغط عليها بتشنج .
لم يحرك إصبعاً ، ولم يتنهد . كان رأسها مستنداً على كتفه وأنفاسها الحارة تداعب وجنتيه ... ارتعش أبلوموف أيضاً ، لكنه لم يجرؤ على ملامسة وجنتيها بشفتيه .
صارت أولغا بعد ذلك تهدأ أكثر فأكثر ، وأصبح تنفسها منتظماً ... ثم هدأت تماماً – ظن ّ أبلوموف أنها نامت ، لذلك كان يخشى أنْ يتحرك .

ــ أولغا ! ــ ناداها بصوت هامس .

ــ ماذا ؟ ــ أجابت بصوت هامس أيضاً ، ثم تنفست بصوت مسموع . ــ كل شيء . . . مرّ بسلام الآن . . . ــ قالت بفتور همّة ، ــ لقد استرحت الآن ، إنني أتنفس بسهولة .

ــ لنذهب ، ــ قال أبلوموف .

ــ لنذهب ! ــ كررت أولغا بدون رغبة . ــ حبيبي ! ــ همست بعد ذلك بنعيم وهي تضغط على يده ، ثم ظلت مستندة على كتفه وهي تترنّح في مشيتها ، حتّى وصلت إلى البيت .

نظر إليها في الصالة : كانت ضعيفة شاحبة ، لكنها كانت تبتسم ابتسامة غريبة ، غير واعية ، كأنها تحت تأثير الحلم .

أجلسها على الأريكة ، ثم جثا على ركبتيه بالقرب منها وقبّل يدها مرات عديدة برقة متناهية . ظلت تنظر إليه والبسمة ذاتها على محياها . ثم أفلتت يديها ، وشيّعته بنظراتها حتّى الباب .

التفت نحوها وهو على وشك أنْ يخرج : كانت تنظر إليه والتعب بادٍ على وجهها . البسمة لا تفارقها ، وكأنها لا تستطيع أنْ تتغلب عليها . . .

انصرف وهو مستغرق في التفكير ، فقد شاهد في مكانٍ ما هذه الابتسامة ؛ تذكّر لوحة ، كانت تمثل صورة امرأة على وجهها مثل هذه الابتسامة . . . لكنها لم تكن صورة كارديليا . . .

أرسل في اليوم التالي يستفسر عن صحتها .

كان الجواب : « إنها بصحة جيدة والحمد لله ، فقد أكلت اليوم ، وهي تدعوك للذهاب مساءً لحضور الألعاب النارية ، على مسافة خمسة فراسخ من البيت » .

لم يصدّق ذلك ، ذهب بنفسه ليتأكد حقيقة الأمر . كانت أولغا نضرة كالزهرة : عيناها تشعّان بريقاً وحيوية ، كما ظهر التورد على وجنتيها ، أما صوتها فقد أصبح رنّاناً ! ، لكنها ارتبكت فجأة ، حتى أنها كادت أنْ تصرخ عندما اقترب أبلوموف منها وسألها : « كيف تشعرين بعد كل ما جرى البارحة ؟ » .

— كان مجرد انفعال عصبي بسيط — قالت وهي تسرع في الكلام ، — عمّي تقول بأنه يجب أن أنام باكراً أكثر . بدأت أشعر بهذه الحالة منذ مدة قريبة . . .

استدارت دون أنْ تكمل كلامها ، كأنّها كانت تطلب الرحمة ، لكنها لم تكن تعرف سبب ارتباكها . ما هو يا ترى سبب انزعاجها وارتباكها عندما تذكرت ليلة الأمس ؟

كانت تشعر بالخجل من شيءٍ ما ، فهي حزينة على نفسها وعلى أبلوموف . بدا لها ، أنّ أبلوموف أصبح أكثر رقة وأقرب إلى قلبها ؛ أصبحت تشعر نحوه بشوق يصل حدّ الدموع ، كأنّ نوعاً من التقارب الخفي أصبح يجذبهما منذ ليلة البارحة .

لم تنم كثيراً ، وفي الصباح ظلت تروح وتغدو مدة طويلة في الممشى ، من البيت إلى الحديقة وبالعكس ، وهي وحيدة مضطربة ،

تفكرُ وتفكر ، تائهة في تخميناتها وحدسها . تعبس تارة ، وتشرق فجأة ، تارة أخرى ، ثم تبتسم لشيء ما ، لكنها لم تستطع أن تتوصل إلى قرار أو نتيجة .

« آه يا صونيا ! — فكّرت بأسى . — كم أنت سعيدة ! ليتني أستطيع أنْ أصل الآن إلى قرار ! » .

— وأبلوموف ؟ لماذا كان جامداً صامتاً معها البارحة ، في الوقت الذي كانت أنفاسها تداعب وجنته ، ودموعها الحارة تسيل على يده ، فقد أوصلها إلى البيت وهو يحملها في أحضانه تقريباً ، ويسمع همس قلبها غير المحتشم ؟ . . . ماذا كان يمكن أن يفعل شخص آخر مكانه ؟

فالآخرون ينظرون بجرأة متناهية . . .

مع أنّ أبلوموف أمضى شبابه وسط شبيبة تدّعي معرفة كل شيء ، وسط شبيبة حسمت موقفها منذ زمن بعيد إزاء مسائل الحياة كلها ، وسط شبيبة لا تثق بشيء وتحلّل الأمور ببرود وفطنة ، فإنّ الإيمان بالصداقة والحب والشرف قد ترسخ في أعماقه ، فمهما يخطىء قلبه ويتعذب . فإنّ أساس الخير والإيمان والثقة يبقى راسخاً فيه لا يتزعزع . كان يؤلّه في أعماقه المرأة الشريفة الطاهرة . فيسلّم بسلطتها وبحقها عليه ، ويضحي من أجلها .

لكن الحزم كان ينقصه . كي يعترف علناً بنظرية الخير واحترام الطهارة . كان يرتوي ببطء من شذاها وأريجها ، لكنه كان ينضم أحياناً ، على المكشوف ، لجوقة المستهترين ، الذين يرتعدون حتى من

الإشتباه بالعفة ومن احترامها ، ويضيف كلمته الرعناء الطائشة إلى قاموس جوقة المشاغبين .

لم يدرك يوماً بوضوح المضمون الثر لكلمات الخير والحقيقة والطهارة ، المتداولة في كلام الناس الاعتيادي ، ولا المنعطف العميق الذي تحدثه ؛ لم يعتقد بأنّ ما يقال بحيوية وبصوت مرتفع ، دونما خجل مزيف ، بل بجرأة ، لن يضيع سدى ، بل سيغوص كاللؤلؤة في لجة الحياة الاجتماعية ، وسيجد محارة يستقر فيها .

يتلعثم الكثيرون عندما ينطقون الكلمة الطيبة ويحمرون خجلاً ، لكنهم يلفظون الكلمة الشائنة بجرأة وبصوت عال ، دون أن يفترضوا ، لسوء حظهم ، بأنها لن تذهب أيضاً سُدَىً ، بل ستترك أثراً كبيراً من الغضب والغيظ ، لا يمكن استئصالهما في بعض الأحيان .

بالمقابل ، كان أبلوموف محقاً في الواقع : فهو لم يكن مذنباً في استهتاره البارد القاسي ، كان يعيش حالة من الصراع النفسي والندم . لم يكن يستطيع أنْ يصغي إلى الناس وهم يتحدثون يومياً ، كيف أنّ فلاناً بَدَّل أحصنته وأثاث منزله ، وآخر بدّل امرأته . . . كما لم يستطع أنْ يستمع لما أحدثته هذه التبديلات من تكاليف وخسائر . . .

كثيراً ما كان يتألم عندما يسمع أنّ رجلاً قد فقد شرفه وكرامته ، وكان يبكي بسبب سقوط مريع لامرأة لا يعرفها ، لكنه كان يصمت خوفاً من الناس . كان لا بد من اكتشاف ذلك كله : وقد استطاعت أولغا أنْ تكتشف ذلك .

يسخر الرجال من أمثال هؤلاء الناس ، غريبي الأطوار ، لكن النساء سرعان ما يتعرفن عليهم ؛ فالنساء الطاهرات العفيفات يبدين لهم الحب والعطف ، بينما تنشد النساء الخاطئات التقرب منهم ، كي يتطهرن من الفساد .

الصيف يمضي وينصرم . الأصباح والأمسيات أصبحت مظلمة رطبة ، ولم تكن أشجار الليلاك هي التي ذبلت فحسب ، بل أشجار الزيزفون أيضاً . كان أبلوموف وأولغا يلتقيان يومياً .

أدرك أبلوموف معنى الحياة ، وسار في ركابها ، أي أنه استوعب من جديد ، كل ما كان قد عجز عن استيعابه فيما مضى ، أصبح يعرف لماذا غادر السفير الفرنسي روما ، ولماذا أرسل الإنكليز سفنهم وجيوشهم إلى الشرق ، أصبح يهتم بشق طريق أو ترعة في ألمانيا أو فرنسا . لكنه لم يفكر أو يهتم بالطريق ، التي ستربط أبلوموفكا بالمدينة ، ولم يذهب إلى غرفة الزراعة ، ولم يرسل جواباً رداً على رسائل شتولتس .

استوعب فقط ، ما كان يدور من أحاديث يومية في منزل أولغا ، وما كان ينقل عن الصحف ، التي ترد إلى هناك ، كما كان يتابع بنشاط وجدية بفضل إصرار أولغا وإلحاحها ، الآداب الأجنبية ، أما ما تبقى لديه من اهتمام ، فقد كان مستغرقاً في حبه الطاهر .

على الرغم من التبدلات المتكررة في هذا الجو الوردي ، فقد كان الصفاء هو القاعدة الأساسية الراسخة . وعندما تتفكر أولغا بأبلوموف وبحبها له ، وعندما تشعر أن هنالك حيزاً من قلبها لم يشغله الحب بعد ،

وانها لم تَلْقَ على أسئلتها جميعاً ، جواباً كاملاً جاهزاً لدى أبلوموف ، وعندما تحس بأنّ إرادة إيليا لا تزال صامتة خامدة ، لا تستجيب لنداء إرادتها ومشيئتها ، وعندما يجيب على حيويتها وولعها بالحياة ، بنظرة جامدة شغوفة فقط ، – فإنها كانت تستغرق في تأملٍ مضنٍ ، وتشعر بأنّ شيئاً ما بارداً يدبّ في قلبها كالأفعى ، فيوقظها من الحلم ، ويتحول عالم الحب الرائع الدافىء إلى يوم خريفي باهت ، تبدو الأشياء كلها فيه بلون رمادي .

إنها تبحث متسائلة : ما هو سبب عدم اكتمال سعادتنا وارتياحنا ؟ ما الذي يعتور هذه السعادة ؟ ماذا يلزمها أيضاً ؟ هل قدري أنْ أحبَّ أبلوموف ؟ فهذا الحب يجد مبرراً له في وداعة أبلوموف وإيمانه الخالص بالخير ، كما يجد مبرراً له أكثر من أي شيء آخر ، في رقته وحنانه ، التي لم تر مثلهما قط في عيني رجل .

وإذا ما أرادت أنْ تهجر هذا الحب في نهاية المطاف ، فكيف ستفعل ذلك ؟ لكن ما حدث قد حدث . فها هي قد أحبّتْ ، إذ يستحيل عليها أنْ تبدّل الحب وتغيّره وفق مشيئتها كما تنزع وتبدّل ثوباً . « فالمرء لا يحب مرتين في حياته – تفكرت أولغا – ، فهذا يعتبر منافياً للأخلاق . . . . » .

هكذا تعلمت أولغا الحب وخبرته . كانت تذرف الدمعة وتصدر البسمة مع كل خطوة تخطوها وهي تفكّر به ، أما ملامح وجهها فكانت تبدو بعد ذلك مركزة ، ممعنة في التفكير ، فتختفي وراءها الدمعة والبسمة ، الأمر الذي أخاف أبلوموف كثيراً .

لكنها لم تلمح لأبلوموف بأفكارها هذه ، ولا بالصراع النفسي الذي كان يعتمل في داخلها .

لم يتعلم أبلوموف الحب ، فقد كان مستغرقاً في غفوته الحلوة العذبة ، التي حلم بها يوماً أمام شتولتس بصوت مسموع . بدأ يثق أحياناً بصفاء الحياة الدائم ، وتراءت له أبلوموفكا من جديد ، آهلة بوجوه طيبة صادقة خالية من الهموم ، كما تخيل نفسه جالساً على الشرفة ، وهو يتأمل السعادة العارمة ، التي كان يحس بها .

فهو يسترسل الآن في تأمله أحياناً ، حتى أنه نام مرتين في الحديقة العامة عندما كان ينتظر قدوم أولغا الذي طال ، لكنه لم يخبرها بذلك ....

ذات مرة ، كانا عائدين من مكان ما بتكاسل وصمت ، فما إنْ شرعا باجتياز الطريق الرئيسية ، حتى واجهتهما سحابة من الغبار . كانت عربة مسرعة تنطلق وسط تلك السحابة ، حيث كان يجاس فيها سونيشكا وزوجها ، بالإضافة إلى سيد آخر وسيدة أخرى أيضاً . . .

— أولغا ! أولغا ! أولغا سيرغييفنا ! — تعالت أصوات .

توقفت العربة . خرج كل السادة والسيدات منها ، فأحاطوا بأولغا وأخذوا يسلمون عليها ، ويتحدثون إليها . مضى وقت طويل ، دون أن يلفت أبلوموف انتباههم . بعد ذلك نظر الجميع فجأة إليه .

— من هذا ؟ — سألت سونتيشكا بصوت خافت .

— إيليا إيليتش أبلوموف ! — قالت أولغا .

توجه الجميع إلى البيت سيراً على الأقدام ، بينما بدا أبلوموف

منزعجاً ؛ تباطأ في مشيته وتخلّف عن الجميع ، وَهَمَّ باجتياز سياج من الأغصان المجدولة ، كي يذهب إلى بيته خلسة ، عبر حقل الجوداو الحريفي ، لكن أولغا أرجعته بنظرة منها .

ربّما كان يستطيع أنْ يتحمّل هذا الموقف ، لولا تلك النظرة الغريبة ، التي كان يوجهها إليه هؤلاء السادة والسيدات ، وربما كان باستطاعته أنْ يتحمّل أيضاً حتى تلك النظرة الغريبة . فقد كان يحدث سابقاً ، أن ينظر إليه الناس باستغراب أيضاً ، بسبب نظرته الفاترة ، الذابلة الباعثة على الملل ، وبسبب قلة اكتراثه في هندامه .

بيد أنّ ما لم يستطع تحمله ، هو ان هؤلاء السادة والسيدات كانوا ينقلون نظراتهم الغريبة تلك منه إلى أولغا . فقد أثارت نظرة التساؤل المريبة تلك هبوطاً في نفسه ، فشعر بألم وعذاب لم يستطع تحملهما ، فما كان منه إلاّ أنْ انصرف إلى البيت متأملاً حزيناً .

في اليوم التالي ، لم تستطع أولغا أن تزيل حزنه وتبهجه من خلال هذرها اللطيف العذب ومداعبتها الرقيقة . سبّبتْ أسئلتها اللجوجة ألماً في رأسه ، الأمر الذي تطلّب منه أنْ يشتري كولونيا بقيمة سبعين كوبيكاً ، ليصبّها على رأسه .

في اليوم الثالث ، بعد أنْ عادا إلى البيت في وقت متأخر ، نظرت العمة إليهما بذكاء خارق ، خاصة إليه ، ثم أسبلت أجفانها الكبيرة المتورمة قليلاً ، بينما ظلت عيناها تنظران عبر الجفون وهي تشم رائحة الكحول .

كان أبلوموف يتألم ، لكنه ظل صامتاً . بيد أنه لم يكاشف أولغا بمخاوفه ، خشية أنْ يزعجها ويقلقها ، لكنْ للإنصاف نقول ، بأنه كان يخشى على نفسه أيضاً ، فقد كان يخاف أن يعكر صفو عالمه الهادىء سؤال يتسم بخطورة كبيرة .

لم يعد السؤال متعلقاً بمعرفة إنْ كان حبها لأبلوموف خطأً ، بل تجاوز ذلك بكثير . السؤال الآن : هل يعتبر حبهما كله ، لا حبها فقط ، هل تعتبر لقاءاتهما في الغابة على انفراد ، التي كانت تستمر أحياناً حتى ساعة متأخرة من الليل ، — هل يعتبر ذلك كله خطأً ؟

« لقد تطاولت عليها عندما أردت أنْ أقبّلها ، — فكّر برعب — فهذا يعتبر جريمة جنائية في القانون الأخلاقي ، ذات أهمية استثنائية ، مع أنها ليست الأولى ! فقبلها كانت هنالك ممارسات تدريجية عديدة : المصافحة بالأيدي ، الإعتراف ، الرسالة . . . بيد أنّ مقاصدي كانت نبيلة ، — تَفَكّرَ أبلوموف وهو يرفع رأسه ، — فأنا . . . »

اختفت السحابة فجأة ، فتبدّت أمامه أبلوموفكا كما لو أنها في عيد ، زاهية برّاقة ، أشعة الشمس تغمر هضابها الخضراء ونهرها الفضي ؛ تخيّل نفسه وهو يسير مع أولغا في ممر الحديقة الطويل ، ممسكاً بخصرها ، متأملاً ، فيجلس معها تحت العريشة ، على الشرفة . . .

يحني الجميع رؤوسهم إعجاباً بها وإكراماً لها وهي تمر على مقربة منهم ، — باختصار ، تخيّل أبلوموف كل ما قاله لشتولتس .

« أجل ، أجل ، كان يجب أنْ أبدأ بهذا ! — تَفَكّرَ أبلوموف

من جديد ، وقد انتابه الخوف — فكلمة أحبك ، التي رددتها أولغا ثلاث مرات ، وغصن الليلاك ، واعترافها بالحب ، — كل هذا هو ضمانة لسعادتنا مدى الحياة ، ضمانة لا حاجة لتكرارها بالنسبة لامرأة طاهرة . ماذا جرى لي ؟ من أكون ؟ » — بدأت هذه التساؤلات تدق رأسه كالمطرقة .

« إنني غاوٍ ، زير نساء ! فلا ينقصني إلا أنْ أضع زهرة في عروة معطفي ، كي أصبح زير نساء محترف ذا نظرات معسولة وخداع مبطّن ، يهمس في أذن صديقه قائلاً : لقد أحرزت النصر . . . آه ، آه يا إلهي إلى أين وصلت بي الأمور ! تلك هي الهاوية ! فأولغا لن تطير عالياً فوقها ، بل ستكون في القاع . . . لماذا ، لماذا . . . »

خارت قواه ، أخذ يبكي كالطفل ، لأنّ ألوان الحياة الزاهية قد شحبت فجأة ، لأنّ أولغا ستكون ضحية . فحبّه كله كان جريمة ، وتأنيب ضمير .

لكنّ ذهنه القلق ما لبث أنْ صحا بعد ذلك لحظة ، عندما أدرك أبلوموف ، أنه يوجد حل طبيعي مشروع لهذا كله : هو أنْ يطلب الزواج من أولغا .

— أجلٍ ، أجل ، — كان يتكلم برعشة من الفرح ، — وسيكون جوابها نظرة موافقةٍ خجولة . فهي لن تنبس بكلمة ، بل ستتهيّج وتبتسم من الأعماق ، ثم تمتلىء نظرتها بعد ذلك بالدموع . . . .

الدموع والإبتسامة ، اليد الممدودة بصمت ، والفرح اللعوب العارم ، والرشاقة في الحركات المليئة بالسعادة ، ثم الحديث الطويل الطويل والهمسات على انفراد ، الهمسات الصادقة النابعة من الأعماق لروحين ، والإقتناع والميل الداخلي الخفي ، كلّ هذا سيوحد روحين في روح واحدة !

وفجأة أصبح وجهه صارماً وقوراً .

« أجل ، — أسرّ إلى نفسه — هنا يكمن عالم السعادة الراسخة النبيلة المخلصة ! حقاً إنه لأمر مخجل أنْ أخفي حتى الآن هذه الأزهار ، أنْ أخفي شذى الحب بحثاً عن لقاءات ، وأنا أسير كالطفل ، تحت ضوء القمر مصغياً إلى نبضات قلب شابة ، لأقف على خلجات أحلامها . . . يا إلهي ! » . . .

احمرّ من شدة الخجل .

« ستعرف أولغا مساء هذا اليوم ، كم هي صارمة الواجبات التي يفرضها الحب ، وسيكون لقاؤنا اليوم آخر لقاءٍ لنا على انفراد ، فاليوم . . . »

وضع يده على قلبه : فوجده يخفق بقوة ، لكنْ بانتظام ، كما يخفق لدى الناس المخلصين الشرفاء . اضطرب من جديد ، لأنّ أولغا ستحزن في البداية ، عندما سيقول لها بأنْ لا ضرورة للقائهما ، ثم يعلن بعد ذلك لها عن قصده ونيته ، بعد أنْ يكون قد استشفّ مسبقاً أفكارها ، وارتوى من ارتباكها وعندئذ . . .

حلم بعد ذلك بموافقتها الخجولة وبرؤية ابتسامتها ودموعها ويدها الممدودة بصمت ، حلم بهمسهما الخفي الطويل ، وبقبلات الوجد الصادق .

— ١٢ —

أسرع يبحث عن أولغا . سأل عنها في المنزل فأجيب بأنها خرجت ؛ ذهب إلى القرية — لكنه لم يعثر عليها . رآها من بعيد كالملاك الذي يعرج إلى السماء ، وهي تصعد إلى الهضبة ، برشاقة وخفة لا مثيل لهما ، بقامتها الممشوقة المتمايلة .

انطلق وراءها ، لكنها بدت في الحقيقة وكأنها تطير دون أن تلامس العشب . وما أن بلغ منتصف الهضبة حتى أخذ يناديها .

انتظرته ، لكن ما إنْ أصبح على بعد فرسخين منها ، حتى تحرّكت من جديد تاركة مسافة كبيرة بينه وبينها ، ثم توقفت بعد ذلك وضحكت .

توقفت في نهاية المطاف ، وكله ثقة بأنها لن تبتعد عنه . وركضت بضع خطوات نحوه ؛ فمدّت له يدها وهي تضحك ، ثم سحبته وراءها .

دخلا دغلة الأشجار الكثيفة : نزع قبعته ، بينما راحت تمسح وجهه بمنديلها وتروّح وجهه بمظلتها . كانت أولغا بالغة الحيوية والنشاط ، كثيرة الكلام والحركة ، رائعة ، لكنها ما لبثت أنْ استغرقت في تأملها فجأة .

– أتعرف ، ماذا فعلت البارحة ؟ – سألت أولغا وهما يجلسان في الظل .

– كنت تقرأين ؟

– هزت رأسها بالنفي .

– تكتبين ؟

– كلا .

– تغنّين ؟

– كلا . كنت أفتح البخت ! – قالت أولغا – كانت كبيرة خدم الكونت عندنا البارحة ؛ إنها تجيد قراءة البخت بواسطة ورق اللعب ، فرجوتها أنْ تفعل ذلك .

– ماذا قالت ؟

– لا شيء . قالت أنّ هناك طريق ، يوجد عليها حشد من الناس ؛ وفي كل مكان يظهر شاب أشقر . . . كم كان خجلي شديداً ؛ عندما قالت بحضور كاتيا ، أنّ شاباً يفكر بي باستمرار ، وعندما أرادت أنْ تقول لي بأيّ شاب أفكر ؛ خلطت الورق وهربت . هل تفكر بي ؟- سألت أولغا فجأة .

– آه ، – قال أبلوموف – ليتني أستطيع أنْ أخفف بعض الشيء من تفكيري بك !

– وأنا ! – قالت أولغا بتأمل . – لا أستطيع أنْ أعيش بعيدة عنك . أتذكر عندما زعلت مني في الأسبوع الفائت وانقطعت يومين

عني ! تغيرت فجأة وأصبحت غاضبة ، شريرة . كنت أتشاجر مع كاتيا ، كما تتشاجر أنت مع زاخار ؛ كنت أراها وهي تبكي بصوت خافت ، لكنني لم أكن أشفق عليها . لم أكن أجيب عمتي . ولم أكن أصغي إلى ما تقوله ؛ لم أكن أفعل شيئاً ولا أريد الذهاب إلى أي مكان . لكنك ما إنْ أتيت . حتى أصبحت إنسانة أخرى تماماً . لقد أهديت كاتيا فستاناً بنفسجياً . . .

— إنه الحب ! — قال أبلوموف بحماس .

— ماذا ؟ تعني الفستان البنفسجي ؟

— أعني كل شيء ! إنني أتعرّف على نفسي من خلال كلماتك : فلا أستطيع أن أحيا بدونك يوماً واحداً . كنت أحلم في الليالي فأرى وديااً مزهرة . كنت أراك ، فأصبح نشيطاً طيباً . كلا ، كنت أشعر بالضجر والكسل عندما لا أراك ؛ فقد كانت رغبة واحدة تتملكني ، هي أنْ أستلقي دون أنْ أفكر بشيء . . . كنت أسرّ لنفسي : أحِبْ ، ولا تخجل من حبك . . .

صمت أبلوموف فجأة . « ما هذا الذي أقول ؟ ليس من أجل ذلك أتيت ! » — تفكر أبلوموف وأخذ يتنحنح ، ثم قطب حاجبيه .

— ماذا سيحصل إذا ما متُّ فجأة ؟ — سألت أولغا .

— يا لها من فكرة غريبة مرعبة ! — أجاب أبلوموف بعدم اكتراث .

— أجل . — قالت أولغا — قد أُصاب بنزلة صدرية . فتصيبني الحمى . تأتي إلى هنا فلا تراني ؛ تذهب إلى بيتنا فيقولون لك : إنها

مريضة ؛ تأتي في اليوم التالي فتلقى الجواب ذاته ؛ تنظر إلى نوافذ حجرتي فتراها مغلقة ؛ الطبيب يهز رأسه بأسى ، بينما تخرج إليك كاتيا والدموع في عينيها ، فتهمس في أذنك : إنها مريضة ، إنها تنازع . . .

آه ! . . . . — قال أبلوموف فجأة .

أخذت أولغا تضحك .

— ماذا سيحلّ بك عندئذ ؟ — سألت أولغا وهي تنظر إلى وجهه .

— ماذا ؟ سأفقد عقلي ، أو سأنتحر . لنفترض أنك قد تماثلت للشفاء بعد ذلك .

— كلا ، كلا ، كف عن مثل هذا التصور ! — قالت أولغا بهلع . — لقد ذهبنا بعيداً في تصوراتنا ! كل ما أريده منك ، هو ألا تأتي إليّ ميتاً : فأنا أخشى الأموات . . .

أخذ أبلوموف يضحك ، وكذلك فعلت أولغا .

— يا إلهي ، كم نحن أطفال ! — قالت أولغا بعد أنْ ثابت إلى رشدها من هذه الثرثرة .

أخذ أبلوموف يتنحنح من جديد .

— اسمعي . . . كنت أريد أنْ أقول .

— ماذا كنت تريد أن تقول ؟ — سألت أولغا بحيولة وهي تلتفت إليه .

— صمت أبلوموف وقد بدا عليه الخوف .

— هيا ، تكلم ، — قالت أولغا وهي تلمسه برفق من طرف كمّه .

ـ لا شيء . . . . ـ قال أبلوموف وقد استولى عليه الخجل .
كلا يوجد شيء ما في ذهنك .
ظل أبلوموف صامتاً .
ـ إذا كان ما ستقوله مرعباً مقلقاً ، فمن الأفضل ألاّ تبوح به ، ـ قالت أولغا . ـ كلا ، قل ! ـ أضافت من جديد ، وبشكل مفاجىء .
ـ لا يوجد شيء ، مجرّد هراء .
ـ كلا ، كلا ، فلديك ما تقوله ، هيا تكلم ! ـ ألحّت أولغا ، وهي تمسك به من جانبي سترته . أصبحت أولغا قريبة منه جداً ، وهي تمسك به ، لدرجة أنه كان يتوجّب عليه أنْ يدير وجهه إما يميناً ، أو يساراً ، كي لا يقبّلها .
كان بودّه ألاّ يدير وجهه ، لكنّ كلمة « أبداً » المرعبة كانت ما تزال تدوّي في أذنيه .
ـ تكلم ! . . . ـ ألحّت أولغا .
ـ لا أستطيع . ليس ضرورياً . . . ـ قال أبلوموف متذرعاً .
ـ ألست أنت الذي كنت تقول ، بأن « الثقة هي أساس السعادة المتبادلة » ، وبأنه « لا يجوز أنْ يبقى شيء خافياً في قلب أحدنا بالنسبة للآخر » . أين هي كلماتك تلك ؟
ـ كنت أريد أنْ أقول ، ـ بدأ كلامه ببطء ، ـ بأنني أحبك ، أحبك لدرجة . . .
ثم أخذ يتباطأ ويكرر .

ــ أتنمّم ــ قالت بنفاذ صبر .

ــ أحبك ، أحبك لدرجة أنك إذا ما أحببت . الآن ، شخصاً آخر ، يستطيع أنْ يجعلك سعيدة أكثر مني ، فإني سأكون على استعداد . . لأنْ أتجرّع تعاستي ومصيبتي بصمت ، وأخلي له المكان .

تركت سترته فجأة ثم أسبلت يديها .

ــ لماذا ؟ ــ سألت بدهشة . ــ فأنا لا أفهم ذلك . إنني لن أتخلى عنك لأية امرأة أخرى ، فأنا لا أريدك أنْ تكون سعيداً مع امرأة أخرى . ما أغرب كلامك ، فأنا لا أفهمه .

أخذت أولغا تتأمل بنظراتها الأشجار متفكرة .

ــ إذن ، فأنت لا تحبني ؟ ــ سألت أولغا بعد ذلك .

ــ على العكس ، فأنا أحبك حتى التضحية ، إنني على استعداد لأنْ أفديك بنفسي .

ــ من أجل ماذا ؟ من يطلب منك ذلك ؟

ــ ما قلته ، هو أنني أبديت استعدادي لأنْ أنسحب من حياتك إذا ما أحببت شخصاً آخر .

ــ **شخصاً آخر ! هل جننت ؟ كيف يمكنني أنْ أحب شخصاً** آخر ، ما دمت أحبك ، أيمكنك أنْ تحب امرأة أخرى ؟

ــ يا إلهي ، ماذا تقولين ؟ لا أستطيع أنْ أحيا بدونك . ليس هذا ما كنت أريد أنْ أقوله مطلقاً . . .

ــ ماذا كنت تريد أنْ تقول ؟

ـــ كنت أريد أن أقول ، بأنني مذنب تجاهلك ، مذنب منذ زمن بعيد . . .

ـــ في أي شيء ؟ وكيف ؟ ـــ سألت أولغا ـــ لا تحبني ؟ ربما كنت تمزح في حبي ؟ تكلم بسرعة !

ـــ كلا ، كلا ، ليس هذا مطلقاً ! ـــ قال أبلوموف بكآبة . ـــ المسأله هي أننا ـــ بدأ أبلوموف حديثه متردّداً ـــ نتقابل . . . خلسة . . .

ـــ خلسة ! لماذا خلسة ؟ فأنا أخبر عمتي في كل مرة نتقابل فيها تقريباً ، بأنني رأيتك . . .

ـــ في كل مرة ؟ ـــ سأل باضطراب .

ـــ وما هو وجه السوء في ذلك ؟

ـــ أنا المذنب : كان يجب عليّ أن أقول لك منذ زمن بعيد ، بأنّ هذا . . . لا يجوز . . .

ـــ لقد قلت ذلك ، ـــ قالت أولغا .

ـــ قلت ؟ حقاً ، لقد المحت إلى ذلك . . . إذن ، لقد قمت بواجبي . اصبح نشطاً ، سعيداً ، لأن اولغا قد رفعت عن كاهله بيسر عبء المسؤولية .

ـــ وماذا أيضاً ؟ ـــ سألت أولغا .

ـــ هذا كل شيء ، ـــ أجاب أبلوموف .

ـــ ليس صحيحاً ، ـــ لاحظت أولغا بإصرار . ـــ يوجد لديك ما تقوله أيضاً . فأنت لم تبح بكل شيء .

— كنت أفكر . . . — بدأ أبلوموف حديثه ، محاولاً أنْ يضفي على كلماته نبرة غير مبالية ، — بأنه . . .

توقف عن الحديث ، بينما راحت أولغا تنتظر .

— كنت أفكر بأنّ لقاءاتنا يجب أنْ تكون قليلة ، متباعدة . . . — نظر إليها أبلوموف بحياء .

صمتت أولغا .

— لماذا ؟ سألت بعد ذلك وهي تفكر .

— ضميري يؤنبني . . . فبقاؤنا على انفراد ، مدة طويلة ، يجعلني مضطرباً ، كما يخيل إليّ أحياناً ، بأنّ قلبي ينقطع عن الخفقان ، وأنت أيضاً لا تكونين هادئة . . . فأنا أخشى . . . — أتمم بصعوبة .

— ماذا تخشى ؟

— أنت شابة . لا تدركين بعد كل المخاطر يا أولغا . فالمرء لا يستطيع أنْ يتحكّم ويسيطر على نفسه أحياناً ، فتستيقظ في أعماقه قوة شيطانية ، ويغشى الظلام قلبه ، ويتطاير من عينيه الشرر . فصفاء العقل يغيب ، ويحلّ الظلام مكان الضياء ؛ ويختفي احترام الطهارة والعفة أمام قوة الإعصار ، فيفقد المرء رشده ، وتسيطر عليه الشهوة ، ويصبح عاجزاً عن التحكم بنفسه — وعندها تنفتح الهوّة تحت أقدامه .

حتّى انه ارتعش .

— وماذا في الأمر ؟ فلتنفتح الهوة ! — قالت أولغا وهي تنظر إليه بملء عينيها .

صمت أبلوموف ، فقد تردّد بين أنْ يتابع أو يمتنع ، لكنه ندم على ما قاله .

نظرت إليه أولغا طويلاً ، كأنها كانت تقرأ في ثنايا جبينه سطوراً مكتوبة . فاستذكرت كل كلمة قالها ، واستعرضت في ذهنها قصة حبها كلها ، فوصلت بها مخيلتها إلى تلك الأمسية المظلمة ، التي أمضتها معه في الحديقة ، ثم احمرت فجأة .

ـ أية حماقات تقول ! ـ لاحظت أولغا بسرعة وهي تنظر جانباً . ـ فأنا لم أر أي شرر في عينيك . . . إنك تنظر إليّ أغلب الوقت كما تنظر إلى مربيتي كوز مينتشينا ! ـ قالت مضيفةً ثم أخذت تضحك .

ـ إنك تمزحين يا أولغا ، أما أنا فإنني أتكلم بجدّية . . . فأنا لم أكمل حديثي بعد .

ـ ماذا عندك أيضاً ؟ ـ سألت أولغا ـ أية هوة هناك ؟

ـ تنهد أبلوموف .

ـ أقول لك ، انه لا يجوز أنْ نتقابل على انفراد . . .

ـ لماذا ؟

ـ ليس حسناً . . .

استرسلت أولغا في التفكير .

ـ أجل ، يقولون أن هذا ليس حسناً ، ـ قالت أولغا متفكرة ، ـ لماذا ؟

ــ ماذا سيقولون . عندما يعرف الناس وتنتشر الإشاعات .

ــ من ذا الذي سيقول ؟ ليس لديّ أم : فهي الوحيدة ، التي كان يمكنها أنْ تسألني عن سبب لقائي بك ، وأمامها فقط ، ربما كنت سأبكي مجيبة ، بأنني لا أفعل شيئاً سيئاً ، وكذلك أنت . لا بدّ أنها كانت ستصدقني . هل توجد امرأة أخرى يمكن أنْ تسألني عن ذلك ؟ ــ سألت أولغا .

ــ عمتك ، ــ قال أبلوموف .

ــ عمتي ؟

أخذت أولغا تهز رأسها بأسى ، مبدية علامة النفي .

ــ إنها لن تسألني أبداً . فهي لن تسأل عني ، حتى لو غادرتها إلى الأبد ، كما إنني لن أجيء إليها لأقول أين كنت ، وماذا فعلت . من يوجد غيرها أيضاً ؟

ــ الآخرون جميعاً . . . فلقد نظرت إلينا سونيتشكا ناميدني وهي تبتسم ، وكذلك فعل أيضاً من كان يرافقها من السادة والسيدات .

ثم حدثها عن الشعور بالقلق ، الذي انتابه منذ ذلك الوقت .

ــ كنت أستطيع أنْ أحتمل عندما كانت تنظر إليّ فقط ، ــ أضاف أبلوموف ــ فأمري لا يهم ، لكن عندما أخذت ترمقك أنت بنظراتها ، لم أعد أستطيع عندها أنْ أقوى على المواجهة . . .

ــ وماذا في الأمر ؟ . . . ــ سألت أولغا ببرود .

ــ منذ ذلك الوقت وأنا أتعذب ليلاً ونهاراً ، وأتفكر كيف

سأبوح لك بالأمر : كنت مهتماً كثيراً ألاّ أزعجك . . . وكنت أريد التحدث إليك منذ زمن طويل . . .

— اهتمام في غير محله ! — قالت أولغا معترضة . — كنت أعرف ذلك بدونك .

— كيف عرفت ؟ — سأل أبلوموف بدهشة .

— عرفت ببساطة . فقد تحدثت إليّ سونيتشكا ، واستفهمت مني ، حتى أنها وجّهتْ إليّ النصيحة حول كيفية التعامل معك . . .

— (معاتباً) لكنك لم تقولي لي كلمة واحدة عن هذا الأمر .

— وأنت أيضاً لم تقل لي حتى الآن شيئاً عن اهتمامك وانشغالك بالأمر .

— ماذا كان جوابك لها ؟ — سأل أبلوموف .

— لا شيء ! وماذا كنت أستطيع أن أجيبها ؟ علت الحمرة وجهي فقط .

— (بهلع) يا إلهي ! إلى هذا الحد وصلت بك الأمور : تحمرّين خجلاً !

ما أقل حذرنا ! ماذا سيترتب على ذلك ؟

نظر إليها نظرة متسائلة .

— لا أعرف ، — أجابت باقتضاب .

فكر أبلوموف بأنْ يهدأ ويشاطر أولغا انشغالها ، ويستمد من عينيها ، ومن وضوح حديثها قوة الإرادة ، لكنه أحس فجأة بأنّ عزيمته قد خارت ، بعد أنْ أعياه العثور على جوابٍ حاسم حقيقي .

علت وجهه غشاوة من التردد والحيرة ، بينما كانت نظرته الحزينة تطوف ما حوله . كانت حمى خفيفة تضطرم في داخله ، حتى أنه كاد أنْ ينسى أولغا ، فقد ازدحمت في مخيلته صورة سونيتشكا وزوجها والضيوف المرافقين لهما ، ولم يعد يسمع إلا أصداء أحاديثهم وضحكهم .

ظلّت أولغا صامتة ، خلافاً لما عرف عنها من حضور البديهة في مثل هكذا ظروف ، تنظر إليه ببرود وهي تكرر ببرود أكثر عبارة « لا أعرف » . أما أبلوموف فلم يكلف نفسه عناء التفكير ، أو بالأحرى لم يستطع أنْ يكتشف المعنى الدفين لعبارة « لا أعرف » .

ظل أبلوموف صامتاً . فالفكرة والعزيمة لا يمكنهما أن ينضجا عنده بدون مساعدة من أحد ، شأنهما شأن التفاحة الناضجة ، التي لا تسقط من تلقاء ذاتها أبداً : فلا بد من قطفها .

نظرت أولغا إليه دقائق معدودات ، ثم ارتدت طرحتها وأخذت خمارها ووضعته بتمهل على رأسها وأمسكت مظلتها بيدها .

— إلى أين ؟ ما زال الوقت باكراً جداً ! — سأل أبلوموف ، بعد أنْ ثاب إلى رشده فجأة .

— كلا ، فالوقت أصبح متأخراً . لقد قلت الحقيقة ، — قالت بتأمل حزين ، ها قد وصلنا إلى مأزق لا مخرج منه : فيجب أنْ نفترق سريعاً ونمحو آثار الماضي . وداعاً ! — أضافت بجفاء ومرارة ، ثم مضت في طريقها وهي تحني رأسها قليلاً .

ـ رحماك يا أولغا ! لا أقدر على فراقك ! فأنا . . . أولغا !

لم تُصغِ إليه ، بل راحت تسرع في سيرها ، بينما كان الرمل الجاف يصدر صريراً تحت نعل خفّيها .

ـ أولغا سيرغيفنا ! ـ صرخ أبلوموف .

لم تصغِ إليه ، بل ظلّت تتابع سيرها .

ـ أستحلفك بالله أن تعودي ! ـ كان يصرخ بصوت خنقته الدموع . ـ

حتى المجرم يجب أن يُصْغَى إليه . . . يا إلهي ! هل يوجد لديها قلب ؟ . . . آه من النساء !

جلس أبلوموف ثم حجب عينيه بكلتا يديه . لم يعد يسمع وقع خطواتها .

ـ ذَهَبَتْ ! ـ قال بصوت مذعور تقريباً ، ثم رفع رأسه .

كانت أولغا واقفةً أمامه .

أمسك يدها وقد استولى عليه سرور لا حدود له .

ـ لم تذهبي ؟ . . . ـ قال أبلوموف . ـ لا تتركيني : تَذَكّري ، إنني سأصبح في عداد الأموات إذا ما هجرتني .

ـ وإذا لم أتركك ، فإنني سأكون مجرمة ، وستكون أنت مجرماً أيضاً : تَذَكّرْ ذلك يا إيليا .

ـ آه ، كلا . . .

– كيف لا ، وإذا ماكنّا سوية وصادفتنا سونيتشكا وزوجها ، – سيكون هلاكي .

ارتعش أبلوموف .

– اسمعي ، – بدأ بسرعة وهو يتلعثم في كلامه ، – لم أقل بعد كل شيء . . . – ثم توقف عن الكلام .

كل ما بدا له ، وهو في البيت ، بسيطاً ، طبيعياً ، ضرورياً ، واعداً بالبسمة ، باعثاً على السعادة تحوّل فجأةً إلى هاوية ، كان أبلوموف عاجزاً عن تخطّيها ، لأنها كانت تتطلّب خطوة حاسمة جريئة .

– شخصٌ ما قادم ! – قالت أولغا .

كان يُسْمَع وقع أقدام على الطريق الجانبية .

– أليس هي سونيتشكا ؟ – سأل أبلوموف وقد تجمّدت عيناه من الهلع .

مر ثلاثة غرباء ، رجلان وسيدة ، فارتاح قلب أبلوموف وهدأ روعه.

– أولغا ، – بدأ أبلوموف بعجلة ثم أمسك يدها ، – فلنذهب إلى هناك ، حيث لا يوجد أحد . ثم ذهبا إلى المكان المقصود .

أجلسها على المقعد الخشبي ، بينما جلس أبلوموف بالقرب منها على العشب .

– لقد غضبت وذهبت ، قبل أنْ أكمل ما أنا عازم على قوله يا أولغا . – قال أبلوموف .

– وسأذهب ثانية ولن أعود بعدها ، إذا ما فكرت بإثارة أعصابي

ومشاعري ،ـ قالت أولغا ـ لقد أعجبتك وأمتعتك ذات مرة دموعي ، ولربما تريد أنْ تراني الآن جاثية عند قدميك ، ثم تستدرجني خطوة إثر خطوة كي أصبح عبدةً لك ، فتعبث بعواطفي وتتلو على مسامعي محاضرات في الأخلاق ، ثم تبكي بعدها وتخاف وتخيفني ، وتسألني بعد ذلك : ماذا يجب أن تفعل ، تَذَكّرْ يا إيليا إيلييتش ، ـ أضافت فجأة بكبرياء وهي تنهض من على المقعد ، ـ بأنني قد كبرت كثيراً منذ ذلك الوقت ، الذي تعرفت فيه عليك ، وأعرف جيداً ماذا يسمى العبث الذي تخوض غماره . . . لكنك لن ترى دموعي بعد الآن أبداً . . .

ـ آه ، قسماً إنني لا أعبث بمشاعرك ! ـ قال أبلوموف بإصرار .

ـ هذا من سوء حظك ، ـ لاحظت أولغا بجفاء . ـ سأردّ على كل مخاوفك وتحذيراتك وألغازك بشيء واحد : حتّى هذا اللقاء كنت أحبك ، ولم أكن أعرف ما يجب عليّ أن أفعل ، أما الآن ، فأصبحت أعرف جيداً ، ـ ختمت كلامها وهي تتهيأ للإنصراف ،ـ انني لن أتبادل الرأي معك فيما يجب عليّ عمله .

ـ وأنا أعرف ، ـ قال أبلوموف وهو يمسك بيدها ويجلسها على المقعد ، ثم صمت برهة كي يستعيد همته .

ـ تصوري ، ـ بدأ أبلوموف ، ـ إنّ قلبي مفعم برغبة واحدة فقط ، ورأسي بفكرة واحدة أيضاً ، لكنّ إرادتي ولساني لا يمتثلان لي. فأنا أريد أنْ أتكلم ، لكن الكلمات لا تخرج من لساني . أرأيت يا أولغا ، كيف . . . ساعديني .

ـ لا أعرف ماذا يوجد في ذهنكم . . .

ـ أستحلفك بالله ألاّ تخاطبيني بضمير أنتم : فنظرتك المتشامخة المتكبرة تقتلني ، وكل كلمة من كلماتك تجمّدني كالصقيع

أخذت أولغا تضحك .

ـ أنت مجنون ! ـ قالت وهي تضع يدها على رأسه .

ـ ها قد حصلت على موهبة التفكير والتعبير بالكلمات ! ، أولغا ، إني أطلب يدك ، كوني زوجتي ، ـ قال أبلوموف وهو يجثو أمامها على ركبتيه . . .

صمتت أولغا ثم استدارت إلى الجهة المعاكسة .

ـ أعطني يدك يا أولغا !

لم تمد له أولغا يدها . أخذها بنفسه ووضعها على شفتيه ، لكن أولغا لم تسحبها . كانت يدها دافئة ، طرية ، ناعمة وندية بعض الشيء .

حاول أبلوموف أن ينظر إلى وجهها ، لكنها كانت تحوّله عنه .

ـ ما معنى صمتك هذا ؟ ـ قال بقلق وبتساؤل . وهو يقبّل يدها .

ـ علامة الموافقة ! ـ أكملت أولغا ، وهي لا تزال تتفادى النظر إليه .

ـ ما هو شعورك الآن ؟ بماذا تفكرين ؟ ـ سأل أبلوموف ، وهو يتذكر الصورة التي رسمها لنفسه عن الموافقة الخجولة والدموع .

ـ مثلك تماماً ، ـ أجابت أولغا وهي تنظر إلى مكانٍ ما في الغابة ، بيد أنّ اضطراب صدرها كان يُظهر بأنها تضبط نفسها .

« هل الدموع بادية في عينيها ؟ » ـ تفكر أبلوموف ، لكنه لم

يستطع أنْ يتبيّن حقيقة الأمر . لأنها ما زالت تنظر إلى الأسفل بإصرار .

— هل أنت هادئة . غير مبالية ؟ — قال أبلوموف وهو يحاول أنْ يجذبها بيدها إليه .

— لست غير مبالية ، لكنني هادئة .

— لماذا ؟

— لأنني كنت أتوقع ذلك منذ زمن بعيد ، فلم تفاجئني الفكرة ، لأنني اعتدت عليها .

— منذ زمن بعيد ! — كرر أبلوموف بدهشة .

— أجل ، منذ تلك اللحظة ، التي أعطيتك فيها غصن الليلاك . . .

لم تكمل كلامها .

— منذ تلك اللحظة !

فتح ذراعيه وأراد أنْ يضمها .

— حذار ! . . . فالهاوية قد تنشق ، والشرر قد يتطاير — قالت أولغا بمكر ، وهي تتملص بخفة من بين ذراعيه ، وتبعد يديه عنها بمظلتها .

تَذَكَّرَ كلمة « أبداً » المتوعدة ثم هدأ .

— لكنك لم تقولي لي ذلك مطلقاً ، حتى أنك لم تعبّري عنه . . . — قال أبلوموف .

— لا نملك الحق بأنْ نعبّر عن رغبتنا بالزواج . الآخرون هم الذين يتزوجوننا أو يأخذوننا .

– منذ تلك اللحظة   هل يعقل ذلك ؟ . . . – كرر أبلوموف متفكراً .

– أتعتقد بأنني كنت سأوافق على المجيء معك بمفردي . ونجلس هنا ، في هذه الحديقة ، في الأمسيات ، نتجاذب أطراف الحديث ، لو لم أكن قد فهمتك ووثقت بك ؟ –

قالت أولغا بكبرياء .

– هكذا إذن . . . – بدأ أبلوموف وقد تغيّرت ملامح وجهه ، ثم ترك يدها .

تحركت في أعماقه فكرة غريبة ، فقد رأى كيف كانت تنظر إليه بكبرياء لا حدود له ، وهي تتمالك نفسها بثبات ، في اللحظة التي لم يكن يرغب فيها أو ينشد الكبرياء والعزيمة . كان يرغب بأن يستمتع ولو للحظةٍ واحدة ، بالدموع والشوق والرغبة ونشوة السعادة ، ولتأخذ الحياة بعدها مجراها الهادىء الراسخ ! .

وإذا بآماله وتوقعاته كلها تخيب ، فلا دموع مفاجئة من فرط السعادة ، ولا موافقة خجولة ! فلا سبيل إلى فهم ذلك كله !

استيقظ الشك في قلبه فجأة ، وأخذ يسائل نفسه قائلاً : « أتحبني ، أم أنها تريد أنْ تتزوجني فقط ؟ » .

– لكنه يوجد طريق آخر إلى السعادة ، – قال أبلوموف .

– ما هو ؟ – سألت أولغا .

– الحب لا ينتظر ولا يصبر ولا يحسب حساباً في بعض الأحيان ...

ـ لا أعرف عن أي طريق تتحدث .

ـ أتحدث عن الطريق ، الذي تضحي فيه المرأة بكل شيء : بالهدوء ، والإشاعة ، والإحترام ، لتستعيض عن ذلك كله بالحب . . . فمن أجل الحب تضحي بكل شيء .

ـ هل نحن بحاجة إلى طريق كهذا ؟

ـ كلا .

ـ أتريد أنْ تبحث عبر هذا الطريق عن السعادة على حساب راحتي واحترامي ؟

ـ آه ، كلا ، كلا ! أقسم بالله ، إنني لا أريد ذلك . ـ قال أبلوموف بحرارة .

ـ لماذا تقول ذلك إذن ؟

ـ في الحقيقة ، لا أعرف . . .

ـ أنا أعرف : ألست ترغب بمعرفة إنْ كنت سأضحي براحتي من أجلك وأسير معك على هذا الطريق ؟ أليس هذا صحيحاً ؟

ـ أجل ، يبدو أنك أصبت . . . وماذا في الأمر ؟

ـ لن أفعل هذا أبداً ، مهما كلّف الأمر ! ـ قالت بكبرياء .

استغرق أبلوموف في التفكير ، ثم تنهد بعد ذلك .

ـ أجل ، إنه طريق مرعب رهيب ، يتطلب حباً عظيماً كي تسير عليه المرأة في إثر الرجل متفانية . ألقى عليها نظرة متسائلة ، لكنّ ردّ

فعلها كان بسيطاً للغاية . فقد بَدَتْ فوق حاجبيها ثنية بسيطة تحرَّكَتْ قليلاً ، بينما كان وجهها هادئاً .

ــ تصوّري لو أنّ سونيتشكا ، التي لا تعادل خنصرك جمالاً وأهمية ، لم تتعرّفْ عليك أثناء لقائها بك .

ابتسمت أولغا ، بينما ظلّت نظرتها صافية واضحة ، أما أبلوموف فقد كان راغباً أشدّ الرغبة كي يحصل من أولغا على اعتراف بالإستعداد للتضحية ، يروي ظمأه وشغفه .

ــ تصوّري لو أنّ رجالاً اقتربوا منك ولم يخفضوا أعينهم احتراماً وتقديراً لك ، بل ظلّوا ينظرون إليك والإبتسامة الماكرة الجريئة تعلو وجوههم . . .

ــ لماذا تقول لي هذه الهواجس كلها ؟ ــ قالت أولغا بهدوء . ــ فلن أسلك هذا الطريق أبداً .

ــ أبداً ؟ ــ سأل أبلوموف بأسى .

ــ أبداً ! ــ كرّرت أولغا .

ــ أجل ، فالقوة تنقصك لوضع حدٍّ لحياتك . ربما كنت لا تخشين الموت يا أولغا ، لكنّ الإستعداد له ، وساعات العذاب التي تسبقه ، هو ما لا تستطيعين تحمّله ــ أليس كذلك ؟

كان أبلوموف لا يزال ينظر في عينيها ، ليرى ردّ فعلها .

كانت أولغا تنظر بسرور ، فلوحة الرعب لم تربكها وتعكّر مزاجها . كانت ابتسامة خفيفة تتراقص على شفتيها .

ـ لا أريد أن أموت أو أذبل فيمكنني أن أحبّ أكثر ، دون أن أسلك هذا الطريق . . .

ـ ما السبب الذي يمنعك من السير على هذا الطريق ، ما دمت لا تخافين ؟ . . . . ـ سأل أبلوموف بإصرار وأسى .

ـ لأنّ هذا الطريق يؤدي دائماً . . . إلى الفراق ، ـ قالت أولغا ، ـ وأنا . . . لا أقوى على فراقك ! توقفت أولغا ثم وضعت يدها على كتفه ونظرت إليه طويلاً ، وفجأة رمت مظلتها جانباً ، وأسرعت تعانقه بحرارة وتقبّله ؛ فاضطرمت بعدها ووضعت وجهها على صدره وأضافت بصوت خافت :

ـ أبداً !

أطلق أبلوموف صرخة فرحٍ وسقط على العشب مرمياً على قدميها .

* * *

صدر عن وزارة الثقافة من سلسلة روايات
عالمية حتّى الآن الروايات التالية :

١	— المبارزة	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٢	— مولك	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٣	— ابن لص	روخاس سبوليبيدا	ترجمة : رفعت عطفة
٤	— الغاب	ابتون سينكلير	ترجمة : عبدالكريم ناصيف
٥	— حبة قمح	جيمس انغوجي	ترجمة : عبدالكريم محفوض
٦	— بيدروبارامو	خوان رولفو	ترجمة : صالح علماني
٧	— أنت جريح	ايردال أوز	ترجمة : فاضل جتكر
٨	— لا تقتل عصفوراً ساخراً	هاربر لي	ترجمة : توفيق الأسدي
٩	— نقود لماريا	فالنتين رسبوتين	ترجمة : يوسف حلاق
١٠	— عنف	فستوس ايابي	ترجمة : هاني الراهب
١١	— اطفال منتصف الليل	سلمان رشدي	ترجمة : عبدالكريم ناصيف

٤٠٠٠ ط١ ١٩٨٥/٤/

الرواية العالمية

هذه هي الرواية الثانيه عشره من سلسلة روايات عالمية التي لاقت رواجا كبيرا حيث وصلت نسخها الى اقطار الوطن العربي . ولا عجب ، فالروايه تلعب في القرن العشرين الدور الذي كانت تلعبه الملحمه في العصور القديمة ، نقصد أنها خير تعبير فني ـ وايضا فكري ـ عن طبيعه المرحلة .

وسلسلتنا كشكل ، مع تكامله ، لوحة عن هذه المرحلة تتسم بالاحاطة والعمق .

من الروايات التي هي قيد الطبع :

١٣ ـ المعلم ومرغريت   بولجاكوف
ترجمة : يوسف حلاق

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق - ١٩٨٥

سعر النسخة
٢٣ ل.س.ل